شريف رزق

الأشكال النثر شعرية
في الأدب العربي



شِعريَّةُ النَّثرِ الأشكالُ
في الأدبِ العربيِّ

• مركـز الحـضارة العربيـة مؤسـسة ثقافيـة مـستقلة، تـستهدف المـشاركة فـى اسـتنهاض وتأكيـد الانتمـاء والـوعى القـومى العربـى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل.

• يتطلع مركز الحضارة العربيـة إلى التعـاون والتبـادل الثقـافى والعلمـى مـع مختلـف المؤسـسات الثقافيـة والعلميـة ومراكـز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.

• يـسعى المركـز إلى تـشجيع إنتـاج المفكـرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.

• يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.

• الآراء الواردة فى ما يصدر عن المركز تعبر عن آراء كاتبيهـا، ولا تعـبر بالـضرورة عـن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

رئيس المركز

على عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين – عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات – القاهرة

تليفاكس: 33448368 (00202)

www.alhdara-alarabia.com

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

alhdara_alarabia@hotmail.com

شريف رزق

الأشكالُ النَّثرُشِعريَّة
في الأدبِ العربيِّ

مركز الحضارة العربية

الكتاب: الأشكالُ النَّثرُشِعريَّة
في الأدبِ العَربيِّ

المؤلف: شريف رزق

الناشر: مركز الحضارة العربية

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠١٧

الجمع والصف الإلكترونى: وحدة الحاسوب بالمركز
الإشراف الفنى والجرافيك: محمد النوبي

رقم الإيداع: ٢١٥٩٩ /٢٠١٦
الترقيم الدولي: 7-267-496-977-978

رزق، شريف.
الأشكالُ النَّثرُ شِعريَّة في الأدبِ العربيِّ: شريف رزق.
ط١. - الجيزة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، ٢٠١٦.
١٣٢ ص؛ ٢١ سم.
تدمك: ٧ - ٢٦٧ - ٤٩٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١ـ الشعر العربى ـ تاريخ ـ العصر الحديث.
٢ـ الشعر العربى ـ دواوين وقصائد.
أـ العنوان
٨١١٫٩

«ليعلمْ: [الكاتبُ] أنَّ لفظَهُ أقربُ نسبًا منه مِن ابْنِهِ
وحركتَهُ أمسُّ به رحمًا مِن ولدِه
ولذلكَ تجدُ فتنةَ الرَّجلِ بِشِعْرِهِ
وفتنتَهُ بكلامِهِ وكتبِهِ
فوق فتنتِهِ بجميعِ نِعَمِهِ».

الجَاحِظ.

الحَيَوَان - الجُزْءُ الأوَّل - ص: 89.

الفِهْرِسُ

المُقدِّمَةُ

دَأبَتْ الحَيَاةُ الأَدبيَّةُ على تَقْسيمِ الأَدَبِ إلى قِسْمَيْنِ رَئِيْسييْنِ مُتَقَابِلَيْنِ: شِعرٍ ونَثرٍ، وَمَيَّزَتْ الشِّعرَ بالتزَامِهِ بالأوْزَانِ وَالقَوَافِي، وَالنَّثرَ بعَدَمِ التزَامِهِ بهِمَا، وَرَغْمَ اسْتِقرَارِ هَذَا التَّقسِيْمِ، وَاسْتِمرَارِهِ، فَإنَّنَا نَرَى أنَّ حَرَكَةَ الأَدَبِ العَربِيِّ، عَلى تَاريْخِهَا الطَّويلِ، لَمْ تَشْهَدْ هَذَا الحَسْمَ؛ فَقَدْ جَنَحَ الشِّعرُ إلى السَّرديَّةِ وَالقَصِّ، في أَحْيَانٍ كثيرَةٍ، كَذلكَ فَقَدْ تَشَبَّهَ النَّثرُ بالشِّعرِ في التِزَامِهِ بالقَوَافِي؛ فَالتَزَمَ السَّجعَ، وَتَشَابَهَ النَّوعَانِ الأَدَبيَّانِ كَثِيْرًا في اعْتِمَادِهِمَا على إبْدَاعيَّةِ التَّشكِيْلِ اللغَويِّ وَالتَّخييْلِ، وَبَعْضُ الأَدَبَاءِ أَبْدَعُوا في النَّوعيْنِ الأَسَاسِيَّينِ مَعًا؛ اسْتِنَادًا إلى أدَائيَّةٍ إبْدَاعيَّةٍ وَاحِدَةٍ، كَمَا نَجِدُ في إبْدَاعَاتِ مُبْدعِي القَرْنِ الرَّابِعِ الهِجْرِيِّ؛ كَبَدِيْعِ الزَّمَانِ الهَمَذَانِيِّ وَالخُوارِزْمِيِّ، وَسِوَاهُمَا، نَظْمًا وَتَرَسُلاً.

وَقَدْ ظَلَّ هَذَانِ النَّوعَانِ الأَسَاسِيَّانِ يَتَدَخَلانِ وَيَتَوَاشَجَانِ؛ وَبِخَاصةٍ حِيْنَ بَدَأ الشِّعرُ يَتَخَلَّصُ، تَدْريجِيًا، مِنْ مَنْهَجِهِ المُوسِيقيِّ القَديْمِ؛ فَيُسْقِطُ القَافيةَ ثُمَّ الوَزْنَ، أيْضاً، وَيَعْتَمدُ السَّرديَّةَ، وَيَتَخَفَّفُ مِنْ المَجَازِ اللغَويِّ، كَمَا تَوَسَّعَ النَّثرُ في قِيَمٍ شِعريَّةٍ خَالِصَةٍ؛ كَالتَّكثِيْفِ وَالإيْقَاعِ، وَالتَّخييْلِ، فَلَمْ يَعُدْ الشِّعرُ هُوَ الشِّعرُ، وَلا ظَلَّ النَّثرُ هُوَ النَّثرُ، وَظَلَّ كِلاهُمَا يَتَوَاشَجَانِ، عَبْرَ المَسِيْرَةِ الإبْدَاعيَّةِ الطَّويلَةِ.

وَقَدْ ظَلَّ احْتِكَاكُ الشِّعرِ بِالنَّثرِ، احْتِكَاكًا حَقِيْقيًا، يُوَلِّدُ أشْكالاً جَديدَةً، فِي كُلِّ مَرَّةٍ، جَامِعَةً الخَصَائِصَ الفَنِّيَّةَ لِكِليْهِمَا مَعًا، بِدَرَجَاتٍ مُتَفَاوتَةٍ تُؤكِّدُ ـ دَائِمًا ـ علَى وُجُودِ جَوْهَرٍ إبْدَاعِيٍّ

خَالصٍّ قَارٍّ، في أعْمَاقِ النَّصِّ، يَتَخَطَّى الحُدودَ الأجْنَاسِيَّةَ، وَالأشْكَالَ الشِّعريَّةَ أوْ النَّثْريَّةَ القَائمَةَ، وَيُرَسِّخُ، في كُلِّ مَرَّةٍ لِشَكْلٍ عَابِرٍ لِلحُدودِ الأجْنَاسِيَّةِ، وَجَامِعٍ، بَيْنَ صِيَغِهَا المُخْتَلِفَةِ، وَيَكْتَسِبُ كُلُّ شَكْلٍ خُصُوصِيَّتَهُ النَّوعيَّةَ مِنْ مَجْمُوعَةِ الخَصَائِصِ وَالإجْرَاءَاتِ التِّقَنِيَّةِ الَّتي يَتَعَهَّدُهَا مُبْدِعُوه، وَيُرسِّخُونَهَا، وَتَتَرَكَّزُ هَذِهِ الأشْكَالُ في: النَّثرِ الفَنِّيِّ، النَّثرِ الصُّوفِيِّ الشِّعريِّ، النَّثرِ الشِّعريِّ، الشِّعرِ المَنْثُورِ، الشِّعرِ الحُرِّ، قَصِيْدَةِ النَّثرِ، وَهِيَ أشْكَالٌ تَنْتَمِي إلى دَائِرتَيْنِ أسَاسِيَّتَيْنِ: دَائِرَةِ النَّثرِشِعْريِّ؛ وَتَشْمَلُ حَلْقَاتِ: النَّثرِ الفَنِّيِّ ـ النَّثرِ الصُّوفِيِّ الشِّعريِّ ـ النَّثرِ الشِّعريِّ، وَدَائرَةِ الشِّعرنَثْريِّ؛ وَتَشْمَلُ حَلْقَاتِ: الشِّعرِ المَنْثُورِ ـ الشِّعرِ الحُرِّ ـ قَصِيْدَةِ النَّثرِ. وَهُمَا دَائِرَتَانِ تَتَوَاشَجَانِ وَتُجَسِّدَانِ تَحَوُّلاتِ الشِّعريَّةِ الجَامِعَةِ عَبْرَ العُصُورِ.

وَتُؤكِّدُ هَذِهِ الأشْكَالُ المُتَعَدِّدَةُ، جَمِيعًا، على أنَّ الشِّعرَ لَمْ يَنْفَصِلْ عَنْ النَّثرِ، وَلا خَلاَ النَّثْرُ من الشِّعرِ، وَمَا غَابَتْ هَذِهِ الحَقِيْقَةُ عَنْ الوَعْيِ النَّقديِّ العَرَبيِّ؛ فَهِيَ تَرِدُ فِيْمَا يَنْقلُهُ أبُو حَيَّان التَّوحِيديِّ (310 ـ 414هـ) عَنْ ابْنِ هِنْدو الكَاتبِ؛ الَّذي أوْضَحَ «أنَّ المَنْظُومَ فيْهِ نَثْرٌ مِنْ وَجْهٍ، وَالمَنْثُورُ فيْهِ نَظْمٌ مِنْ وَجْهٍ، وَلَوْلا أنَّهُمَا يَسْتَهِمَانِ هَذَا النَّعتَ، لَمَا ائْتَلَفَا وَلا اخْتَلَفَا» (1)، كَمَا كَانَتْ أبْحَاثُ النُّقَّادِ العَرَبِ القُدَامَى، تَضْرِبُ في آفَاقِ (الشِّعريَّةِ)، فِيْمَا تَتَنَاوَلُ (الشِّعرَ).

وَقَدْ أدَّى التَّفاعُلُ بَيْنَ الأنْوَاعِ الأدَبيَّةِ إلى جَعْلِ نَظريَّةِ الأنْوَاعِ الأدَبيَّةِ كُلِّهَا مَوْضِعَ شَكٍّ؛ فَهَذِهِ الحُدودُ المَوْضُوعَةُ بَيْنَهُمَا «تُعْبَرُ باسْتِمْرَارٍ، وَالأنْوَاعُ تُخْلَطُ أوْ تُمْزَجُ، وَالقَدِيْمُ مِنْهَا يُتْرَكُ، أوْ يُحَوَّرُ، وَتُخْلَقُ أنْوَاعٌ جَدِيْدَةٌ أخْرَى» (2)، تُجَسِّدُ تَجَليَّاتٍ أخْرَى لِلنَّصِّ الجَامِعِ.

وَالنَّـصُّ الجَامِـعُ بِهَـذَا المَفْهـوم، هُـوَ نَصٌّ جَامِـعٌ خَصَائِـصَ الأَنْوَاعِ الشِّعريَّةِ وَالنَّثريَّةِ مَعًا، في أشْـكالٍ تَكْتَسِبُ خُصُوصِيَّتَهَا، مِنْ دَرَجَاتِ التَّفَاعُلِ بَيْنَ خَصَائص النَّوعيْنِ الأَسَاسِيَّيْنِ: الشِّعرِ وَالنَّثرِ، في كُلِّ مَرَّةٍ.

وَبِهَـذَا يَخْتَلِـفُ هَذَا المَفْهُومُ عَنْ مَفْهُوم جيـرار جينت لِلنَّصِّ الجَامِعِ؛ الَّـذي يَتَحقَّـقُ عَبْـرَ مَا يَدْعُـوه بِالتَّعالي النَّصـيِّ، وَفيْهِ يَدْخُـلُ النَّصُّ في عِلاقَـاتٍ ظَاهِرَةٍ أَوْ خَفيَّةٍ ـ مَـعَ غَيْرِهِ مِنْ نُصُوصٍ أخْرَى، وَيُدْرجُ ضِمْنَهُ: التَّنَاصَ وَالتَّداخُلاتِ النَّصيَّةَ.

وَقَدْ حَاوَلَ البَحْثُ عَدَمَ التَّورطِ في فَوْضَى الاصْطِلاحَاتِ النَّصِيَّة[3]، غَيْـرَ أنَّهُ انْتَهَى إلى الاطْمِئْنَانِ إلى مُطَابَقَـةِ هَذَا المُصْطَلَحِ، لِلدَّلالةِ على النُّصوصِ جَامِعَةِ الخَصَائِصِ النَّوعيَّةِ، في مُخْتَلَفِ الأَنْوَاعِ الأَدَبيَّةِ.

وَالبَحْـثُ إذْ يَخْتَـطُّ لِنَفْسِـهِ هَذِهِ الطَّريـقَ الصَّعبَةَ، الَّتـي يَتَنَاوَلُ فيْهَا مَجْمُوعَةَ الأَشْـكَالِ الأَسَاسِيَّةِ؛ المُتَولِّدةِ مِنْ تَفَاعُلِ مَا سُمِّيَ بِالشِّعر وَمَا سُـمِّيَ بِالنَّثرِ، فـي حَلْقَاتٍ مُتَوَاصِلَةٍ، يُؤكِّدُ أنَّ هَذِهِ الأَشْـكَالَ ـ على إبْدَاعِيَّتِهَـا الوَاضِحَةِ، وَخُصُوصِيَّتِهَا الفَارِقَةِ ـ لَمْ تَأخُذْ حَقَّهَا اللائقَ مِنْ الدَّرسِ وَالبَحْثِ، إلاَّ في حُدودٍ ضيِّقةٍ؛ حَيْثُ حَظِيَ النَّثْرُ الفَنِّيُّ، بِدِرَاسَةٍ رَائِدَةٍ وَشَامِلَةٍ هِيَ: الفَنُّ وَمَذَاهِبُهُ في النَّثْرِ العَرَبي:1946، لِشَوْقي ضَيف (1910 ـ 2005)، وَأُخْرَى تَنَاوَلتْ مَرْحَلةً مُهِمَّةً مِنْهُ، هِيَ: النَّثْرُ الفَنِّيُّ في القَـرْنِ الرَّابـعِ الهِجْرِيِّ، لِزكِـي مُبَـارك (1891 ـ 1952)، بَيْنَمَا حَظِيَ النَّثْرُ الشِّـعريُّ بِدِرَاسَـةٍ رَائِدَةٍ، وَيَتِيمَةٍ، لعبدِ الكريم الأَشْـتر، بِعُنوَانِ: النَّثـر المَهْجَـرِيّ: كُتَّـاب الرَّابطَة القَلَميَّـة: 1960، وَمَـا دُونَ ذَلكَ فَهِيَ إشَـارَاتٌ، وَلَـمْ يظفَرْ النَّثرُ الصُّوفيُّ الشِّـعريُّ، بِدِرَاسَـةٍ حَقيقيَّةٍ، لائِقَةٍ رَغْـمَ الإشَـارَاتِ المُهِمَّـةِ، إلى شِـعْرِيَّتِهِ؛ تلكَ الإشَـارَاتُ الَّتـي صَاحَبَتْ

انْطـلاقَ نَظريَّةِ قَصِيـدَةِ النَّثرِ، مُنْذُ عَام1960 ، على يـدِ أدُونيس (1930 ـ)، وَأُنْسِـي الحَاج (1937 ـ)، كَذَلكَ إشَـارَاتُ إبرَاهيم شُـكْر اللّه (1921 ـ 1995)، مِنْ دَاخِلِ تَجَمُّعِ مجلَّة: شِعْر، اللبنَانيَّةِ.

لَقَـدْ ظَلَّ حُلْمُ انْصِهَارِ الشِّـعْرِ وَالنَّثر، في خِطَابَـاتٍ إبْدَاعيَّة جَديدَةٍ، كَامِنًـا في مَشْـروعِ النَّثـرِ الفَنِّـيِّ، وَالنَّثـرِ الصُّوفـيِّ الشِّـعريِّ، وَالنَّثرِ الشِّـعريِّ، وَالشِّـعرِ المَنْثُورِ، وَالشِّـعرِ الحُـرِّ، وَقَصِيدَةِ النَّثـرِ، وَلا يَرَى البَحْـثُ أنَّ قَصِيدَةَ النَّثرِ سَـتَكونُ مُنْتَهَى هَذَا الحُلْمِ، أوْ أنَّ الأشْـكَالَ السَّابقَةَ عليْهَا مَحْضُ إرْهَاصَاتٍ بِهَا وَتَمْهيْدٍ لَهَا؛ بَلْ يَرَاهَا حَلْقَةً أسَاسِيَّةً مِنْ حَلْقاتٍ، وَلَيْسَتْ مُنْتَهَى تَحوُّلاتِ هَذَا المَشْهَدِ، وَيَرَى البَحْثُ أنَّ كُلَّ حَلْقَةٍ مِنْ هَذِهِ الحَلْقاتِ، بِقَدْرِ مَا تَمْتَلكُ مِنْ اسْتِقلالٍ أدَائيٍّ خَاصٍّ، فَإنَّ لَهَـا تَفَاعُلاتِهَـا الدَّاخليَّة، مَعَ غَيْرِهَا مِنْ الحَلقَاتِ، إنَّهَـا حَلْقَاتٌ مُتَنَاميَةٌ ـ رَغْـمَ مَـا لِكُلِّ حَلْقةٍ مِـنْ انْغلاقٍ ذَاتيٍّ كَاملٍ على مَشْـهَدِهَا ـ وَوِفْقًا لِهَـذَا التَّنَامِي فَإنَّ حَلْقَةَ قصِيدَةِ النَّثرِ لَنْ تكونَ نِهَايَةَ المَطَافِ، في هَذِهِ المِسَـاحَةِ الجيَّاشَـةِ، دَائمًا، حَتَّى وَإنْ كَانَتْ هيَ كَذلكَ حَتَّى اللحظَةِ الرَّاهنَـةِ، وَرَغْمَ هَذَا فَالبَحْثُ لا يُنْكـرُ دَوْرَ المُؤثِّرِ الغَربيِّ في تَشْـكيْلِ مَفَاهيْمِ النَّثرِ الشِّعريِّ، وَالشِّعرِ المَنْثُورِ، وَالشِّعرِ الحُرِّ، وَقَصِيدَةِ النَّثرِ؛ فَقَدْ نَتَجَتْ هَذِهِ المَفَاهيْمُ عَنْ التَّفاعُلِ مَعَ الشِّـعريَّاتِ المُجَاورَةِ؛ تَحْديدًا في المَشْـهَدِ الأوربـيِّ الحَديْـثِ، وَكَانَ التَّحدِّي الأكْبَرُ الَّـذي وَاجَهَهُ البَحْثُ هُوَ طُوْلُ عُمْرِ المِسَاحَةِ المَدْرُوسَةِ، وَاحْتشَادُ كُلِّ مَرْحَلَةٍ بأسْمَاءٍ مُهِمَّةٍ؛ تُشَارِكُ في صِيَاغَةِ مَلامِحِ المَرْحَلَةِ، وَكُلُّ مَرْحَلَةٍ جَديْرةٌ بِدِرَاسَةٍ مُسْـتَقلَّةٍ وَمُفَصَّلةٍ، غَيْرَ أنَّ هَذا مَسْـعَى آخَر، غَيْر مَسْـعَى هَذَا البَحْثِ؛ الَّـذي يَتَرَكَّـزُ مَسْـعَاهُ في الإلمَـامِ بِجَنَبَاتِ هَـذَا التَّاريخِ الزَّاخِـرِ، لِهَذِهِ

المَسَافة الكَائِنَة بَيْنَ مَا سُمِّيَ الشِّعر وَمَا سُمِّيَ النَّثر؛ هَذِهِ المَسَافة الَّتي طَالَمَا التقَى فيْهَا القُطْبَانِ، وَالَّتي وَصَلَتْ، في نِهَايَةِ المَطَافِ، إلى شِعْرِ نَثْـرٍ، وَعَبْرَ هَذَا التَّاريخ الإبْدَاعِيِّ الطَّويلِ، تَحَدَّدتْ آليَّاتٌ تعبيريَّةٌ جَمَّةٌ، وَلَـمْ تَكُنْ قَصِيدَةُ النَّثرِ لِتَظْهَرَ لَوْلا هَـذِهِ الجُهُود التَّاريخيَّة المُتَلاحِقَة، وَقدْ تَنَبَّهَتْ سُـوزان برنار، في دِرَاسَتِهَا الرَّائدةِ: قَصِيدَة النَّثرِ مِنْ بُودلير إلـى أيَّامِنَـا، إلى أنَّ قَصِيدَةَ النَّثـرِ لكَـيْ تَتَفَتَّحَ في رَوْضَـةِ الآدَابِ كَانَ يَلزَمُهَـا لِذلـكَ أرْضٌ صَالِحَةٌ، وَهُوَ مَا تَجَلَّى في مُحَاولاتِ إيجَادِ شَـكلٍ جَديـدٍ لِلشِّـعرِ، وَالقَبُولِ بِالفِكْـرَةِ الخِصْبَةِ الَّتي مَفَادُهَـا أنَّ النَّثرَ قَابلٌ لِلشِّعرِ، وَالوصُولِ إلى الفَصْلِ بَيْنَ الشِّعرِ وَالنَّظم[4].

وَقدْ تَنَبَّهَ أدُونيسُ إلى هَذَا التَّاريخ التَّعبيريِّ مُنْذُ البِدَايَةِ، وَأشَارَ إليْه، بِشَكْلٍ عَام، في أوَّلِ كِتَابةٍ لَهُ عنْ قَصِيدَةِ النَّثرِ، مُعْتبرًا هَذِهِ الأخيْرَةَ، «كَنَوْعٍ شِـعْريٍّ نَتيجَةً لِتَطوُّرٍ تَعْبِيـريٍّ، في الكِتَابَةِ الأدبيَّة الأمريكيَّة؛ وَلِهَـذا فَإنَّ كِتَابَةَ قَصيدَةِ نَثْرٍ عَربيَّةٍ أصِيلَةٍ يُفْتَرَضُ، بَلْ يُحَتِّمُ الانْطلاقَ مِنْ فَهْمِ التُّراثِ العَرَبيِّ الكِتَابيِّ، وَاسْـتيْعَابِهِ بشَـكْلٍ عَميْقٍ وَشَـامِلٍ، وَيُحَتِّـمُ، مِـنْ ثَـمَّ، تَجديد النَّظـرَةِ إليْـهِ، وَتَأصِيله فـي أعْمَـاقِ خِبرَاتِنَا الكِتَابيَّةِ اللغَويَّةِ، وَفي ثَقَافتِنَا الحَاضِرَة»[5].

وينقسم البحثُ إلى مِهَادٍ نَظريٍّ، وَثَلاثَة فُصُولٍ، هِيَ كَمَا يَلِي:

المِهَادُ النَّظريُّ عنْوَانُهُ: شِعْريَّةُ النَّثرشِعريِّ: تَدَاخُلاتُ الأنْوَاعِ الأدَبيَّةِ وَتَشَـكُّلاتِ النَّصِّ الجَامِعِ، وَيَتَنَاوَلُ علاقةَ الشِّـعرِ وَالنَّثر عَبْرَ العُصُورِ، على مُسْـتَوَى التَّقعيْدِ وَالإجْرَاءِ الإبْدَاعِيِّ، وَيُشَدِّدُ على تَخَطِّي المُمَارَسَةِ الإبْدَاعيَّـةِ، لِشَـتَّى الحُـدودِ المَوْضُوعَةِ، عَبْـرَ المَرَاحِـلِ وَالعُصُورِ، في أشْـكَالٍ إبْدَاعيَّـةٍ جَامِعَـةٍ، وَيَتَنَـاوَلُ شِـعريَّةَ الخِطَـابِ فـي النُّصـوصِ

الجَامِعَـةِ، ثمَّ شِـعريَّة المَنْظُومِ وَالمَنثـورِ في الخِطَابِ النَّقـديِّ القَديْمِ، وَيَرْصُدُ تَجَلِّي الشِّـعريَّة عَبْرَ مِحْوَرَينِ: الشِّعريَّةِ بِوَصْفِهَا خَصِيْصَةً لِلعَمَلِ الأَدَبـيِّ، وَالشِّـعريَّةُ بِاعْتِبَارِهَـا نَظَرِيَّةً لِلخِطَـابِ، وَيُمَيِّزُ بَيْنَهُمَـا. وَيَصِلُ إلى أنَّ الشِّـعريَّةَ خَصِيصَةٌ مُشْـتَرَكَةٌ في النَّصِّ الشِّـعريِّ وَالنَّصِّ النَّثريِّ وَالنُّصُوصِ الجَامِعَةِ خَصَائِصَ الشِّعريَّةِ وَالنَّثريَّةِ مَعًا.

الفَصْـلُ الأوَّلُ: عنْوَانُـهُ: النَّثـرُ الفَنِّيُّ وَأطْوَارُهُ التَّأسِيسِـيَّةُ في الأَدَبِ العَرَبيِّ، وَقَدْ اقْتَضَتْ طبيعَةُ هَذَا البَابِ تَقْسِيمَهُ إلى البِدَايَاتِ التَّأسِيسيَّةِ الثَّلاثِ الآتيَةِ:

البِدَايَةُ الأُولى: تَتَنَاوَلُ النّثرَ الفَنِّيَّ المَسْـجوعَ، في العَصْرِ الجَاهليِّ؛ وَهُـوَ مَـا تَبدَّى فـي سَـجْعِ الكُهَّـانِ، وَخُطبِ الخُطَبـاءِ، المَسْـجوعَةِ، وَالمُنَافَـرَاتِ[6]، وَهَـذِهِ المَرْحَلَـةُ هِـيَ أقْـدَمُ فُنـونِ الأَدَبِ العَرَبـيِّ علـى الإطْلاقِ؛ حَيْثُ تَسْبِقُ الشِّعرَ الجَاهِليَّ.

البِدَايَـةُ الثَّانيـةُ: تَتَنَـاوَلُ النَّثـرَ الفَنِّـيَّ المُرْسَـلَ، وَفيْهَـا سَـتَتَّضحُ إسْـهَامَاتُ أعْلامِهِ الأسَاسِيِّينَ المُؤسِّسِيْنَ، وَهُمْ: سَالِمٌ؛ مَوْلَي هِشَام بنِ عبدِ المَلِكِ (ـ 125هـ)، عبدُ الحَميْدِ الكَاتبِ (ـ 132هـ)، وَابْنُ المُقَفَّعِ (ـ 142هـ)، وَسَهْلٌ بنُ هَارُون (ـ 215هـ)، وَالجَاحِظُ (ـ 255هـ).

البِدَايَـةُ الثَّالِثَـةُ: تَتَنَـاوَلُ النَّثرَ الفَنِّـيَّ التَّزيينيَّ المَسْـجوعَ؛ الَّتي بَدَأتْ ظَاهرتُـهُ فـي القَرْنِ الرَّابـعِ الهِجْريِّ، على أيْدي ابـنِ العَميْدِ (ـ 360هـ)، وَالصَّاحِـبِ بـنِ عَبَّادٍ (ـ 385هـ)، وَأبي بَكْـرٍ الخُوَارزمـيِّ (ـ 383هـ)، وأبي إسْـحَاق الصَّابي (ـ 384هـ)، وَبَديعِ الزَّمَـانِ الهَمَذَانيِّ (ـ 398هـ)، وَقَابوسٍ بنِ وَشْـمَكيرٍ (ـ 403هـ)، وَغَيْرِهِـمْ مِمَّنْ أصْبَحَ إنْتَاجُ نصِّ النَّثرِ الفَنِّيِّ على أيْدِيْهِمْ أقْرَبَ إلى صِنَاعَةِ الأرَابِيسْكِ وَالسَّجَّادِ؛ حَيْثُ الزَّخَارف

الهَنْدَسِـيَّة الدَّقيقَة المَحْسُـوبَة وَالوَشْـي اللغَويّ البَرَّاق، وَقَدْ شَهَدَتْ هَذِه المَرْحَلَةُ انْبِجَاسَ شَكلٍ أدبيٍّ جَديْدٍ، دَاخِلَ فَضَاءِ النَّثْرِ الفَنِّيِّ؛ هُوَ شَكلُ المَقَامَـةِ؛ لِتُمثِّلَ النَّصِّ الجَامِـعِ، بِامْتيَازٍ؛ تمثيْلاً خاصًّـا، كَذلَكَ وَصَلَتْ الصَّنعَـةُ اللغَويَّةُ الهَنْدَسِـيَّةُ إلى أقْصَى تَحقُّقَاتِهَـا الإبْدَاعيَّةِ عندَ الحَريريِّ (ـ 516هـ)؛ الَّذي تَسَـلَّمَ مَقَاليْدَ النَّثْرِ الفَنِّيِّ، في القَرْنِ السَّـادسِ الهِجْرِيِّ ـ مُحَقِّقًـا، فيْـهِ، أقْصَى مَـا طَمَحَ إليْهِ مُبدعـو القَرْنِ الرَّابـعِ الهجريِّ ـ الرُّوَادِ - وَبِخَاصَّةٍ الهَمَذانيّ ـ مِنْ إبدَاعٍ وَإدهَاشٍ، في مَقَامَاتِهِ الشَّـهيْرَةِ، وَقدْ شَهِدَ القَرْنُ السَّادسِ الهِجريِّ، كَذلكَ، بُزوغَ نَجْمِ القَاضِي الفَاضِلِ (ـ 596هـ) ـ فـي مِصْـرَ ـ لِيقودَ تيَّـارًا قَائمًا على التَّوسُّـعِ في الزُّخرفِ وَالتَّصويْرِ، وَهَكَذَا وَصَلَ النَّثْرُ الفَنِّيُّ في هَذَا القَرْنِ إلى أقْصَى تَحَقُّقاتِهِ الإبْدَاعيَّـةِ؛ الَّتـي سَـتَظلُّ قِبْلَـةً تَصْبُـو إليْهَا الأجيَـالُ طَويلاً، وَمَـعَ مَجيءِ العَصْرِ العُثْمانِي أُصِيْبَ النَّثْرُ الفَنِّيُّ، بِمَا أُصِيْبَ بِهِ كُلُّ شَـيءٍ في الدَّولَةِ الإسْـلاميَّةِ مِنْ ضَعْفٍ وَكَلالٍ وَهُزَالٍ، وَظَـلَّ على هَذِهِ الحَالِ، حَتَّى أخَذَ فـي النُّهوضِ، مِـنْ كَبْوَتِهِ، فـي بِدَايَاتِ القَرْنِ التَّاسِـعَ عَشَـرَ المِيلاديِّ؛ مُسْـتَعيدًا عَافيتَـهُ وَتَوَهُّجَهُ، علـى أيْدِي أبرَزِ أعْلامِ القَرْنِ التَّاسِـعَ عَشَـرَ وَالرُّبـعِ الأوَّلِ مِـنْ القَرْنِ العشـرِيْنَ؛ وَفي طَلِيعَتِهِمْ: عبـدُ الرَّحمنِ الجَبَرتيُّ (1754 ـ 1896)، وَإبرَاهيـمُ اليَازِجِـيُّ (1847 ـ 1906)، وَالإمَـامُ مُحمَّد عبْـدَه (1870 ـ 1905)، وَحِفْنِـي نَاصِـف (1860 ـ 1919)، وَمُحمَّـد المُوَيلِحِـي (1858 ـ 1930)، وَمُحمَّـد تَوفِيق البَكْرِيُّ (1870 ـ 1932)، وَأحْمَد شَوقِي (1868 ـ 1932)، وَحَافِظ إبرَاهيم (1872 ـ 1932).

وَبِهَـذَا تُعَـدُّ هَذِهِ المَرْحَلةُ الأطْـوَلَ عُمْرًا بَيْنَ أشْـكَالِ النَّصِّ الجَامِعِ كَافَّةً.

الفَصْـلُ الثَّانــي: عنْوَانُهُ: النَّثْرُ الصُّوفيُّ الشِّـعريُّ، وَهُـوَ يُمثِّلُ الوَجْهَ الآخَـرَ، البَاطِنــيَّ، لِحَرَكَةِ النَّثْرِ الفَنِّيِّ، وَيُعَدُّ هَذَا الشَّـكلُ، بِحَقٍّ هُوَ الانْبثَـاقُ الحَدَاثِيُّ الأَوَّلُ؛ الَّذي يَتَوَاشَـجُ فيْهِ الشِّـعرُ وَالنَّثرُ، في شَـكلٍ أَكْثَر تَرْكيبًا، وَانشِقاقًا عَنْ اللغَةِ السَّائدَةِ، والتِحَامًا مَعَ رُؤاهُ وَمَشْهَدِهِ بإجْرَاءَاتِـهِ الخَاصَّـةِ. سَـيَتَبَدَّى هَـذَا فـي مَوَاقـفِ النَّفَّـريِّ (ـ 354هـ) وَمُخَاطَبَاتِهِ، وَفي طَوَاسِـيْنِ الحَلاَّج (ـ 309هـ)، وَفي الإشَـارَاتِ الإلهيَّةِ لِلتَّوحِيـديِّ (ـ 414هـ)، وَفـي الفَتْحِ الرَّبَّانــيِّ، وَفي الغَوثيَّةِ، وَسِـوَاهَا، مِـنْ أَعْمَـالِ عبدِ القَـادرِ الجِيلانــيِّ (ـ 561هـ)، وفي أعْمالِ السُّـهرورديِّ المقتولِ (549 ـ 586 هـ)، وَفي أعْمَالِ مُحيي الدِّينِ بن عَرَبيِّ (ـ 638هـ) العَديْدَةِ، وَفي جَوْهَرةِ إبرَاهيْم الدِّسُـوقيِّ (ـ 676هـ)، و (الحِكَم) لابن عطـاءِ اللّه السَّـكندريِّ (658 ـ 709)؛ حَيْـثُ تَتَفَجَّـرُ ثَـوْرَةً باللغَةِ عَلى اللغَـةِ؛ لِتُصْبِحَ الكِتَابَةُ مُمَارَسَـةً لِلتَّغييْـرِ، بِتَغْييـرِ أيْديولوجيَا الكِتَابَةِ القَائِمَةِ، وَتَأسْـيسِ مَشْـهَدٍ جَديْدٍ، يَكْشِـفُ عَنْ تَجَارَبَ رُوحيَّةٍ هَادرَةٍ، تَنْزَعُ إلى التَّحرُّرِ مِنْ كُلِّ قيْدٍ، بِمَا في ذَلكَ قيْدِ الجَسَدِ.

الفَصْـلُ الثَّالـثُ: عنْوَانُـهُ: النَّثْرُ الشِّـعريُّ، وَيَتَأسَّـسُ هَذَا الشَّـكلُ علـى الجَمْـعِ بَيْنَ التَّدفُّقِ النَّثريِّ، وَخَيَالاتِ الشِّـعرِ، وَحَالاتِـهِ المُحَلِّقةِ، وَتَصَاويرِهِ، وَإيحَاءَاتِهِ، وَسَـيَعْتَمِدُ على إيقَاعِ التَّجربَةِ؛ بِتَدَفُّقِهِ الوجْدَانيِّ الحُـرِّ، وَبِهَـذَا سَـيَتَميَّزُ النَّثْـرُ الشِّـعريُّ عَـنْ النَّثْـرِ الفَنِّــيِّ؛ القَائِـم على الضَّوابِطِ الهَنْدسيَّةِ في إيْقَاعِهِ المَسْجُوعِ أوْ المُزْدَوجِ، وَزَخَارِفِهِ البَديعيَّةِ المَحْسُـوبَةِ، وَقَـدْ تَحـدَّدَ سَـمْتُ النَّثْـرِ الشِّـعريِّ، بِإسْـهَامَاتِ مَجْمُوعَةٍ كَبيْرَةٍ مِـنْ المُبْدعِيْنَ المَهْجَريينَ، وفي طَلِيعَتِهِـمْ: جُبْران خَليْل جُبْرَان (1881 ـ 1931)، وَأمِيْـن الرِّيحَانــي (1876 ـ 1940)، وَمِيخَائيل نُعَيْمَه

(1889 ـ 1988)، وَإيليَّـا أبُو مَاضِي (1891 ـ 1957)، وَنَسِـيْب عُرَيْضَة (1887 ـ 1940)، وَمِـنْ غَيْـرِ المَهْجَرِييـنَ، وَفـي طَلِيْعَتِهِمْ: مَـيُّ (مَارِي) زِيَادَة (1886 ـ 1941)، وَفي مِصْرَ كَانَ قُطْبَا النَّثْرِ الشِّعريِّ: مُصْطَفي لُطْفـي المَنْفَلوطِـي (1872 ـ 1924)، وَمُصْطَفى صَادِق الرَّافِعي (1880 ـ 1937)، يُنْجِزَانِ نَثْرًا شِعريًّا مُخْتَلِفًا؛ بِأدَاءَيْنِ مُخْتلفيْنِ.

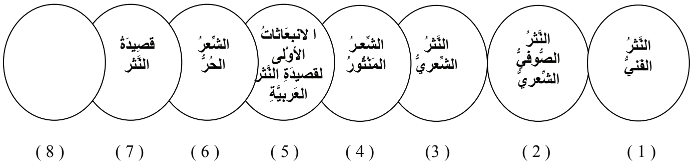
وَقَـدْ اعْتَمَـدَتْ هَـذِهِ الإسْـهَامَاتُ، فـي مَجْمُوعِهَـا، مَجْمُوعَـةً مِـنْ الآليَّاتِ الإبْدَاعيَّةِ المُشْـتَرَكَةِ؛ يَأتِي فـي طَلِيعَتِهَا: التَّدَفُّقَاتُ المُجَنَّحَةُ، والمُنَاجَيَـاتُ الغِنَائِيَّـةُ المُسْتَرسِـلَةُ، وَالأَدَاءُ الشَّـاعِرِيُّ الوِجْدَانِـيُّ، وَالتَّصويْرُ، وَالتَّرمِيْزُ.

وَعَنْ النَّثرِ الشِّعريِّ تَوَلَّدَ الشِّعرُ المَنْثُورُ، وَاخْتَلَط بِهِ في البِدَايَةِ، قَبْلَ أنْ يَسْـتَقِلَّ؛ لِيُصْبِحَ فَاتِحَةً لِشِـعْرِ النَّثرِ، وَبِهَذَا يُعَدُّ النَّثْرُ الشِّـعريُّ فَاتِحَةً لِسِلْسِلةٍ مِنْ الحَلَقَاتِ الإبْدَاعيَّةِ المُتَوَاشِجَةِ، لا تَنْتَهِي إلى قَصِيدَةِ النَّثرِ، وَإنَّمَا تَتَعدَّاهَا إلى مَا بَعْدَهَا.

وَتُمَثِّلُ الأشْكَالُ النَّثرشِعريَّةُ حَلْقةً مَرْكَزِيَّةً، تَتْبَعُهَا حَلْقَةُ الأشْكَالِ الشِّـعرنَثْرِيَّةِ؛ وَالحَلقَةُ الثَّانيَةُ انْبَثَقتْ عَنْ نِهَايَـاتِ الحَلقَةِ الأوْلَى، وَبَدَأتْ بِالشِّعرِ المَنْثُورِ، فَالشِّعرِ الحُرِّ، فَقصيدَةِ النَّثرِ.

وَيُلاحَظُ أنَّ أشْـكَالَ الحَلقَةِ الثَّانيَةِ قَدْ ارْتَهَنَتْ بِتَحَوُّلاتِ الشِّـعريَّةِ، فـي المَشْـهَدِ الأوربـيِّ، فـي بِدَايَاتِهَـا، وَسُـرْعَان مَـا تَأصَّلتْ فـي عُمْقِ الشِّعريَّةِ العَربيَّةِ؛ لِتُنْتِجَ أنْوَاعًا شِعريَّةً عَصْريَّةً مُخْتَلِفَةً.

وَيُمْكِنُنَـا أنْ نَرَى مَسِـيْرَةَ النَّصِّ الجَامِعِ في أشْـكَالِهِ النَّثرِشِـعْريَّةِ وَالشِّعرِنثريَّةِ في الشَّكل الآتي:



وَيَكْشِـفُ هَذَا الشَّـكلُ عَنْ تَوَاشُـجٍ وَتَقَاطُعٍ، يَزْدَادَانِ تَدْرِيجيًّا بَيْنَ الحَلقَـاتِ؛ فَالحَلْقَـةُ الأوْلَـى تَتَمَـاسُ مَعَ الحَرَكَـةِ الثَّانيَـةِ ـ وَلا تَتَقَاطَعُ مَعَهـا، رَغْـمَ هَذا الاتِّصَالِ ـ كَذلِـكَ تَتَّصلُ الثَّانيَةُ بِالثَّالثَـةِ وَتَتَقَاطَعُ ـ هَذِهِ الأخِيرَةُ ـ مَعَ الرَّابعَةِ، وَهُوَ مَا يَحْدُثُ بَيْنَ الرَّابعَةِ وَالخَامِسَةِ، وبَيْنَ الخامِسَةِ وَالسَّادسَةِ، وَبَيْنَ السَّادسَةِ وَالسَّابِعَةِ، وَبَيْنَ السَّابعةِ وَالثَّامِنَةِ.

حَـرَكاتٌ مُتَواليةٌ وَخَلاَّقَةٌ، يُؤسِّـسُ النَّـصُّ الجَامِعُ، في كُلٍّ مِنْهَا، هويَّةً إبْدَاعيَّةً مُتَوهِّجَةً وَخِصْبَةٍ.

كَانَ بِالإمْـكَانِ أنْ أخَصِّصَ، لِكُلِّ حَلقَةٍ مِنْ هَذِهِ الحَلقَاتِ كتابًا مُسْـتَقلاً ـ وَهُـوَ مَـا لَعَلَّني فَاعِلهُ فـي قَابِلِ الأيَّام ـ غَيْـرَ أنَّني، في هَذَا الكِتَابِ، مَشْـغُولٌ بِرَصْدِ الحَرَكَةِ الكُلِّيَّةِ للنَّصِّ الجَامِعِ، في حَلقَاتِهِ المُجْتَمِعَـةِ، وَتَحَوُّلاتِهَـا الدَّائمَـةِ، مَـعَ رَصْـدِ كُلِّ حَلقَـةٍ فـي تَجليَاتِهَـا الإبْدَاعيَّةِ الفَارقَةِ، مُقْتَنِعٌ بِأنَّ الأشْكَالَ لا تَموتُ، إنَّهَا كَالحَضَارَاتِ، يَتَقَدَّمُ بَعْضُهَا على بَعْضٍ، وَتَظَلُّ دَائِمًا في حَالَةِ ارْتِقَابٍ وَاشْتِهَاءٍ وَتَرَقُّبٍ؛ لِتَسْتَعيدَ ازْدِهَارَهَا وَتَوَهُّجَهَا الحَمِيْمَ.

الإحَالاتُ وَالتَّعلِيقَاتُ

(1) أبُوحَيَّان التَّوحِيدِي ـ الإمْتَاعُ وَالمُؤانَسَـةُ ـ صَحَّحَهُ وَضَبَطَهُ وَشَـرَحَ غَرِيْبَـهُ: أحْمَـد أمِيْـن، أحْمَـد الزّين - الجُـزءُ الثَّانـي ـ مَنْشُـوراتُ المَكتبَةِ العَصْريَّة ـ بيروت ـ د.ت ـ ص: 135.

(2) رينيـه ويلـك - مَفَاهِيـم نَقْديَّـةٌ ـ تَرْجَمَـة: د.محمَّد عصفـور ـ عالَم المَعْرفَة ـ العدد :110 ـ الكويت ـ 1987 ـ ص:376.

(3) تَـمَّ تَرْجَمَـةُ مُصْطَلَـح جيرار جينت مَرَّتيْـنِ، تُرْجِمَ فيْهَـا كِتَابُهُ؛ مَرَّةً بِعُنـوَان: مَدْخَـل لِجَامِـع النَّصِّ - تَرْجَمَـة: عبد الرَّحمن أيُّـوب ـ دَار تُوبقال ـ الطَّبعَـة الأوْلَـى ـ الـدَّار البَيْضَـاء ـ 1985 ، وَمَـرَّةً بِعنوَانِ: مَدْخَـل إلى النَّصِّ الجَامِـع ـ تَرْجَمَـة: عبد العَزيز شِـبيل، وَمُرَاجَعَة :حَمَّادي صَمُّـود - المَجْلس الأعلى للثَّقافَة - 1999.

(4) سُـوزان برنـار ـ قَصيـدَةُ النَّثـر ـ تَرْجَمَـة: زُهيـر مجيـد مغَامِـس، مُرَاجَعَة: د.علي جَواد الطَّاهر ـ الطَّبعة الثَّانيَة ـ الهَيئَة العَامة لِقُصور الثَّقَافة ـ ديسمبر 1996 ـ ص:23.

(5) أدُونيـس ـ بَيَـان الحَدَاثَة، ضِمْـنَ كِتَاب: البَيَانَـات، تَقْديم: محمَّد لُطْفِـي اليُوسِـفيّ ـ دَفَاتـر كَلِمَات ـ أسْـرَة الأدَبَـاء وَالكُتَّـاب بِالبَحْرَين ـ الطَّبعَة الثَّالثَة ـ 1993 ـ ص:24.

(6) المُنَافَرَاتُ في النَّثرِ، تُشْـبِهُ النَّقَائِضَ في الشِّـعرِ؛ حَيْثُ كَانَ يَتَنَازَعُ فِـي المُنَافَرَةِ رَجُلانِ، يُمثِّلانِ قَبِيلَتَيْنِ، كُلٌّ مِنْهُمَا يَدَّعي التَّفوقَ على الآخَرِ، وَكَانَـا يَتَنَافَـرَانِ إلـى حَكَـمٍ يَرْضَيَانـهِ يَقِـفُ بَيْنَهُمَـا، فَيَقِـفُ كُلٌّ مِنْهُمَـا لِيَخْطُـبَ، مُعَدِّدًا مَفَاخِرَهُ وَمَآثِرَ قَبِيلَتِهِ وَأهْلِهِ، وَسُـمِّيتْ مُنَافَرَةً؛ لأنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُـونَ فيْهَـا: «أنَا أعَـزُّ نَفَـرًا»، وَكَانَ يَغْلِبُ عليْهَا السَّـجعُ، وَجَزَالَـةُ اللغَةِ،

وَمَتَانَةُ الأَسْـلُوبِ، وَالإِغْرَابُ، أحيانًا ، وَمِنْ ذَلـكَ مَا وَصَلَنَا مِنْ مُنَافَرَةٍ كَانَتْ بيْـنَ عَامِـرٍ بــنِ الطُّفيلِ بنِ مَالكٍ بنِ جَعْفَـر بنِ كِلابٍ مَعَ عُلْقُمَـةَ بنِ علاثَةَ بنِ عوفٍ بنِ الأَحْوَصِ بنِ جَعْفر بنِ كِلابٍ؛ بِسَـببِ الرِّيَاسَةِ ، وَاحْتَكَمَا فيْهَا إلى هَرِمٍ بنِ سِنَانٍ.

رَاجِعْ: كِتَاب الأغَانِي ـ الجُزءُ السَّـادِس عَشَـر ـ الهيئَة المِصْريَّة العَامة لِلْكتَابِ ـ 2001 ـ ص ص:283 ـ 297.

المِهَادُ النَّظريُّ

شِعريَّةُ النَّثرالشِعْريِّ

تَدَاخُلاتُ الشِّعرِ وَالنَّثرِ وَتَشَكُّلاتُ النَّصِّ الجَامِعِ

« لَقَدْ آنَ الأوَانُ كيْ نحُطِّمَ الحوَاجِزَ الشَّكليَّةَ نهائيًّا
بَيْنَ الشِّعرِ وَالنَّثرِ.»

وَالت وَايتمَان (1816 _ 1892)

عنْ: سُوزان بِرنَار -

قَصِيدَةُ النَّثرِ مِنْ بُودلير إلى أيَّامِنَا - ص: 168.

« إنَّ الكَلامَ على الكَلامِ صَعْبٌ
فإنَّهُ يَدُورُ على نَفْسِهِ
وَيَلْتَبِسُ بَعْضُهُ بِبَعْضِهِ.»

أبو حَيَّان التَّوحِيدِيِّ

الإمْتَاعُ وَالمُؤانَسَة - الجُزْءُ الثَّاني - ص:131.

دَأبَتْ الحَيَاةُ الأدَبيَّةُ العَربِيَّةُ على تَقْسِيم المُنْتَجُ الأدَبِيُّ إلى قِسْمَينِ أسَاسِيينِ: الشِّعرِ وَالنَّثرِ، وَمَيَّزَتْ الشِّعرَ ـ عَنْ النَّثرِ ـ بِحدودٍ شَكْليَّةٍ؛ تَتَعَلَّقُ بالأوْزَانِ وَالقَوَافِي[1]، تَرْبِطُهُ بِالصِّورِ وَالأخيلَةِ وَالعَاطِفَةِ[2]، وَجَعَلُوا لِلشِّعرِ عَمُودًا لا يُقَامُ بِدُونِهِ[3]، وَهَذِهِ الحُدُودُ الصَّارِمَةُ جَعَلَتْ البَعْضَ[4]، يُخْرجُ المُتَنَبِّي وَأبَا العَلاءِ المَعَريَّ، مِنْ دَوْلَةِ الشِّعرِ.

وَقَدْ كَانَ مَفْهُومُ الشِّعرِ حَاسِمًا، صَارِمًا، هَكَذَا، لأسَاسَيْنِ رَئِيسيْنِ:

ـ 1 ـ أنَّ هَذِهِ الحُدُودَ كَانَتْ هِيَ الحُدُودُ الأسَاسِيَّةُ لِلشَّكلِ الشِّعريِّ المُنْجَزِ، في عَهْدِ هَذَا التَّقعيْدِ، وَفيْمَا سَبَقَهُ مِنْ مَوْرُوثٍ شِعريٍّ صُلْبٍ.

ـ 2 ـ نَفْي صِفَةِ الشِّعريَّةِ عَنْ الخِطَابِ القُرْآنيِّ.

على هَذَا تَمَّ التَّفريْقُ بَيْنَ الشِّعرِ وَالنَّثرِ، كَمَا تَمَّ بَيْنَ القُرْآنِ وَالشِّعرِ، وَعلى الرَّغمِ مِنْ هَذَا الفَصْلِ لُوحِظَ ـ بِوضُوحٍ ـ أنَّ المُمَارَسَةَ النَّظريَّةَ، ظَلَّتْ تَحُومُ حَوْلَ مَفْهُومِ الشِّعريَّةِ، في الشِّعرِ وَالنَّثرِ على السَّوَاءِ؛ مُنْذُ القديْمِ، وَكَانَ مِنْ أبْرَزِ هَذِهِ المُمَارَسَاتِ أبْحَاثُهُمْ في إعْجَازِ القُرْآنِ، «وَقَدْ تَشَكَّلَتْ الشِّعريَّةُ العَربيَّةُ ـ على المُسْتَوَى النَّقدي ـ مِنْ خِلالِ الدِّرَاسَاتِ القُرآنيَّةِ؛ الَّتي سَعَتْ ـ في المَقَامِ الأوَّلِ ـ لِتَفْسِيرِ النَّصِّ القُرآنيِّ وَالكَشْفِ عن وُجُوهِ إعْجَازِهِ وَإعْجَازِ لُغَتِهِ، وَقَدْ كَانَ هَؤلاءِ النُّقادُ وَالبَلاغيُّونَ أكْثَرَ جُرْأةٍ في بَحْثِهِمْ؛ إذْ رَأوا أنَّ البَرْهَنَةَ على إعْجَازِ القُرْآنِ تَتَطَلَّبُ العَوْدَةَ إلى النَّصِّ الشِّعريِّ[5]، وَمِنْ ثَمَّ عُولِجَتْ بَعْضُ قَضَايَا الشِّعريَّةِ، وَقِراءَةُ مَا ليسَ شِعْرًا مِنْ خِلالِ مُعَالَجَةِ حَلِّ المَنْظُومِ وَنَظْمِ المَنْثُورِ، وَكَانَ عبدُ القَاهِرِ الجُرْجَانيُّ أقْرَبَ الَّذينَ بَحَثُوا هَذَا الأمْرَ إلى رُوْحِ الشِّعريَّةِ المُعَاصِرَةِ؛ الَّتي تَعْنِي التَّحرُّكَ الدَّاخِليَّ في الخِطَابِ

اللغويِّ، لِلكَشْفِ عَنْ ظَوَاهِرِهِ وَمُكَوْنَاتِهِ المُتَرَاكِبَةِ.»[6]

كَمَا أنَّ المُمَارَسَةَ الإبْدَاعيَّةَ ظَلَّتْ تَتَخَطَّى هَذَا الفَصْلَ، وَتُشَكِّلُ مَعَهَا مَفَاهِيْمَ جَديْدَةً؛ تُقَرِّبُ الشِّعرَ مِنْ النَّثرِ، وَالنَّثرَ مِنْ الشِّعرِ، وَتُزيْحُ الحُدُودَ المَوْضُوعَةَ بيْنَهُمَا؛ عَبْرَ تَجَارِبَ امْتَزَجَتْ فيْهَا آليَّاتُ الشِّعرِ وَالنَّثرِ، امْتِزَاجًا كَامِلاً، تَوَلَّدَتْ عَنْهُ أشْكَالٌ جَامِعَةٌ، مُتَعَاقِبَةٌ؛ تَمَثَّلَتْ فِي: النَّثرِ الفَنِّيِّ ـ النَّثْرِ الصُّوفِيِّ الشِّعريِّ ـ النَّثرِ الشِّعريِّ ـ الشِّعرِ المَنْثُورِ ـ قَصِيدَةِ النَّثرِ.

وَظَلَّتْ هَذِهِ المَفَاهِيْمُ تُشَدِّدُ على مَشْرُوعِ النَّصِّ الجَامِعِ؛ بِتَجَليَّاتِهِ المُخْتَلفَةِ المُتَوَاليَةِ، وَتُوَسِّعُ مَفْهُومَ الشِّعريَّةِ بِشَكْلٍ دَائِمٍ.

شِعْرِيَّةُ الخِطَابِ فِي النُّصوصِ الجَامِعَةِ

لَقَدْ تَجَاوَزَتْ آفَاقُ الشِّعريَّةِ شِعْرِيَّةَ الشِّعرِ؛ لِتُعَبِّرَ عَنْ شِعريَّةِ الخِطَابِ الأدَبيِّ، وَأدبيَّةِ الأدَبِ، وَقدْ كَانَ مُصْطَلَحُ الأدبيَّةِ ـ فِي مُنْجَزَاتِ الشَّكلانيينَ ـ يَعْنِي مَا يَعْنِيْهِ مُصْطَلَحُ الشِّعريَّةِ، كَمَا كَانَ الانْهِمَامُ في بحُوثِ الشِّعريَّةِ كَامِنًا في بحُوثِ الإعْجَازِ القُرْآنيِّ، وَبحُوثِ البَلاغَةِ، وَبحُوثِ الأسْلُوبيَّةِ، وَبحُوثِ نظريَّةِ الأدَبِ، وَبحُوثِ عِلْمِ الجَمَالِ؛ وَبِهَذَا سَاهَمَ في بحُوثِ الشِّعريَّةِ، وَتَحْديدِ مَلامِحِهَا وَآفَاقِهَا، وَتَأصِيْلِهَا، مُتَكَلِّمُونَ، وَبَلاغِيُّونَ، وَنُقَّادٌ، وَمُبْدِعُونَ.

إنَّ الشِّعريَّةَ خَاصِيَةٌ إبْدَاعيَّةٌ، لا تَقْتَصِرُ على النَّصِّ الشِّعريِّ وَحْدَهُ، بَلْ وَلا على النَّصِّ الأدَبيِّ بِشَكلٍ عَامٍّ؛ بَلْ تَمْتَدُّ لِتَشْمَلَ شِعريَّةَ المُوسِيقا وَشِعريَّةَ الألْوَانِ وَشِعريَّةَ السِّينمَا.

وَقَدْ جَاءَتْ الشِّعريَّةُ ـ مُنْذُ بِدَايَاتِ النَّظريَّةِ الأدَبيَّةِ ـ مُحَقِّقَةً

مَسْـعَى أرسْـطُو، في كِتَابِه: البويطيقا، وَهُوَ يَصِفُ الأشْـكالَ الأدَبيَّةَ وَيَسْتَكْشِفُ قَوَانيْنَ الأدَبِ فيْهَا، حِيْنَمَا اهْتَدَى إلى ذَلكَ الاسْمِ اليونانيِّ؛ ذِي الدَّلالةِ على كيفيَةِ التَّشكِيْلِ وَالصُّنْعِ.

وَلَئِنْ تَبَدَّى الإطَارُ النَّظريُّ لِلشِّـعريَّةِ، مُتَجَسِّـدًا في مَشْروعِ تزيفتان تُـودوروف، أوْ رُومـان يَاكوبسـون، أوْ سِـوَاهُمَا، فَإنَّ أسَاسًـا رَاسِـخًا وَزَاخِرًا، قَدْ تَنَاوَلَ الشِّـعريَّةَ، قَبْلَ أنْ تَأتِي كَعِلْمٍ يَكشْـفُ عنْ القَوَانيْنِ الكُليَّةِ لِلأدَبِ ـ في درُوسِ الألْسُنيَّةِ وَالشَّكليَّةِ وَالبنيويَّةِ ـ، بالإضَافَةِ إلـى مَخْـزُونٍ نَقديٍّ عَرَبيٍّ رَاسِـخٍ، وَقَدْ أشَـارَ تُـودوروف ـ وَهُـوَ يَتَنَاوَلُ تَاريخيَّةَ الشِّـعريَّةِ ـ إلـى تُرَاثِ النَّظريَّةِ الأدَبيَّةِ، فـي الكِتَابَاتِ الهِنْديَّةِ وَالصِّينيَّةِ وَالعَرَبيَّةِ، الَّتي أُلِّفتْ عنْ الشِّعرِ، وَتَنَاوَلَتْ القَضَايَا الَّتي يَزْخَرُ بِهَا الأدَبُ وَحْدَهُ.»[7]

وَقَـدْ انْشَـغَلَ الـدَّرسُ النَّقـديُّ العَرَبـيُّ كثيـرًا بِكَيْفيَّـةِ تَكْويْـنِ الخِطَـابِ، وَدِرَاسَـةِ العَنَاصِـرِ الدَّاخلَةِ فـي مُكَوِّناتِهِ، وَالكَشْـفِ عَنْ اسْـترَاتِيجِيَّتِهِ النَّصيَّـةِ؛ لِتَكوِيْنِ جَسَـدٍ لُغَـويٍّ خَاصٍّ، يَكُونُ تَجَسُّـدُهُ الوَظِيفيُّ هُوَ الدَّالُ على إنْجَازِهِ الخَاصِّ، وَاتَّفَقَتْ مُسَـاجَلاتُهُ وَطُرُوحَاتُهُ المَنْهَجيَّةُ على تَقْديمِ (اللفْظ) على (المَعْنَى)، في الكَشْـفِ عنْ شِـعريَّةِ النُّصوصِ، وَالوَاقِعُ أنَّ مَا يَدُلُّ عليْهِ المُصْطَلَحُ أمْرٌ نُصَادِفُهُ في الدِّرَاسَاتِ النَّقديَّةِ القَديمَةِ؛ بَلْ إنَّ المُصْطَلَحَ نَفْسَـهُ قَدْ اسْتُخْدِمَ بنَصِّهِ وَبِدَلالتِهِ في بَعْضِهَا، كَمَا هُوَ الشَّـأنُ عندَ حَازم القُرطَاجَنيِّ وَابْنِ رُشْـد وَكَذَا ابْنِ سِـيْنَا مِنْ قَبْل.. إنَّ الشِّـعريَّةَ مُحَصِّلَةٌ لاسْـتِخْدَام مُتَمَيِّزٍ في أدَاةِ الشِّـعرِ، وَالحَديْثُ في الشِّعريَّةِ يَعْنِي، على الجُمْلَةِ، أنَّ اللغَةَ في الشِّعرِ لا تَتَوقَّفُ عنـدَ حُدودِ الإفْهَامِ أوْ الإشَـارَةِ أوْ الدَّلالَةِ المُعْجَميَّةِ، بَـلْ تَتَعَدَّاهَا لِتَصِلَ

إلى الإثَارَةِ وَالتَّأثيْرِ أوْ الانْفِعَالِ بِمُعْطَيَاتِ الشِّعرِ وَالتَّفاعُلِ مَعَهَا.»[8]

كَمَا أنَّ التَّقديْرَ لِلْجَانبِ الشِّعريِّ ـ الشِّعريَّةِ ـ في الشِّعرِ ـ قَديْمٌ، يَبْـدَأُ بِمَا انْتَهَـى إليْه الجَاحِظُ في القَـرْنِ الثَّالثِ في كِتَابَاتِـه؛ فَالمُعَوّلُ عليْه ـ عِنْدَهُ ـ هُوَ اللفظُ لا المَعْنَى؛ لأنَّ هَذَا الأخِيْرَ يَشْتَرِكُ في مَعْرِفَتِه البَـدَويُّ وَالقَـرَويُّ، وَالعَرَبيُّ وَالأعْجَمِـيُّ؛ وَلأنَّ المَعْنَى مَبْسُـوطٌ إلى غَيْرِ غَايَـةٍ، مُمْتَدٌّ إلى غَيْرِ نِهَايَةٍ»[9]، وَقَـدْ حَدَّدَ العَرَبُ أدَبيَّةَ الأدَبِ، مُعْتَمِديْنَ نَمَطَ الشِّـعرِ، في الغَالِبِ، بِخَصَائِص بِنْيَتِهِ اللغَويَّة»[10]؛ وَلكنَّهُمْ تَعَمَّقُوا في الشِّعريَّةِ، بِشَكلٍ عَامٍّ أثنَاءَ ذَلكَ، وَألَحُّوا جَميْعًا على أنَّ الشِّعريَّةَ تَقَعُ في الشِّـعرِ وَتَنْدَسُّ في النَّثرِ؛ فَتَجْعَل الحُدُودَ الفاصِلَةَ رِجْرَاجَةً، وَتَعْتَصِرُ المَسَـافَةَ المُمتـدَّةَ بَيْنَ النَّمَطيْنِ، تَكَادُ تُلْغِيهَـا أحْيَانًا؛ لِذَلكَ نُلاحِظُ أنَّ الحُدودَ بَيْنَ النَّثرِ الفَنِّيِّ وَالشِّـعرِ، فِـي الثَّقافَةِ العَرَبيَّةِ، وَاقِفَةٌ هُنَاكَ على الشَّـفيْرِ الخَطيْرِ، تَـكَادُ تُمْحَى وَلا تُمْحَـى»[11]، وَألحُّوا على أنَّ حُدوثَ الشِّـعريَّةَ، يَتَأتَّـى نِتَاجًـا لِعَمَلٍ لُغَـويٍّ خَـاصٍّ، يَرْتَفِعُ باللغَةِ مِنَ المُسْـتَوَى العَـامِّ إلى مُسْـتَوَى التَّشـكيْلِ الخَـاصِّ؛ المُتَميِّزِ على غَيْرِ مَـا وُضِعَتْ لَهُ فِـي الأصْلِ، وَالتَّصـرُّفِ فيْهَا بِالتَّجَـوُّزِ وَالعُدُولِ عَنْ النَّمَطِ وَالسَّـمتِ؛ إذْ أنَّ الشِّـعرَ في جَوْهَرِهِ صُورَةٌ للغَةِ، وَتَشْـهَدُ نُصُوصُ التُّرَاثِ بِالجُهْدِ الَّذي بَذَلَهُ النُّقادُ وَالبَلاغيُّونَ وَالمُشْـتَغلُونَ بِعِلْمِ الأدَبِ؛ لِتَقريْبِ مَفْهُومِ الشَّـكلِ وَالهَيْئَةِ في الكَلامِ.. فَقَدْ حَمَلُوا عَمَلَ الشَّـاعرِ على عَمَلِ غَيْرِهِ مُنْطَلقيْنَ مِـنْ مُسَـلَّمَةٍ مَفَادُهَـا أنَّ الشَّـاعِرَ صَانِـعُ كَلامٍ، وَمُصَـوِّرُ أشْـكَالٍ، لا يَخْتَلِفُ عَمَلُهُ عَنْ عَمَلِ غَيْرِهِ مِنْ الصُّنَّاعِ؛ الَّذينَ تَقُومُ صَنَائِعُهُمْ على المَزْجِ وَالتَّركِيْبِ وَالتَّمثِيْلِ بِالتَّصويْرِ»[12]؛ فَرَأيْنَا الجَاحِظَ (ـ 255هـ) يَقُولُ:

«المَعَانِي مَطْرُوحَةٌ فِي الطَّرِيقِ؛ يَعْرِفُهَا العَجمِيُّ وَالعَرَبيُّ،

وَالبَـدَويِّ، وَالقَـرَويِّ، وَالمَدَنِـيِّ، إنَّمَا الشَّـأنُ فـي إقامَةِ الوَزْنِ، وَتَخَيُّرِ اللفظِ، وَسُـهُولَةِ المَخْـرَجِ، وَكَثْرَةِ المَاءِ، وَفي صِحَّةِ الطَّبعِ، وَجَوْدَةِ السَّـبكِ؛ فإنَّمَا الشِّـعرُ صِنَاعَةٌ، وَضَرْبٌ مِنَ النَّسجِ، وَجِنْسٌ مِنْ التَّصويرِ.»(13)

وَعَبَّـرَ أبُو هِلالٍ العَسْـكَريُّ (ـ 395هـ) عَنْ هَذَا الـرَّأي، بِالألفَاظِ ذَاتِهَا، وَزَادَ عَليْهَا، حِيْنَمَا قَالَ:

«.. وَلَيْـسَ الشَّـأنُ في إيْـرَادِ المَعَانِي؛ لأنَّ المَعَانِـي يَعْرِفُهَا العَرَبِيُّ، وَالعَجمِيُّ، وَالقَرَويُّ، وَالبَدَويُّ. إنَّمَا هُوَ في جَوْدَةِ اللفـظِ وَصَفَائِـهِ، وَحُسْـنِهِ، وَبَهَائِـهِ، وَنَزَاهَتِـهِ، وَنَقَائِهِ، وَكَثْـرَةِ طَلاوتِـهِ وَمَائِـهِ، مَـعَ صِحَّـةِ السَّـبكِ وَالتَّركِيْبِ وَالخُلوِّ مِنْ أوَدِ النَّظمِ وَالتَّألِيْفِ.»(14)

وَهَذَا مَا ذَهَبَ إليْهِ أيْضًا ابنُ رَشِيقٍ (ـ 463هـ)، في: العُمْدَةِ، حِيْنَ قَالَ:

«أكْثَـرُ النَّـاسِ على تَفْضِيْـلِ اللفْظِ علـى المَعْنَى، سَـمِعْتُ بَعْـضَ الحُذَّاقِ يقـولُ: قَالَ العُلَمَـاءُ: اللفْظُ أغْلَى مِـنْ المَعْنَى ثَمَنًـا، وَأعْظَمُ قِيْمةً، وَأعَزُّ مَطْلَبًا؛ فَـإنَّ المَعَانِي مَوْجُودَةٌ في طِبَاعِ النَّاسِ؛ يَسْـتَوي الجَاهِلُ فيْهَا وَالحَـاذِقُ، وَلكِنَّ العَمَلَ على جَوْدَةِ الألفَاظِ، وَحُسْنِ السَّبكِ، وَصِحَّةِ التَّألِيْفِ..»(15)

أمَّـا عبـد القَاهـرِ الجُرْجَانِي (ـ 471هـ) فقَـدْ خَرَجَ علـى ثُنَائيَّةِ اللفْظِ وَالمَعْنَى؛ الَّتي شَـغَلَتْ الفِكْرَ النَّقديَّ العَرَبِيَّ طَويْلاً؛ مُنْذُ أنْ اسْـتَهَلَّهَا بِشْرُ بـنُ المُعْتَمِـرِ (ـ 210هـ)، فـي صَحِيْفَتِـهِ الَّتي نَقَلَهَـا الجَاحِظُ فـي: البَيَانِ وَالتَّبيينِ، وَتَأثَّرَ بِهَا، جَاءَ الجُرْجَانِيُّ فَرَهَنَ شِعريَّةَ الخِطَابِ بِطرِيْقَةِ نَظْمِهِ؛ حَيْثُ رَكَّزَ على دَورِ التَّراكِيْبِ النَّحويَّةِ وَالعِلاقَاتِ التَّركِيبيَّةِ وَالتَّنظِيميَّةِ

للغَـةِ، فـي إنْتَاجِ شِـعريَّةِ النَّصِّ، وَانْتَهَـى إلى نَتِيْجَـةٍ مَفَادُهَا أنَّـكَ لَنْ «تَرَى كَلامًـا قَدْ وُصِفَ بِصِحَّةِ نَظْمٍ أوْ فَسَـادِهِ، أوْ وُصِفَ بِمَزِيَّةٍ وَفَضْلٍ فيْهِ، إلاَّ وَأنْتَ وَجَدْتَهُ يَدْخُلُ في أصْلٍ مِنْ أصُولِهِ، وَيَتَّصِلُ بِبَابٍ مِنْ أبْوَابِهِ.»[16]

فَشِـعْرِيَّةُ النَّـصِّ، في رَأيِـهِ، تَتَعَلَّقُ بِطَرِيْقَـةِ نَظْمِهِ، وَالمَجَـازُ يَخْضَعُ لأنْظِمَـةِ النَّحْـوِ وَعِلاقَاتِـهِ التَّرْكِيبِيَّـةِ، وِفْقًا لِرُؤيَـةٍ خَاصةٍ تَقُـومُ بِإنْتَاجِ دَلالاتٍ جَدِيدَةٍ، عَبْرَ بِنْيَةٍ تَرْكِيبِيَّةٍ خَاصةٍ.[17]

وَكَانَ لِلْفَلاسِـفَةِ المُسْـلِمِيْنَ إسْـهَامُهُمْ الوَاضِحِ فـي التَّرْكِيْزِ على شِعْرِيَّةِ الخِطَابِ، فَأكَّدَ ابْنُ رُشْدِ (ــ 595هـ) على أنَّ القَولَ لا يَكُونُ لَهُ فِعْلُ الشِّعْرِ، إلاَّ بِتَوخِّي التَّغْيِيْرِ في تَصْرِيفِ اللغَةِ وَبِنَائِهَا، وَهُوَ مَا جَمَعَهُ في مُصْطَلَحِ المَجَازِ:

«وَالقَـوْلُ إنَّمَـا يَكُـونُ مُخْتَلِفًا؛ أي مُغَيَّـرًا عَنْ القَـوْلِ الحَقِيقِيِّ، مِنْ حَيْـثُ تُوْضَـعُ فيْهِ الأسْـمَاءُ مُتَوَافِقَـةً في المُوَازَنَـةِ وَالمِقْدَارِ وَبالأسْـمَاءِ الغَرِيْبَـةِ، وَبِغَيْـرِ ذَلكَ مِنْ أنْـوَاعِ التَّغْيِيْرِ.. وَبِالجُمْلَةِ، بِجَمِيْـعِ الأنْوَاعِ الَّتي تُسَمَّى عِنْدَنَا مَجَازًا.»[18]

كَمَا أكَّدَ الفَارَابي (ــ 335هـ) على دَورِ التَّصرُّفِ في المُوَاضَعَاتِ، في إنْتَاجِ الشِّعرِيَّةِ بِقَوْلِهِ:

«فَإذَا اسْتَقَرَّتْ الألفَاظُ على المَعَانِي؛ الَّتي جُعِلَتْ عَلامَاتٍ لَهَـا، فَصَارَ وَاحِدٌ وَاحِدٌ لِوَاحِدٍ وَاحِدٍ، وَكَثِيْرٌ لِوَاحِدٍ، أوْ وَاحِـدٌ لِكَثِيْرٍ، وَصَـارَتْ رَاتِبَةً على الَّتـي جُعِلَتْ دَالَّةً على ذَوَاتِهَـا، صَـارَ النَّـاسُ بَعْـدَ ذَلكَ إلـى النَّسـخِ وَالتَّجوزِ في العِبَـارَةِ بِالألفَـاظِ، فَعُبِّـرَ بِالمَعْنَى بِغَيْرِ اسْـمِهِ الَّذي جُعِلَ لَـهُ أوَّلاً، وَجُعِلَ الاسْـمُ الَّذي كَانَ لِمَعْنَى مَـا رَاتِبًا لَهُ دَالاً

علـى ذَاتِـهِ، عِبَـارَةً عَنْ شَـيءٍ آخَرٍ مَتَـى كَانَ لَهُ بِـهِ تَعَلُّقٌ وَلَـوْ كَانَ يَسِـيْرًا، إمَّا لِشَـبَهٍ بَعِيْدٍ، وَإمَّا لِغَيْـرِ ذَلكَ، مِنْ غَيْـرِ أنْ يُجْعَـلَ ذَلكَ رَاتِبًـا لِلثَّانِي دَالاً على ذَاتِـهِ، فَيَحْدُثُ حِيْنَئـذٍ الاسْـتِعَارَاتُ وَالمَجَـازَاتُ وَالتَّجرُّدُ بِلَفْـظٍ مَعْنَى مَا عَـنْ التَّصريْحِ بِلَفْـظِ المَعْنَى الَّذي يَتْلُوهُ، مَتَى كَانَ الثَّانِـي يُفْهَـمُ مِـنْ الأوَّلِ، وَبِألفَاظِ مَعَانٍ كَثِيْرَةٍ يُصَـرَّحُ بِألفَاظِهَا عـنْ التَّصريْـحِ بِألفَاظِ مَعَـانٍ أُخَـرٍ، إذَا كَانَ سَـبِيْلُهَا أنْ يقـرنَ بِالمَعَانـي الأُوَلِ مَتَـى كَانَتْ تُفْهَمُ الأخيْـرَةُ مَعَ فَهْمِ الأوْلَـى، وَالتَّوسُّـعُ في العِبَـارَةِ بِتَكثِيْرِ الألفَـاظِ، وَتَبْدِيْلِ بَعْضِهَـا بِبَعْضٍ وَتَرْتِيْبِهَا وَتَحْسِـيْنِهَا؛ فيبتدِئُ حِيْنَ ذَاكَ في أنْ تَحْدُثَ الخطبيَّةُ أوَّلاً ثُمَّ الشِّعريَّةُ قليْلاً قليْلاً..»[19]

وَيَكْشِفُ لَنَا هَذَا الحِرَاكُ النَّقديُّ، في المَشْهَدِ العَربيِّ، أنَّ:

- البَحْـثَ فـي قَضَايَا الشِّـعريَّةِ، بَـدَأَ مَعَ بِدَايَـةِ البَحْثِ فـي قَضيَّةِ إعْجَازِ القُرآنِ، ثمَّ انْتَقَلَ إلى البَحْثِ في شِعريَّةِ الشِّعرِ، ثمَّ شِعريَّةِ الخِطَابِ الأدَبيِّ عَامَّةً.
- مَوْقِفَ الجَاحِظِ القائم على تَفْضيْلِ الصِّيَاغَةِ على المَعْنَى، كَانَ مَرْكزيًّا في هَذَا المَشْهَدِ، وَكَانَ بِدَايةً لِطَرِيْقٍ، سَلَكَهَا مُعْظَمُ مَنْ أتَوَا بَعْدَهُ.
- الفَلاسِـفَةَ المُسـلمِيْنَ انْطَلَقُـوا مِنْ مَفَاهِيْمِ الشِّـعريَّةِ عندَ أرسْـطو، وَحَاوَلُوا بِهَا اسْـتِقرَاءَ المَشْـهَدِ الأدَبِيِّ العَربِيِّ، وَهُوَ ما كَشَـفَ عَنْ رُؤى مُخْتَلِفَةٍ بَعْضَ الشَّيءِ، تَنْتَمِي إلى مَنْظُورٍ يُونَانِيٍّ لِلشِّعريَّةِ العَربِيَّةِ.

شِعْريَّةُ المَنْظُومِ وَالمَنْثُور في الخِطَاب النَّقديِّ القَدِيْمِ

تَوَقَّفَ نُقَّادُنَا القُدَامَى طويْلاً أَمَامَ شِعريَّةِ المَوْزونِ وَالمَنْثُورِ، وَشَدَّدوا على القَوانيْنِ وَالآليَّاتِ المُشْتَرَكَةِ لإنْتَاجِ الشِّعريَّةِ في كِليْهِمَا؛ بِحَيْثُ أَنَّ الشِّعريَّةَ أصْبَحَتْ جِنسًا يَشْتَمِلُ على المَنْثُورِ وَالمَوْزُونِ، وَيَضْطَلعُ الوَزْنُ بِالدَّورِ التَّمييزيِّ بَيْنَهُمَا عِنْدَهُمْ؛ غَيْرَ أَنَّهُمْ مَا حَلُّوا في فَضاءِ الشِّعرِ إلاَّ اسْتَغْرَقُوا في قَضايَا الشِّعريَّةِ؛ الَّتي تَتَخَطَّى حُدودَ النَّصِّ إلى شِعريَّةِ النَّصِّ، في صورِهِ المُتَعدِّدَةِ.

وَقَدْ قَرَنُوا شِعْريَّةَ القَصِيدِ وشِعْريَّةِ النَّثرِ، وَشَدَّدوا على القِيَمِ الشِّعريَّةِ المُشْتَرَكَةِ بَيْنَهُمَا، يَتَبَدَّى هَذَا لَدَى ابْنِ طباطبا العَلويِّ (ـ 322هـ)؛ الَّذي رَأى أنَّ «الشِّعرَ رَسَائلُ مَعْقُودَةٌ، وَالرَّسَائلَ شِعْرٌ مَحْلُولٌ، وَإذَا فَتَّشْتَ أَشْعَارَ الشُّعراءِ كُلِّهَا وَجَدْتَهَا مُتَنَاسِبَةً؛ إمَّا تَنَاسُبًا قَرِيْبًا أوْ بَعيْدًا، وَتَجِدَهَا مُنَاسِبَةً لِكلام الخُطبَاءِ، وَخُطَبِ البَلغَاءِ، وَفِقَرِ الحُكَمَاءِ»[20]، وَمِنْهُمْ كَذَلكَ ابْنُ خلدون (ـ 808هـ)؛ الَّذي بَيَّنَ أَنَّ العَرَبَ قَدْ اسْتَعْمَلُوا أسَاليْبَ الشِّعرِ وَمَوَازِيْنَهُ في المَنْثُورِ؛ مِنْ كَثْرَةِ الأسْجَاعِ وَالتِزَام التَّقفيَةِ وَتَقديْم النَّسيْبِ بَيْنَ الأغْرَاضِ، وَصَارَ هَذَا المَنْثُورُ، إذَا تَأمَّلتَهُ، مِنْ بَابِ الشِّعرِ وَفَنِّه، وَلَمْ يَفْتَرقَا إلاَّ في الوَزْنِ.. وَهَذَا الفَنُّ المَنْثُورُ المُقَفَّى، أدْخَلَ المُتَأخِّرونَ فيْه أسَاليْبَ الشِّعرِ»[21]، وَمِنْهُمْ كَذَلكَ السِّيوطِيُّ (ـ 611هـ)؛ الَّذي لاحَظَ أنَّهُ إذَا قَوِيَ الانْسِجَامُ في النَّثرِ، جَاءَتْ قِرَاءَتُه مَوْزُونَةً بِلا قَصْدٍ؛ لِقُوَّة انْسِجَامه[22]، وَمِنْهُمْ كَذلكَ أبُو حَيَّان التَّوحيدِيُّ (ـ 403هـ)؛ الَّذي رَأى أنَّ «في النَّثرِ ظِلٌّ من النَّظمِ، وَلَولا ذَلكَ مَا خَفَّ وَلا حَلا وَلا طَابَ وَلا تَحَلَّى، وَفي النَّظم ظِلٌّ مِنْ النَّثرِ، وَلولا ذَلكَ ما تميَّزَتْ أشْكَالُه، وَلا عَذُبَتْ مَوارِدُهُ وَمَصَادِرُهُ،

وَلا بحُورِهُ وَطَرَائِقُهُ، وَائْتَلَفَتْ وَصَائِلُهُ وَعَلائِقُهُ»[23].

وَتَأكِيدًا على أنَّ الشِّعريَّةَ لا تَقْتَصِرُ على المَوْزُونِ؛ بَلْ لا تَرْتَبِطُ بِأصول شِعريَّتِه، أَوْضَحَ عبدُ القَاهِر الجُرجانيُّ أنَّ: »الوَزْنَ ليْسَ مِنْ الفَصاحَةِ وَالبلاغَةِ في شيءٍ؛ إذْ لَوْ كَانَ لَهُ مَدْخَلٌ فيْهِمَا لَكَانَ يَجِبُ في كُلِّ قَصيدَتيْنِ اتَّفقَتا في الوَزْنِ أنْ تَتَّفقَا في الفصاحةِ وَالبَلاغَة.»[24]

فَالشِّعريَّةُ، عِنْدَهُمْ، تُوجَدُ في المَوْزُونِ كَمَا تُوجَدُ في المَنْثورِ، على السَّوَاءِ، وَتَتَدَاخَلُ آليَّاتُ النَّوعيْنِ، تَدَاخُلاتٍ تَتَخَطَّى الحُدودَ المَوْضُوعَةَ على الدَّوامِ.

الشِّعريَّةُ في الخِطَابِ النَّقديِّ المُعَاصِرِ

تَتَّخذُ الشِّعريَّةُ في الخِطَابِ النَّقديِّ المُعَاصِرِ دلالَتيْنِ مُخْتَلِفَتيْنِ؛ فَمَرَّةً تَأتِي صِفَةً لِلخِطَابِ، وَمَرَّةً تَأتِي عِلمًا لِنَظريَّةِ الخِطَابِ.

1 ـ

الشِّعريَّةُ بِوَصْفِهَا خَصِيْصَةً لِلعَمَلِ الأدَبِيِّ

تَأتي الشِّعريَّةُ هُنَا مُحَصِّلةً لاسْتِخدَام أنْقى لِلغَةِ، وَتَجَاوُزِ أنْمَاطِهَا السَّائدَةِ، وَإبْدَاعًا لِخطابٍ أدبيٍّ خَاصٍّ، تبدو الوَظيفَةُ الإبْدَاعيَّةُ لِلغَةِ فيْهِ مُهَيْمِنَةً على شَتَّى الوَظائفِ الأخْرَى، وَقَدْ رَأى يَاكوبسون أنَّ الشِّعريَّةَ هِيَ التَّحققُّ الكاملُ للوَظيفَةِ الإبْدَاعيَّةِ للغَةِ، وَأنَّ التَّركيْزَ على المُرْسَلَةِ «لِحِسَابِهَا الخَاصِّ هُوَ مَا يَطْبَعُ الوَظيْفَةَ الشِّعريَّةَ للغةِ»[25]، وَأكَّدَ تُودوروف أنَّ»اسْتِقلاليَّةَ الشِّعريَّةِ رَهِينَةٌ بِقيَامِ الأدَبِ بذَاتِهِ»[26]، وَبَيَّنَ يَاكوبسون أنَّ «الوَظيفَةَ الشِّعريَّةَ «للغَةِ هِيَ مَوْضُوعُ الشِّعريَّةِ، وَأنَّهَا لا

تَقْتَصِرُ على الشِّعرِ وَحْدَهُ[27]، وَتَسَاءَلَ: «.. كَيْفَ تَتَجَلَّى هَذِهِ الشِّعريَّةُ؟، إنَّهَا تَتَجلَّى في إدْرَاكِ الكَلِمَةِ كَكَلِمَةٍ، وَنَحْوِهَا، وَمَعْنَاهَا، وَشَكْلِهَا الخارجيِّ لَيْسَتْ كعَلامَاتٍ لا مُبَاليَةً للوَاقِعِ؛ بَلْ عَلامَاتٍ تَمْتَلِكُ وَزْنَهَا الخَاصَّ وَقِيمَتَهَا الذَّاتيَّةَ»[28]، أمَّا تُودوروف فَقَدْ رَأى أنَّ «اسْمَ الشِّعريَّةِ سَيَنْطَبِقُ على كُلِّ مَا لَهُ صِلَةٌ بِإبْدَاعِ كُتُبٍ أوْ تَأليْفِهَا؛ حَيْثُ تَكونُ اللغَةُ في آنٍ وَاحِدٍ الجَوْهَرَ وَالوَسِيْلَةَ، لا بِالعَوْدَةِ إلى المَعْنَى الضَّيْقِ؛ الَّذي يَعْني مَجْمُوعَةً مِنْ القَوَاعِدِ، أوْ المَبَادِئِ الجَمَاليَّةِ، ذَاتِ الصِّلَةِ بِالشِّعرِ، وَسَتَتَعَلَّقُ كَلِمَةُ شِعْريَّةٍ في هَذَا النَّصِّ بِالأدَبِ كُلِّهِ سَوَاء أكَانَ مَنْظومًا أمْ لا؛ بَلْ قَدْ تَكَادُ تَكونُ مُتَعلِّقَةً على الخُصوصِ بِأعْمَالٍ نَثريَّةٍ.»[29]

إنَّ التَّركيْزَ على إبْدَاعيَّةِ الأدَاءِ اللغَويِّ، هُوَ مَا يَصْنَعُ شِعريَّةَ الخِطَابِ الأدَبِيِّ، وَيُحَقِّقُ فُرَادَتَهُ النَّوعيَّةَ، وَلَيْسَتْ الشِّعريَّةُ، إذَنْ، مَحْصُورَةً في بِنيَةِ الشِّعرِ، وَإنَّمَا هِيَ خصيْصَةٌ إبْدَاعيَّةٌ تَتَعلَّقُ بِأدَبيَّةِ الأدَبِ، وَ«الوَظيْفَةُ الشِّعريَّةُ» تُوجَدُ في النَّثرِ الفَنِّيِّ، كَمَا تُوجَدُ في النَّثرِ الصُّوفيِّ الشِّعريِّ، كَمَا تُوجَدُ في النَّثرِ الشِّعريِّ، كَمَا تُوجَدُ في الشِّعرِ المَنْثُورِ، كَمَا تُوجَدُ في الشِّعرِ الحُرِّ، كَمَا تُوجَدُ في قَصيدَةِ النَّثرِ.

2 ـ

الشِّعريَّةُ بِاعْتِبَارِهَا نَظريَّةً لِلْخِطابِ الأدَبيِّ

تَشَكَّلتْ الشِّعريَّةُ كَعِلْمٍ يَبْحَثُ في أدَبيَّةِ الخِطَابِ الأدَبيِّ؛ لِلكَشْفِ عَنْ اسْتِرَاتِيجيَّاتِ البِنْيَةِ النَّصيَّةِ الكُلِّيَّةِ؛ الَّتي تَتَمَظْهَرُ في هَذَا الخِطَابِ، وَهِيَ ـ كَعِلمٍ لِلبنيَةِ الأدَبيَّةِ الشَّامِلَةِ ـ تَتَعَامَلُ مَعَ النَّصِّ الأدَبيِّ المُبْدَعِ لا كَنَصٍّ فَرْديٍّ، تَتَجَسَّدُ فيْهِ الخَصائِصُ النَّوعيَّةُ الفَرْديَّةُ؛ بَلْ تَسْتَكْشِفُ

فيْـهِ أبْعَـادَ النَّسَـقِ الكُلِّـيِّ؛ الَّـذي يُجَسِّـدُهُ هَـذَا العَمَـلُ، دُونَ إهْمَـالِ اسْتِرَتِيجيَّاتِهِ الشِّعريَّةِ الخَاصَّةِ.

وَقَـدْ جَعَلتْ الشِّـعريَّةُ عَملَها الأساسِـيَّ، هُوَ «مَعْرِفَـةُ القَوَانيْنِ العَامةِ الَّتـي تُنَظِّـمُ وِلادَةَ كُلِّ عَمَـلٍ؛ وَلـكنَّهَـا بِخِـلافِ هَـذِهِ العُلـوم؛ الَّتي هِيَ عِلْـمُ النَّفسِ وَعِلْمُ الاجْتِمَاعِ.. إلخ، تَبْحَـثُ عَنْ هَذِهِ القَوانيْنِ دَاخل الأدب ذاتِـهِ؛ فالشِّـعريَّةُ إذَنْ مُقَارَبَـةٌ للأدَبِ «مُجَـرَّدَةٌ» وَ«بَاطِنيَّةٌ» فـي الآنِ ذَاتِهِ. لَيْسَ العَمَلُ الأدَبيُّ في حَدِّ ذَاتِهِ هُوَ مَوْضُوعُ الشِّـعريَّةِ؛ فَمَا تَسْـتَنْطِقُهُ هُوَ خَصَائـصُ هَذَا الخِطابِ النَّوعيِّ؛ الَّذي هُوَ الخِطَابُ الأدَبيُّ، وَكُلُّ عَمَلٍ عِندئـذٍ لا يُعْتَبَـرُ إلاَّ تَجلِّيًّـا لبِنْيَةٍ مُحَـدَّدةٍ وَعَامةٍ، لَيْس العَمَـلُ إلاَّ إنْجَازًا مِـنْ إنْجَازَاتِهَـا المُمْكِنَـةِ، وَلِكُلِّ ذَلكَ فـإنَّ هَذَا العِلـمَ لا يُعْنَى بِالأدَبِ الحَقيقـيِّ بَلْ بِـالأدَبِ المُمْكِنِ، وَبِعبَارَةٍ أخْرَى: يُعْنَـى بِتِلكَ الخَصَائصِ المُجَرَّدَةِ؛ الَّتي تَصْنَعُ فَرَادَةَ الحَدَثِ الأدَبيِّ؛ أيْ: الأدَبيَّةِ.»[30]

إن مَفْهُـومَ الشِّـعريَّةِ يَتَخَطَّـى حُـدودَ النَّـصِّ الشِّـعريِّ، إلـى شَـتَّى النُّصوصِ الإبْدَاعيَّةِ؛ الَّتي تُهَيمِنُ فيْهَا الوَظيْفَةُ الشِّـعريَّةُ للغَةِ على غَيْرِهَا مِـنْ الوَظَائِفِ، في تَشْـكِيْلِ بِنْيَـةِ الخِطَابِ، تَشْـكِيْلاً حَدَاثيًّا؛ يَجْذِبُ الانْتِبَـاهَ إلى هَذِهِ البِنْيَةِ ذَاتِهَا؛ «بِوَصْفِهَا صُنعًـا مُتَميِّزًا في اللغَةِ وَباللغَةِ، وَتَشُدُّنَا إلى عِلاقَاتِهَا الدّلاليَّة نَفْسِهَا، قَبْلَ أنْ تَشُدَّنَا إلى شَيءٍ آخَرٍ قَبْلَهَا أوْ بَعْدَهَـا»[31]. تُصْبِـحُ هَذِهِ البِنْيَـةُ فَضَاءً تُهَيْمِنُ فيْهِ الرِّسَـالةُ الجَمَاليَّةُ، «كَأنْ لَيْـسَ لَهَـا هَاجِسٌ سِـوَى وُجُودِهَا الذَّاتِيِّ؛ المُنْفَصِـلِ عَنْ كُلِّ مَا عَدَاهُ، وَكَـأنَّ كُلَّ شَـيءٍ فيْهَا لا يَفْعَلُ شَيْئًا، سِوَى أنْ يُلْفِتَنَا إلى نَفْسِهِ.. التَّركيْـزُ على الكَامِنِ في ذَاتِهَا، كَمَا لَوْ كَانَتْ كَائِنَاتٍ مُسْـتَقِلَّةً، تلفِتُنَـا إلى دَالِهَا أكْثَرَ مِنْ مَدْلُولِهَا.. كَأنَّهَا تَخْلِقُ أُسْـطورَةً خَاصَّةً بِهَا..

يَبْدُو النَّصُّ نَفْسُـهُ كَأنَّهُ بِنْيَةٌ مُنْغَلِقَةٌ على ذَاتِهَا؛ تَقْتَرِنُ «الشِّـعريَّةُ» فيْهَا بِدَلالةٍ ذَاتيَّةٍ، مَوْضُوعُهَا هُوَ مَبْنَاهَا، وَمَبْنَاهَا هُوَ عِلاقَاتُهَا الَّتي لا تَشِـفُّ عَـنْ غَيْرِهَـا، كَمَـا لَوْ كَانَ المَـرْءُ يُركِّزُ علـى زُجَاجِ النَّافذَةِ نَفْسِـهِ، وَلَيْسَ على مَا يَقَعُ وَرَاءَهُ.»[32]

وَإذَا كَانَـتْ الشِّـعريَّةُ تُوجَـدُ في نُصوصٍ شِـعريَّةٍ، كَمَـا تُوجَدُ في نُصـوصٍ نَثْريَّـةٍ، فَإنَّهَا كَذَلكَ تُوجَدُ في نُصوصٍ نَثرِشِـعْريَّةٍ، وَنُصُوصٍ شِـعْرنَثْريَّةٍ، جَامِعَـةٍ؛ تَتَخَطَّـى شِـعْريَّاتُهَا حُـدودَ الشِّـعْرِ وَحُـدودَ النَّثْرِ، وَتُؤسِّـسُ خِطَابَاتِهَا الأجْنَاسِـيَّةَ الجَديدَةَ، على الأعْرَافِ بَيْنَ المَنْطِقَتيْنِ المُحَدِّدتيْنِ؛ جَامِعَةً آليَّاتِهَا مِنْهُمَا مَعًا، في خِطَابٍ جديدٍ.

الإحَالاتُ وَالتَّعليقَاتُ

(1) ابن طباطبا العَلَويّ ـ عِيَارُ الشِّعرِ ـ تحقيق: طَه الحَاجريّ، ومحمَّد زَغْلـول سَـلَّام ـ المَكْتَبَـةُ التّجاريَّة ـ القَاهِـرَة ـ 1965 ـ ص: 3، وَ: قُدَامَة بـنُ جَعْفَـر ـ نَقْدُ الشِّـعرِ ـ تَحْقِيْق ـ: محمَّد عبد المُنعـم خَفَاجِي ـ مَكتبَةُ الكُلِّيَّـاتِ الأزْهريَّـة ـ الطَّبعَة الأوْلَى ـ 1978 ـ ص:64، أبُو يَعْقُوب يُوسُـف السَّـكاكي ـ مِفْتَـاحُ العُلوم ـ مَطْبَعَـة البَابِي الحَلَبِـي ـ القَاهِرَة ـ الطَّبعَة الثَّانيَة ـ 1990 ـ ص:181.

(2) الجَاحِظ ـ الحَيَوَان ـ الجُزْءُ الثَّالثُ ـ تَحقيْق: عبد السَّلام هَارُون ـ مَطْبَعَة البَابِي الحَلَبِي ـ القَاهِرَة ـ 1948 ـ ص:132، : ابنُ رَشِيْق القَيْروانيّ ـ العُمْدَةُ: في مَحَاسِنِ الشِّعرِ وَآدَابِهِ ـ الجُزْءُ الأوَّلُ ـ نَشْر: محمَّد مُحْيي الدِّين عبد الحَمِيْد ـ المَكْتَبَةُ التّجاريَّةُ الكُبْرَى، مَطْبَعَةُ الاسْـتِقَامَةِ ـ القَاهِرَة ـ 1955 ـ ص:99، : حَازِم القُرْطَاجَنِّي ـ مِنْهَاجُ البُلَغَاءِ وَسِرَاجُ الأدَبَاءِ ـ تَحْقِيْق: محمَّد الحَبِيْب بنُ خُوجة ـ دَار الكُتُبِ الشَّرقيَّة ؛ تُونْس ـ 1966 ـ ص:71، 89، : محمَّد بنُ وَهْب ـ البُرْهَانُ في وُجُوهِ البَيَانِ ـ تَحْقيْق: د.حِفْنِي شَرَف ـ مَكْتَبَة الشَّبَاب ـ 1969 ـ ص:130.

(3) المَرْزُوقِـي، فـي شَـرْحِهِ دِيْوَان الحَمَاسَـة، لأبِي تَمَّام ـ نَشْـر: أحْمَد أمِيْن وَعَبْد السَّلام هَارُون ـ 1951 ـ ص:9.

(4) عبـد الرَّحمن بنُ خلـدون ـ مُقدِّمَة ابنِ خلدون ـ الجُزْءُ الثَّانِي ـ دَار إحْيَاء التُّرَاث العَرَبي ـ الطَّبعَة الأوْلى ـ بيروت ـ 1999 ـ ص:573.

(5) رَاجِعْ ـ على سَبيْلِ المِثَالِ ـ: دَلائِل الإعْجَاز، لِعَبْدِ القَاهِرِ الجُرجَانِي، طَبْعَـة الخَانجِي، بِالقَاهِـرَة، 1992 ص:55، : إعْجَاز القُـرَآن، لِلبَاقِلاَّنِي، دَار المَعَارِف، بِالقَاهِرَة ـ 1963، : كِتَاب الصِّنَاعَتيْنِ، لأبِي هِلالٍ العَسْـكريِّ،

المَكْتَبَة العَصْريَّة، ببيروت ـ 1986.

(6) محمود الضَّبع ـ الرِّوَايَة الجَديدَة: قِرَاءَةُ المَشْهَدِ العَرَبيِّ المُعَاصِرِ ـ المَجْلس الأعْلَى للثَّقافَة ـ القَاهِرَة ـ 2010 ـ ص:163.

(7) تزفيتان تُودوروف ـ الشِّعريَّة ـ تَرْجَمَة: شُكري المَنْجُوت، وَرَجَاء بن لامَة ـ دَار تُوبقال ـ الدَّار البَيْضَاء - الطَّبعَة الأوْلى ـ 1987 ـ ص: 13.

(8) قاسِم المُومَنِي ـ الشِّعريَّة في الشِّعر ـ مجلَّة: (فُصُول) ـ المُجلَّد السَّابِع ـ العَدَد الثَّالث وَالرَّابِع ـ 1987 ـ ص:70.

(9) السَّابق ـ ص:70.

(10) د.عبد القَادر المِهْيري، د.حَمَّادِي صمُّود، د.عبد السَّلام المَسَدِّي ـ النَّظريَّة اللسَانيَّة وَالشِّعريَّة في التُّرَاثِ العَرَبيِّ مِنْ خِلالِ النُّصوصِ ـ الدَّار التُّونسِيَّة للنَّشر ـ 1988 ـ ص:45.

(11) محمَّد لُطفي اليُوسِفيِّ ـ أسْئلَةُ الشِّعرِ، وَمُغَالَطَاتُ الحَدَاثَة ـ مجلَّة: (نِزْوَى) ـ العَدَد الخَامِس ـ يناير1996 ـ ص:71.

(12) د.عبد القَادر المِهْيري، وَآخَرونَ ـ سَابق ـ ص ص:45 ـ 46.

(13) الجَاحِظُ ـ الحَيَوان ـ تَحْقِيْق: عبد السَّلام محمَّد هَارُون ـ الجُزءُ الثَّالث ـ القَاهِرَة ـ 1965 ـ ص:131.

(14) عَنْ: عبد القَادر القِطّ ـ مَفْهُوم الشِّعر عندَ العَرَب ـ تَرْجَمَة: د.عبد الحَميد القِطّ ـ دَار المَعَارف بِمِصْر ـ 1982 ـ ص:42.

(15) السَّابق ـ ص ص: 169 ـ 170.

(16) الإمَام عبد القَاهِر الجُرجَاني ـ دَلائِل الإعْجَاز ـ عَلَّق عليْهِ: السَّيد محمَّد رَشِيد رِضَا ـ دَار المَعْرفَة ـ بيروت ـ الطَّبعة الأوْلى ـ 1994 ـ ص ص:70 ـ 71.

(17) يجبُ الإشَارَة إلى أنَّ نَظريَّةَ النَّظمِ قَدْ جَاءَتْ تَلْخِيْصًا لِعَصْرٍ مِنْ

النِّقَاشِ المُتَوَاصِلِ، وَتَتويجًا لِجُهُودٍ مُكَثَّفَةٍ تَجَاوَزَتْ القَرْنيْنِ وَنِصْف؛ سَاهَمَ فيْهَا بَلاغِيُّونَ وَمُتَكَلِّمُونَ وَنُقَّادٌ، كَانَ مِنْهُم: الخَطابيُّ (ـ 388هـ)؛ الَّذي بَيَّن أنَّ القُرآنَ صَارَ مُعْجِزًا؛ لأنَّهُ جَاء بِأفْصَحِ الألفَاظِ، في أحْسَنِ نظوم التَّأليْفِ، كَمَا شَدَّدَ على أهميَّةِ النَّظم باعْتبَارِهِ لِجَامَ الألفَاظِ وَزِمَامَ المَعَانِي، وَبِهِ تَنْتَظِمُ أجْزَاءُ الكَلامِ، وَيَلْتَئِمُ بَعْضُهُ مَعَ بَعْضٍ؛ فَتَقُومُ لَهُ صُورَةٌ في النَّفس، يَتَشَكَّلُ بِهَا البَيَان»: ثَلاثُ رَسَائِلَ في إعْجَازِ القُرآن ـ حَقَّقَهَا وَعَلَّقَ عَلَيْهَا: محمَّد خَلَف اللّه، د. محمَّد زغلول سَلام ـ دَار المَعَارف ـ الطَّبعَة الثَّالثة ـ 1976 ـ ص:33.

وَكَانَ مِنْهُمْ، أيْضًا، الرُّمَّانِي (ـ 384هـ)؛ الَّذي أكَّدَ على دَوْرِ النَّظم وَالتَّأليْفِ بَيْنَ عَنَاصِرِ الكَلام؛ حَيْثُ رَأى أنَّ

« دَلالَةَ الأسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مُتَنَاهِيَةٌ، فَأمَّا دَلالَةُ التَّأليفِ فَلَيْسَ لَهَا نِهَايَةٌ؛ وَلِهَذا صَارَ التَّحدِّي فيْهَا بِالمُعَارَضَة؛ لِتَظْهَرَ المُعْجِزَةُ، وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: قَدْ انْتَهَى تَأليْفُ الشِّعرِ، حَتَّى لا يُمَكِّنَ أحَدًا أنْ يَأتِيَ بِقَصِيدَةٍ إلاَّ وَقَدْ قِيْلَ، لَكَانَ بَاطِلاً؛ لأنَّ دَلالَةَ التَّأليْفِ لَيْسَ لَهَا نِهَايَةٌ يُوْقَفُ عِنْدَهَا، لا يُمْكِنُ أنْ يُزَادَ عَلَيْهَا»

: السَّابق ـ ص:107.

وَقَدْ جَاءَ القاضِي عبدُ الجَبَّار (ـ 415هـ)؛ لِيَخْطُوَ خُطواتٍ وَاسِعَةً صَوْبَ نَظريَّةِ النَّظم، وَيَضَعُ الأسَاسَ للنَّظريَّةِ الَّتي سَيُفَصِّلُهَا عبدُ القَاهِرِ، فِيْمَا بَعْدُ؛ فَقَدْ رَأى أنَّ الفَصَاحَةَ لا تُرَدُّ إلى أفْرَادِ الكَلام؛ وَإنَّمَا إلى طَرِيْقَةِ نَظْمِهِ؛ فَفِيْهَا تَتَفَاوَتُ القُدُرَاتِ، وَتَتَحَدَّدُ دَرَجَاتُ الإبْدَاعِ؛ حَيْثُ يَقُولُ:

«الفَصَاحَةُ لا تَظْهَرُ في أفْرَادِ الكَلام؛ وَإنَّمَا تَظْهَرُ في الكَلام بِالضَّمِّ، على طَرِيْقَةٍ مَخْصُوصَةٍ، وَلابُدَّ ـ مَعَ الضَّمِّ ـ مِنْ أنْ يَكُونَ لِكُلِّ كَلِمَةٍ صِفَة، وَقَدْ يَجُوزُ فِي هَذِهِ الصِّفَةِ أنْ

تَكـونَ بِالمُوَاضَعَةِ الَّتي تَتَنَاوَلُ الضَّـمَّ، وَقَدْ تَكُونُ بِالإِعْرَابِ الَّذي لَهُ مَدْخَلٌ فيْه، وَقدْ تكُونُ بِالمَوْقِعِ، وَلَيْسَ لِهَذِهِ الأَقْسَامِ رَابِـعٌ؛ لأَنَّهُ إِمَّا أَنْ نَعْتَبِرَ فيْه الكَلِمَـةَ أَوْ حَرَكَاتِهَا أَوْ مَوْقِعَهَا، وَلابُدَّ مِنْ هَذَا الاعْتِبَارِ في كُلِّ كَلِمَةٍ، ثُمّ لابُدّ مِنْ اعتِبَارِ مِثْله فـي الكَلِمَـاتِ إِذَا انْضَمَّ بَعْضُهَا إِلى بَعْضٍ؛ لأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ لَهَا عِنْـدَ الانْضِمَامِ صِفَةٌ، وَكَذَلكَ لِكَيْفِيَّـةِ إِعْرَابِهَا وَحَرَكَاتِهَا وَمَوْقِعِهَـا؛ فَعَلـى هَـذَا الوَجْـهِ الَّذي ذَكَرْنَـاهُ إِنَّمَا تَظْهَـرُ مَزِيَّةُ الفَصَاحَةِ، بِهَذِهِ الوُجُوهِ دُونَ غَيْرِهَا.»

: القَاضِـي عبـد الجَبَّـار ــ المُغنِي فـي أبْـوَابِ التَّوحيدِ وَالعَـدْلِ ــ الجُزءُ السَّــادس عَشَــر ــ تَحْقيْـق: أمِين الخُولِـي ــ دَار الكُتُـبِ ــ الطَّبعَة الأوْلَـى ــ 1960 ــ ص:199.

وَقَـدْ أشَـارَ إلى إفَادَةِ عبـد القَاهِرِ مِنْ القَاضِي عبدِ الجَبَّار، في تَأسِـيْسِ نَظريَّـةِ النَّظمِ كُلٌّ مِنْ: شَـوقي ضَيف، في كِتَابِهِ: البَلاغَـة: تَطَوُّرٌ وَتَاريخ ــ دَار المَعَارف ــ الطَّبعة الثَّانيَة ــ ص:177، د. عبد الوَاحد عَلاَّم، في كِتَابِهِ: مَدْخَل إلى البَلاغَةِ العَربيَّةِ ــ مَكتبَة النَّصر ــ 1991 ــ ص ص: 216 ــ 220، محمَّد عَابد الجَابري ــ اللفظُ وَالمَعْنَى ــ مجلَّة: (فُصُول) ــ المُجَلَّد السَّادس ــ العَدَد الأوَّل ــ 1985 ــ ص:40.

(18) عَـنْ: النَّظريَّـة اللسـانيَّة وَالشِّـعريَّة فـي التُّـراثِ العَرَبـيِّ مِـنْ خِلالِ النُّصوصِّ ــ ص: 50.

(19) السَّابق - ص: 239.

(20) ابنُ طباطبا العَلويّ ــ عِيَار الشِّـعر ــ تحقيق: عبَّاس عبد السَّـتَّار ــ دَار الكُتُب العِلْميَّة ــ بيروت ــ ص:81.

(21) عبد الرَّحمن بن خلدون ــ مُقدِّمة ابن خلدون ــ الجُزْءُ الثَّانِي ــ دَار إحْيَاءِ التُّرَاث العَرَبي ــ الطَّبعَة الأوْلى ــ بيروت ــ 1999 ــ ص: 567.

(22) السِّـيوطِيّ ـ الإتْقَـان فـي عِلـومِ القُـرْآن ـ الجُزْءُ الثَّانِـي ـ مَطْبَعَة حِجَازي بِالقَاهِرَة ـ 1941 ـ ص: 147.

(23) أبُو حيَّان التَّوحيديِّ ـ المُقَابَسَات ـ تَحْقيْق: حَسَن السَّندوبي ـ دَار سُعَاد الصَّبَّاح ـ 1992 ـ ص: 245.

(24) عبد القَاهِر الجُرجَانيّ ـ دّلائِل الإعْجَاز ـ سَابق ـ ص:302.

(25) رُومان يَاكوبسون ـ قَضَايَا الشِّعرية ـ ترجمة: محمَّد الوليّ ومبارك حنُّون ـ دار تُوبيقال ـ الدَّار البَيْضَاء ـ الطَّبعَة الأوْلى ـ 1988 ـ ص:31.

(26) تزفيتان تُودوروف ـ الشِّعريَّة ـ سَابق ـ ص:84.

(27) رُومان يَاكُوبسون ـ قَضَايَا الشِّعريَّة ـ سَابق ـ ص:25.

(28) السَّـابق ـ ص:35، فَاطِمَة الطَّبَّال بَرَكَة ـ النَّظريَّة الألْسُـنيَّة عندَ رُومَان جَاكُوبسون: دِرَاسةٌ وَنُصوصٌ ـ المُؤسَّسة الجَامعيَّة للدِّراسَاتِ وَالنَّشر وَالتَّوزيع ـ بيروت ـ 1993 ـ ص:252.

(29) تزفيتان تُودوروف ـ الشِّعريَّة ـ سَابق ـ ص ص: 23 ـ 24.

(30) السَّابق ـ ص:23.

(31) جابـر عصفـور ـ مَعنـى الحَدَاثـة فـي الشِّـعر المُعَاصِـر ـ مَجلَّـة: (فُصُول) ـ المُجَلَّد الرَّابِع ـ العدد الرابع ـ 1984 ـ ص:42.

(32) السَّابق ـ ص:43.

الفَصْلُ الأَوَّلُ

النَّثْرُ الفَنيُّ

وَأطَوارُهُ التَّأسيسيَّة في الأدبِ العَرَبيِّ

«وَقَد اسْـتَعْمَلَ المُتأخِّرونَ أسَـاليبَ الشِّـعرِ وَمَوَازِينَـهُ في المنثورِ، مِنْ كثرةِ الأسْـجَاعِ وَالْتزَامِ التَّقفيةِ وَتَقديمِ النَّسـيبِ بينَ يديْ الأغْرَاضِ، وَصَارَ هَذَا المَنْثُورُ إذَا تَأمَّلتَهُ مِنْ بَابِ الشِّعرِ وَفَنِّه، وَلَمْ يَفْتَرِقَا إلاَّ في الوَزن.»

عبد الرَّحمن بن خلدون

مُقدِّمةُ ابن خلدون ــ ص: 567.

«إنَّ النَّثرَ الفَنيَّ لَمْ يَنْشَأْ إلاَّ على أسَاسِ نِظَامٍ شِعْريٍّ مُعَيَّنٍ، يكونُ هَذَا النَّثرُ الفَنيُّ كَأنَّهُ رَفْضٌ لَهُ.»

يوري لوتمان

تحليل النَّصِّ الشِّعريِّ ــ ص:49.

مفهومُ النَّثرِ الفَنِّيِّ، وَمَحَطَّاتُهُ الأسَاسِيَّةُ

النَّثـرُ الفَنِّـيُّ هو نثرٌ إبْدَاعِيٌّ؛ يتأسَّـسُ على قواعـدِ الصِّناعةِ الفنيَّةِ؛ مِنْ تشـكيلاتٍ لُغويَّةٍ، وَمَجَازيَّةٍ، وإيقاعيَّةٍ؛ تعتمدُ السَّجعَ أوْ الازْدواجَ، وَتُهَيمِـنُ على أدائِهِ التَّوازُنَاتُ وَالتَّوازيَاتُ وَالتَّصويرُ، وفي حَالاتٍ كثيرةٍ يعتمدُ شَـتَّى القِيمِ الفنيَّةِ التي اشْتَغَلَتْ عليها شِعْريَّةُ القَصِيدِ، وَهُو أقدمُ الأجنـاسِ الإبداعيَّـةِ في خريطـةِ الأدبِ العَربيِّ على الإطْـلاقِ، وَأطْولُهُا عُمْرًا، وَهُوَ الجِنسُ الإبْدَاعيُّ الذي تَوَاشَـجَتْ فيه إمْكانيَّاتُ (الشِّعرِ)، وَإمكانيَّـاتُ (النَّثـرِ)، لأوَّلِ مَـرَّةٍ، في عِدَّةِ تجلياتٍ وأنْسَـاقٍ، شَـكَّلتْ ـ فـي حَالاتِهَـا النَّاجزةِ الصَّافيةِ ـ الشَّـكلَ الأدبيَّ المُعَـادلَ للقصيدةِ الشِّعريَّةِ ؛ وذلكَ لاعْتِمَادِ كُلٍّ مِنْهُمَا على أسَاسَينِ مُشْتَرَكينِ هُمَا :

سِيادَةُ الإيقاعِ، وَالحِرْصُ على تَشْكِيلِ خِطَابٍ إبْدَاعِيٍّ فَارِقٍ.

وَقَدْ اعْتَمَدَ النَّثْرُ الفَنيُّ في مَسِـيرتِهِ الطَّويلةِ المُزْدَحِمَةِ على قِيمَتَينِ إيقَاعِيتينِ هُمَا : السَّجعِ؛ وَالازْدواجِ، تنقَّلتْ بَيْنَهُمَا أطْوَارُهُ الإبدعيَّةُ، عَبْرَ عُصُورِهِ الطَّويلةِ، وَتَحَوُّلاتِهِ المُخْتلفةِ.

وفـي النَّثـرِ الفَنيِّ المَسْـجوعِ مَثَّلَ (السَّـجْعُ) مَـا تُمثِّـلُهُ (القَافيَةُ) في (الشِّعرِ)؛ فقدْ لاحَظَ زكي مُبارك أنَّ السَّجعَ (الكِتَابَةَ) كَالقَصِيْدِ(1)، كَمَا لاحَظَ شوقي ضيف أنَّ السَّجعَةَ أصْبَحَتْ «هِيَ الوحدةُ البَلاغيَّةُ في النَّثـرِ، كَمَـا كانَ البيتُ هُوَ الوحـدةُ البَلاغيَّةُ في الشِّـعرِ، وَهِيَ وحدةُ أضْيَقُ مِنْ وحدةِ البيتِ وَأقْصَرِ؛ إذْ قدْ تُصْبِحُ كلمةً أوْ كلمتينِ.(2)

أمَّـا الازْدِوَاجُ؛ الـذي حَرَّرَ النَّثْرَ الفَنيَّ مِنْ قيـدِ التَّقفيَةِ في الكَلامِ،

فقـد رأى فيـه أبو هـلال العسـكري (ـ 359هـ) شَـرْطاً لِحُسْـنِ مَنْثُورِ الكَلام؛ فـ«لا يَحْسُنُ مَنْثُورُ الكَلامِ وَلاَ يَحْلو حَتَّى يكونَ مُزدَوجًا.»[3]

وَلَقَـدْ بَـدَأَ الوعْيُ بِشِـعْرِيَّةِ هـذا النَّصِّ في عَمَـلِ نُقَّادِنَا وَفَلاسِـفَتِنَا القُدامَـى حِيْنَ رَكَّزُوا على المكوناتِ الجماليةِ للخطابِ في (الشِّـعرِ) وفي (النَّثرِ) على حَدِّ السَّواءِ.

وَالنَّثرُ الفَنيُّ هُوَ أقْدَمُ فنونِ القَوْلِ الأدَبيِّ حُضُورًا؛ إذْ يَسْـبِقُ الشِّـعرَ الجَاهلـيَّ وَيَمْتَـدُ فِعْلُهُ إلي الرُّبـعِ الأَوِّلِ مِنِ القرنِ العشـرين؛ فَهُوَ كَائِنٌ مُعَمّرٌ، شَـهِدَ تَحَوُّلاتٍ جَمَّةً شَـارَكَتْ فيها أسْمَاءُ لا يُمكِنُ حَصْرُهَا أوْ إحْصَاؤها؛ فَالمَشْهَدُ العَامُ للنَّثرِ الفَنيِّ زَاخِرٌ وَمُتَشَابِكٌ وَزَاخِمٌ وَمُتَواشِجٌ، لَكنَّنَـا نَرَى أنَّ النَّثرَ الفنيَّ قدْ مَرَّ بِبِدَايَاتٍ ثَلاثٍ أسَاسِـيَّةٍ يُمْكِنُ ـ مِنْ خِلالها ـ رَصْد المَشْهَدِ الرَّحيبِ، في حَرَكَاتِهِ الأسَاسِيَّةِ:

. البِدَايَةُ الأوْلَى:

النَّثرُ الجَاهِليُّ المَسْجُوع:

وَأبْـرزُ مَـا يُوضِّـحُ هَـذِهِ المَرْحَلةَ سَـجْعُ الكُهَّـانِ وَخُطَـبُ الخُطَباءِ المَسْجُوعَةِ، وَهُوَ أقدَمُ مَا وَصَلَنَا مِنْ ضُرُوبِ الإبْدَاعِ الأدبيِّ قاطِبةً؛ حَيْثُ تَفَرَّعَ عَنْهُ الرَّجَزُ، ثُمَّ الشِّعرُ المَوْزون.[4]

. البِدايَةُ الثَّانيَةُ:

النَّثرُ الفنيُّ المُرْسَلُ:

وتبدأُ هَذِهِ المَرْحَلةُ بِنِتَاجِ سَالمٍ مَوْلَىَ هِشَام بن عبد الملك، وَتَتَلخَّصُ فنّيًّا فـي عَمَلِ عبـد الحميد بـن يحيـى الكَاتِـبِ، وَتَأكَّـدَ حُضُورُهَا

بِمُنْجَـزَاتِ عبـد اللّه بـنْ المُقَفَّع، ثُمَّ سَـهْلٍ بنْ هَارون، حَتَّـى وَصَلَتْ إلى ذِرْوتِهَا لدى أبي عمروٍ بنْ بَحْرٍ الجَاحِظ.

. البِدَايَةُ الثَّالثةُ:

انْبِعَاثَةُ النَّثرِ المَسْجُوعِ المُكَدَّسِ بِأشْكَالِ البَدِيعِ وَضُرُوبِ البَيَانِ:

النَّثرَ الفَنيَّ التَّزييني المَسْجُوع:

وَقَـدْ بَـرَزَتْ نَمَاذِجُـهُ الرَّائِـدَةُ المُؤسِّسَـةُ عَلى أيْـدي أعْـلامِ الكِتَابَةِ الفَنيَّـةِ في القرنِ الرَّابعِ الهِجْريِّ، وَمِنْهُمْ ابْنُ العَمِيد، وَالصَّاحِبُ بنْ عَبَّاد وَالخُوارِزْمِيُّ، وَقَابوسٌ بنْ وَشْمَكير، وَبَدِيعُ الزَّمَانِ الهَمَذَانيُّ، وَسِوَاهُمْ.

وَقَـدْ ظلَّتْ هَـذِهِ المَرْحَلةُ فَاعِلةً بِقـوَّةٍ في (الكِتَابَـةِ) العَربيَّةِ؛ حَيْثُ امْتَدَّتْ إلى فَضَاءَاتِ الرُّبْعِ الأوَّلِ مِنَ القرنِ العِشْرين.

سَـنَنْظُرُ فـي كُلِّ بِدَايـةٍ مِنْ هَـذِهِ البِدَايَـاتِ إلى عَمَلِهَا الأسَاسِـيّ، وإلى مَنْطِقِهَا الإبْدَاعيّ، رَاصِدِيْنَ مَجْمُوعَةً مِنَ الأسْـمَاءِ التي قَادَتْ هَذِهِ التَّحوُّلاتِ، مِنْ عَهْدِ الشُّروقِ حَتَّى أوَان الغَسَق.

البِدَايَةُ الأُوْلى

النَّثرُ الجَاهِليُّ المَسْجُوعُ

مَفْهُومُ السَّجْعِ

تُرْجِـعُ المَعَاجِـمُ كلمَـةَ (السَّـجْع) إلى هَدِيـلِ الحَمَام؛ حَيْـثُ يُردِّدُ أصْوَاتًـا مُتَشَـابِهَةً لا مَعْنَى لَهَا، وَنَقْرأُ أنَّ السَّـجْعَ «هُوَ الـكَلامُ المُقفَّى غَيْرُ المَوْزُونِ؛ وَالسَّجْعَةُ الفِقْرةُ مِنَ الكَلامِ المَسْجُوعِ[5]، وَسَجَعَ الشَّيء

سَـجْعًا اسْتَوَى وَاسْـتَقَامَ وَأشْـبَهَ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَيُقَالُ: سَـجَعَتْ الحَمَامَةُ وَالنَاّقَـةُ ، رَدَّدَتْ صَوْتَهَـا علـى طريقـةٍ واحدةٍ ، وسَـجَعَ فُلانٌ في سَـيْرِهِ: اسْـتَوَى وَاسْـتَقَامَ لا يَمِيْلُ عَنِ القَصْدِ ، وَفُلانٌ: تَكَلَّمَ بِكَلامٍ لَهُ فَوَاصِلُ كَفَوَاصِـلِ الشِّـعرِ؛ مُقَفًّى غير مَوْزُونٍ، وَالسَّـجْعُ الـكَلامُ المُقَفَّى غَيْرُ المَوْزُونِ [6].

أمَّـا «التَّرجَمَـةُ الإنْجليزيَّةُ فَتُسَـمِّيه النَّثرَ المُقَفَّى» [7]. وَقَـدْ جَعَلَ ابْنُ الأثيـرِ (637 هـ) حَدَّهُ تَوَاطـؤ الفَوَاصِلِ في الـكَلامِ المَنْثُورِ على حَرْفٍ وَاحِـدٍ» [8]، ورأى الخطيـبُ القزوينـي (739 هــ) أنَّهُ «تَواطـؤُ الفَاصِلتينِ مِـنَ النَّثـرِ عَلى حرفٍ واحدٍ ، وَهَذَا مَعْنَى قول السَّـكاكيِّ (ـ 626هـ): الأسْـجَاعُ مِـنَ النَّثـرِ كالقوافـي مِـنَ الشِّـعر» ، وَقَـالَ ابْنُ أبـي الأصْبع (ـ 654 هــ) فـي المَجَـالِ ذَاتِهِ: «التَّسـجِيعُ هُوَ مَـا يَتَوخَّـاهُ المُتَكلِّمُ أوْ الشَّـاعرُ، في أجْزاءِ كلامهِ؛ بَعْضُهَا مُتَّزِنَةٌ بِزنَةٍ عَروضِيَّةٍ وَمَحْصُورَةٍ في عَـددٍ مُعَيَّنٍ، بشـرطِ أنْ يكونَ رويُّ الأسْـجَاعِ رَويَّ القَافيَـةِ» [9] ، ويُقدِّمُ بِلاشـير تَعْريفًا وَافيًا لِمُصْطَلحِ السَّـجعِ، حَيْثُ يقول إنَّه «نوعٌ مِنَ النَّثرِ، يتميَّزُ بِاسْـتِخْدَامِ وَحَدَاتٍ مَوْزونَةٍ، عَادَةً مَا تكونُ قَصِيرةٌ، يَتَرَاوحُ عَدَدُ مَقَاطِعِهَـا بينَ أربعةٍ إلى ثَمَانيَةِ مَقَاطع، وأحيانًا أكثر مِنْ ذَلك، وَتَنْتَهي هَذِهِ الوَحَدَاتُ بِقَافيَةٍ ، وَتَنْقَسِـمُ هَذِهِ الوَحَدَاتُ المَوْزونَةُ إلى مَجْمُوعَاتٍ؛ بِحَيْـثُ يكونُ لِـكُلِّ مَجْمُوعَةٍ قَافِيَةً وَاحِدة ، وفي هَـذِهِ المَجْمُوعَاتِ لا يُشْـتَرَطُ أنْ تَتَسَـاوَى الوَحَدَاتُ في مَقَاطِعِهَا ، وفي التَّحليلِ الأخيرِ ، فَإنَّ العُنْصـرَ الأسَاسِـيَّ هُـوَ التَّقفيَةُ ، وَعَلى هَذَا نَسْـتَطِيعُ أنْ نُعَرِّفَ السَّـجعَ تَقْريبًا بأنَّهُ نَثْرٌ مَوْزونٌ مُقَفًّى.» [10]

وَاللاَّفـتُ في تَعريفِ بِلاشـير للسَّـجعِ بأنَّـهُ (النَّثرُ المَـوْزونُ)، أنَّه أتـى

أكْثَرَ دَلالةً وَاشْتِمالاً مِنْ دَلالةِ التَّرجَمَةِ الإنْجليزيَّةِ لهُ: (النَّثر المُقفَّى)؛ لأنَّهُ سَيَتَعَدَّى التَّركِيزَ عَلى دَلالةِ تِكْرَارِ أحْرُفِ نِهَايَاتِ الفَوَاصِلِ إلى تَعَادُلِ أقْسَامِ الكَلامِ، وَتَوَازُنِ مِسَاحَاتِهِ الصَّوتيَّة، وَقَدْ أوْشَكَ ابْنُ الأثيرِ أنْ يَضَعَ الضَّوابِطَ الحِسَابيَّةَ لأوْزَانِ السَّجعِ، المُسْتَخْلَصَةِ مِنْ أنْظِمَةِ السَّجعِ في القُرآنِ، وَهُوَ يَضَعُ أقْسَامَهُ وَعَدَدَ كَلِمَاتِ الفَوَاصِلِ[11]، كَمَا تَحَدَّثَ ابْنُ سِينَا، مِنْ قَبْلُ، عَنْ أشْكَالِ النَّثرِ الموزونِ، وَكَمَا تَحَدَّثَ مِنْ بَعْدُ ابْنُ عبد الغفور الكَلاعيِّ عَنْ أوْزَانِ السَّجعِ، وَقَوَانينِ الإبْدَاعِ فِيْهَا.[12]

سَجْعُ الكُهَّانِ

سَجْعُ الكُهَّانِ هُوَ أقدَمُ مَا وَصَلَنَا مِنْ عَمَلِ النَّثرِ الفَنيِّ؛ حَيْثُ كَانَتْ الكَهَانَةُ ـ في الجَاهِليَّةِ ـ مَحْفُوفَةً بِالقَدَاسَةِ وَالمَهَابَةِ وَالنُّفوذ، وَحَيْثُ اعْتَقَدَ مُعَاصِرُوهُمْ بِمَعْرِفَتِهِمْ للغَيْبِ، عَنْ طَريقِ الجِنِّ، وَيَذْكُرُ ابْنُ خلدون (ـ 808هـ) أنَّ الكَاهِنَ كَانَ لا يَقْوَى «عَلى الكَمَالِ في إدْرَاك المَعْقُولاتِ؛ لأنَّ وَحْيُهُ مِنْ وَحْي الشَّيطَانِ، وَأرْفَعُ أحْوَالِ هَذَا الصِّنفِ أنْ يَسْتَعِيْنَ بِالكَلامِ الذي فيهِ السَّجعُ وَالمُوَازنَةُ؛ لِيَشْتَغلَ بِهِ عَنِ الحَوَاسِ وَيَقْوَى بَعْضَ الشَّيءِ عَلى ذَلكَ الاتَّصالِ النَّاقصِ، فَيَهْجِس في قلبِهِ عَنْ تِلكَ الحَرَكةِ، والذي يُشيِّعها مِنْ ذَلكَ الأجنبيِّ، مَا يَقْذِفُهُ عَلى لِسَانِهِ فَرُبَّمَا صَدقَ وَوَافَقَ الحَقَّ، وَرُبَّمَا كَذبَ؛ لأنَّهُ يُتَمِّمُ نَقْصَهُ بِأمْرٍ أجْنَبيٍّ عَنْ ذَاتِهِ المُدْرِكَةِ، وَمُبَاينٍ لَهَا غيرِ مُلائِم، فَيَعْرِضُ لَهُ الصِّدقُ وَالكَذبُ جَميعًا، وَلا يَكُونُ مَوْثُوقًا بِهِ، وَرُبَّمَا يَفْزَعُ إلى الظّنونِ وَالتّخمينَاتِ؛ حِرْصًا على الظّفرِ بِالإدراكِ بِزَعْمِهِ، وَتَمْويهًا على السَّائلينَ، وَأصْحَابُ هَذَا السَّجعِ هُمْ المَخْصُوصُونَ بِاسْمِ الكُهَّانِ؛

لأَنَّهُمْ أَرْفَعُ سَائِرِ أَصْنَافِهِمْ.[13]

وَقَدْ تَمَيَّزَ سَجْعُ الكُهَّانِ بِالتَّنَبُّؤِ المُلْغِزِ وَالغَرَابَةِ وَالتَّعتيم والاسْتِغْلاقِ السِّحريِّ؛ لِيُوحِيَ لِلْمُتَلقِّينَ باتِّصَالِ الكَاهِنِ بِالغَيْبِ، فَأَتَى السَّجْعُ، في كَثِيْرٍ، أَشْبَهَ بِمَا يَقْذِفُهُ المُشَعْوِذُونَ مِنْ عِبَاراتٍ مَسْجُوعَةٍ، وَنَقَلَتْ لَنَا كُتُبُ الأدبِ أَسْمَاءَ العَديدِ مِنْهُمْ، وَبَعْضَ أَسْجَاعِهِمْ، وَمِنْهُمْ «شِقُّ أَنْمَار؛ وَتَحْكِي الأَسَاطِيرُ عَنْ خِلْقَتِهِ أَنَّهُ كَانَ شِقَّ إِنْسَانٍ؛ لَهُ عَيْنٌ وَاحِدَةٌ، وَيَدٌ وَاحِدَةٌ، وَرِجْلٌ وَاحِدَةٌ، وَمِنْهُمْ سَطِيْحُ الذِّئبيُّ؛ وَيَقُولونَ عَنْهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيْهِ عَظْمٌ سِوَى جُمْجُمَتِهِ، وَأَنَّ وَجْهَهُ كَانَ في صَدْرِهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عُنُقٌ، وَمِنْهُمْ المَأْمُورُ الحَارِثيُّ كَاهِنُ بني حَارثِ بنْ كَعْبٍ، وَعُزَّي سَلَمَة، وَمِنْ أَشْهَرِ الكَاهِنَاتِ طَرِيفَةُ الكَاهِنَةُ وَكَانَتْ بِاليَمَنِ، وَفَاطِمَةُ الخَثْعَمِيَّةُ وكانت بِمَكَّةَ، وَالزَّرقاءُ بِنْتُ زُهَير، وَزَبْرَاءُ كَاهِنَةُ بني رِئَام.»[14]

وَهُنَاكَ تَشْكِيكٌ عامٌّ في الصِّحةِ التَّامةَ لروايَةِ هَذِهِ الأَسْجَاع؛ فَمِنَ الوِجْهَةِ التَّاريخيَّة هُنَاكَ مَسَافةُ طَويلةُ بَيْنَ روايتِهَا وَكِتَابَتِهَا[15]، حَيْثُ دُوِّنتْ هذه الأَسْجَاعُ الجَاهِلِيَّةُ في العَصْرِ العَبَّاسِيِّ، وَلكنَّ الذي لا شَكَّ فيهِ هُوَ تَوفُّرُ آليَاتِ السَّجعِ في سَائِرِهَا؛ بدليلِ قولِ الرَّسولِ ـ صَلَّى اللّه عَليهِ وَسَلَّمَ ـ: «أَسَجْعًا؛ كَسَجْعِ الكُهَّانِ؟»، وَقَدْ تَبَدَّى السَّجعُ الجَاهِليُّ في عِبَارَاتٍ قَصِيْرَةٍ مُرَكَّزةٍ مُتَعَادلةٍ ومُبْهَمَةٍ غَالبًا، وَ«كَانَتْ نُبوءاتُ الكُهَّانِ وَالعَرَّافينَ تعتمدُ عَلى السَّجعِ، وَكَانَ لِلسَّجعِ مِنْ ثَمَّ دَلالَةٌ في الضَّميرِ الثَّقافيِّ عَلى أنَّ هَذَا الكَلامَ ليسَ مِنْ كَلامِ البَشَرِ النَّاطقِ بِهِ»[16]، وَقَدْ كَانُوا يَلتَزِمُونَ بِهِ التزامًا غَرَائبيًّا تَامًّا؛ يُضْفِي طَقْسًا مِنَ السِّحريَّةِ المُغْلَقةِ عَلى خِطَابِهِمْ.

ألوانٌ مِنْ سَجْعِ الكُهَّانِ

يَنْقلُ لَنَا الجَاحِظُ (ــ 255هـ) مِنْ سَجْعِ عُزَّي:

«*وَالأرْضِ وَالسَّـمَاء، وَالعُقَابِ وَالصَّعْقَـاء، وَاقِعَةٌ بِبَقَعاء، لَقَدْ نَفَّرَ المَجْدُ بَنِي العَشْرَاء، لِلْمَجْدِ وَالسَّنَاء.*» (17)

كَمَا ينقلُ لنَا أبُو عليٍّ القالِي (ــ 356هـ) أنّ زَبْرَاءُ أنْذَرتْ قَوْمَهَا غَارَةً عَليهِمْ، فَقَالَتْ:

«*وَاللّـوحِ الخَافِـق، وَالليـلِ الغَاسِـق، وَالصَّبَاحِ الشَّـارِق، وَالنَّجْـمِ الطَّارِق، وَالمُزْنِ الوَادِق، إنَّ شَـجَرَ الوَادِي لَيَأدِّوا خَتَـلا، وَيَحْـرِقُ أنْيَابًـا عُصْـلا، وَإنَّ صَخْـرَ الطَّـودِ لَيُنذرَ ثكْـلا، لا تَجِدُونَ مَعَهُ مَعْلا.*» (18)

وَأوْرَدَ الأصْفَهَانِيُّ (ــ 356هـ) في كِتَابِهِ: «الأغَانِي»:

إنَّ حُجْرًا أبَا امْرِئِ القَيْسِ رَقَّ لبني أسَدٍ «فَبَعَثَ في أثْرِهِمْ، فَأقْبَلوا، حَتَّـى إذَا كَانُـوا عَلى مَسِـيْرَةِ يـومٍ مِنْ تِهَامَـة، تَكَهَّنَ كَاهِنُهُـمْ، وَهُوَ عَوْفُ بنْ رَبِيْعَة، فَقَالَ لبني أسَـدٍ: «يَا عِبَادِي! قَالُوا: لبَّيكَ رَبَّنَا، قَالَ: مَنْ المَلِـكُ الأصْهَبُ؟ الغَـلاَّبُ غَيْرُ المُغَلَّب؟ في الإبِـلِ كَأنَّهَا الرَّبْرَبُ، لا يَعْلَقُ رَأسُـه الصَّخَب، هذا دمه يَنْثَعِب، وَهَذَا غدًا أوَّلُ مَنْ يُسْلَب، قَالُوا: مَـنْ هُـوَ يَا رَبَّنَا؟ قَالَ: لَـوْ أنْ تَجِيْشَ نَفْسُ جَاشِـيَة، لأخْبَرْتُكُمْ أنَّهُ حُجْرٌ ضَاحِيَة، فَرَكَبُوا كُلَّ صَعْبٍ وَذَلُولٍ، فَمَا أشْـرَقَ لَهُمْ النَّهَارُ، حَتَّى أتَوا عَلى عَسْكَرِ حُجْرٍ، فَهَجَمُوا عَلى قُبَّتِهِ، وقتلوه.» (19)

وَفَسَّـرَ سَـطِيحُ رُؤيا رَبِيْعَـة بنْ مُضَر؛ مَلِـكِ اليَمَنِ، عَلى هَـذا النَّحوِ؛ الذي أوْرَدَهُ ابْنُ إسْحَاق (ــ 151 هـ) في: «سِيْرَةِ النَّبي»:

«رَأيْـتُ حُمَمَة ، خَرَجَتْ مِـنْ ظُلُمَة ، فَوَقَعتْ بِـأرْضِ تُهَمَة ،
فَأكَلَتْ مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ جُمْجُمَة.»
والرُّؤيَا نَفْسُهَا فَسَّرَهَا لَهُ شِقُّ أنْمَار ، بِقَوْلِه:
«رَأيْـتُ حُمَمَــة ، خَرَجَــتْ مِـنْ ظُلُمَــة ، فَوَقَعتْ بَيْـنَ رَوْضَةٍ
وَأكَمَة ، فَأكَلَتْ مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ نَسَمَة.»[20]

وَقَـدْ ذَهَـبَ عبـدُ المَسِـيح إلـى سَـطِيح؛ لِتَأويـلِ رُؤى ارْتِجَـاجِ إيْوانِ كِسْـرَى وَخُمودِ النَّار بِفَارِس، وَعَدَم جَرَيَانِ المَـاءِ بِبُحَيْرَةِ طَبَرِيَّة؛ لِيؤِّلَ لَـهُ، فَوَجَـدَهُ قَدْ احْتُضِرَ، فَنَـادَاهُ، فَلَمْ يُجِبْهُ، وَكَلَّمَهُ، فلَـمْ يَرُدّ عَلَيْهِ، وَدَعَاهُ شِعْرًا، فَرَفَعَ إليْهِ رَأسَهُ، وَقَالَ:

«عَبْدُ المَسِـيْح، عَلى جَمَلٍ مُشِيْح، إلى سَطِيْح، وَقَدْ أوْفَى
إلــى الضَّريْـح، بَعَثَكَ مَلِكُ بَنِي سَاسَــان؛ لارْتِجَاجِ الإيوان،
وَخُمُـودِ النِّيرَان، وَرُؤيَا المُوْبِـذَان، رَأى إبِلاً صِعَابًا، تَقُودُ
خَيْلاً عِرَابا، قَد اقْتَحمَتْ في الْوَاد، وَانْتَشَرتْ في البِلاَد،
عَبْدَ المَسِـيْح: إذَا ظَهَرتْ التِّلاوَة، وَفَاضَ وَادي السَّـمَاوَة،
وَظَهَرَ صَاحِبُ الهَرَاوَة، فَلَيْسَــتْ الشَّامُ لِسَطِيْح بِشَام يَمْلُكُ
مِنْهَا مُلُوكٌ وَمَلِكَات، عَدَدَ سُـقُوطِ الشُّـرفَات، وَكُلُّ مَا
هُوَ آتٍ آت.»[21]

وَنَقرَأُ، مِنْ حَديثِ خُنَافر الحِمْيَرِيِّ، مَعَ رِئيِّه شِصَار:

«قَالَ: خُنَافِر، فُقُلْتُ: شِصَار، فَقَالَ: اسْمَعْ أقُلْ، قُلْتُ: قُلْ
أسْـمَعْ، فَقَـالَ: عِهْ تَغْنَمْ؛ لِكُلِّ مُـدَّةٍ نِهَايَة، وَكُلُّ ذِي أمَدٍ
إلــى غَايَة، قُلْتُ: أجَلْ، قَالَ: كُلُّ دَوْلَــةٍ إلى أجَل، ثُمَّ يُتَاحُ

لَهَا حَول، انْتُسِخَتْ النَّحل، إنَّكَ سِجِّيْرٌ مَوْصُول، وَالنُّصْحُ لَكَ مَبْذُول.»[22]

وَمِمَّـا وَصَلَنَـا، كَذَلِكَ، «مِنْ غَمْغَمَاتِ الكَهَانَـةِ وَطَمْطَمَةِ الكُهَّانِ وَنَفْثِ الكَاهِنَاتِ، قَوْلُ كَاهِنَةٍ مِنْ حِنْدِس:

«أُنْذِرُكُـمْ قَوْمًـا خُـزْر، يَنْظُرُونَ شُـذْر، وَيَقُـودُونَ الخَيْلَ نَتْر، وَيُهْرِقُونَ دَمًا عِكْرا.»[23]

وَيَنْسِبُونَ لأَحَدِ الشَّيَاطِين قَوْلَهُ لِعُلْقُمَةَ بنْ صَفْوَان:

« عُلْقُمَـةُ إنِّـي مَقْتُـول، وَإِنَّ لَحْمِـي مَأكُـول، اضْرِبْهـمْ بِالْمَسْلُول، ضَرْبَ غُلامٍ مَشْلول، رَحْبَ الذِّراعِ بهلول.»[24]

وَمِنْ هَذِهِ النَّمَاذجِ يَتَّضِحُ لَنَا اعْتِمَادُهُمْ الكَامِلِ على السَّجْع؛ ذي النَّبرِ الوَاضِـحِ، وَلَقَدْ كَانَ سَـجْعُ الكُهَّانِ أجْلَى مَا يُمَثِّلُ السَّـجْعَ الجَاهليَّ، وَيَعْتَبِـرُ «جُوْلدزُهيـر» السَّـجْعَ «أقْـدَمَ صُوْرَةٍ مِـنْ صُورِ التَّعبيرِ الشِّـعريِّ فـي العَرَبيَّةِ؛ إذْ يَسْـبِقُ الأرَاجِيْزَ وَالقَصَائِدَ جَمِيعًـا[25]، وَمِنْ الوَاضِحِ أنَّهُ اعْتَمَدَ بِشَـكلٍ أسَاسِـيٍّ، في تَشْـكيلِ فَضَائِه الشِّـعْريِّ، عَلى طُقوسِ السِّـحْرِ، وَآلياتِ الشَّعْوَذةِ، وَغَرائِبيَّةِ الأدَاءِ اللغَويِّ، وَالْهَنْدَسَةِ الصَّوتيَّة؛ بِتَوَازُنَاتِهَا الدَّقِيقَةِ، وَتَوَازِيَاتِهَا المَحْسُـوبَةِ، وَمِنَ الوَاضِحِ، كَذَلِكَ، أنَّهُ لَـمْ يَتَبَقَ لَنَا مِنْ هَـذا النَّتَاجِ القَديم إلاَّ النَّذرَ اليَسِـيْرَ؛ المُتَنَاثِرَ في كُتُبِ التَّارَيخِ الأدَبيِّ، وَالمُنْتَخَبَاتِ وَكُتُبِ البَلاغَةِ؛ وَمِنْ هَذِهِ الكُتُب: «البَيَانُ وَالتَّبيِيـن»، وَ «الأغَانـي»، وَ «الأمَالـي»، وَ «العِقْـدِ الفَرِيْـد»، وَ «تَارِيْـخِ الطَّبـرِيِّ»، وَ «سِـيْرَةِ بـنْ هِشَـام»، وفـي هـذا يَنْقـلُ الجَاحِظُ عَـنْ عبدِ الصَّمَدِ بنْ الفَضْلِ بنْ عِيْسَـى الرُّقَاشِـيِّ قَوْله: «مَا تَكَلَّمَتْ بِهِ العَرَبُ مِنْ

جَيِّـدِ المَنْثُـورِ، أكْثَرُ ممَّا تَكَلَّمَتْ بِهِ مِنْ جَيِّدِ المَوْزُونِ، فَلَمْ يُحْفَظْ مِنَ المَنْثُورِ عُشْرَهُ، وَلا ضَاعَ مِنَ المَوْزُونِ عُشْرَهُ.»[26]

وَلئِـنْ كَانَ عَلينـا أنْ نَحْتَـرسَ فـي تَلَقِّي بَعْـضَ هَذِهِ الأسْـجَاعِ، فَإنَّ الجَاحِـظَ يُؤكِّـدُ لَنَـا أنَّ النَّبيَّ ــ صَلَّى اللّٰه عليهِ وَسَـلَّمَ ــ هُوَ الذي رَوى خُطْبَةَ قُسِّ بنِ سَاعِدَة الأيادِيِّ، في سُوقِ عُكَاظٍ؛ إذْ رَآهُ على جَمَلٍ أحْمَرٍ يَتْلُوهَـا، وَهُـوَ ــ صَلَّـى اللّٰه عليهِ وَسَـلَّمَ ــ الذي رَوَاهَـا لِقُرَيْشٍ وَللعربِ: «وَهَـذَا إسْـنَادٌ تَعْجَزُ عَنْـهُ الأمَانِي، وَتَنْقَطِـعُ دُونَهُ الآمَـالُ»[27]، وَرُوِيَ أنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ: «قَدِمَ وَفدُ أيَادٍ عَلى رَسُـولِ اللّٰهِ ــ صَلَّى اللّٰه عليهِ وَسَـلَّمَ ــ فَقَـالَ أيُّكُـمْ يَعْرِفُ قُسَّ بنَ سَـاعِدَةَ الأيَادِيِّ؟، قَالُـوا: كُلُّنَا يَعْرِفُهُ، قَالَ: فَمَا فَعَلَ؟، قالُوا: هَلَكَ، قَالَ: مَا أنْسَـاهُ بِسُـوقِ عُكَاظٍ في الشَّـهرِ الحَرَامِ، عَلى جَمَلٍ لَهُ أحْمرٍ، وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ.»[28] وَمِنْ هَذِهِ الخُطْبَةِ:

«أيُّهَـا النَّاسُ اجْتَمِعُوا وَاسْـمَعُوا، وَاعُـوا، مَنْ عَاشَ مَاتَ، وَمَـنْ مَـاتَ فَـاتَ وَكُلُّ مَا هُـوَ آتٍ آت. آيَـاتٌ مُحْكَمَات، مَطَرٌ وَنَبَات، وَآبَاءٌ وَأُمَّهَـات، وَذَاهِبٌ وَآت، ضَوْءٌ وَظَلاَم، وَبِـرٌّ وَآثَـام، وَلِبَاسٌ وَمَرْكَـب، وَمَطْعَمٌ وَمَشْـرَب، وَنُجُومٌ تَمُـور، وَبُحُورٌ لا تَغُور، وَسَـقْفٌ مَرْفُـوع، وَمِهَادٌ مَوْضُوع، وَلَيْلٌ دَاج، وَسَمَاءٌ ذَاتُ أبْرَاج، مَالِـي أرَى النَّاسَ يَمُوتُونَ وَلا يَرْجِعُون، أرَضُوا فَأقَامُوا؟، أوْ حَسَوا فَنَامُوا؟..»[29]

وَلَيْسَ يَخْفَى هُنَا أنَّ السَّجْعَ هُوَ الأسَاسُ الحَقيقِيُّ، الذي يَنْهَضُ عَليهِ بُنْيَـانُ هَذِهِ الخُطْبَةِ؛ حَيْثُ يَتَحَكَّمُ في اصْطِفَاءِ الحَقلِ اللغويِّ، وَالأبْنيَةِ الصَّرفيَّةِ، وَالأنْظِمَةِ النَّحْويَّةِ المُتَكرِّرةِ.

مَوْقِفُ الإِسْلامِ مِنَ السَّجْعِ

أَوْرَدَ الجَاحِظُ (159 ـ 255 هـ) أنَّه قِيلَ للرَّسُولِ ـ صَلَّى اللّٰهُ عَليهِ وَسَلَّم ـ يَا رَسُولَ اللّٰهِ أرَأيْتَ مَنْ لا شَرِبَ وَلا أكَلَ وَلا صَاحَ وَاسْتَهَلَّ، ألَيْسَ مِثْلُ ذَلكَ يُطَلّ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللّٰهِ ـ صَلَّى اللّٰهُ عليهِ وَسَلَّم ـ: أَسَجْعٌ كَسَجْعِ الجَاهِلِيَّةِ ؟[30]، وَقَدْ ذَهَبَ قُدَامَى النُّقادِ والبَلاغِيِّينَ وَالمُتَكَلِّمِينَ في تَأوِيْلِ هَذَا الكَلامِ كُلَّ مَذْهَبٍ؛ فَالجَاحِظُ يُقْرِنُ مَوْقِفَ الرَّسُولِ ـ صَلَّى اللّٰهُ عليهِ وَسَلَّمَ ـ مِنَ السَّجْعِ بِمَوْقِفِهِ مِنَ الكَهَانَةِ، فَيَقُولُ: «وَقَعَ النَّهْيُ فِي ذَلِكَ لِقُرْبِ عَهْدِهِمْ بِالجَاهِلِيَّةِ، وَلِبَقِيَّتِهَا في صُدُورِ كَثِيرٍ مِنْهُمْ، فَلَمَّا زَالَتْ العِلَّةُ زَالَ التَّحْرِيْمُ، وَقَدْ كَانَتْ الخُطَبَاءُ تَتَكَلَّمُ عِنْدَ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، فَيَكُونُ في تِلكَ الخُطَبِ أسْجَاعٌ كَثِيرَةٌ فَلا يُنْهُونَهُمْ»[31]، بَيْنَمَا يَرَى قُدَامةُ بن جَعْفر (ـ 337هـ) أنَّ الرَّسُولَ ـ صَلّى اللّٰهُ عليهِ وَسَلَّم ـ خَصَّ السَّجْعَ المُتَشَابِهَ بِسَجْعِ الكُهَّانِ المُتَكلِّفِ المُسْتَغْلَقِ، أمَّا إذَا «لَمْ تَكُنْ القَوَافِي مُتَكلِّفَةً وَلا مُتَمَحَّلَةً مُسْتَكْرَهَةً، وَكَانَ ذَلكَ عَلى سَجِيَّةِ الإِنْسَانِ وَطَبْعِهِ فَهُوَ غَيْرُ مُنْكرٍ وَلا مَكرُوه»[32]، وَقَدْ رَأى ابْنُ خلدون (ـ 808 هـ) أنَّ إضَافَةَ السَّجْعِ إلى الكُهَّانِ «جَعَلَ السَّجْعَ مُخْتَصًا بِهِمْ بِمُقْتَضَى الإِضَافَةِ»[33]، أمَّا ابْنُ الأثير (ـ 637هـ) فَيَرَى أنَّ النَّهى هُنَا لا يَتَعَلَّقُ بِالسَّجعِ نَفْسِهِ؛ وَإنَّمَا بِالنَّهي عَنْ الحُكْمِ المَتْبُوعِ في قَوْلِ الكَاهِنِ؛ أيْ: أحُكْمًا كَحُكْمِ الجَاهِلِيَّةِ، وَلَوْ رَفَضَ السَّجْعَ مُطْلقًا، لَقَالَ: (أَسَجْعًا؟) ثُمَّ سَكتَ، وَكَانَ المَعْنَى يَدلُّ عَلى إنْكَارِ هَذَا الفِعْلِ؛ لِمَ كَانَ؟، فَلَمَّا قَالَ: «أسَجْعًا كَسَجْعِ الكُهَّانِ؟، «صَارَ المَعْنَى مُعَلَّقًا على أمْرٍ؛ وَهُوَ إنْكَارُ الفِعْلِ، لِمَ كَانَ على هَذَا الوَجْه؟»[34]، وَيَلْتَقِي رَأي

أبِي هِلالٍ العَسْكرِيِّ، (ـ 395هـ) مَعَ رَأي ابْنِ الأثِيرِ، في أنَّه لَوْ صَحَّ أنَّ مَقْصدَ الرَّسُولِ ـ صَلَّى اللّٰه عليهِ وَسَلَّم ـ كَانَ الاعْتِرَاضُ عَلى السَّجْعِ في ذَاتِهِ لَقَالَ: «أسَجْعًا»، بَدَلاً مِنْ قَوْلِهِ: «أسَجْعًا كَسَجْعِ الكُهَّانِ؟»؛ فَالمَخْصُوصُ بِاعْتِرَاضِ الرَّسُولِ، في رَأي أبِي هِلالٍ العَسْكرِيِّ، هُوَ سَجْعُ الكُهَّانِ»؛ لأنَّ التَّكَلُّفَ في سَجْعِهِ فَاشٍ.»[35]

وَيَدْعَمُ هَذِهِ الآرَاءَ أنَّ الرَّسُولَ ـ صَلَّى اللّٰه عَليه وَسَلَّمَ ـ هُوَ الذي رَوَى لَنَا خُطبَةَ قُسِ بن سَاعِدَة، وَهِيَ مَسْجُوعَةُ، وَمَا يَرْوِيهِ لَنَا قُدَامَةُ بنُ جَعْفر، مِنْ أنَّ طخْفةَ بنَ زُهير النَّهْدِي قَالَ للرَّسُولِ ـ صَلَّى اللّٰه وَعَليهِ وَسَلَّمَ ـ في كَلامٍ طَويْلٍ أغْرَبَ فِيهِ، نَقْرَأُ مِنْهُ: «وَلَنَا نَعَمٌ هَمَلٌ أغْفَال، مَا تَبُضُّ بِبِلال؛ وَوَقِيرٌ قليلُ الرِّسْل، كَثِير الرَّسَل، أصَابَتْهَا سِنَةٌ حَمْرَاءُ مُؤْزَلَة، لَيْسَ لَهَا عِلَلٌ وَلا نَهَل»، فقَالَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللّٰه عَليهِ وَسَلَّمَ ـ فِيْمَا قَالَ: «اللهُمَّ بَارِكْ لَهُ في مَحْضِهَا وَنَحْضِهَا وَمَذْقِهَا, وَاحْبِسْ رَاعِيْهَا في الدَّثْر, بِيَانِعِ الثَّمر, وَافْجُرْ لَهُ الثَّمد, وَبَارِكْ لَهُ في المَالِ وَالْوَلَد.»[36]

وَيَذْهَبُ ابنُ الأثِيرِ أبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ؛ فَيَرَى أنَّ الرَّسولَ ـ صَلَّى اللّٰه عليهِ وَسَلَّمَ ـ «نَطَقَ بِهِ في كَثِيرٍ مِنْ كَلامِهِ؛ حَتَّى إنَّهُ غَيَّرَ الكَلمَةَ عَنْ وَجْهِهَا؛ اتِّباعًا لَهَا بِأَخَوَاتِهَا، مِنْ أجْلِ السَّجْعِ، فَقَالَ لابْنِ ابْنَتِهِ ـ عَليْهِمَا السَّلامُ ـ: «أُعِيْذُهُ مِنَ الهَامَّة، والسَّامَّة، وَكُلِّ عَيْنٍ لامَّة, وإنَّمَا أرَادَ: مُلِمَّة؛ لأنَّ الأصْلَ فِيْهَا هُوَ مِنْ ألَمَّ فَهُوَ مُلِمٌّ, وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ـ صَلَّى اللّٰه عليهِ وَسَلَّمَ ـ: «ارْجِعْنَ مَأْزُورَاتٍ، غَيْرَ مَأجُوْرَاتٍ»، وَإنَّمَا أرَادَ: (مَوْزُورَاتٍ) مِنَ الوِزْرِ، فَقَالَ: (مَأْزُوْرَاتٍ) لِمَكَانِ (مَأجُوْرَاتٍ)؛ طَلَبًا للتَّوازُنِ وَالسَّجْعِ، وَهَذَا مَا يَدُلُّكَ على فَضِيلَةِ السَّجْعِ.[37]

كَذَلِكَ أوْرَدَ قُدَامَةُ بنُ جَعْفَر (ـ 337 هـ)، في: «نَقْدِ النَّثْرِ»،

أَلْوَانًــا مِنَ الأَحَادِيثِ النَّبويَّةِ المَسْــجُوعَةِ[38]، وَاسْــتِنَادًا إلــى نَفْيِ القُرآنِ أيَّ تَشَــابُهٍ لَهُ مَعَ سَــجْعِ الكُهَّانِ، في قَولِهِ تَعَالَى: «وَمَا هُوَ بِقولِ شَــاعرٍ؛ قليــلاً مَا تُؤْمِنــون، وَلا بِقولِ كَاهِــنٍ؛ قليلاً مَا تَذْكُرُون»[39]، تَشَــكَّلَ مَوْقِــفٌ مُضَادٌ لِظَاهِرَةِ السَّــجْعِ؛ تَرَكَّزَ هَذَا المَوْقِفُ حَــوْلَ تَنْزِيهِ القُرْآنِ عَنِ التَّشْــبِيهِ بِالبَيَانِ العَرَبيِّ المَسْــجُوعِ؛ وهو ما قادَ إلــى الحَطِّ مِنْ قَيْمَةِ السَّــجعِ كَذَرِيْعَــةٍ إبْدَاعيــةٍ، وَمِنْ أَصْحَابِ هَــذَا المَوْقِــفِ: الرُّمَانِيُّ (ــ 384هــ)؛ الذي يَرَى أنَّ السَّــجعَ بِحُكْمِ تَعْرِيْفِهِ: قَالِبٌ شِــعْرِيٌّ لِكَلامٍ لا قِيْمَةَ لَهُ، وَأَتَى بِمَثَلٍ مِنْ سَــجْعٍ مَنْسُــوبٍ لِمُسَيْلِمَةَ الكَذَّابِ؛ قَالَ فِيهِ: «يَا ضُفْدَعُ نِقِّي كَمَا تَنِقِّين، لا المَاءَ تُكَدِّرين، ولا النَّهْرَ تُفَارِقين»[40]. وَقَدْ رفضَ أَصْحَابُ هَذَا المَوْقِفِ اعْتِبَارَ السَّجْعِ مَوْجُودًا في القُرآنِ، وَأَسْمَوا (القَافِيَةَ)؛ التي تَخْتِمُ الجُمْلَةَ القُرآنيَّةَ، بِـ (الفَاصِلَةِ)؛ اعْتِمَادًا على مَا وَرَدَ في سُــوْرَةِ (فُصِّلَتْ):«كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرَآنًا عَرَبيًّا لِقَومٍ يَعْلَمون»[41]، وَمِــنْ أَصْحَابِ هَذَا المَوْقِــفِ أيْضًا: البَاقِلانيّ (ــ 403هــ)؛ الذي يَذْهَبُ في كِتابِهِ: (إعْجَازِ القُرآنِ)، إلى عَدَمِ وجودِ السَّجْعِ في القُرآنِ؛ بِاعْتِبَارِ نظريَّةِ إعْجَازِ القُرآنِ لا تَقْبَلُ بِجَوَازِ مُقَارَنَتِهِ بِأيِّ نَوْعٍ إنْشَــائيٍّ بَشَريٍّ[42]، وَعَلى هَذَا فإنَّ الزَّعْمَ بِأنَّ القُرآنَ مَسْــجوعٌ، يُؤدِّي إلى نِسْــبَةِ شَيءٍ دُنْيَويٍّ إلى اللّهِ تعالى، أمَّا عبدُ القَاهرِ الجُرْجَانيُّ (ــ 471هـ) فَقَدْ رَفَضَ السَّجْعَ إذَا كَانَ مُتَكَلَّفًا، وَكَانَ الاهْتِمَامُ فِيهِ باللفظِ مُفْسِــدًا لِلْمَعْنَى، فَقَالَ: «رَأَيْتُ العُلَمَاءَ يَذُمُّونَ مَنْ يَحْمِلُهُ تَطَلُّبُ السَّجْعِ وَالتَّجْنِيسِ، عَلى أنْ يَضُمَّ لَهُمَا المَعْنَى، وَيُدْخِلُ الخَلَلَ مِنْ أجْلِهِمَا.»[43]

هَكَذَا كَانَ المَوْقفُ مِنْ ظَاهِرَةِ السَّــجْعِ مَوْقِفًا إشْكَاليًّا؛ حَيْثُ لَمْ يَتَجَرَّدْ لَدَى الكَثيرينَ، مِنْ أيدلوجيَّةِ الكَهَانَةِ، بَيْنَمَا تَعَامَلَ البَعْضُ مَعَ

السَّـجْع كَشَـكْلٍ تَعْبيريٍّ مَحْضٍ، وَلَكنَّ الفَصْلَ بينَ أنْظِمَةِ الخِطَابِ فـي القُرآنِ الكَريـم، وَأنْظِمَةِ الخِطَابِ في سَـجْعِ الكُهَّـانِ، وَمُجَابَهَةِ اسْـتِرَاتِيْجيَّاتِ الكَهَانَةِ، وَأسْـجَاعِ مُدَّعِي النُّبوَّةِ[44]، قَـدْ أثَّرَ بِقوَّةٍ على مَسِـيْرَةِ النَّثْرِ المَسْـجُوعِ، فـي مَطَالِعِ العَهْـدِ الإسْـلاميِّ، بِالإِضَافَةِ إلى الحَقيقَـةِ القَائِلَةِ بأنَّ كُلَّ تَحَوُّلٍ حَقِيْقِي فِي المُجْتَمَعِ يُوَاكِبُهُ تَحَوُّلٌ في أنْظِمَةِ الخِطَابِ الإبْدَاعِيِّ.

غَيْـرَ أنَّ السَّـجْعَ لَـمْ يَنْعَدِمْ حِيْنَئِـذٍ؛ حَيْثُ وُجِدَ في خُطَـبِ الصَّحَابَةِ وَالخُلفَـاءِ الرَّاشِـدينَ، وَمِنْهُ هَذِهِ الخُطبَةُ، المَنْسُـوبَةُ إلى الإمَامِ عليٍّ بنِ أبِي طَالِبٍ (34ق هـ ـ 40هـ):

«دارٌ بِالبَلاءِ مَحْفُوفَـة، وَبِالْغَدرِ مَعْرُوفَة، لا تَدُومُ أحْوالُه، وَلا يَسْـلَمُ نِزَالُهَـا، وَأحْـوالٌ مُخْتَلِفَـة، وَتَـارَاتٌ مُنْصَرِفَة، العَيْشُ فيْهَا مَذْمُوم، وَالأمَانُ فِيْهَا مَعْدُوم، وَإنَّما أهْلُهَا فِيْهَا أغْرَاضٌ مُسْـتَهْدَفَة: تَرمِيْهِمْ بِسِهَامِهَا، وَتُفْنِيْهِمْ بِحِمَامِهَا، وَاعْلَمُـوا عِبَادَ اللّهِ أنَّكُمْ وَمَا أنْتُمْ فيْهِ مِنْ هَذِهِ الدُّنيَا عَلـى سَـبِيلِ مَنْ قَـدْ مَضَى قَبْلَكُـمْ، مِمَنْ كَانَ أطْـوَلَ مِنْكُمْ أعْمَـارا، وَأعْمَـرَ دِيَارا، وَأبْعَـدَ آثَارا، أصْبَحَـتْ أصْوَاتُهُمْ هَامِـدَةً وَرِيَاحُهُـمْ رَاكِـدَة، وَأجْسَـادُهُمْ بَالِيَـة، وَدِيَارُهُمْ خَالِيَـة، وَآثَارُهُمْ عَافِيَة؛ فَاسْـتَبْدَلُوا بِالقُصُورِ المُشَـيَّدَة، وَالنَّمَارِقِ المُمَهَّدَة، الصُّخُورَ وَالأحْجَارَ المُسْنَدَة، وَالقُبُورَ اللاطِئَـةَ المُلْحَـدَة: التـي قَدْ بُنِـيَ بِالخَرَابِ فِنَاؤه، وَشُـيِّدَ بِالتُّرَابِ بِنَاؤهَا؛ فَمَحَلُّهَا مُقْتَرِب، وَسَـاكِنُهَا مُغْتَرِب، بَيْنَ أهْلِ مَحَلَّةٍ مُوْحِشِيْن، وَأهْلِ فَرَاغٍ مُتَشَاغِلِيْن، لا يَسْتَأنِسُونَ

بِالأوْطَـان، وَلا يَتَوَاصَلُونَ تَوَاصُـلَ الجِيْرَان، عَلى مَا بَيْنَهُمْ مِـنْ قُرْبِ الجِـوَار، وَدِنُـوّ الدِّيَـار، وَكَيْفَ يَكُـونُ بَيْنَهُمْ تَـزَاوُرٌ وَقَدْ طَحَنَهُـمْ بِكَلْكَلِهِ البِلَـى، وَأَكَلَتْهُمْ الجَنَادِلُ وَالثَّـرَى، وَكَأَنْ قَدْ صِرْتُمْ إلَـى مَا صَارُوا إلَيْهِ وَارْتَهَنَكُمْ ذَلِكَ المَضْجَع، وَضَمَّكُمْ ذَلكَ المُسْتَوْدَع، فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ بِكُمْ الأُمُور، وَبُعْثِرَتْ القُبُور؟.»(45)

كَمَـا جَاءَتْ الرِّسَـالةُ الشَّـهيرَةُ؛ التي أرْسَـلَهَا عمرو بـنُ العَاص (ــ 43هـ)، إلى الخَليفةِ عُمر بن الخَطَّاب (ــ 23هـ)، وَاصِفًا لَهُ طَبِيْعَةَ مِصْرَ ــ التي فَتَحهَا ــ مَسْـجُوعَةً كُلّهَا، كَذَلِكَ وَرَدَتْ خُطَبٌ عَدِيْدَةٌ، قِيْلَتْ بَيْـنَ يَديْ الخُلَفَاءِ، وَقَدْ غَلَبَ عَلَيْهَا السَّـجْعُ، وَلَمْ يُنْكِرُوهَا، وَيَأتِي في طَلِيْعَتِهَـا خُطَـبٌ دِينيَّـةٌ؛ كَخُطَبِ المُخْتَـارِ الثَّقفيِّ؛ خَطِيبِ الشِّـيعَةِ في العَصْـرِ الأُمَويِّ، وَخُطَبِ الحَسَـنِ البَصْريِّ (ــ 110هــ)، وَخُطَبٌ حَربيَّةٌ «كَخُطَبِ عبد الرَّحمنِ بن مُحمَّد الأشْعَث (ــ 85هـ)، وَعلى الرَّغْمِ مِنْ هَيْمَنَـةِ الازْدِوَاجِ فـي الحِقْبَةِ التّاليَـةِ، فَقَدْ ظَلَّ (السَّـجْعُ) قَائِمًا في عَمَلِ كَلثوم بن عمرو العَتَابيّ (ــ 218هـ)، وعبد اللّه بن المُعْتز (ــ 296هـ)، قَبْلَ أنْ يَنْطَلِقَ كَتَيَّارٍ فَنّيٍّ جَديدٍ، في القرنِ الرَّابِعِ، على يد ابْنِ العَميد (ــ 360هــ)وَرِفَاقِـهِ؛ الذين سَـيَصْنَعُونَ تيَّـارًا، سَيَسْـتَمِرُّ مُهَيْمِنًا لِقُرونٍ تِسْـعَةٍ، وَقَدْ ظَهَرَتْ البِدَايَةُ الثَّانيَـةُ للنّثْرِ الفَنّيِّ في الرُّبْعِ الأوَّلِ مِنَ القَرْنِ الثَّانِـي للهجرةِ، عَلى أيْديْ طَائفةٍ مِنَ الكُتَّابِ الفَارسِـيِّينَ؛ الذين قَادُوا النّثْـرَ الفَنّيَّ إلى مَرْحلَـةٍ جَدِيْدَة، أصْبَحَ الازْدِوَاجُ فِيْهَـا هُوَ مُحَرِّكُ الفِعْلِ الإبْدَاعِـيِّ، وَاسْـتَحْوَذَ على مِسَـاحَاتٍ عَدِيدةٍ، كَانَتْ كُلُّهَـا فِيْمَا قَبْلَ تَحْتَ سَـيْطَرَةِ (السَّـجْعِ)، وَأصْبَحَ (الازْدِوَاجُ) عَلامَةً عَلـى كِتَابَةٍ أخْرَى

وَمِعْيَارًا لِحُسْـنِ مَنْثُورِ الكَلامِ، وَهُوَ مَا حَدَا بِأَبِي هِلالٍ العَسْكَرِيِّ (ـ 395 هـ) إلى القَوْلِ بِأَنَّ مَنْثُورَ الكَلامِ لَنْ يَحْلُوَ حَتّى يكونُ مُزْدَوجًا.

البِدَايَةُ الثّانِيَةُ

النَّثْرُ الفَنيُّ المُرْسَلُ

كَانَ لاتِّسَاعِ أرْجَاءِ الدَّولةِ الإسْلاميَّةِ، وَحَاجَةِ الوُلاةِ إلى المُكَاتَبَاتِ أعْظَمَ الأثَرِ في ظُهورِ طَبَقَةِ الكُتّابِ تَقليدًا للنِّظَامِ الفَارِسِيِّ[46]، في دِيوانِ الرَّسَائلِ؛ الذي بَدَأَ في عَهْدِ عبدِ المَلكِ بن مَرْوان، فَكَانَ إيْذانًا بِبِدَايَةٍ جَدِيدَةٍ، لِكتَابَةٍ فنيَّةٍ أُخْرى، وَنَقلَةً نَوْعيَّةً في شَكْلِ الكِتَابَةِ الفَنيَّةِ، وَيُعَدُّ هَذَا الدِّيوانُ بِحَقٍّ أوَّلَ مَدْرَسَةٍ فَنيَّةٍ لِلكِتَابَةِ العَرَبيَّةِ؛ حَيْثُ بَرَزَ فِي رِحَابِهِ أبو العَلاءِ سَالمٌ؛ مَوْلَى هِشَامِ بنِ عبدِ المَلِكِ (105 ـ 125هـ)، ثُمَّ عبدُ الحَميدِ بن يحيى الكَاتِبِ (ـ 132هـ)، وَكَانَ مِنْ أبْرَزِ قِيَم هَذِهِ المَدْرَسَةِ الفَنّيَّةِ، تَخَلّصُ الكِتَابَةِ مِنَ القِيَمِ التَّشْكيليَّةِ التي هَيْمَنَتْ عَلى الخَطَابَةِ الجَاهِليَّةِ؛ كَالتّنغيمِ القَائمِ عَلى التزَامِ السَّجْعِ وَقِصَرِ السَّجْعَاتِ وَالتّجْنيسِ وَالإبْهَامِ النّاتجِ عن غَرَابَيِّةِ اللغةِ، وَالإلغَازِ، كَمَا وُجِدَتْ في سَجْعِ الكُهَّانِ، وَخُطَبِ الخُطَبَاءِ، كَذَلكَ التّخلُّص مِنَ القِيَمِ التي هَيْمَنَتْ على الخَطَابَةِ الإسْلاميَّةِ؛ كالاعْتِمَادِ عَلى جَزَالَةِ اللغَةِ، وَالإيجَازِ، وَالاعْتمَاد عَلى أسَاليبَ مُحَدَّدةٍ؛ كَالتَّوكيدِ وَالنِّدَاءِ، وَمُحَاذَاةِ أسَاليبِ القُرَآنِ الكَريم، وَتَوْشِيْحِ الخُطَبِ بالآيَاتِ وَالأحَاديثِ، وَهَيْمَنَةِ الرِّسَالَةِ الدِّينيَّةِ، وَتَتَفِقُ القِيمُ الجَاهِليَّةُ وَالإسْلاميَّةُ في اعْتِمَادِهِمَا عَلى الشِّفَاهيَّةِ وَتَراوحِ حُضُورِ السَّجْعِ بِهَا.

بَيْنَمَا رَكَّزَتْ الكِتَابَةُ الجَدِيْـدَةُ على خَصِيْصَةِ الكِتَابيَّة؛ فَتَجَاوَزَتْ آليَّاتِ الشِّـفاهِيَّةِ، وَاسْـتَبْدَلتْ الازْدِوَاجَ بالسَّـجْع، وَنَزَعَـتْ إلى الإطنَابِ وَالتَّصويرِ، وَالبِنَاءِ الإيقَاعِيِّ الهَنْدَسِيِّ الدَّقيقِ في بِنَاءِ الجُمَلِ وَالعِبَارَات، وَإحْـدَاثِ التَّـوازُن وَالازْدِوَاجِ وَالتَّقسِـيْمَاتِ الإيْقَاعِيَّـةِ المَنْطقيَّـةِ، يتَبَدَّى هَـذَا بِوُضُـوحٍ في كِتَابَـةِ عبدِ الحَميدِ الكَاتِـبِ؛ حَيْثُ تَلْعَـبُ التَّوَازيَاتُ التَّركِيبيَّـةُ وَالدِّلاليَّـةُ دَوْرَهَـا الوَاضِـحَ فـي إنْتَـاجِ إيقَاعيَّةِ النَّـصِّ، عَبْرَ عِبَارَاتِهِ المُتَضَافِرَةِ؛ التي تَتَسِـقُ جُمَلُهَـا، وَتَتَآلفُ وَتَطَّرِدُ وَتَتَكَامَلُ، في بِنَـاءٍ عَقلـيٍّ مُحْكَمٍ وَدَقِيْقٍ، وَقـدْ أَرْجَعَ أحمدُ أميـن (1886. 1954) هَذَا التَّحـولَ في نِظَـامِ الكِتَابَةِ عَلى أيْدي الكُتَّابِ الفَارسِـيِّينَ الأصْلِ، إلى أنَّهُـمْ كَانُـوا ـ في جُمْلَتِهِمْ ـ أقْدَرَ على التَّدوينِ وَالتَّأليفِ للسَّـبَبِ الذي ذَكَرَهُ ابْنُ خلدون وَهُوَ تَعَمُّقُهُمْ في الحَضَارَةِ؛ وَلأنَّهُمْ مُرِّنُوا مِنْ قَدِيْمٍ على التَّأليـفِ بِلُغَتِهِمْ هُمْ وَآبَاءُهُـمْ، فَلَمَّا دَخَلوا في الإسْـلامِ وَتَعَلَّمُوا العَرَبيَّةَ، كَانَ تَأليْفُهُمْ بِالعَرَبيَّةِ سَـهْلاً يَسِـيْرًا؛ لأنَّهُ لَيْسَ إلاَّ احْتِـذَاءً لِلْمَنْهَجِ، وَإنْ اخْتَلَفَ المَوضُـوعُ وَاللغَةُ[47]، وَهَكَذَا انْتَقَلَتْ صِنَاعَةُ الكِتَابَةِ الرَّسـميَّةِ مِـنْ أيْـدي العَرَبِ، إلـى أيْدِي الأجَانِبِ؛ إذْ جَعَلَ هِشَـامٌ عَلـى رَأسِ دِيْوَانِهِ سَـالِمًا مَوْلاهُ، وَعَلى يَدِ سَـالمٍ وَتَلامِيْذِهِ، وَخَاصةً عبـد الحَميد، أخَذَتْ الكِتَابَـةُ الدِّيوَانيَّـةُ فـي هَـذَا العَصْـرِ شَـكْلَهَا الأخِيْـرَ[48]، وَتُعَـدُّ هَذهِ المَرْحَلَةُ، بِحَقٍّ، أوَّلَ تَحوُّلٍ حَقِيقيٍّ لِطَبيعَةِ الكِتَابَةِ الفَنيَّةِ العَرَبيَّةِ، تَحْتَ تَأثيرِ اتِّصَالِهَا بِثَقَافَةٍ أجْنَبِيَّةٍ، عَبْرَ هَؤلاءِ الكُتَّابِ الذينَ صَارُوا عَرَبًا.

وَثَمَّةَ إجْمَاعٌ عَلى رِيَادَةِ سَـالم (ـ 125هـ)، وَتَأثيرِهِ في عَبدِ الحَميدِ؛ غَيْرَ أنَّ سَـالمًا ذَاتَهُ، لَمْ يَبْقَ مِنْ آثَارِهِ سِـوَى رَسَائِلَ مَعْدُودَةٍ، وفي مَنْزِلَتِهِ يقـولُ إحْسَـان عبَّـاس (1920 ـ 2003): لَـمْ تَعْـرِفْ الرِّسَـالَةُ الدِّيوانيَّـةُ

مُسْـتَوى فَنّيًّا، قَبْلَ سَـالم أَبِي العَلاءِ في عَهدِ هِشَـام بنِ عبدِ المَلِكِ[49]، وَيُرْجِـعُ السَّـبَبَ في إهْمَالِ دَوْرِه إلى «أنَّ الـذي خَلَفَهُ ـ وَهُوَ عَبدُ الحَميد ـ كَانَ قِمَّـةً شَـاهِقَةً، فَاسْـتَطَاعَ، بِإيْجَـادِ النَّمـوذَج الأعْلَـى حِيْنَئذٍ أنْ يَكْسِـفَ شَمْسَ سَالِمٍ[50]، وَيُضِيْفُ إحْسَـان عبَّاس: يَكْفِي أنْ نَقولَ أنَّ الرِّسَـالَةَ التـي كَتَبَهـا في بَيْعَـةِ وَلَدَيْ الوَليد بـنِ يَزِيدَ تُـؤْذِنُ أنْ تَفَرُّدَهَا وَتَمَيُّزَهَا عَنْ كُلِّ مَا سَـبَقَهَا في تُـرَاثِ العَهْدِ الأُمَويِّ، لَيْسَ وَليدَ مَلَكَةٍ فَذَّةٍ وَحَسْب؛ بَلْ هُوَ أيْضًا نِتَاج مُؤَثِّراتٍ أجْنَبِيَّةٍ. لَقَدْ كَانَتْ عَبْقَرِيَّةُ سَالمٍ في أنَّهُ اسْـتَطَاعَ أنَّ يُحَوِّلَ (يُونانيَّةَ) أرسطاطاليس إلى جَوٍّ إسْلاميٍّ، في وَصِيَّـةِ الوليـدِ، دُونَ خُضُـوعٍ لِطُغيَانِ النَّمـوذَجِ المُحْتَـذَى[51]، وَمِنْ هَذِهِ الخُطْبَةِ نَقْرَأُ:

«وَالطَّاعَـةُ رَأسُ هَـذَا الأمْـرِ وَذِرْوَتُـهُ وَسَـنَامُهُ، وَزِمَامُـهُ وَمِلاكُـهُ، وَعِصْمَتُهُ وَقِوَامُه بَعْدَ كَلِمَةِ الإخْلاصِ التي مَيَّزَ اللّهُ بِهَا بَيْنَ العِبَادِ، وَبالطَّاعَةِ نَالَ المُفْلِحُونَ منَ اللّه مَنَازِلَهُمْ، وَاسْـتَوجَبُوا عَليْـه ثَوَابَهُـمْ، وَبالْمَعْصِيَةِ مَا يَحِـلُّ بِغَيْرِهِمْ مِنْ نَقَمَاتِـهِ، وَيُصِيْبُهُمْ مِـنْ عَذَابِهِ، وَيَحِقُّ مِنْ سَـخَطِهِ، وَبِتَرْكِ الطَّاعَـةِ وَالإضَاعَةِ لَهَا وَالخُروجِ مِنْهَـا وَالإدْبارِ عَنْهَا وَالتَّبدُّلِ بِهَـا أهْلَـكَ اللّهُ مِنْ ضَـلَّ وَعَتَا، وَعَمى وَغَلا، وَفَـارَقَ مَنَاهِجَ البِرِّ وَالتَّقوَى؛ فَالْزَمُوا طَاعَةَ اللّه فِيْمَا عَرَاكُمْ وَنَالَكُمْ وَألَمَّ بِكُمْ مِنَ الأمُورِ، وَنَاصِحُوهَا وَاسْتَوسِـقُوا عَلَيْهَا، وَسَارِعُوا إلَيْهَا، وَخَالِصُوهَا، وَابْتَغُوا القُرْبَةَ إلى اللّه بِهَا، فَإنَّكُمْ قَدْ رَأيْتُـمْ مَوَاقِعَ قَضَاءِ اللّه لأهْلِهَا في إعْلائِـهِ إيَّاهُمْ، وَإفْلاجِهِ حُجَّتَهُـمْ، وَدَفْعِهِ بَاطِلَ مَنْ حَادَّهُمْ وَنَاوَأهُمْ وَسَـامَاهُمْ وَأرَادَ

إطْفَاءَ نُورِ اللّٰهِ مَعَهُمْ، وَخَبرْتُمْ مَعَ ذَلكَ مَا يَصِيْرُ إليهِ أهْلُ المَعْصِيَةِ مِنَ التَّوبيخ لَهُمْ وَالتَّقصِيْر بِهِمْ حَتَّى يَؤولَ أمْرُهُمْ إلَى تَبَارٍ وَصَغَارٍ، وَذِلَّةٍ وَبَوارٍ، وَفي ذَلِكَ لِمَنْ كَانَ لَهُ رَأي مَوْعِظَةٌ وَعِبْرَةٌ، يَنْتَفِعُ بِوَاضِحِهَا وَيَتَمَسَّكُ بِحُظْوتِهَا، وَيَعْرِفُ خِيْرَةَ قَضَاءِ اللّٰهِ لأهْلِهَا.»[52]

وَسَيَكُونُ لِهَذَا المَنْهَجِ الفَنّيِّ؛ القَائِمِ عَلى البَسْطِ وَالتَّقسِيم، أثَرُهُ الفَاعِلُ في كِتَابَةِ عَبدِ الحَميدِ الكَاتِبِ؛ التي سَتُمَثِّلُ رُوحًا كِلاسِيكيَّةً، قَائِمَةً على كَبْحِ الثَّورَةِ العَاطِفيَّةِ؛ بِلجَامٍ مِنَ التَّنظِيم القَائِمِ على الازْدِواجِ، هَذَا الأسْلُوبُ الذي يَبْدَأ بإيْرَادِ عِبارَتين مُتَقَارِبَتَيْنِ في المَعْنَى؛ وَلكِنَّهُ لا يَتَوقَّفُ عِنْدَ هَذَا الحَدِّ، وَإنَّمَا تَتَعَدَّدُ المُزْدَوجَاتُ فيهِ، بِحَسَبِ حَاجَتِهِ إلى إبْرَازِ الفِكْرَةِ.[53]

وَهَكَذَا سَتَكُونُ كِتَابَة سَالِم تَأسِيْسًا لِبدَايَةٍ جَدِيدَةٍ للنَّثرِ الفَنّيِّ العَرَبِيِّ، سَيُسَاهِمُ في تَشْكِيلِهَا تَلامِيْذُ مُخْلِصُونَ؛ في طَليعَتِهِمْ: عَبدُ الحَميدِ بنُ يَحْيى، وَعبدُ اللّٰهِ بنُ المُقَفَّعِ، ثُمَّ سَهْلُ بنُ هَارون، وَأبو عُثْمَان عمرو بنُ بَحْرٍ الجَاحِظ؛ هَؤلاءِ الذين سَنُطَالِعُ شُكُولاً مِنْ إبْدَاعَاتِهِمْ الخِصْبَةِ، المُمَثِّلَةِ لِهَذِهِ المَرْحَلَةِ التَّأسِيْسِيَّةِ.

عَبْدُ الحَميدِ الكَاتِبِ (ت مَقتُولاً 132هـ)[54]

يُعَدُّ عَبدُ الحَميدِ بنُ يحيى ـ بِحَقٍّ ـ أبْرَزَ مَنْ يُمَثِّلُ بِدَايَةَ هَذَا التَّحوُّلِ ـ النَّاتِجِ عَنْ امْتِزَاجِ الثَّقَافَةِ العَربيَّةِ بِغَيْرِهَا مِنَ الثَّقَافَاتِ ـ وَهُوَ أبْرَزُ المُتَرسِّلينَ، وَعَلى يَدَيهِ تَأسَّسَتْ مَلامِحُ كِتابَةٍ جَدِيدَةٍ تَسْتَبْدِلُ بِالسَّجعِ

الازْدِوَاجَ، وَتَعْمَـدُ إلى الاسْتِرْسَـالِ المُتَدَفِّقِ، وَتَقَصِّـي أصْدَاء الكَلامِ، فـي الفَوَاصِـلِ التي تَتَعَادَلُ وَتَتَنَاسَـلُ، وَتَصْنَـعُ إيقَاعَاتِهَـا المُوصُولَةَ، في مَزيـجٍ مِـنَ التَّنَـوُّعِ التَّصويـريِّ، وَتَعَـدُّدِ الأسَـاليبِ وَتَنَوُّعِهَا، فـي فَواصِلَ مُتَنَاغِمَـةٍ وَمُتَعَادِلَـةٍ، تَتَقَصَّى أبْعَـادَ الفِكرَةِ، وَتَأتِيهَا السَّـجْعَةُ، أحْيانًا، عفـوًا، وَقَـدْ آذَنَتْ هَذِهِ المَلامِحُ المُتَواشِـجَةُ بِحِلُولِ كِتَابَـةٍ جَدِيدَةٍ؛ وَلِذَا قَـالَ الثَّعَالبـيُّ (ـ 429هـ): «بُدِئَـتْ الكِتَابَـةُ بِعبدِ الحَميـدِ، وَخُتِمَتْ بِابْنِ العَميـدِ»[55]، وَقَالَ ابْنُ النَّديـم: «عَنْهُ أخَذَ المُتَرَسِّـلونَ، وَلِطَريْقَتِهِ لزَمُوا، وَهُوَ الذي سَـهَّلَ سَبِيلَ البَلاغَةِ وَالتَّرسُّلِ»[56]، وَقَالَ جَعْفَرُ بنُ يَحيى: «عَبدُ الحَميـدِ أصْلٌ، وَسَـهْلُ بـنُ هَارون فَـرْعٌ، وَابْـنُ المُقَفَّعِ ثَمَـرٌ»[57]، أمَّا طه حُسُـين (1889 ـ 1973) فَقَـدْ رَأى أنَّـهُ «رُبَّمَا لَمْ يُوْجَـدْ كَاتِبٌ يَعْدِلُ عَبدَ الحَميدِ فَصَاحَةَ لَفْظٍ، وَبَلاغَةَ مَعْنَى، وَاسْـتِقَامَةَ أسْـلُوبٍ؛ فَهُوَ أحْسَنُ مَنْ كَتَبَ العَرَبِيَّـةَ وَمَرَّنَهَا، وَأقْدَرُ عَلى أنْ يَتَنَاوَلَ المَعَانِي المُخْتَلِفَةَ وَيُؤدِّيَهَا، رُبَّمَـا كَانَ عبدُ الحَميدِ الأسْـتَاذَ المُبَاشِـرَ لِلْكُتَّابِ المُتَرَسِّـلِينَ، وَبِنَوعٍ خَـاصٍّ الجَاحِـظ»[58]. وَيُمْكِنُنَا أنْ نَرَى مَلامِحَ ذَلِكَ التَّأسِـيسَ الجَديدَ، عَلى يَدَيْ عَبدِ الحَميدِ، في رِسَالَتَينِ، مِنْ أهَمِّ مَا وَصَلَنَا مِنْ رَسَائِله؛ هُمَا رِسَالَتَهُ لِلْكُتَّابِ، وَرِسَالَتَهُ في وَصْفِ الصَّيدِ؛ ففي رِسَالَتِهِ لِلْكُتَّابِ نَقْرَأُ:

«أمَّـا بَعْـدُ حَفظَكُـمْ اللَّهُ يَـا أهْـلَ صِنَاعَـةِ الكِتَابَـةِ، وَحَاطَكُـمْ وَوَفَّقَكُـمْ وَأرْشَـدَكُمْ؛ فَـإنَّ اللَّهَ عَـزَّ وَجَـلَّ جَعَـلَ النَّـاسَ بَعْـدَ الأنْبِيَـاءِ وَالمُرْسَـلينَ، صَلَـوَاتُ اللَّهِ وَسَـلامُهُ عَلَيْهِمْ أجْمَعِيْنَ، وَمِنْ بَعْـدِ المُلُوكِ المُكَرَّمِين، أصْنَافًـا، وَإنْ كَانُـوا فـي الحَقِيْقَةِ سَـوَاءً، وَصَرَّفَهُمْ في صُنُـوفِ الصِّنَاعَـاتِ، وَضُـرُوبِ المُحَاوَلاتِ، إلى أسْـبَابِ

مَعَاشِـهِمْ وَأَبْوَابِ أَرْزَاقِهِمْ؛ فَجَعَلَكُمْ مَعْشَـرَ الكُتّابِ في أَشْـرَفِ الجِهَاتِ، أَهْلَ الأَدَبِ وَالمُرُوءاتِ، وَالعِلْمِ وَالرَّزَانَةِ؛ بِكُـمْ تَنْتَظِـمُ للخِلافَـةِ مَحَاسِـنُهَا، وَتَسْـتَقِيْمُ أُمُورُهَـا، وَبِنَصَائِحِكُـمْ يُصْلِـحُ اللّٰه لِلْخَلْـقِ سُـلْطَانُهُمْ، وَتَعْمُـرُ بُلْدَانُهُمْ، لا يَسْـتَغْنِي المَلِكُ عَنْكُـمْ، وَلا يُوْجَدُ كَافٍ إلّا مِنْكُـمْ؛ فَمَوْقِعُكُمْ مِنَ المُلُوكِ مَوْقِعُ أَسْـمَاعِهِمْ التي بِهَا يَسْـمَعُونَ، وَأَبْصَارِهِمْ التي بِهَا يُبْصِرُونَ، وَأَلْسِـنَتِهِمْ التي بِهَـا يَنْطِقُونَ، وَأَيْدِيهِمْ التي بِهَا يَبْطِشُـونَ، فَأَمْتَعَكُمْ اللّٰه بِمَـا خَصَّكُمْ مِـنْ فَضْلِ صِنَاعَتِكُمْ، وَلا نَـزَعَ عَنْكُمْ مَا أَضْفَاهُ مِنَ النِّعمَةِ عَلَيْكُمْ!. وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الصِّنَاعَاتِ كُلِّهَا أَحْوَجَ إلى اجْتِمَـاعِ خِلالِ الخَيْرِ المَحْمُودِ، وَخِصَالِ الفَضْلِ المَذْكُورَةِ المَعْـدُودَةِ مِنْكُمْ، أَيُّهَا الكُتّابُ، إِذَا كُنْتُمْ عَلـى مَا يَأتِي في هَذَا الكِتَابِ مِنْ صِفَتِكُمْ، فَإِنَّ الكَاتِبَ يَحْتَاجُ في نَفْسِـهِ، وَيَحْتَاجُ مِنْهُ صَاحِبُهُ الذي يَثِقُ بِـهِ في مُهِمَّاتِ أُمُورِهِ، أَنْ يَكُونَ حَلِيْمًا في مَوْضِعِ الحِلْمِ، فَهِيْمًـا لِلْعَفَافِ فـي مَوْضِعِ الحُكْمِ، مِقْدَامًـا في مَوَاضِعِ الإِقْـدَامِ، مِحْجَامًا في مَوَاضِـعِ الأَحْجَامِ، مُؤْثِرًا للعَفَافِ، وَالعَدْلِ وَالإِنْصَافِ، كَتُومًا لِلأَسْرَارِ، وَفِيًّا عِنْدَ الشَّدَائِدِ عَالِمًـا بِمَا يَأتـي مِنَ النَّوَازِلِ، يَضَعُ الأُمُـورَ في مَوَاضِعِهَا، وَالطَّـوارِقَ في أَمَاكِنِهَـا، قَدْ نَظَرَ في كُلِّ فَـنٍّ مِنَ فُنُونِ العِلْـمِ فَأَحْكَمَـهُ، وَإِنْ لَـمْ يُحْكِمْـهُ أَخَذَ مِنْـهُ بِمِقْدَارِ مَا يُكْتَفَـى بِـهِ، يَعْرِفُ بِغَرِيْـزَةِ عَقْلِهِ، وَحُسْـنِ أَدَبِهِ، وَفَضْلِ

تَجْرِبَتِـهِ، مَا يَرِدُ عَلَيْـهِ قَبْلَ وُرُودِهِ، وَعَاقِبَـةُ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ قَبْـلَ صُدُورِهِ، فَيُعِدُّ لِكُلِّ أَمْرٍ عُدَّتَهُ وَعِتَادَهُ، وَيُهَيِّئُ لِكُلِّ وَجْهٍ هَيْئَتَهُ وَعَادَتَهُ.»[59]

وَمِنْ رِسَالَتِهِ التي وَصَفَ فِيْهَا الصَّيدَ نَقرَأُ:

«خَرَجْنَـا إلى الصَّيدِ بِأَعْدَى الجَـوَارِحِ، وَأَثْقَفِ الضَّوَارِي؛ أَكْرَمُهَا أَجْنَاسًـا، وَأَعْظَمُهَا أَجْسَـامًا، وَأَحْسَنُهَا أَلوَانًا، وَأَحَدَّهَـا أَطرَافًـا، وَأَطوَلَهَـا أَعْضَـاءً، قَـدْ ثُقِّفتْ بِحُسْـنِ الأَدَبِ، وَعُوِّدَتْ شِـدَّةَ الطَّلَبِ، وَسَـبَرَتْ أَعْـلامَ المَوَاقِفِ، وَخَبَـرَتْ المَجَاثِمِ، مَجْبُولَةً على مَا عُوِّدَتْ، وَمَقْصُورَةً على مَـا أُدِّبَـتْ، وَمَعَنَا مِـنْ نَفَائِسِ الخَيْـلِ المَخْبُـورَةِ الفَرَاهَةِ، مِنَ الشَّـهْرِيَّةِ المَوْصُوفَـةِ بِالنَّجَابَةِ وَالجَـرْيِ وَالصَّلابَةِ فَلَمْ نَـزَلْ بِأَخْفَضِ سَـيْرٍ، وَأَثْقَفِ طَلَبٍ، وَقَدْ أَمْطَرَتْنَا السَّـمَاءُ مَطَرًا مُتَدَارِكًا، فَرَبَتْ مِنْهُ الأَرْضُ وَزَهَرَ البَقلُ، وَسَكَنَ القَتَـامُ مِنْ مَثَارِ السَّـنَابِكِ، وَمُتَشَـعِّبَاتِ الأَعَاصِيْـرِ، مُهْلَةَ أَنْ سِـرْنَا غُلْـوَاتٍ، ثُـمَّ بَرَزَتْ الشَّـمْسُ طَالِعَةً وَانْكَشَـفَتْ مِـنَ السَّـحَابِ مُسْـفِرَةً، فَتَـلأْلأَتْ الأَشْـجَارُ وَضَحِـكَ النُّـوَارُ، وَانْجَلَتْ الأَبْصَارُ، فَلَمْ نَرَ مَنْظَرًا أَحْسَـنَ حُسْـنًا، وَلا مَرْمُوقًا أَشْـبَهَ شَـكْلاً، مِنَ ابْتِسَـامِ نُوْرِ الشَّـمْسِ عَن اخْضِرَارِ زَهْرِ الرِّيَاضِ، وَالخَيْلُ تَمْرَحُ بِنَا نَشَاطًا، وَتَجْذُبُنَا أَعِنَّتُهَا انْبِسَاطًا، ثُمَّ لَمْ نَلْبَثْ أَنْ عَلَتْنَا ضَبَابَةٌ تُقْصِرُ طَرَفَ النَّاظِرِ، وَتُخْفِي سُـبُلَ السَّـلامِ، تَغَشَـانَا تَارَةً وَتَنْكَشَـفُ أُخْرَى، وَنَحْنُ بِأَرْضٍ دَمِثَةِ التُّرَابِ، أَشْبَهِ الأَطرَافِ مُغْدِقَةِ

الفِجَاج، مَمْلُوْءةٍ صَيْدًا مِنَ الظِّبَاءِ وَالثَّعَالِبِ وَالأَرَانِبِ، فَأدَّانا المَسِيْرُ إِلَى غَابَةٍ دُونَهَا مَأَلَفُ الصَّيدِ، وَمُجْتَمَعُ الوَحْشِ وَنِهَايَةُ الطَّلَبِ، وَقَدْ جَاوَزْنَاهَا وَنَحْنُ عَلَى سَبِيْلِ الطَّلَبِ مُمْعِنُونَ، وَبِكُلِّ حُرَّةٍ جُوْنَةٍ مُتَفَرِّقُونَ، فَرَجَعَ بِنَا العَوْدُ عَلَى البَدْءِ، وَقَدْ انْجَلَتْ الضَّبَابَةُ، وَامْتَدَّ البَصَرُ، وَأمْكَنَ النَّظَرُ، فَإِذَا نَحْنُ بِرَعْلَةٍ مِنْ ظِبَاءٍ، وَخِلْفَةِ آرَامٍ يَرْتَعْنَ آنِسَاتٍ، قَدْ أحَالَتْهُنَّ الضَّبَابَةُ عَنْ شَخْصِنَا، وَأذْهَلَهُنَّ أنِيْقُ الرِّيَاضِ عَنْ اسْتِمَاعِ حِسِّنَا، فَلَمْ نَعُجْ إِلاَّ وَالضَّوَارِي لائِحَةٌ لَهُنَّ عَنْ بُعْدِ الغَايَةِ، وَمُنْتَهَى نَظَرِ الشَّاخِصِ، ثُمَّ مَدَّتْ الجَوَارِحُ أجْنِحَتَهَا، وَاجْتَذَبَتْ الضَّوَارِي مَقَاوِدَهَا، فَأُمِرَتْ بِإِرْسَالِهَا عَلَى الثِّقَةِ بِمُحْضَرِهَا، وَسُرْعَةِ الجَوَارِحِ فِي طَلَبِهَا، فَمَرَّتْ تَحُفُّ حَفِيْفَ الرِّيحِ عِنْدَ هُبُوبِهَا، تَسُفُّ الأَرْضَ سَفًا، كَاشِفَةً عَنْ آثَارِهَا، طَالِبَةً لِخِيَارِهَا، حَارِشَةٌ بِأظفَارِهَا، قَدْ مَزَّقَتْهَا تَمْزِيقَ الرِّيحِ الجَرَادَ، فَمِنْ صَائِحٍ بِهَا وَنَاعِرٍ، وَهَاتِفٍ بِهَا وَنَاعِقٍ، يَدْعُو الكَلْبَ بِاسْمِهِ وَيَفدِيْهِ بِأبِيْهِ وَأُمِّهِ، وَرَاكِضٍ تَحْتَ مُفرِّهِ، وَخَافِقٍ يَطْلُبُهُ الرُّمْحُ، وَطَامِحٍ يَمْنَعُهُ، وَسَائِحٍ قَدْ عَارَضَهُ بَارِحٌ، قَدْ حَيَّرَتْنَا الكَثْرَةُ، وَألْهَجَتْنَا القُدْرَةُ حَتَّى امْتَلأتْ أيْدِيْنَا مِنْ صُنُوفِ الصَّيدِ.(60)

يَكْشِفُ هَذَانِ النَّموذَجَانِ لَنَا بِجَلاءٍ خَصَائِصَ الكِتَابَةِ الفَنِّيَّةِ عِنْدَ عبدِ الحَميدِ الكَاتِبِ؛ التي تتأسَّسُ عَليْهَا شِعْرِيَّةُ الخِطَابِ، وَتَتَمَثَّلُ فِي عِنَايَتِهِ بِالتَّرَادُفِ الإيقاعيِّ بينَ الفَوَاصِلِ طُولاً وَقِصَرًا، اعْتِنَاءً ليسَ

يَخْفَى؛ لِيُؤسِّسَ أمْوَاجَ إيقاعِهِ، وَقَدْ لاحَظَ طه حُسَين (1889 ـ 1973)، أنَّهُ يُقَسِّمُ كَلامَهُ إلى فُصُولٍ وَأجْزَاءٍ، وَهَذَا النَّوعُ مِنْ تَقْسِيمِ الكَلامِ نَوْعٌ يُونَانِيٌّ مِنْ خَصَائِصِ النَّثْرِ اليُونَانِيِّ القَدِيم[61]، أمَّا شَوقي ضَيف (1910 ـ 2005) فَيَلْحَظُ، اعْتِمَادَه على التَّرَادُفِ؛ «فَالفِكْرَةُ تُؤدَّى أداءً مُبَسْطًا فِي عِبَارَتَينِ، أوْ عِبَارَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ تُؤدَّى هَذَا الأداءَ حَتَّى تُكْسِبَ الأسْلوبَ ضَرْبًا مِنَ التَّوقيعِ المُوسِيقيِّ، أوْ قُلْ مِنَ التَّعادُلِ الصَّوتيِّ؛ فَالعِبَارَتَانِ عِندَ عبدِ الحَميدِ تَتَعَادَلانِ في شِبْهِ مُوَازَنَاتٍ صَوْتِيَّةٍ؛ إذْ كَانَ يَأبَى أنْ يُؤدِّي فِكْرَتَهُ في عِبَارَةٍ وَاحِدَةٍ، بَلْ يَطْلُبُ أدَاءَهَا في عِبَارَتينِ أوْ أكْثَرِ، حَتَّى يُخْرجَهَا إخْرَاجًا إلى مَا يُريدُ مِنْ مُوَازَنَاتٍ مُوْسِيقيَّةٍ وَمُعَادَلاتٍ صَوتيَّةٍ، وَلَمْ يَكُنْ عبدُ الحَميدِ يَحْتَكِمُ إلى اللفظِ الغَريبِ، كَمَا وَلَمْ يَكُنْ يَحْتَكِمُ أيْضًا إلى السَّجعِ.. بَلْ كَانَ يَحْتَكِمُ إلى ضَرْبٍ مِنَ التَّوقيعِ الصَّوتِيِّ، كَانَ يَلْتَمِسُهُ فِيْمَا يَأتِي بِهِ مِنْ تَرَادُفٍ يُوَازِنُ بِهِ بينَ عِبَارَاتِهِ، إنَّ الخَصَائِصَ الأسَاسِيَّةَ عندَ عبدِ الحَميدِ، هِيَ أنَّهُ يَخْضَعُ في تَفْكِيرِهِ إلى المَنْطِقِ وفي لفظِهِ للتَّرَادُفِ[62]؛ فَنَحْنُ نَرَى في عِبَارَاتِهِ: «جَوْدَةَ التَّقسِيمِ وَالتَّحليلِ، وَفِيْهَا أيْضًا هَذَا التَّرَادُفُ المُوسِيقِيُّ؛ الذي يُتِيحُ لِعِبَارَاتِهِ ألوَانًا مُخْتَلِفَةً مِنَ الإيقاعَاتِ الصَّوتيَّةِ الطَّريفَةِ»[63]؛ فَقَدْ كَانَ يَسْعَى دَائِمًا إلى تَحْقِيقِ مَعَانِيهِ على أسَاسٍ مِنَ المَنْطِقِ وَالفِكرِ الدَّقيقِ، كَمَا كَانَ يَسْعَى إلى تَحْقيقِ ألفَاظِهِ عَلى أسَاسٍ مِنَ الإيقاعِ وَالصَّوتِ الأنِيقِ.[64]

عَبْدُ اللهِ بنُ المُقَفَّعِ (ت مقتولاً 142هـ)

وَقَدْ سَاهَمَ ابْنُ المُقفَّع[65] بِجُهدٍ أسَاسِيٍّ في تَرْسِيخِ بُنْيَانِ الكِتَابَةِ الفَنّيَّةِ الجَدِيدَةِ، مَعَ عبدِ الحَميدِ الكَاتِبِ، وَقَدْ اعْتَبَرَ طَه حُسَين «أنَّ أوَّلَ مَنْ أحْدَثَ في نُفُوسِنَا لَذَّةَ الكِتَابَةِ الفَنّيَّةِ في العَصْرِ الإسْلامِيِّ هُوَ عَبدُ الحَميدِ وَابنُ المُقَفَّع»[66]، وَبالرَّغْمِ مِنْ عِنَايَةِ ابْنِ المُقَفَّعِ الشَّديدَةِ بلُغَتِهِ وَأُسْلُوبِهِ نَرَى الكَثيرينَ يُلِحُّونَ على قُصُورِ أداءِ التَّعبيرِ لَدَيْهِ أحْيَانًا[67]؛ غَيْرَ أنَّنَا بِحَقٍّ نّجِدُ لدى ابْنِ المُقَفَّعِ «عِبَارَاتٍ مِنْ أجْوَدِ مَا نَقرَأُ في العَرَبيَّةِ، وَبِنَوعٍ خَاصٍّ في الأدبِ الكبيرِ، وفي «كليلة ودمنة»[68]، وَمِنْ ذَلِكَ هَذَا المُجْتَزَأ مِنْ «كليلة ودمنة»؛ الذي يُشَارِفُ تُخُومَ الشِّعرِ المَنْثُورِ:

«.. وَكُنْتُ أُقَرِّعُ نَفْسِي إذَا هِيَ نَازَعَتْنِي إلَى أنْ تَغْبطَ أُولئِكَ وَتَتَمَنَّى مَنَازِلَهُمْ، وَآبَى لَهَا إلاَّ الخُصُومَةَ، وَأقُولُ: يَا نَفْسُ أمَا تَعْرفِيْنَ نَفْعَكِ مِنْ ضُرِّكِ؟، ألا تَنْتَهِيْنَ عَنِ الرَّغبةِ فِيْمَا لَمْ يَنَلْهُ أحَدٌ إلاَّ قَلَّ انْتفَاعُهُ بِهِ، وَكَثُرَ عَنَاؤُهُ فِيْهِ، وَاشْتَدَّتْ مَؤنَتُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ فِرَاقِهِ، وَعَظُمَتْ التَّبِعَةُ عَلَيْهِ بَعْدَهُ؟، يَا نَفْسُ أمَا تَذْكُرِيْنَ أمَامَكِ فَتَنْسَيْ مَا تَشْرَهِيْنَ إليهِ فيْمَا بَيْنَ يَدِكِ؟، ألاَ تَسْتَحيْنَ مِنْ مُشَارَكَةِ الفَجَرَةِ الجُهَّالِ في حُبِّ هَذِهِ الفَانِيَةِ البَائِدَةِ التي مَنْ كَانَ في يَدِهِ مِنْهَا شَيْءٌ فَلَيْسَ لَهُ، وَلا بِبَاقٍ عَلَيْهِ، وَالتي لا يَأْلَفُهَا إلاَّ المُغْتَرُّونَ الغَافِلُونَ؟، يَا نَفْسُ أقْصِرِي عَنْ هَذَا السَّفَهِ، وَمَا أنْت عَلَيْهِ مِنْ خَطَلِ الرَّأيِ فِيْهِ، وَأقْبِلِي بِقُوَّتِكِ وَسَعْيِكِ وَمَا تَمْلِكِيْنَ عَلَى تَقْدِيْمِ الخَيْرِ وَالأجرِ مَا اسْتَطَعْتِ،

وَإيَّـاكِ وَالتَّسـويْفِ وَالتَّوَانـي، وَاعْلَمي أنَّ هَذَا الجَسَـدَ ذُو آفَـاتٍ، وَأنَّـهُ مَمْلُوءٌ أخْلاطًا فَاسِـدَةً قَـذِرَةً يَجْمَعُهَـا أرْبَعَةُ أشْـيَاءَ مُتَعَادِيَـةٍ مُتَغَالِيَةٍ تُعَمِّدُهُنَّ الحَيَـاةُ، وَهِيَ إلى نَفَادٍ، كَالصَّنَـمِ المُفَصَّلَةِ أعْضَـاؤُهُ إذَا رُكِّبَتْ جَمَعَهَا مِسْـمَارٌ وَاحِـدٌ، وَأمْسَـكَ بَعْضَهَا عَلـى بَعْضٍ، فَإذَا أُخِذَ المِسْـمَارُ تَسَـاقَطَتْ الأوْصَـالُ، يَا نَفْـسُ لا تَغْتَرِّي بِصُحْبَـةِ أحِبَّائِكِ وَأخِلاَّئِـكِ، وَلا تُحَرِّضِي عَلى ذَلِكَ، فَإنَّهَا عَلى مَا فِيْهَا مِنْ السُّـرورِ وَالبَهْجَـةِ كَثِيْرَةُ الأذَى وَالمَئُونَـاتِ وَالأحْزَانِ؛ ثُمَّ تَخْتِـمُ ذَلكَ بِقَطْعِ الفُرَاقِ كَالمِغْرَفَةِ تُسْـتَعْمَلُ في صِحَّتِهَا وَجِدَّتِهَا فـي حَرَارَةِ المَرَقِ وَسُـخُونَتِهِ، فَإذَا هِـيَ انْكَسَرَتْ صَـارَ عَاقِبَـةُ أمْرِهَـا إلـى النَّـارِ، يَـا نَفْـسُ لا يَحْمِلَنَّـكِ مَا تُرِيْدِيْـنَ مِنْ صِلَـةِ أهْلِكِ وَأقَارِبِـكِ وَالتِمَـاسِ رِضَاهُمْ عَلى جَمْـعِ مَا تَهْلَكِيْنَ فِيْـهِ، فَإذَا أنْتِ كَالدُّخْنَـةِ الطَّيبَةِ التي تَحْتَرِقُ وَيَذْهَبُ بِعَرْفِهَا آخَرُونَ، وَكَالذُّبَالَةِ تُضِيءُ لِغَيْرِهَا بِاحْتِرَاقِهَـا، يَا نَفْسُ لا تَغْتَرِّي بِالغِنَـى وَالمَنْزِلَةِ التي تُبْطِرُ أهْلَـهُ، فَإنَّهَا إلى انْقِلابٍ، وَإنَّ صَاحِبَ ذَلكَ لا يُبْصِرُ صِغَرَ مَا يَسْـتَعْظِمُ حَتَّى يُفَارِقَهُ، فَيَكُونُ كَشَـعْرِ الرَّأسِ الذي يُكْرِمُـهُ صَاحِبُـهُ وَيَخْدِمُهُ مَادَامَ عَلى رَأْسِـهِ، فَـإذَا فَارَقَ رَأْسَهُ قَذَّرَهُ وَقَزَّمَهُ، يَا نَفْسُ دُوْمِي عَلى مُدَاوَمَةِ المَرْضَى، وَلا يُعَوِّقَـكِ عَـنْ ذَلِـكَ أنْ تَقُولِـي إنَّ الطِّبَ مَئُونَةٌ شَـدِيْدَةٌ، وَالنَّـاسُ بِمَنَافِعِهَـا وَمَنَافِعِ الطِّـبِ جُهَّالٌ، وَلَكِـنْ اعْتَبِرِي بِمَنْ يُفَرِّجُ عَنْ رَجُلٍ كُرْبَةً تَحِلُّ بِهِ، وَيَسْـتَنْقِذُهُ مِنْهَا، حَتَّى

يَعُـودَ بَعْدَهَا إلى مَـاكَـانَ يَكونُ فِيْه مِنَ السِّـعَةِ وَالرُّوحِ، فَإِنَّهُ أَهْلٌ لِعَظِيْمِ الأَجْرِ وَحُسْنِ الثَّوَابِ.» [69]

إنَّ هذا الأداءَ الشِّـعريَّ للخِطابِ يكشِـفُ عنْ نزوعٍ واضحٍ للتَّشديدِ علـى الرِّسـالةِ الأدبيَّـةِ؛ نـزوعٍ تتقدَّمُ فيـه الرَّغبةُ في إنْشَـاءِ نَسِـيْجٍ أدَبيٍّ موسيقيٍّ على الرَّغبةِ في إرْسَالِ المَعْنَى؛ نسيجٍ يَتَقَصَّى بَوَاطِنَ الكَلامِ، فـي تَدَاعِيَاتٍ غِنَائيَّةٍ ذَاتَ تَوَازِيَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ، تُشَـكِّلُ شِـعْرِيَّةَ الخِطَابِ، عَبْـرَ آلِيَّاتٍ شِـعْرِيَّةٍ أبْرَزُهَا: تِكْرَارُ بِنْيَةِ النِّـدَاءِ، وَتِكْرَارُ صِيْغَةِ الأمْرِ، وَاصْطِفَاءِ صِيْغَةِ التَّشْـبِيْهِ، وَالتَّدفُّقُ الغِنَائِيُّ الاسْتِبْطَانِيُّ، وتُبْرِزُ العِبَارَةُ الطَّويلَـةُ رَغْبَـةَ الكِتَابَةِ لا هَاجِسَ الفِكْرَةِ، وَتَتَجَلَّى الدِّقَـةُ البَالِغَةُ في صِنَاعَةِ الأسْلُوبِ وَالإيقاعِ المتموِّجِ المُتَرَاخِي العَمِيقِ، وَقَدْ لاحَظَ شوقي ضَيف أنَّهُ «كَانَ يَنْفَرُ نُفُورًا شَدِيدًا مْنَ الإغْرَابِ في اللفظِ وَالتَّوعُّرِ فيْه، وَفي هَذِهِ الجَوَانِبِ مِنَ اخْتِيَارِ اللفظِ وَصَقْلِه وَالدِّقَّةِ فِيه، تِسْتَقِرُّ صِنَاعَةُ ابنِ المُقَفَّعِ.» [70]

سَهْلُ بنُ هَارُون (_ 215 هـ)

مَـعَ أوَاخِـرِ القَرْنِ الثَّاني الهِجْرِيِّ يَتَبَدَّى سَـهْلٌ بنُ هَـارُون بن رَهْبُون، مُتَمِّمًا مَا أرْسَـاهُ عبدُ الحَميدِ الكَاتِبِ وَابنُ المُقَفَّعِ في مَشْـهَدِ الإنْشَـاءِ المُتَرَسِّـلِ، وَيُكْبِرُ الجَاحِظُ إنْشَاءَ سَهْلِ بنِ هَارُون وَيُقدِّمُهُ عَلى أنَّهُ أهَمُّ كَاتِبٍ ظَهْرَ في القَرْنِ الثَّانِي، فَهُوَ يُثْبِتُ في بَيَانِه عَنْهُ أنَّهُ «مِنَ الخُطَبَاءِ الشُّـعرَاءِ، الذيـنَ جَمَعُوا الشِّـعرَ وَالخُطَبَ والرَّسَـائِلَ الطِّـوَالَ وَالقِصَارَ وَالكُتُبَ الكِبَارَ المُخَلَّدَةَ، والسِّـيرَ الحِسَانَ المُدَوَّنَةَ وَالأخْبَارَ المُوَلَّدَةَ: سَهْلٌ بنُ هَارُون بنُ رَاهَبُون.» [71] وَعَلى الرَّغْمِ مِنْ تَعَدُّدِ مَوَاهِبِهِ الأدَبِيَّةِ، إلاَّ

أنَّهُ لَمْ يَشْـتَهِرْ إلاَّ كَكَاتِبٍ مُتَرَسِّـلٍ» وَيُقَالُ إنَّ طَرِيْقَةَ سَهْلٍ في كِتَابَتِهِ طَرِيقَـةُ أمِيـرِ المُؤمِنِيـنَ عَليٍّ بنُ أبـي طَالبٍ؛ لا يَتَكَلَّـفُ لِكَلامِهِ، فلا يُشَـاهِدُ فيـهِ النَّاقِدُ أثَرَ التَّعَمُّلِ، بَـلْ لا يُكَلَّفُ بِغَيْرِ إرْسَـالِ النَّفْسِ عَلى سَـجِيَّتِهَا، فَهُوَ وَابْنُ المُقَفَّعِ وَالجَاحِظُ عَلى غِرَارٍ وَاحِدٍ، وَقِيْلَ إنَّ سَـهْلاً كَاتِبُ سَلاطِين وَالجَاحِظُ مُؤلِّفُ دَوَاوين. وَكَأنَّ كَلامَهُ نَغَمَةٌ مُوسِيْقِيَّةٌ تَعْـرِفُ انْتِهَاءَ جُمْلَتِهِ مِنْ رَنَّتِهَا بَعْدَ أنْ مَلَكَتْ عَلَيْكَ مَشَـاعِرَكَ؛ لا يَحْفَلُ بالأسْـجَاعِ إلاَّ إذَا جَـاءَتْ عَفْـوَ الخَاطِرِ»[72]، وَلَمْ يَصِلْ إليْنَـا مِنْ عَمَلِهِ إلاَّ النَّذْرَ اليَسِـيْرَ في كِتَابَيْ الجَاحِظِ: (البَيَان وَالتَّبيين) و (البُخَلاء)، وَهُوَ مَا حَفظَ لَنَا سِرَّ صِنَاعَتِهِ الفَنِّيَّةِ، وَمِنْهُ رَسَالَتَهُ التي يُوْرِدُهَا الجَاحِظُ في كِتَابِهِ: (البُخَلاء)، وَيَسْتَهِلُّهَا هَذَا الاسْتِهَلال:

«أصْلَحَ اللّهُ أمْرَكُمْ، وَجَمَعَ شَمْلَكُمْ، وَعَلَّمَكُمْ الخَيْرَ، وَجَعَلَكُـمْ مِنْ أهْلِهِ، قَالَ الأحْنَفُ بنُ قيسٍ: يَا مَعْشَـرَ بَنِي تَمِيْم، لا تُسْرِعُوا إلى الفِتْنَةِ؛ فَإنَّ أسْرَعَ النَّاسِ إلى القِتَالِ، أقَلُّهُـمْ حَيَـاءً مِنَ الفِرَارِ، وَقَدْ كَانُـوا يَقُولُونَ: إنْ أرَدْتَ أنْ تَـرَى العُيُوبَ جَمَّـةً فَتَأمَّـلْ عَيَّابًا؛ فَإنَّـهُ إنَّمَا يَعِيْـبُ بِفَضْلِ مَـا فِيْـهِ مِنَ العَيْـبِ، وَأوَّلُ العَيْبِ أنْ تَعِيْبَ مَـا لَيْسَ بِعَيْبٍ، وَقَبِيْحٌ أنْ تَنْهَى عَنْ مُرْشِـدٍ أوْ تُغْرِي بِمُشْفِقٍ، وَمَا أرَدْنَا بِمَا قُلْنَـا إلاَّ هِدَايَتَكُمْ وَتَقْوِيْمَكُمْ، وَإلاَّ إصْلاحَ فَسَـادِكُمْ، وَإبْقَاءَ النِّعْمَةِ عَلَيْكُمْ، وَلَئِنْ أخْطَأنَا سَـبِيْلَ إرْشَـادِكُمْ، فَمَـا أخْطَأنَا سَـبِيلَ حُسْـنِ النِّيَّةِ فِيْمـا بَيْنَنَـا وَبَيْنَكُمْ، ثُمَّ قَـدْ تَعْلَمُونَ أنَّ مَا أوْصَيْنَاكُمْ إلاَّ بِمَا قَدْ اخْتَرْنَاهُ لأنْفُسِـنَا قَبْلَكُـمْ، وَأُشْـهِرْنَا بِهِ في الآفَـاقِ دُونَكُمْ، ثُـمَّ نَقُولُ في

ذَلِـكَ مَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ لِقَوْمِهِ: (وَمَا أُرِيْدُ أنْ أُخَالِفَكُمْ إلَـى مَا أنْهَاكُمْ عَنْهُ، إنْ أُرِيْدُ إلاَّ الإصْلاحَ مَا اسْـتَطَعْتُ، وَمَـا تَوْفِيْقِي إلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإلَيْهِ أُنِيْبُ): فَمَا كَانَ أَحَقَّكُـمْ فِي تَقْدِيرِ حُرْمَتِنَا بِكُمْ، أنْ تُرَاعُوا حَقَّ قَصْدِنَا بِذَلِـكَ إلَيْكُـمْ، عَلَى مَـا رَعَيْنَاهُ مِنْ وَاجِـبِ حَقِّكُمْ، فَلا العُـذْرَ المَبْسُـوطَ بَلَغْتُـمْ، وَلاَ بِوَاجِبِ الحُرْمَـةِ قُمْتُمْ، وَلَوْ كَانَ ذِكْـرُ العُيُـوبِ يُرَادُ بِهِ فَخْـرٌ لَرَأيْنَا فِي أنْفُسِـنَا مِنْ ذَلِكَ شُغْلاً.»[73]

وَمِنْهَا أيْضًا:

«وَقُلْـتُ لَكُـمْ بِالشَّـفَقَةِ مِنِّـي عَلَيكـم، وَبِحُسْـنِ النَّظَـرِ لَكُـمْ، وَبِحِفْظِكُمْ لآبَائِكُمْ، ولِمَا يَجِـبُ فِي جِوَارِكُمْ وَمُلابَسَـتِكُمْ: أنْتُـمْ فِـي دَارِ الآفَـاتِ، وَالحَوَائِـجُ غَيْـرُ مُأْمُونَـاتٍ، فَإنْ أحَاطَتْ بِمَـالِ أحَدِكُمْ آفَةٌ، لَمْ يَرْجِعْ إلَى بَقِيَّـةٍ؛ فَأحْـرِزُوا النِّعمَةَ بِاخْتِلافِ الأمْكِنَةِ، فَـإنَّ البَلِيَّةَ لا تَجْرِي فِي الجَمِيْعِ إلاَّ مَعَ مَوْتِ الجَمِيْعِ.»[74]

إنَّ مِنَ المُلاحَظِ عَلى تَشْكِيلِ الخِطَابِ، هُنَا، الحِرْصِ الوَاضِحِ عَلى تَقْسِـيْمِ الكَلامِ إلى فَوَاصِـلَ قَصِيرَةٍ، تَتَنَاغَمُ وَتَتَعَادَلُ؛ لِتُشَـكِّلَ تَرَادُفًا إيقاعِيًّا بَيْنَ الجُمَلِ، وَتُحَافِظُ عَلى التَّوَازُنَاتِ الصَّوتِيَّةِ لِلْكَلامِ، بِأدَاءٍ يَنِمُّ عَن حِرْصٍ وَاضِحٍ، عَلى تَشْـكِيلِ بِنَاءٍ إيقَاعِيٍّ لِلْخِطَابِ؛ يَقُومُ عَلى تَمَوُّجِ الإيقاعِ؛ عَبْرَ تَقْسِـيْمِهِ إلى وَحَدَاتٍ إيقَاعِيَّـةٍ مُتَوَازِنَةٍ، وَمُتَنَامِيَّةٍ، فِي جُمَلٍ مُكَثَّفَةٍ، كَمَا تُسَاعِدُ آلِيَّاتٌ أخْرَى فِي تَشْكِيْلِ شِعْرِيَّةِ الخِطَابِ؛ وَمِنْهَا:

تِكْرَارُ بَعْضِ الصِّيَغِ، وَالتَّقدِيمِ وَالتَّأخِيرِ، وَتَنَوُّعُ الأسَـاليبِ، وَيَسْتَخْلِصُ شوقي ضَيف الخَصَائِصَ الأسْلُوبيَّةَ لِسَهْلِ بنِ هَارون، في أنَّهُ يَتَمَيَّزُ بِبَسْطِ الأدِلَّة؛ «فَهُوَ يُدْلِي بِأقْيسَـةٍ وَقَضَايَا وَآثَارٍ مَرْوِيَّةٍ، وَيُمَيِّزُهَا شَـيءٌ آخَرُ أهَمّ مِنْ ذَلِكَ؛ وَهُوَ مَا يَعْمَدُ إليهِ مِنْ بَسْـطِ العِبَارَةِ بَسْـطًا، يَظْهَرُ فيهِ التَّقْطِيعُ الصَّوتِيُّ، وَالتَّرَادُفُ المُوسِـيْقيُّ»[75]؛ حَيْثُ نَرَى «الألْفَاظَ تَتَوَازَنُ، لَكِنْ لا في شَـكْلِ سَجْعٍ؛ بَلْ في شَـكْلِ تَقْطِيْعَاتٍ خَاصةٍ، وَكَأنِّي بِسَهْلٍ لَمْ يَكُـنْ يَعْمَدُ إلـى أدَاءِ أفْكَارِهِ بِلَفْظٍ فَصِيْحٍ فَقَط؛ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ ابْنُ المُقَفَّـعِ؛ بَلْ كَانَ يَعْمَدُ إلى ضُرُوبٍ مِنَ التَّوقِيعِ الصَّوتيِّ في اللفظِ؛ حَتَّى تَسْـتَقِيمَ لأسْـلُوبِهِ فُنُونٌ مِنَ الجَمَـالِ المَادِّيِّ؛ الذي يَخْلِبُ سَـامِعِيْهِ؛ كَيْ يُؤَثِّـرَ عَلـى وِجْدَانِهِـمْ وَعَوَاطِفِهِمْ، بِجَانِبِ مَـا يُؤَثِّرُ بِهِ عَلـى عُقُولِهِمْ، مِنْ حِجَاجِهِ وَجِدَالِهِ وَالْتِمَاسِهِ لِلْبَرَاهِينِ وَالأدِلَّة على أفْكَارِهِ، وَهَذَا التَّقطِيعُ الصَّوتيُّ في أسْـلُوبِ سَـهْلٍ، اقْتَرَنَ بِهِ عُنْصُرٌ آخرٌ في صَنْعَتِه، هُو عُنْصُرُ التَّرَادُفِ؛ فَالْمَعْنَى لا يُؤدَّى أدَاءً وَاحِدًا، في عِبَارَةٍ وَاحِدَةٍ؛ بَلْ يُؤدَّى أدَاءَيْنِ أوْ أكْثَر؛ حَتَّى يَتَمَّ لِسَهْلٍ مَا يُرِيْدُ مِنْ تَوْقِيْعٍ صَوْتِيٍّ، وَتَعَادُلٍ مُوْسِيقيٍّ بَيْنَ ألْفَاظِـهِ وَعِبَارَاتِهِ، وَقَدْ جَرَّهُ ذَلِكَ إلى ضُرُوبٍ مِنَ التَّرَادُفِ في تَرَاكِيْبِهِ، وَلَكِنَّـهُ تَرَادُفٌ طَرِيْفٌ.. تَـرَادُفٌ فَنِّيٌّ؛ فَقَدْ كَانَ سَـهْلٌ يُرِيدُ أنْ يُؤدِّي بِهِ خَصَائِـصَ فَنِّيَّةً، بِجَانِبِ مَا يُؤدِّي مِـنْ خَصَائِصَ ذِهْنِيَّةٍ؛ فَقَدْ كَانَ يَعْرِفُ كَيْفَ يُوَازِنُ بَيْنَ هَذِهِ التَّلاوِينِ العَقليَّةِ، وَمَا سَبَقَهَا مِنْ تَلاوِيْنَ مُوْسِيقيَّةٍ؛ فَتَخْـرُجُ أسَـالِيْبُهُ وَقَـدْ الْتَمَعَتْ عَلَيْهَا شِـيَاتٌ من التَّأمُّلِ وَالعَقْـلِ الدَّقِيق، كَمَا التَّفَتْ عَلَيْهَا شِـيَاتٌ مِنْ التَّوقِيْعِ وَالتَّرَادُفِ المُوْسِيْقيِّ، وَسَنَرَى هَذِهِ الشِّـيَاتِ جَمِيْعًـا تَمْتَدُّ تَحْتَ أعْيُنِنَـا في كُلِّ مَا دَبَّجَ الجَاحِـظُ وَحَبَّرَهُ مِنْ كُتُبٍ وَرَسَائِلَ، وَإنَّهُ لَيَتَأثَّرُ في هَذِهِ النَّزْعَةِ سَهْلاً.»[76]

أبو عُثْمان عَمرو بنُ بَحْرٍ الجَاحِظ (159 255هـ)

جَـاءَ الجَاحِـظُ[77]؛ ليُلَخِّـصَ عَصْـرًا كَامـلًا مِـنَ الكِتَابَـةِ الفَنِّيَّـةِ المُتَرَسِّـلَةِ، وَيكُونَ عُنْوَانًا لَهَا، وَتَتْويجًا لإنْجَازِ هَذِه المَرْحَلَة؛ فَكَأَنَّمَا كُلّ مَـنْ أتَـى قَبْلَـهُ ــ عَلَـى هَـذِهِ الطَّريـقِ ــ كَانَ يُؤسِّـسُ لِلْحَـدَثِ الجَاحِظِيِّ وَيُؤَسِّـسُ لِعُصُـورٍ تَاليةٍ مِنَ النَّثر الفَنِّيِّ المُتَرَسِّـلِ، وَمِنْ أجَلْى خِصَائِصِ التَّعبيرِ عِنْدَ الجَاحِظِ: مُوْسِـيقيَّةُ العِبَارَةِ وَتَدَفُّقهَا وَاسْتِرْسَالهَا دُونَ تَعْقِيـدٍ؛ فَـلَا نَـكَادُ نَتَوَغَّـلُ في إنْشَـاءَاته، حَتَّى نُلاحِظَ مسَـاحَاتِهِ المُتَعَادِلَـةَ المُتَوَازِنَةَ، » في رَصَانَةٍ وَفُحُولَـةٍ، لا أَثَرَ فِيْهَا لِلْصَّنعَةِ وَلا عَمَدَ إلى التَّحسينِ البَديعيِّ، وَهُوَ أسْلوبٌ انْفَرَدَ بِهِ الجَاحِظُ بَيْنَ أئِمَةِ التَّرسُّلِ.. فَإنَّ لَهُ لَرَنَّةً، وَإنَّ لَهُ لَنَبْراً.[78]

وَقَدْ لاحَظَ طه حُسَـين أنَّ أدَاءَ الجَاحِظِ قَدْ «نُظِّمَ تَنْظِيمًا مُوْسِـيْقيًّا، وَأُلِّفَ تَأليْفًا خَاصًا؛ لَهُ نِسَـبُ خَاصـةٌ، فَهَذِهِ الجُمَلَةُ لَهَا هَذَا المِقْدَارُ مِنَ الطُّولِ، وَهَذِهِ الجُمْلَةُ تُنَاسِبُ هَذَا المَوضُوعَ، وَإذَا قَصُرَتْ هَذِهِ الجُمْلَةُ، لاءَمَتْهَـا تِلكَ الجُمْلَةُ، وَإذَا ضَخُمَتْ ألفَاظُ هَـذِهِ الجُمْلَةُ، كَانَتْ الجُمْلَةُ التـي تَلِيْهَـا عَلى حَظٍّ مِنَ السُّـهولَةِ، وَهَـكَـذَا طَغَتْ عَليْه فُنُونُ الشِّـعرِ، وَسَـهُلَتْ ألْفَاظُهُ، وَأصْبَحَ يَسِـيْرًا طَيِّعًا، وَدَخَلَتْهُ المُوْسِيقَا؛ فَغَلَبَ الشِّعرُ حَتَّـى في أخَصِّ الأشَـيَاءِ بِـهِ، وَهُوَ المُوْسِـيْقَا»[79]، كَمَا لاحَظَ شَـوقي ضَيف أنَّهُ كَانَ « يُقَطِّعُ عِبَارَاتِهِ تَقْطيْعَاتٍ صَوْتيَّةٍ طَرِيفَة؛ وَهِيَ تَقطِيْعَاتٌ انْزَلَقَتْ بِهِ إلى فُنُونٍ مِنَ التِّكرَارِ المُوْسِيْقيِّ[80]، وَأنَّهُ اعْتَمَدَ كُلِّيًا عَلى ظَاهِرَتيـنِ أصِيلَتَيْـنِ فـي كُلِّ مَـا يُؤلِّفُ، وَهُمَـا: التَّقْطِيـعُ الصَّوتيُّ مِنْ طَـرَفٍ، وَالتِّكـرَارُ وَالتِّـرْدَادُ المُوْسِـيْقيُّ مِنْ طَـرَفٍ آخَرِ؛ أمَّـا التَّقطِيْعُ فَهُـوَ الذي يُتِيْحُ لَهُ هَذِهِ المُعَـادَلاتِ الصَّوتيَّةِ؛ التي تَجْعَلُ العِبَارَاتِ تَتَعَادَلُ

هَذَا التَّعَادُلَ المُوْسِيقِيَّ البَدِيْعَ، وَكَأنَّمَا قَدْ فُصِّلَتْ تَفْصِيْلاً، وَقُسِّمَتْ تَقْسِيْمًا، وَأمَّا التِّكرَارُ فَإنَّهُ كَانَ يَسْتَعِيْنُ بِهِ عَلى مَا يُرِيْدُ مِنْ تَقْطِيْعَاتٍ وَتَوقِيْعَاتٍ صَوْتِيَّةٍ، فَإذَا الفِكْرَةُ تُؤدَّى في عِبَارَتَيْنِ أوْ أكْثَر، لا لِسَبَبٍ إلاَّ لأنَّ الجَاحِظَ يُرِيْدُ لَهَا أدَاءً مُوْسِيْقيًّا بِجَانِبِ أدَائِهَا المَعْنَوِيِّ.»[81]

وَنَحْنُ لا نَكَادُ نَشْرَعُ في مُطَالَعَةِ كِتَابَاتِه حَتَّى تُطَالِعَنَا هَذِهِ المَلامِحُ وَسِوَاهَا مِمَّا ذَكَرْنَا؛ فَهُوَ يَبْدَأُ كِتَابَهُ: «البُخَلاء»، بِهَذِهِ الافْتِتَاحِيَّةِ:

(رَبِّ أنْعَمْتَ فَزِدْ)

تَوَلاَّكَ اللّهُ بِحِفْظِهِ، وَأعَانَكَ عَلى شُكْرِهِ، وَوَفَّقَكَ لِطَاعَتِهِ، وَجَعَلَكَ مِنَ الفَائِزِيْنَ بِرَحْمَتِهِ، ذَكَرْتَ ـ حَفِظَكَ اللّهُ ـ أنَّكَ قَرَأْتَ كِتَابِي في تَصْنِيْفِ حِيَلِ لُصُوصِ النَّهَارِ، وَفي تَفْصِيْلِ حِيَلِ سُرَّاقِ الليلِ، وَأنَّكَ سَدَدْتَ بِهِ كُلَّ خَلَلٍ، وَحَصَّنْتَ بِهِ كُلَّ عَوْرَةٍ، وَتَقَدَّمْتَ بِمَا أفَادَكَ مِنْ لَطَائِفِ الخُدَعِ، وَنَبَّهَكَ عَلَيْهِ مِنْ غَرَائِبِ الحِيَلِ، فَمَا عَسَى ألاَّ يَبْلُغَهُ كَيْدٌ، وَلا يَجُوْزُهُ مَكْرٌ.»[82]

وَنَقْرَأُ في الافْتِتَاحِيَّةِ نَفْسِهَا:

«فَكَيْفَ يَدْعُو إلى السَّعَادَةِ مَنْ خَصَّ نَفْسَهُ بِالشَّقْوَةِ، بَلْ كَيْفَ يَنْتَحِلُ نَصِيْحَةَ العَامَّةِ مَنْ بَدَأ بِغِشِّ الخَاصَّةِ؟، وَلِمَ احْتَجُّوا مَعَ شِدَّةِ عُقُولِهِمْ بِمَا أجْمَعَتْ الأُمَّةُ عَلى تَقْبِيْحِهِ، وَلِمَ فَخَرُوا مَعَ اتِّسَاعِ مَعْرِفَتِهِمْ بِمَا أطْبَقُوا عَلى تَهْجِيْنِهِ؟، وَكَيْفَ يَفْطِنُ عِنْدَ الاعْتِلالِ لَهُ، وَيَتَغَلْغَلُ عِنْدَ الاحْتِجَاجِ عَنْهُ، إلى الغَايَاتِ البَعِيْدَةِ، وَالمَعَانِي اللطِيفَةِ، وَلا يَفْطِنُ

لِظَاهِـرِ قُبْحِـهِ، وَشَـنَاعَةِ اسْـمِهِ، وَخُمُولِ ذِكْرِهِ، وَسُـوْءِ أَثَـرِهِ، عَلى أَهْلِهِ؟، وَكَيْفَ وَهُوَ الذي يَجْمَعُ لَهُ بَيْنَ الكَدِّ وَقِلَّةِ المرْفَقِ، وَبيْنَ السَّـهَرِ وَخُشُونَةِ المَضْجَعِ، وَبيْنَ طُوْلِ الاغْتِرَابِ، وَطُوْلِ قِلَّةِ الانْتِفَاعِ، وَمَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّ وَارِثَهُ أَعْدَى لَـهُ مِنْ عَدُوِهِ، وَأَنَّـهُ أَحَقُّ بِمَا لَهُ مِنْ وَلِيِّهِ؟، أَوَلَيْسَ لَوْ أَظْهَرَ الجَهْـلَ وَالغَبَاوَةَ، وَانْتَحَـلَ الغَفْلَةَ وَالحَمَاقَةَ، ثُمَّ احْتَجَّ بِتِلْكَ المَعَانِي الشِّدَادِ، وَبِالأَلْفَاظِ الحِسَانِ، وَجَوْدَةِ الاخْتِصَارِ، وَبِتَقْرِيْبِ المَعْنَى، وَبِسِـهُولَةِ المَخْرَجِ، وَإِصَابَةِ المَوْضُوعِ، لَـكَانَ مَا ظَهَرَ مِـنْ مَعَانِيْهِ وَبَيَانِهِ، مُكَذِّبًـا لِمَا ظَهَرَ مِنْ جَهْلِهِ وَنُقْصَانِهِ؟، وَلِمَ جَازَ أَنْ يُبْصِرَ بِعَقْلِهِ الغَامِضِ، وَيَعْيَا عَنِ القَرِيْبِ الجَاهِلِ.»[83]

مِنَ البِدَايَةِ سَـنَلْحَظُ تَنَاغُمَ الفَوَاصِلِ الصَّغِيرَةِ المُتَرَاسِـلَةِ؛ التي تَتَآزَرُ مِسَاحَاتُهَا الصَّوتِيَّةُ، في تَشكِيلِ فَضَاءٍ إِيقَاعِيٍّ مُتَنَامٍ لِلنَّصِّ، وَسَيَتَجَلَّى لَنَـا حِرْصُهُ الجَلِّيُّ، عَلـى إِقَامَةِ تَعَادُلاتٍ بَيْنَ كَلِمَـاتِ الجُمَلِ، وَتَوَازُنَاتٍ صَوْتِيَّةٍ بَيْنَ الفَوَاصِلِ، ثَمَّةَ سَـعْيٌ دَائِبٌ إلى «إِحْدَاثِ ضُرُوبٍ مِنَ التَّوقِيْعِ، وَهُوَ تَوقِيْعٌ كَانَ يَلْتَمِسُهُ مِنْ مُعَادَلَةِ أَلْفَاظِهِ، مُعَادَلَةً لا تَنْتَهِي إلى السَّجعِ؛ وَلكنَّهَـا تَنْتَهـي إلى هَـذَا التَّـوَازُنِ الصَّوتِيِّ الدَّقِيـقِ؛ فَكُلُّ جُمْلَـةٍ تُقَابِلُ أُخْتَهَـا في مَوَازِيْنِ الجَاحِظِ المُوسِـيقِيَّةِ، وَهِيَ مَوَازِيـنُ تُحَقِّقُ لِجُمَلِهِ هَذَا الجَمَالَ المُوسِيقِيَّ؛ الذي كَانَ يُسَمِّيْهِ القُدَمَاءُ ازْدِوَاجًا، ونُسَمِّيهُ إِيقَاعًا وَتَلْوِيْنًـا صَوْتِيًّا بَدِيْعًـا؛ وَهُوَ تَلْوِيْنٌ كَانَ يَدْفَعُ الجَاحِـظَ دَفْعًا إلى ضُرُوبٍ مِـنَ التِّكرَارِ وَالتَّـرَادُفِ»[84]، وَيَتَوَلَّدُ الإِيْقَاعُ هُنَا مِـنْ تَجَانُسِ الفَوَاصِلِ، وَتَزَاوُجِهَـا، وَمِـنْ تَدَفُّقِ أَمْـوَاجِ الكَلامِ في عِبَـارَاتٍ تَتَصَـادَى وَتَتَعَادَلُ،

بِوَاسِـطَةِ خَاصِيَتيْ: التَّقْطِيعِ وَالتَّرسُلِ مَعًا؛ مُؤكِّدَةً عَلى مَبْدَأ: التِّكرَارِ الصَّوتيِّ وَالمُعَادَلاتِ المُوْسِيْقِيِّةِ، في تِشْكِيْلِ البِنْيَةِ الإيْقَاعِيَّةِ لِلنَّصِّ.

وَنَقْرَأُ لَهُ في افْتِتَاحِيَّةِ كِتَابِ «الحَيَوَان»:

«جَنَّبَـكَ اللّهُ الشُّـبْهَةَ، وَعَصَمَكَ مِنَ الحَيْـرَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْـنَ المَعْرِفَـةِ نَسَـبًا، وَبَيْنَ الصِّدقِ سَـبَبًا، وَحَبَّـبَ إلَيْكَ التَّثَبُّتَ، وَزَيَّنَ في عَيْنِكَ الإنْصَافَ، وَأَذَاقَكَ حَلاوَةَ التَّقوَى، وَأشْـعَرَ قَلْبَكَ عِزَّ الحَقِّ، وَأَوْدَعَ صَدْرَكَ بَرْدَ اليَقِيْنِ، وَطَرَدَ عَنْـكَ ذُلَّ النَّـاسِ، وَعَرَّفَكَ مَا فِـي البَاطِلِ مِـنَ الذِّلَةِ، وَمَا فِـي الجَهْلِ مِنَ القِلَّـةِ، وَلَعَمْرِي لَقَدْ كَانَ غَيْـرُ هَذَا الدَّاءِ أَصْـوَب في أَمْرِكَ، وَأَدَلَّ عَلى مِقْـدَارِ وَزْنِكَ، وَعَلى الحَالِ التي وَضَعْتَ لِنَفْسِكَ فِيْهِ، وَوَسَمْتَ عِرْضَكَ بِهَا، وَرَضِيْتَهَا لِدِيْنِكَ خَطًّ، وَلِمُرُوءَتِكَ شَكْلا.»[85]

هَكَذَا سَعَى الجَاحِظُ بِجِوَارِ انْتِخَابِ لُغَتِهِ بِمُنْتَهى الدِّقَّةِ، أنْ يُؤسِّسَ إيْقَاعَاتٍ مِنْ جُمَلِهِ المُتَعَادِلَةِ المُتَوَازِنَةِ؛ إيْقَاعَاتٍ تَتَنَامَى مَعَ تَدَفُّقِ الجُمَلِ، مُؤسِّسَةً نَسِيْجَ الشِّعرِيَّةِ.

البِدَايَةُ الثَّالثةُ

النَّثرُ الفَنّيُّ التَّزيِينيُّ المَسْجُوعُ

بِالدُّخُـولِ إلـى مَـدَارِجِ القَـرنِ الرَّابعِ الهِجْـرِيِّ، تَجَـاوَزَ النَّثْـرُ الفَنّيُّ

انْهِمَامَـهُ بِـالازْدِوَاجِ وَالتَّـوَازُنِ، في بِنَـاءِ عِبَارَاتِـهِ؛ بِنَاءً هَنْدَسِـيًّا دَقِيقًا، إلـى الْتِزَامِ السَّـجْعِ والتَّوسُّـعِ في البَدِيـعِ، وَبِخَاصَّةٍ: الجِنَـاسِ وَالطِّبَاقِ؛ بِحَيْـثُ أَصْبَحَـتْ الخَاصيَّـةُ الزُّخْرفيَّةُ لِلْغَـةِ مُتَقدِّمَةً عَلـى غَيْرِهَا، وَإلى هَذِهِ الدَّائرةِ الإبْدَاعيَّةِ ينتمي كِبَارُ الكُتَّابِ المُبْدِعِينَ فى هَذَا العَصْرِ؛ أَمْثَالُ: أَبُو الفَضْلِ مُحمَّد بن الحُسَين بنُ العَميد (ـ 360هـ)، وَالصَّاحِبُ إسْمَاعيلُ بنُ عَبَّاد (ـ 385هـ)، وَأَبُو بَكْرٍ مُحمَّد بن العَبَّاس الخُوَارِزْمِيُّ (ـ 383هــ)، وَأَبُـو إسْـحَاق إبراهيـم بـنُ هِـلالٍ الصَّابِـيُّ (ـ 384هــ)، وَبَديـعُ الزُّمَانِ أحْمَدُ بنُ حُسَـين الهَمَذَانِيُّ (ـ 398هــ)، وَأَبُو الفَرَج عَبْدُ الوَاحِد بنُ نَصْرٍ البَبَّغَاءُ (ـ 398هـ)، وَقَابُوس بن وَشْـمَكِير (ـ 403هـ) وَغَيْرُهُمْ، وَقَدْ لاحَظَ شَـوقي ضَيف[86]، كَمَا لاحَظَ طَه حُسَين[87]، مِنْ قَبْلُ ـ أنَّ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ الإبْدَاعِيَّةَ، قَدْ نَمَتْ عَلى أيْدِي الكُتَّابِ الأجَانِبِ الذِينَ دَخَلُوا الإسْـلامَ، وَعَلى رَأسِهِمْ أسْرَةُ البَرَامِكَةِ الفَارِسِيَّةِ، وَأسْرَةُ الصُّولِيِّينَ التُّرْكِيَّةُ.

وَلَـدَى هَـؤلاءِ الكُتَّـابِ المُبْدِعِيْنَ أصْبَحَ السَّـجعُ وَالبَدِيـعُ ـ مَعًا ـ الأَسَـاسَ المُؤسِّـسَ لِمَلامحِ النّثرِ الفَنْيِّ فـي هَذِهِ المَرْحَلـةِ المُبْدِعَةِ مِنْ مَرَاحِـلِ النَّثْـرِ الفَنّيِّ، وَبِالطَّبعِ لَمْ يَكُنْ السَّـجعُ وَالزُّخْـرُفُ وَلِيْدَيْ هَذَا العَصْرِ؛ فَقَبْلَهُ نَجِدُ هَذَا المَنْهَجَ الجَمَالِيَّ في تَشْـعِيْرِ خِطَابِ النَّثر الفَنّيِّ ـ بَيْـنَ الحِيْنِ وَالآخَرِ ـ لَدَى مُبْدِعٍ مِنْ المُبْدِعِينَ، مِثْلِ كُلْثُوم بنِ عَمْروٍ العَتَابِيِّ (ـ 218هـ)، وَعَبدِ اللّه بنِ المُعْتَزِّ (ـ 196هـ)، وآخرين، أمَّا في القَرنِ الرَّابعِ الهِجْرِيِّ، فَقَدْ أصْبَحَ الاتِّجَاهُ العَامُّ للنَّثرِ الفَنّيُّ، هُوَ التَّوسُّعُ فـي ارْتِيَادِ السَّـجعِ وَالبَدِيْعِ، وَتَفْجِيْرُ طَاقَاتِهِمَـا الإبْدَاعِيَّةِ الخَلاَّقةِ، في خِطَابَاتٍ لُغَوِيَّةٍ زَاخِرَةٍ بِالصِّنَاعَةِ الهَنْدَسِـيَّةِ الدَّقِيْقَةِ، وَيُمْكِنُنَا أنْ نَتَبَيَّنَ

العلاقـةَ الحَميْمـةَ بَيْنَ آليَّـاتِ هَـذِهِ الكِتَابَـةِ الزُّخْرُفيَّةِ الدَّقيقـةِ وَحَيَاةَ التَّـرَفِ؛ التي شَـاعَتْ في هَذَا العَصْـرِ، كَذَلِكَ مُلاحَظَـةَ أنَّ مِنْ زُعَمَاءِ هَـذِهِ الكِتَابَةِ وَزِيْرَانِ مُبْدِعَانِ؛ هُمَا: ابْـنُ العَميد، وَالصَّاحِبُ بنُ عَبَّاد، وَعَلى أيْدِي هَؤلاءِ المُبْدِعيْنَ أصْبَحَتْ (الكِتَابَةُ) صِنَاعَةً زُخْرُفيَّةً دَقِيْقَةً، مَشْـرُوطَةً بِقِيْمٍ جَمَاليَّةٍ مُتَدَاوَلَةٍ، صِنَاعَةً كَصِنَاعَةِ السِّجَّادِ وَالأرابيسكِ وَالتُّحَفِ، وَأيْضًا كَصِنَاعَةِ «شِعْرِ المُحْدَثِينَ؛ شِعْرِ أبي تَمَّامٍ وَأتْبَاعه»[88]؛ بِحَيْثُ أصْبَحَتْ مَقْطُوعَاتُ النَّثرِ الفَنّيِّ تُعَادُلُ ـ في جَمَاليَّاتِهَا ـ قَصَائِدَ الشِّـعرِ؛ فَقَدْ تَحَطَّمَتْ الحُدُودُ بَيْنَ الشِّـعْرِ وَالنَّثْرِ، وَهَذَا مَا عَبَّرَ عَنْهُ طه حُسَين؛ حِيْنَ رَأى أنَّ « تَقْسِيمَ الكَلامِ إلى نَظْمٍ وَنَثْرٍ»[89] لَمْ يَعُدْ يَكْفِي، وَهُـوَ مَا عَبَّرَ عَنْهُ شَـوقي ضَيف؛ حِيْنَ رَأى أنَّهُمْ «وَصَلُـوا بِنَثْرِهِمْ وَتَنْمِيْقِه إلـى مَرْتَبَـةٍ تَكَادُ تَرْفَـعُ الحَوَاجِزَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشِّـعرِ؛ فَهُوَ نَثْـرٌ مَنْظُومٌ أوْ شِـعْرٌ مَنْثُورٌ، وَمَاذَا يَفْصِلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشِّعرِ؟، إنَّهُ يَعْتَمِدُ عَلى المُوسِيْقَا؛ مُوْسِـيقَا السَّـجعِ، كَمَا يَعْتَمِدُ عَلى زُخْرُفِ البَدِيعِ، وَإنَّهُم لَيُبَالِغُونَ في ذَلِـكَ حَتَّـى تَتَحَوَّلَ رَسَـائِلُهُمْ إلى الوَشْـيِ الخَالِـصِ؛ فَهِي حِلَـى وَتَنْمِيقٌ، وَبَدِيـعٌ وَتَرْصِيْعٌ»[90]، وَهُـوَ مَا رَآهُ، كَذَلِكَ، عَبْـدُ الفَتَّاح كليطو؛ حِيْنَ أوْضَـحَ أنَّ النَّاثِـرَ الفَنّيِّ قَدْ انْدَفَعَ في «اسْـتِخْدَامِ الأشْـكَالِ الأسْـلُوبيَّةِ ذَاتِهَا؛ التي يَسْـتَخْدِمُهَا الشَّـاعرُ، وَأنْ يَلْجَأَ إلى القَافِيَـةِ؛ التي بِتَجْزِئَتِهَا لِسِلْسِـلَةِ الخِطَابِ، إلى أجْزَاءِ تَتَمَيَّزُ بِفَوَاصِلَ ثُنَائيَّةٍ (أوْ أكْثر أحْيَانًا)، تُدْخِـلُ إيقاعًا لِلْقِرَاءةِ ـ الاسْـتِمَاعِ، مُغَايِرًا لإيْقَـاعِ القَصيدةِ (الخَاضِعَةِ لِبَحْـرٍ مُحَـدَّد، وَقَافِيَةٍ وَحِيْدَةٍ) لَكِنَّـهُ إيْقَاعٌ تُمْلِيْهِ في مَبْدَئِـهِ إرَادَةُ مَحْوِ الحُدُودِ بَيْنَ «النَّثْرِ وَالشِّعْرِ».[91]

وَكَمَـا كَانَ مِـنَ المُتَعَذِّرِ عَلى الشَّـاعِرِ، تَجَاهُلُ حُضُـورِ القَافيَةِ ـ

فـي نِهَايَةِ البَيْـتِ ـ كَـانَ عَلى النَّاثِـرِ الفَنِّيِّ الالْتِزَامُ بِالدَّورِ نَفْسِـهِ؛ عَبْرَ الْتِزَامِهِ بِبِنَاءِ السَّـجعِ؛ الـذي كَـانَ يُمَثِّلُ اللازِمَةَ الإيْقَاعِيَّـةَ التَّشبِيْتِيَّةَ في النَّثْـرِ، كَـذَلِـكَ هَيْمَنَـتْ القِيَـمُ البَلاغِيَّـةُ ذَاتُهَـا المَوْجُودَةُ في الشِّـعْرِ، عَلـى النَّثرِ الفَنِّـيِّ بِقُوَّةٍ، وَوَجَدْنَـا بَعْضَهُمْ يُرَاوِحُ بَيْـنَ الـكِتَابَةِ في هَذَيْنِ الشِّـقَّيْنِ، وَمِنْهُمْ بَدِيـعُ الزَّمَانِ الهَمَذَانِيُّ؛ الذي أَوْدَعَ دِيْوَانَ شِـعْرٍ وَدِيْوَانَ رَسَـائِل، فِيْمَـا كَـانَـتْ مَقَامَاتُهُ مُلْتَقَـى الصِّنَاعَتَيْـنِ وَمَجْمَـعَ البَحْرَيْنِ. وَيَتَكَشَّـفُ الوَعْـيُ النَّظَرِيُّ بِجَمَالِيَّـاتِ هَـذِهِ الـكِتَابَةِ وَاعْتِمَـادِ آلِيَّاتِهَا المُحَـدَّدَةِ فـي رَأيِ بَدِيْـعِ الزَّمَـانِ الهَمَذَانِـيِّ فـي مَنْهَجِ الجَاحِـظِ؛ حَيْثُ نَعَتَـهُ ـ فـي المَقَامَـةِ الجَاحِظِيَّـةِ ـ بِأنَّـهُ «قَلِيْـلُ الاسْـتِعَارَاتِ، قَرِيْـبُ العِبَـارَاتِ، مُنْقَادٌ لِعُرْيَانِ الـكَلامِ يَسْـتَعْمِلُه، نَفُورٌ مِـنْ مُعْتَاصِهِ يُهْمِلُه، فَهَلْ سَـمِعْتُمْ لَهُ لَفْظَةً مَصْنُوعَة، أَوْ كَلِمَةً غَيْرَ مَسْمُوعَة؟»[92]. وَقَدْ تَبَنَّى البَدِيـعُ وَرِفَاقُهُ مَعْكُوسَـاتِ مَـا أَوْرَدَهُ فـي الجَاحِظِ مِنْ نُعُـوتٍ؛ فَتَخَلُّوا عَـنْ شِـعْرِيَّةِ الأدَاءِ التَّدَاوِلِيِّ التَّفْسِـيْرِيِّ، وَاسْـتَغْرَقُوا في شِـعْرِيَّةِ الأدَاءِ التَّخيُّلِـيِّ البَلاغِيِّ المُنَمْنَمِ بِالغَرَائِبِيِّ وَالمَجَازِيِّ. وَقَدْ لُوْحِظَ أنَّ السَّـخَاءَ البَلاغِيَّ في السَّـجعِ يُقَابِلُـهُ فَقْرٌ ظَاهِرٌ في مُسْـتَوَيَاتِ التَّرْكِيبِ؛ حَيْثُ تَمْنَعُ الهَنْدَسَـةُ السَّجْعِيَّةُ «إلى حَدٍّ كبيرٍ، مِنْ تَنْوِيعِ التَّأثِيرَاتِ عَنْ طَرِيقِ تَعَـدُّدِ تَرَاكِيـبِ الجُمَـلِ»[93]، وَتَكْتَفِي ـ بَدَلاً مِنْ ذَلِكَ ـ بِالتَّوسُّـعِ في اسْتِخْدَامِ التَّشْـبِيْهَاتِ وَالاسْـتِعَارَاتِ وَالـكِنَايَاتِ وَالصُّوَرِ»[94]، وَهَـكَذَا يَتَمَيَّـزُ هَـذَا النَّثْـرُ بِخَصِيْصَتَيْنِ أسَاسَـيَّتَينِ هُمَا: «غِيَابِ التَّنـوُّعِ في بِنَاءِ الجُمَلِ ـ مِنْ جِهَةٍ ـ وَاسْتِخْدَامِ مَحْمُومٍ للصُّوَرِ البَلاغِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ أخْرَى، وَبِعِبَـارَةٍ أخْـرَى فَإنَّ فَقْرا في التَّرْكِيْبِ وَنَقْصًا يَكُونُ قَدْ حَاوَلَ التَّخَفِّي وَرَاءَ ثَـرَاءٍ دَلالِـيٍّ وَافِـرٍ»[95]، وَيَكُونُ الحُضُورُ المَوْفُـورُ للصُّوَرِ البَلاغِيَّةِ

مَقْصُورًا بِغَرَضِ «تَعْوِيْضِ الرَّتَابَةِ وَالنَّقْصِ»[96]، وَيَكُونُ المَسَارُ النَّظْمِيُّ مُشَوَّشًا بِاسْتِمْرَارٍ، بِضَرُورَةِ مَسَارٍ اسْتِبْدَالِيٍّ يُمَزِّقُ سِتَارَ الاسْتِعَارَةِ.»[97]

وَقَدْ بَرَزَتْ المَلامِحُ الرَّئِيسِيَّةُ لِهَذِهِ المَرْحَلَةِ ـ التي سَتَمْتَدُّ إلى قُرُونٍ وَقُرُونٍ ـ لَدَى نَاثِرِي القَرنِ الرَّابعِ الهِجْرِيِّ المُبْدِعِينَ؛ الذينَ سَيُحَقِّقُونَ فـي (أدبِ)هِمْ كُلَّ مَا يُنْجَزُ في فَضَاءَاتِ (الشِّعْرِ) مِـنْ تَحَقُّقَاتٍ جَمَاليَّةٍ بِآليَّـاتٍ مُتَعَدِّدةٍ، وَقَدْ سَـبَقَ أَنْ لاحَظَ ابنُ طَبَاطَبَـا العَلَوِيُّ (ـ 322هـ) ـ وَهُوَ يُمَيِّزُ بَيْنَ القَصِيدَةِ وَالرِّسَالةِ ـ أَنَّ «الشِّعْرَ رَسَائِلُ مَعْقُودَةٌ وَالرَّسَائِلُ شِـعْرٌ مَحْلُولٌ، وَإِذَا فَتَّشْـتَ أَشْعَارَ الشُّـعَرَاءَ كُلَّهَا وَجَدْتَهَا مُتَنَاسِبَةً؛ إِمَّا تَنَاسُـبًا قَرِيْبًـا أَوْ بَعِيْـد، وَتَجِدَهَـا مُنَاسِـبَةً لِـكَلامِ الخُطَبَـاءِ، وَخُطبِ البُلَغَاءِ، وَفِقَرِ الحُكَمَاءِ.»[98]

وَيَقِـفُ في طَلِيْعَةِ هَؤلاءِ المُبْدِعِيْـنَ كُلٌّ مِنْ: ابْنُ العَمِيد، وَالصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ، وَأبو إِسْحَاق الصَّابيُّ، وَأَبُو العَبَّاسِ أَحَمْدُ بْنُ إبْرَاهيم الضَّبيُّ، و أبو بَكْرٍ الخُوارِزْمِيُّ، وَبَدِيعُ الزَّمَانِ الهَمَذَانِيُّ، وَقَابُوسُ بنُ وَشْمَكِيْر؛ بِإِبْدَاعَاتِهِمْ المُؤسِّسَةِ مَعَالِمَ هَذَا المَشْهدِ الجَدِيدِ في خَرِيْطَةِ النَّثرِ الفَنيِّ في القَرنِ الرَّابِعِ الهِجْرِيِّ.

ابنُ العَمِيد[99] (ـ 360هـ)

يَتَصـدَّرُ ابـنُ العَمِيدِ هَذِهِ القَافِلَـةَ الإِبْدَاعِيَّةَ؛ بِكِتَابَتِـهِ التي تَعْكِسُ حِرْصًا جَلِيًّا عَلى تَوْزِيْنِ الفَوَاصِل، وَتَوَالي التَّرَادُفَاتِ الإِيْقَاعِيَّة؛ بلْ يَتَعَدَّى هَذِهِ الهَنْدَسَـةَ الصَّوتِيَّةَ أَحْيَانًا، إلى هَنْدَسَـةٍ أدَقّ؛ حَيْثُ يُلْزِمُ نَفْسَهُ وَضْعَ سَـجْعَاتٍ دَاخِلِيَّةٍ تَتَوَازَى مَعًا؛ لِتُحَطِّمَ الإِحْسَـاسَ بِطُولِ المسَاحَةِ الزَّمَنيَّةِ مِثْلَ قَوْلِهِ: « فإِنَّ الدَّهرَ جَرَى عَلى حُكْمِه المَأْلُوفِ في تَحْوِيلِ الأَحْوَالِ،

وَجَرَى عَلى رَسْمِهِ المَعْرُوفِ في تَبْدِيلِ الأَشْكَال.» وقوله: «وَكَشَفَ عَنْ عَيْنَـيَّ ضَبَابَـاتِ مَا ألقاهُ الهَـوَى عَلى بَصَري، وَرَفَعَ عَنِّي غَيَابَاتِ مَا سَـدَ لَهُ الشَّـكُ دُوْنَ نَظَـري.» هَذَا الانْهِمَامُ الشَّـديدُ بِتَعَـادُلاتِ الكَلِمَاتِ بينَ الفَاصِلَتيـنِ المُتَجَاوِرَتَيْـنِ لا يَعْنـي الْتِزَامَ ابْنُ العَميدِ الكَامِلِ بِالسَّـجعِ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَلْتَزِمُ السَّـجعَ التِزَامًا عَلى مَدَارِ كلامِهِ؛ إذْ يَتَحَرَّرُ أَحْيَانًا مِنْـهُ، تَـاركًا لِـلازْدِوَاجِ أنْ يَنْهَـضَ بِالـدَّورِ الإيْقاعِيِّ بَدَلاً مِنَ السَّـجعِ، وَمِـنْ هُنَا تأتِي إشْـكاليَّةُ وَضْعِ اسْـمِ «ابْنِ العَمِيدِ» عَلـى رَأسِ طَائِفَةٍ مِنَ الكُتَّابِ، يَنْدَرِجُ عَمَلُهَا الأَسَاسِـيُّ تَحْتَ مَظَلَّةِ السَّجعِ، وَدَاخِلَ مِسَاحَاتِ السَّـجعِ يُـوَزِّعُ - الكَاتِبُ - مَا شَـاءَ مِـنْ تَلاوِيْنِهِ التَّصويريَّـةِ، وَتَصَانِيْفِهِ اللغويَّـةِ الوَافِرَةِ؛ فَالسَّـجعُ، هُنَـا، هُوَ العَلامَةُ الأَسَاسِـيَّةُ المُمَيَّـزَةُ لِهَذِهِ المَوْجَةِ مِنْ المُبْدِعِينَ، «حَتَّى أنَّنَا نَشْـعُرُ عِنْدَ أيَّةِ جُمْلَةٍ لا تَنْتَهي بِسَـجْعَةٍ بِنَوعٍ مِنَ النَّقْصِ»[100]، أمَّا ابْنُ العَمِيدِ فَإِنَّهُ كَانَ يَسْـجعُ أحْيَانًا، وَيَتَحَرَّرُ مِنَ السَّجْعِ أحْيَانًا، هَذَا التَّحرُّرُ الذي لَنْ نَجِدَهُ عِنْدَ مَنْ تَعَهَّدُوا المَشْرُوعَ الجَمَالـيَّ الذي أرْسَـاهُ ابْـنُ العَمِيدِ، وَمِنْهُـمْ: الصَّاحِبُ بنُ عَبَّـادٍ، أوْ أبُو إسْـحَاقٍ الصَّابِيُّ، أوْ أبو بَكْرٍ الخُوَارِزْمِـيُّ، أوْ بَدِيعُ الزَّمَانِ الهَمَذَانِيُّ، أوْ قَابُوسُ بنُ وَشْمَكِير، غَيْرَ أنَّ الخَصِيْصَةَ الأسَاسِيَّةَ المُمَيِّزَةِ لِشَكْلِ كِتَابَتِهِ الفَنّيَّةِ هِيَ ذِيُوعُ السَّجْعِ، بِجَانِبِ وَفْرَةِ البَدِيعِ:

«كِتَابِـي وَأنَـا مُتَرَجِّحٌ بَيْـنَ طَمَعٍ فيْكَ وَيَـأسٍ مِنْكَ، وَإقْبَالٍ عَليْـكَ، وَإعْرَاضٍ عَنـكَ، فإنَّكَ تَدِلُّ بِسَـابِقِ حُرمَـةٍ، وَتَمُتُّ بِسَالِفِ خِدمَةٍ، أيسـرُهُمَا يُوجِبُ رِعَايةٍ، وَيَقتَضِي مُحَافَظَةً وَعِنَايَةٍ، ثُمَّ تُشـفِعُهِمَا بِحَادِثِ غُلولٍ وَخِيَانَةٍ، وَتتبعُهُمَا بآنفِ خِـلافٍ وَمَعصِيةٍ، وَأدنَى ذلكَ يُحبِطُ أعمَالَكَ، وَيُمحِقُ كُلَّ

مَـا يُرعَـى لَـك، وَلا جَـرَمَ أنّـي وَقفـتُ بينَ مَيْـلٍ إليـكَ وَمَيْلٍ عَليـك، أُقدّمُ رِجْلاً لِصَدِّك، وَأخْرى عَنْ قَصْدِك، وَأبْسُـطُ يـدًا لاصْطِلامِـكَ وَاجْتِيَاحِـك، وَأُثْنـي ثانيـةً لاسْـتِبقائِكَ وَاسْـتِصْلاحِك، وَأتَوَقَّـفُ عِنْدَ امْتِثالِ بَعْـضِ المَأمُورِ فيك، ضَنًّاً بالِنِّعمَةِ عِنْدَك، وَمُنافَسَـةً في الصَّنيعةِ لَدَيك، وَتَأمِيْلاً لِفَيْئَتِـكَ وَانْصِرافِـك، وَرَجـاءً لِمُراجَعَتِـك وَانْعِطافِكَ؛ فَقَدْ يَغْرُبُ العَقلُ ثُمَّ يؤوب، وَيَعْزُب اللبُّ ثُمّ يئوب، ويذهبُ الحَزْمُ ثُمَّ يَعُود، وَيَفْسَدُ العَزْمُ ثُمَّ يَصْلُح، وَيُضَاعُ الرَّأيُ ثُمَّ يُسْتَدْرَكُ، وَيَسْـكرُ المَرْءُ ثُمَّ يَصْحو، وَيَكْدُرُ المَاءُ ثُمَّ يَصْفُو، وُكُلُّ ضَيْقةٍ إلى رَخاء، وَكُلُّ غَمْرَةٍ فَإلى انْجِلاء.»[101]

مِنَ الجَلِيِّ، هُنَا، أنَّ ابنَ العَميدِ لَمْ يَنْشَغِلْ بِالمُسْتوى الصَّوتي: السَّجع وَحْدَهُ، وَإنَّمَا رافقه بِالمُسْـتوى التَّصويريِّ: البَلاغِيِّ، تَحْتَ تَأثيرِ افْتِتَانِهِ بِفَـنِّ التَّصْويرِ، وَخِبْرتِهِ بِعِلْمَيْ الهَنْدَسَـةِ وَالمَنْطِقِ؛ وَبِهَـذَا ـ اعْتِبَارًا مِنَ ابْـنِ العَميد ـ سَـيَعْرِضُ النَّثرُ الفَنّيُّ ذَاتَـهُ بِاعْتِبَارِهِ سـجَّادَةً لُغَويَّةً دَقِيْقَةَ الصُّنع، تَشِـي بِقَوَانِيْنِهَا الهَنْدَسِـيَّةِ الدَّاخِلِيَّةِ الدَّقيقةِ؛ إذْ مِنَ اليَسِـيْرِ أنْ نَرَى التَّواشُجَ بينَ فِعْلِ التَّوازي في زَخَارِفِ السَّجَّادِ الهَنْدَسِيَّةِ وَفي لَوْحَاتِ النَّثـرِ الفَنّيِّ المَسْـجُوعَةِ المُرَصَّعَـةِ بِالبَدِيعِ، وَهَذَا النُّـزُوعُ إلى الزُّخْرفِ الهَنْدَسِـيِّ الدَّقيقِ سَـيَتَأكَّدُ ـ بِقُوَّةٍ ـ عَبْرَ قَافِلَةٍ مِنَ الأسْمَاءِ المُبْدِعَةِ؛ التي سَيَتَوَالَى خُرُوجُهَا مِنْ عَبَاءَةِ ابْنِ العَمِيدِ، وَيَأتِي في طَلِيْعَتِهَا:

الصَّاحِبُ بنُ عَبَّاد[102] **(ـ 385هـ)**

نَقْرأُ لَهُ مِنْ كِتَابٍ نَسَجَهُ إلى ابْنِ العَمِيدِ:

«وَصَلَ كِتَابُ الأَسْتاذِ الرَّئيسِ صادِرًا عَنْ البَحْرِ بِوَصْفِ مَا شَاهَدَ مِنْ عَجائِبِه، وَعايَنَ مِنْ مَراكِبِه، وَرآهُ مِنْ طاعَةِ آلاتِه لِلرِّياحِ كَيْفَ أَرادَتْها، واسْتِجابَةِ أدَواتِها لَها مَتى نادَتْها، وَرُكُوبِ النَّاسِ أَشْباحِها وَالخَوْفُ بِمَرْأًى وَمَسْمَعٍ، وَالمَنُونُ بِمَرْقَبٍ وَمَطْلَعٍ، وَالدَّهْرُ بَيْنَ أَخْذٍ وَتَرْكٍ، وَالأَرْواحُ بَيْنَ نَجاةٍ وَهُلْكٍ، إذا فَكَّرُوا في المَكاسِبِ الخَطِيْرَةِ هانَ عَلَيْهِمْ الخَطَرُ، وَإذا لاحَتْ لَهُمْ غُرَرُ المَطالِبِ الكَثِيْرَةِ حُبِّبَ إلَيْهِمْ الغُرُورُ، وَعَرَفْتُ ما قالَهُ مَنْ تَمَنِّيهِ كَوْنِي عِنْدَكَ ذَلِكَ بِحَضْرَتِه، وَحُصُولِي عَلى مُساعَدَتِه، وَمَنْ رَأى بَحْرَ الأَسْتاذِ كَيْفَ يَزْخَرُ بِالفَضْلِ وَتَتَلاطَمُ فِيهِ أَمْواجُ الأَدَبِ وَالعِلْمِ لَمْ يَعْتِبْ عَلى الدَّهْرِ، فِيْما يُفِيتُهُ مِنْ مَنْظَرِ البَحْرِ، وَلا فَضِيلَةَ لَهُ عِنْدِي أَعْظَمُ مِنْ إكْبارِ الأَسْتاذِ لأَحْوالِه، وَاسْتِعْظامِهِ لأَهْوالِه، كَما لا شَيءَ أَبْلَغُ مِنْ مَفاخِرِه، وَأَنْفَسُ مِنْ جَواهِرِه، مِنْ وَصْفِ الأَسْتاذِ لَهُ فَإنِّي قَرَأْتُ مِنْهُ الماءَ السَّلْسالَ لا الزُّلالَ، وَالسِّحْرَ الحَرامَ لا الحَلالَ.»[103]

و: أبُو إسْحَاقٍ الصَّابِي[104] (ـ 384هـ)

الَّذي نَقْرأُ مِنْ رِسَالةٍ أنْشَأهَا في وَصْفِ المُتَصَيِّدِ وَالصَّيد:

«وَخَيْلَنَا كَالأَمْوَاجِ المُتَدفِّقَة، وَالأَطْوَادِ المُوثَّقَة، مُتَشَوِّقَةٌ عَاطِيَة، مُسْتَبِقَةٌ جَارِيَة، تَشْتَاقُ الصَّيدَ وَهِيَ لا تَطْعَمُه، وَتَحِنُّ إليهِ كَأنَّهُ قَضِيْمٌ تَقْضِمُه، وَعلى أيْدِينَا جَوارِحُ

مُؤلَّلَـةُ المَخَالِبِ وَالمَنَاسِـرِ، مُدَرَّبَـةُ النِّصَـالِ وَالخَنَاجِرِ، طَامِحَـةُ الألحَـاظِ وَالمَنَاظِرِ، بَعيْدَةُ المَرَامِـي وَالمَطَارِحِ، ذَكِيَّـةُ القُلُـوبِ وَالنُّفُـوسِ، قَليْلَـةُ القُطُـوبِ وَالعُبُـوسِ، سَـابِغَةُ الأذْنَابِ، كَريْمَةُ الأنْسَـابِ، صُلْبَةُ الأعْوَادِ، قَوِيَّةُ الأوْصَالِ...ثُـمَّ عَدَلْنَـا عَـنْ مَطَـارِحِ الخِيَـامِ، إلَـى مَسَـارِحِ الآرَامِ، نَسْـتَقْرِي مَلاعِبَهَا، وَنَؤُمّ مَجَامِعَهَا، حَتَّى أفْضَيْنَا إلى أسْـرَابٍ لاهِيَةٍ بِأطْلائِهَا، رَاتِعَةٍ فـي أكْلائِهَا، وَمَعَنَا فُهُودٌ أخْطَفُ مِنَ البُرُوقِ، وَألْقَفُ مِنَ الليوثِ، وَأمْكَرُ مِنَ الثَّعَالِبِ، وَأدَبُّ مِنَ العَقَارِبِ، وَأنْزَلُ مِنَ الجَنَادِبِ، خُمْصُ الخُصُورِ، قُـبُّ البُطُونِ، رُقْشُ المُتُونِ، حُمْرُ الآمَاقِ، خُزْرُ الأحْدَاقِ، هُرْتُ الأشْـدَاقِ، عِرَاضُ الجِبَاهِ، غُلْبُ الرِّقَابِ، كَاشِرَةٌ عَنْ أنْيَابٍ كَالْحِرَابِ.»[105]

و: أبُو العَبَّاسِ أحْمَدُ بنُ إبراهيم الضَّبي[106] (_ 399هـ)

الَّذي نَقْرَأُ لَهُ، مِنْ كِتَابٍ أنْشَأهُ لأبِي عَلي وَأبِي القَاسِم العَلَوِيَّينِ، في التَّعزيَةِ، عنْ أبِيْهِمَا؛ أبِي الحُسَينِ بن أبِي مُحَمَّدٍ:

«كِتَابِـي _ أطَـالَ اللهُ بَقَاءَ الشَّـرِيفَيْنِ _ وَالدَّهْـرُ يَنْعِـي مُهْجَتَـه، وَالدَّهْــرُ يَنْدُبُ بَهْجَتَـه، وَالشَّـرَفُ مَحْصُورٌ فـي قَبْضَـةِ حَيْنِـه، وَالفَضْـلُ مَفْجُوعٌ بِنَاظِـرِ عَيْنِـه، وَالذِّكْرُ الجَميْـلُ مُجَـدَّلٌ لِمَصْرَعِـه، وَالخَلْـقُ الوَسِـيْعُ مُوَسَّـدٌ فـي مَضْجَعِـه، وَرَسْـمُ المَحَاسِـنِ دَاثِـرٌ عَافٍ، وَشَـخْصُ المَكَارِمِ حَاسِـرٌ حَافٍ، وَمَهَابِطُ الوَحْي وَالرِّسَـالَةِ تَحْنِي

ظَهْرَها أسَفا ، وَمَعَادِنُ الوَصِيَّةِ وَالإمَامَةِ تُذْري دَمَهَا لَهَفا ، وَبِقَاعُ الحَرَمَيْنِ مُتَسَلِّيَّةٌ عَلى نَجْمِهَا الآفِلِ ، وَلابِسَةٌ ثَوْبَ الحِدَادِ لِرُكْنِهَا المَائِلِ ، وَيَدُ المُواسَاةِ مَقْبُوضَةٌ عَنْ مَعُونَةِ العَانِي الذَّلِيلِ ، وَلِسَانُ الجُوْدِ مُتَعذّرٌ إلى ابْنِ السَّبِيلِ ، وَطَوائِفِ العُفَاةِ تَبْكِي العَيْشَ الرَّطِيْبَ ، وَالرَّبْعَ الرَّحِيْبَ ، وَالمَشَارِعَ المَعْصُومَةَ مِنْ دَرَنِ الضَّنِّ ، وَالمَوَارِدِ المَحْرُوسَةِ مِنْ كَدَرِ المَنِّ ، وَذَوو الحَاجَاتِ في حَسَرَاتٍ مُجَدَّدَةٍ ، وَزَفَرَاتٍ مُرَدَّدَةٍ ، قَدْ أقَامَتْ مِنْهُم حَانِيَةَ الضُّلُوعِ ، وَأطَارَتْ عَنْهُمْ قُلُوبًا دَامِيَةَ الصُّدُوعِ ، وَبَنُو الآمَالِ عَابِسَةٌ وُجُوهُهُمْ ، مُنَكَّسَةٌ رُءوسُهُمْ.

«وَعَرَفَ كُلُّ مَنْ وَرَدَ وَصَدَرَ ، وَبَدَا وَحَضَرَ ، أنَّ مَنْ قُبِضَ فَاسْتَوْحَشَ الأُنْسُ بِمُفَارَقَتِهِ ، وَاسْتَبْشَرَتْ المَلائِكَةُ لِمُرَافَقَتِهِ ، وَكَانَ مِثْلَ الشَّرِيْفَيْنِ رَيْحَانُهُ رَوْضِهِ ، وَالبَارِدُ العَذْبُ مِنْ فَيْضِهِ ، وَالثَّمَرُ الحُلْوُ مِنْ دَوْحَتِهِ ، وَالوَرَقُ النَّضِرُ مِنْ نَبْعَتِهِ ، وَالشَّاهِدُ العَدْلُ لِمَآثِرِهِ ، وَالمُشَيِّدُ النَّدْبَ لِمَنَاقِبِهِ وَمَفَاخِرِهِ ، فَهُوَ في حُكْمِ الخَالِدِ وَإنْ كَانَ أصْبَحَ فَانِيًا ، وَالمُقِيْمُ في أهْلِهِ وَإنْ أضْحَى بِالعَرَاءِ ثَاوِيًا.»

و: أبُو بَكْرٍ مُحَمَّدٌ بنُ العَبَّاسِ الخُوَارِزْمِيّ[107] (ـ 383هـ)

الَّذي نَقْرَأُ لَهُ مِنْ رَدِّهِ على قَصِيدةٍ ، بَعَثَ بِهَا إليه تِلميذٌ لَهُ:

«وَصَلَتْ القَصِيدَةُ الغَرَّاءُ ، الزَّهْرَاءُ ، فَكَانَتْ أرَقَّ مِنْ

المَـاءِ، بَـلْ مِـنَ الهَـوَاءِ، وَألَـذّ مِـنَ الصَّهْبَاءِ، وَأسَـرّ مِنَ اللقَاءِ بَيْنَ الأحِبَّاءِ، وَمِنْ مُسَاعَدَةِ القَضَـاءِ، وَمِنْ مُعَـاقَرَةِ الشَّـرَابِ عَلـى الغِنَـاءِ، وَمِـنْ اسْـتِمَاعِ فَوائِـدِ الحُكَمَاءِ، وَخُطَـبِ البُلَغَـاءِ، وَقَلائِـدِ الشُّـعَرَاءِ، وَمِـنْ أخْـذِ جَوائِــزِ الأُمَـرَاءِ، وَتَحْصِيْـلِ مَرَاتِـبِ الخُلَفَـاءِ، فَكَانَـتْ مَعَانِيْهَا أبْـدَعَ مِنَ الوَفَاءِ، وَأعَزَّ مِنَ السَّـخَاءِ، وَأغْـرَبَ مِنَ النَّصَفَةِ فِي الأصْدِقَاءِ، وَمِنَ الأمَانَةِ فِي الشُّـرَكَاءِ، بَلْ أغْرَبَ مِنَ المُغْرِبِ العَنْقَاءِ.» (108)

و: بَدِيْعُ الزَّمَانِ الهَمَذَانِيّ(109) (_ 393هـ)

الذي نَقْرَأُ لَهُ:

«أحْسَـنُ مَـا فِـي الدَّهْـرِ عُمُومُـهُ بِالنَّوَائِـبِ، وَخُصُوصُـهُ بِالرَّغَائِـبِ، فَهُوَ يَدْعُو الجَفَلى إذَا سَـاءَ، وَيَخْتَصُّ بِالنِّعْمَةِ إذَا شَـاءَ، فَلْيَنْظُـرْ الشَّـامِتُ فَـإذَا كَانَ أفْلَـتَ، فَلَـهُ أنْ يَشْـمَتَ، وَلْيَنْظُرْ الإنْسَـانُ فِي الدَّهْرِ وَصُرُوفِـهِ، وَالمَوْتِ وَصُنُوفِـهِ، مِـنْ فَاتِحَةِ أمْـرِهِ، إلى خَاتِمَةِ عُمْـرِهِ، هَلْ يَجِدُ لِنَفَسِـهِ، أثَرًا فِي نَفْسِـهِ، أمْ لِتَدْبِيرِهِ، عَوْنًا عَلى تَصْوِيرِهِ، أمْ لِعَمَلِهِ، تَقْدِيْمًا لأمَلِهِ، أمْ لِحِيَلِهِ، تَأخِيْرًا لأجَلِهِ؟، كَلاَّ بَلْ هُوَ العَبْدُ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا، خُلِقَ مَقْهُورًا، وَرُزِقَ مَقْـدُورًا؛ فَهُـوَ يَحيَـا جَبْرًا، وَيَهْلِـكُ صَبْرًا، لِيَتَأمَّـلِ المَرْءُ كَيْـفَ كَانَ قَبْـلًا؟، فَـإنْ كَانَ العَدَمُ أصْـلًا، وَالوُجُودُ فَضْـلًا، فَلْيَعْلَمْ المَوتَ عَدْلاً، وَالعَاقِلُ مَنْ رَفَعَ، مِنْ حَوائِلِ

الدَّهْرِ مَا شَاءَ لِيُذْهِبَ مَا ضَرَّ بِمَا يَنْفَع، وَإِنْ أَحَبَّ أَلاَّ يَحْزَنَ فَلْيَنْظُرْ يُمْنَة، هَلْ يَرى إلاَّ مِحْنَةً؟، ثُمَّ لِيَعْطِفْ يُسْرة، هَلْ يَرى إلاَّ حَسْرَةً؟، وَمِثْلُ الشَّيخ الرَّئِيسِ مَنْ تَفَطَّنَ لِهَذِهِ الأَسْرَار، وَعرِفَ هَذِهِ الدَّار، فَأَعَدَّ لِنَعِيْمِهَا صَدْرًا لا يَمْلَؤه فَرَحًا، وَلِبُؤسِهَا قَلْبًا لا يُطَيِّرُهُ جَزَعًا، وَصَحِبَ الدَّهْرَ بِرأيِ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ لِلْمُتْعَةِ حَدًّا، وَلِلْعَارِيَةِ رَدًّا، وَلَقَدْ نُعِيَ إليَّ أبُو قَبِيصَة قَدَّسَ اللَّهُ رُوْحَه، وَبَرَّدَ ضَرِيْحَه، فَعُرِضَتْ عَلَيَّ آمَالِي قعُودًا، وَأَمَانِيَّ سُودًا، وَبَكَيْتُ وَالسَّخِيُّ يَجُودُ بِمَا يَمْلِكُ، وَضَحِكْتُ وَشَرُّ الشَّدائِدِ مَا يُضْحِكُ، وَعَضَضْتُ الإِصْبَعَ حَتَّى أَدْمَيْتُه، وَذَمَمْتُ المَوْتَ حَتَّى تَمَنَّيْتُه، وَالمَوْتُ خَطْبٌ قَدْ عَظُمَ حَتَّى هَان، وَأَمْرٌ قَدْ خَشُنَ حَتَّى لان، وَنُكْرٌ قَدْ عمَّ حَتَّى عُرِفَا، وَالدُّنْيَا قَدْ تَنَكَّرَتْ حَتَّى صَارَ المَوْتُ أَخَفَّ خُطُوبِهَا، وَجَنَتْ حَتَّى صَارَ أَصْغَرُ ذُنُوبِهَا، وَأَضْمَرَتْ حَتَّي صَارَ أيْسَرَ غُيُوبِهَا، وَأَبْهَمَتْ حَتَّى صَارَ أَظْهَرَ عُيْوبِهَا.»[110]

و: قَابُوسُ بنُ وَشْمَكِير[111] (ت مقتولاً 403هـ)

الَّذي نَقْرَأُ لَهُ:

«الإنْسَانُ خُلِقَ أُلُوفًا، وَطُبِعَ عَطُوفًا، فَمَا للأَصْهَبْذِ سَيِّدي لا يُحْنَى عُوْدُه، وَلا يُرْجَى عَوْدُه، وَلا يُخَالُ لِفَيْئَتِه مَخِيْلَة، وَلا يُحَالُ تَنَكُّرُهُ بِحِيْلَة، أَمِنْ صَخْرٍ تَدَمَّرَ قَلْبُهُ فَلَيْسَ يُلِيْنُهُ العِتَاب؟، أَمْ الحَدِيدُ جَانِبُهُ فَلا يُمَيِّلُهُ الإِعْتَاب؟، أَمْ

صَفاقَـةُ دَهْرٍ مجِنّ نُبُوّه فقَدْ نَبا عَنْهُ غَرْبُ كُلِّ حجّاج، أمْ مِنْ قَسَـاوَتِهِ مِـزَاجُ إبائِهِ فقَدْ أبَى علـى كُلِّ علاج. مَا هَذَا اخْتيَارُ الذي يَعُدُّ الوَهْمَ فَهْمَا؟، وَهَذَا التَّمييزُ الذي يَحْسَبُ الخَيْرَ شَـرًّا؟، وَمَا هَذَا الرَّأيُ الـذي يُزَيِّنُ لَهُ قُبْحَ العُقُوق، وَيُمَقِّتُ إليه رِعَايَةَ الحُقُوق؟، وَمَا هَذَا الإعْرَاضُ الذي صَارَ ضَرْبَـةَ لازِب، وَالنِّسْـيَانُ الـذي أنْسَـاهُ كُلَّ وَاجِـب؟، أيْنَ الطَّبـعُ الذي هُـوَ للصُّدودِ صَدُود، وَللتَّألُّـفِ ألُوفٌ وَدُود؟، وَأيْـنَ الخُلُـقُ الذي هُوَ في وَجْهِ الدُّنيَا البَشَاشَـةُ وَالبِشْـر، وَفـي مَبْسَـمِهَا الثَّنَايَـا الغُـرّ؟، وَأيْـنَ الحَيَـاءُ الـذي يُجْلِي بمَحَاسِـنِهِ الكَـرَم، وَتُحَلَّى بمَحَاسِـنِهِ الشِّـيَم؟، وَكَيْفَ يَزْهَـدُ فيْمَـنْ مَلَـكَ عَنَـانَ الدَّهْـرِ فهـو طَـوْعُ قِيَـادِه، وَتَبَعُ مُرَادِه، يُنْظَرُ أمْرَهُ لِيُمْتَثَل، وَيُرْقَبُ نَهْيُه فَيُعْتَزَل؟، وَكَيْفَ يُعْـرَضُ عَمَّنْ تُعْـرَضُ رَفَاهَـةُ العَيْشِ بإعْرَاضِـه، وَتَنْقَبِضُ الأرْزَاقُ بَانْقِضَاضِه؟، وَأضَاءَ نَجْمُ الإقْبَالُ إذَا أقْبَل، وَأهَلَّ هِـلالُ الجِـدِّ إذَا تَهَلَّل؟، وَكَيْفَ يُزْهَى علـى مَنْ تَحْقُرُ في عَيْنِـهِ الدُّنيَا، وَتُرَى تَحْتَهُ السَّـمَاءُ العُلْيَا؟، قَدْ رَكِبَ عُنُقَ الفُلك، وَاسْـتَوَى علـى ذَاتَ الحُبُك، فَتَبَرَّجَـتْ لَهُ البُرُوج، وَتَكَوْكَبَـتْ لعِبَادَتِـهِ الكَوَاكِـب، وَاسْـتَجَارَتْ بغُرَّتِـهِ المَجَـرَّةُ، وَأثْـرَتْ بمآثِرِهِ أوْضَاحُ الثُّريّا؟، بَـلْ كَيْفَ يُهَوِّنُ مَنْ لَوْ شَـاءَ عَقَدَ الهَوَاء، وَجَسَّـمَ الْهَبَاء، وَفَصَّلَ تَرَاكِيْبَ السَّـمَاء، وَألَّفَ بَيْنَ النَّارِ وَالمَاء، وَأكْمَدَ ضِيَاءَ الشَّـمْسِ وَالقَمَـر، وَكَفَاهُمَا عَنَاءَ السَّـيْرِ وَالسَّـفَر، وَسَـدَّ مَنَاخِرَ

الرِّيَاحِ الزَّعَازِعِ، وَطَبَّقَ أجْفَانَ البُرُوقِ اللوَامِعِ، وَقَطَعَ أَلْسِنَةَ الرُّعُود، بِسَيْفِ الوَعِيْد، وَنَظَمَ صَوْبَ الغَمَامِ نَظْمَ الفَرِيد، وَرَفَعَ عَنْ الأَرْضِ سَطْوَةَ الزَّلازِل، وَقَضَى بِمَا يَرَاهُ عَلى القَضَاءِ النَّازِل، وَعَرَضَ الشَّيْطَانَ بِمَعْرِضِ الإنْسَان، وَكَحَّلَ الحُوْرَ العِينَ بِصُورِ الغِيلان، وَأنْبَتَ العُشْبَ عَلى البِحَار، وَألْبَسَ الليْلَ ضَوْءَ النَّهَار؟.»(112)

لَقَدْ شَكَّلتْ هَذِهِ الحَلْقَةُ مِنْ مُبْدِعي القَرنِ الرَّابِعِ الهِجْرِي، حَلْقَةً مُهِمَّةً مِنْ حَلْقَاتِ النَّثْرِ الفَنّيِّ؛ أسَّسَتْ خُصُوصِيَّةَ مَشْهَدِهَا، بِاعْتِمَادِ آليَّاتٍ جَمَاليَّةٍ مُحَدَّدةٍ، رَسَّخَتْ بِهَا مَشْرُوعَهَا الجَمَالِيَّ؛ وَتَرَكَّزَتْ عَلى مِحْوَرَيْنِ أسَاسِيَّينِ وَمُتَوَاشِجَيْنِ؛ هُمَا: الْتِزَام السَّجع، وَالزُّخْرُف البَدِيْعِيِّ؛ فَبِالإضَافَةِ إلى التَّوسُّعِ في التَّقْسِيْمَاتِ الهَنْدَسِيَّةِ المَسْجُوعَة، تَجلَّتْ العِنَايَةُ بِتَوْشِيَةِ الخِطَابِ بِالجِنَاسِ وَالطِّبَاقِ وَالتَّصوِيرِ، وَقَدْ مَثَّلَتْ هَذِهِ الحَلَقَةُ حَضَارَةَ الزِّيْنَةِ في مَشْهَدِ النَّثْرِ الفَنِّيِّ، وَالمُلاحَظُ أنَّ مُؤسِّسِي هَذَا التَّيَّارِ كَانُوا مِنْ أصُولٍ غَيرِ عَربيَّةٍ، كَمَا كَانَ مُؤسِّسو تيَّارِ النَّثْرِ الفَنّيِّ المُرْسَلِ، مِنْ قَبْلُ ــ وَمِنْهُمْ: سَالِم مَوْلَى هِشَام وَعَبْدُ الحَمِيدِ الكَاتِبُ وَابْنُ المُقَفَّع - مِنْ أُصُولٍ غَيْرِ عَرَبِيَّةٍ، وَأسَّسُوا تَيَّارًا جَدِيْدًا؛ يَقُومُ عَلى التَّقْسِيْمَاتِ الإيقَاعِيَّةِ الهَنْدَسِيَّةِ، عَبْرَ مُوْسِيقا الازْدِوَاجِ، وَالمَوَازِينِ المَنْطِقيَّةِ في تَقْسِيمِ الكَلامِ.

انْبِثَاقُ المَقَامَةِ في فَضَاءِ النَّثرِ الفَنِّيِّ

جَاءَت المَقَامَةُ ــ في القَرنِ الرَّابعِ الهِجْرِيِّ ــ تَجْسِيْدًا لمشروع النَّص

الجامع في فضاءِ النَّثرِ الفَنّيِّ؛ حَيْثُ تَجَاوَرَتْ ـ في فَضَاءَاتِها ـ الشِّعريَّةُ المَوزُونَـةُ وَالمَنْثُورَةُ؛ مُحَقِّقَةً حُضُورًا مُزْدَوجًا للشِّـعرِ مَنْظُومًا وَمَحْلُولاً ، وَالوَاقِـعُ أنَّـهُ لَـمْ يَكُـنْ مَحْلُـولاً إلاَّ بِمَعْنَى تَحَـرُّرِهِ مِـنْ تَقَاليـدِ (النَّظْم) الشِّـعريِّ؛ فَهَو قَدْ اصْطَنَعَ لِنَفْسِهِ تَقَاليدَ مُعَادِلَةً لِتَقَاليْدِ النَّظْمِ الشِّعريِّ، تَتَبَدَّى فِيْهَا شِـعرِيَّتُهُ الخَاصَّةُ ، وَلِهَذَا اعْتُبِرَتْ المَقَامَةُ النَّوعَ الجَامِعَ[113] ، كَمَا اعْتُبِرَتْ «الجِنْسَ الأَدبِيَّ المُعَادِلَ، في مِيْزَانِ تَارِيخِ الأَدَبِ العَرَبِيِّ، لِجِنْسِ الشِّعرِ»[114] ، وَاعْتَبَرَهَا نَاصِيْفُ اليَازِجيُّ (1800 ـ 1871) «مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ».

وَالمَقَامَـةُ شَـكْلٌ قَصَصِـيٌّ قَصِيْـرٌ، يَتَأنَّـقُ صَاحِبُـهُ فـي انْتِخَـابِ أَلْفَاظِـهِ، وَمُعَادَلاتِ سَـجَعَاتِهِ، وَتَوْشِـيَتِهِ بِالبَدِيْعِ وَالبَيَـانِ، حَتَّى يَجْعَلَهَا بُسْـتَانًا حَاشِدًا بِمُخْتَلَفِ الأَسَـالِيبِ المُنَمَّقَةِ المُحْصُورَةِ بَيْنَ السَّجَعَاتِ، وَقَدْ وَضَعَ بَدِيعُ الزَّمَانِ الهَمَذَانِيُّ لِلمقامَةِ مَلامِحَهَا الأَسَاسِـيَّةَ وَمَفْهُومَهَا الاصْطِلاحِـيَّ، بَعْدَ إرْهَاصَاتِ ابنِ دُرَيـدٍ (ـ 321هـ) بِهَا؛ حَيْثُ جَعَلَ لَهَا رَاوِيًا وَاحِدًا (هُوَ عِنْدَهُ: عِيْسَـى بنُ هِشَـام) وَبَطلاً وَاحِـدًا (هُوَ عِنْدَهُ: أَبُو الفَتْحِ الإِسْـكَنْدَرِيِّ)، وَيُقَالُ أنَّ المَقَامَةَ قَدْ قُصِدَ بِهَا أَسَاسًا ، أنْ تَكُونَ قَالِبًـا ، زَاخِمًـا بِأَسَـالِيْبِ اللغُـةِ وَالتَّفقُّهِ فـي أَلفَاظِهَا المُخْتَـارَةِ ؛ بِغَرضِ التَّعليـمِ[115] ؛ وَلِـذَا أخْطَـأ البَاحِثُـونَ في أُصُـولِ الأُقْصُوصَـةِ، حِيْنَمَا لَمْ يَتَعَامَلُوا مَعَهَا كَشَـكْلٍ مُسْتَقِلٍّ، وَظَنُّوهَا ضَرْبًا مِنَ القَصَصِ، وَعَقَدُوا بَيْنَهَـا وَبَيْنَ الأُقْصُوصَـةِ مُوَازَنَاتٍ، وَ«خَلَصُوا إلى أنَّ فِيْهَا نَقْصًا كَبِيْرًا ، وَهَذَا حَمْلٌ لِلْمَقَامَاتِ عَلى مَعْنَى لَمْ يَقْصُدْ إليْهِ مُنْشِئوهَا.»[116]

وَإِذَا كَانَ بَديـعُ الزَّمَـانِ الهَمَذَانِـيُّ هُـوَ الـذي عَبَّدَ الطَّرِيـقَ، وَحَدَّدَ المَعَالِـمَ، لِهَذَا الجِنْـسِ الأَدَبِيِّ، العَرَبِيِّ، مُنْذُ أنْجزَ مَقَامَاتِهِ، بِنيسـابور

(ـ 383هـ)، فـإنَّ الحَريـريَّ سَـيَنْطَلِقُ بِـهِ إلـى أقْصَـى ذُراه، التـي لنْ تُطَـالَ مِـنْ بَعْدِهِ، وَسَـتُعَدُّ مَقَامَاتَـهُ «المُعْجِزَةَ الخَارِقَةَ التي لا تُسْـبَقُ وَلا تُلْحَقُ، عَلـى مَـرِّ العُصُورِ»[117]، وَسَـيُرَى كُلّ مَنْ جَاءوا بَعْـدَهُ، وَاحْتَذَوا عَلى مِثَالِهِ، وَهُمْ «دَائِمًا يَقَعُونَ عَلى السَّفحِ مِنْ دُوْنِهِ؛ إذْ كَانَتْ أجْنِحَتُهُمْ مِـنَ الضَّعفِ، بِحَيثُ لَمْ يَسْـتَطِيعُوا أنْ يُحَلِّقُوا في الأفُقِ الذي حَلَّق فيْهِ، وَبِذَلِكَ ظَلَّ اسْمُهُ يَلْمَعُ وَيَتَألَّقُ طِوَالَ تِسْعَةِ قُرونٍ.»[118]

وَهَكَـذَا ظَلَّ هَذَا الكِتَابُ؛ الذي أتَمَّ الحَريريُّ تَأليفهِ سـنةَ 504هـ، هُـوَ «الأعْظَـمُ انْتِشَـارًا، بَيْنَ القُرَّاءِ، مَـا بَيْنَ القَرنِ الثَّاني عَشَـرَ وَالقَرنِ التَّاسِـعَ عَشَـرَ»[119]، وَ «كَانَ بِالنِّسْـبَةِ لِلْجَمِيْعِ مَجْمُوعَ الأدَبِ، وَحَصِيْلَةَ كُلِّ الكُتُـبِ السَّـابِقَةِ، وَلَمْ يَكُنْ تَعْظِيْمُهُ، خَـارِجَ اللغُةِ العَرَبيَّةِ، بِأقَلَّ تَألُّقًا؛ تُرْجِمَ وَاحْتُفِيَ بِهِ في السِّريَانيَّةِ وَالفَارِسِيَّةِ وَالْعِبْرِيَّةِ.»[120]

وَقَدْ عَكَسَـتْ هَذِهِ المَقَامَاتُ قُدْرَةَ الحَريريِّ البَاهِرَةِ عَلى الابْتِكَارِ وَالإبْـدَاعِ، وَلَيْـسَ فَقَـط مَهَارَاتِـهِ في إنْشَـاءِ السَّـجعِ، وَوَفْـرَةَ مَحْصُولِهِ اللغَـويِّ، وَانْتِخَابَ أرْوَعِ الصِّيَاغَاتِ، في أجْلَى آيَـاتِ الصِّنَاعَةِ اللفْظِيَّةِ، عَلـى الرَّغْـمِ مِنْ أنَّ الحَريريَّ يُصَـرِّحُ، في مُقَدِّمَةِ مَقَامَاتِه، أنَّهُ أنْشَـأهَا تَلْبِيَـةً لِدَعْـوةٍ مِـنْ «مَـنْ إشَـارَاتُهُ حُكْم، وَطَاعَاتُـه غُنْم، إلى أنْ أُنْشِـئَ مَقَامَاتٍ؛ أتْلُو فِيْهَا تَلْوَ البَدِيعِ.»[121]

الحَريريُّ[122] (ـ 516هـ)

المُشَعْوذُ الأعْظَمُ، سَاحِرُ الكَلِمَات

لَقَـدْ فَتَحَ الحَريريُّ بَابَ المُغَامَرةِ اللغَويَّةِ على أقْصَى اتِّسَـاعِهِ؛ حَيْثُ

ذَهَبَ إلى أقْصَى مَا تَتغَيَّاهُ الصِّنَاعَةُ اللفظِيَّةُ ـ في النَّثرِ الفَنِّيِّ ـ مِنْ دِقَّةِ الصُّنع وَجِدَّتِهِ وَإبْدَاعِيَّتِه، مُشَّـكلاً ـ مِنَ النَّسِـيجِ الأَدَبِيِّ ـ أُفُقًا لُغَوِيًّا بَرَّاقًـا وَزَاخِمًـا، وَلَمْ يَقْتَصِـرْ صُنْعُهُ عَلى الاصْطِفَاءِ الدَّقِيْـقِ لِلْمُفْرَدَاتِ، وَلا عَلى هَنْدَسَـاتِ السَّـجعِ الدَّقيقَةِ، وَلا عَلى طَاقَاتِ الزُّخرُفِ البَدِيعيِّ ـ فَـكُلُّ هَذَه الآليَّـاتِ مَوْجُودَةٌ مُنْذُ الهَمَذَانِيِّ وَأقْرَانِـهِ في القَرْنِ الرَّابِعِ الهِجْـرِيِّ ـ وَإنَّمَـا تخطَّـى ذلـك ـ نَظمًا وَسَـجْعًا ـ إلى آفَـاقِ المُغَامَرةِ الإبْدَاعيَّةِ في عَوَالِمِ اللغَةِ، في اثْنَتَيْ عَشْـرَةَ مَقَامَةً مِنْ مَقَامَاتِهِ، مُحَقِّقًا مُمَارَسَـاتٍ خَلاَّقَـةً لِلَّعِـبِ اللغَـويِّ المُبْتَكَرِ، بِمَا يَكْشِـفُ عَـنْ افْتِتَانِ الحَرِيريِّ بِالتَّخْلِيقِ اللغَوِيِّ الحَدَاثِيِّ.

وَقَـدْ أشَـارَ الحَريريُّ إلى وَلَعِـهِ بِالابْتِكَارِ في مَوْضِعَيْـنِ؛ في مُقَدِّمَةِ المَقَامَـاتِ، وَفي مَتْنِ المَقَامَاتِ؛ فَفِـي المُقَدِّمَةِ يَذْكُرُ أنَّهَا تَحْتَوي عَلى اسْتِحْدَاثَاتِهِ الإبْدَاعيَّةِ المُبْتَكَرَةِ، بِجَانِبِ احْتِوَائِهَا عَلى خُلاصَةِ ثَقَافَتِهِ الوَاسِـعَةِ العَمِيْقَةِ؛ فَهِيَ تَزْدَهِي بِمَا وَشَّـحَهُ فِيْهَا «مِنَ الآيَاتِ، وَمَحَاسِـنِ الكِنَايَـاتِ، وَرَصَّعْتُـهُ فِيْهَـا مِنَ الأَمْثَـالِ العَرَبِيَّـةِ، وَاللطَائِـفِ الأَدَبيَّةِ، والأَحَاجِي النَّحويَّةِ، وَالفَتَاوى اللغويَّةِ، وَالرَّسَـائِلِ المُبْتَكَرَةِ، وَالخُطَبِ المُحَبَّرَةِ.»[123]

وَفي (المَقَامَةِ المَرَاغيَّةِ) يُعْلِنُ احْتِجَاجَهُ عَلى الرَّأيِ القَائِلِ أنَّ القُدَمَاءَ قَدْ ضَرَبُوا في كُلِّ سَـبْقٍ بِسَهْمٍ، وَأنْجَزُوا كُلَّ المُمْكِنِ، وَأنَّهُ «لَمْ يَبْقَ مَنْ يُنقِّحُ الإنْشَاءَ، وَيَتَصَرَّفُ فيْهِ كَيْفَ شَاءَ، وَلا خَلَفَ، بَعْدَ سَلَفٍ، مَنْ يَبْتَدِعُ طَرِيقَةً غَرَّاءَ، أوْ يَفْتَرِعُ رِسَالَةً عَذْرَاءَ، وَأنَّ المُفْلَّقَ مِنْ كُتَّابِ هَذَا الأوَانِ، المُتَمَكِّـنَ مِـنْ أزِمَّةِ البَيَـانِ، كَالعِيَالِ عَلى الأوَائِـلِ، وَلَوْ مَلَكَ فَصَاحَةَ سَـحْبَانَ وَائِلٍ»[124]، نَاعِتًا مُرْسِـلِي هَذَا الرَّأيَ بِأنَّهُمْ جَاءوا شَيْئًا

إدًّا ، وَجَـارُوا عَن القَصْدِ جدًّا ، وَعَظَّمُوا العِظَـامَ الرُّفَات ، وَتَجَاوَزُوا في المَيْـلِ إلى مَنْ فَات ، وَعَابُوا جِيْلَهُمْ ، وَوَبَّخَهُمْ بِقَوْلِه : «أَنَسِـيْتُمْ يَا جَهَابِذَةَ النَّقْـدِ ، وَمَوَابِـذَةَ الحَـلِّ وَالعَقْدِ ، مَا أَبْرَزَتْـهُ طَوَارِفُ القَرَائِـح ، وَبَرَزَ فيْه الجِـذْعُ عَلى القَارِح ، مِنَ العِبَارَاتِ المُهَذَّبَة ، وَالاسْـتِعَارَات المُسْـتَعْذَبَة ، وَالرَّسَـائِلَ المُوَشَّـحَة ، وَالأَسَـاجِيْع المُسْـتَمْلَحَة ، وَهَلْ لِلْقُدَمَاءِ إذَا أَنْعَمَ النَّظَر ، مَنْ حَضَر ، غَيْرُ المَعَانِي المَطْرُوقَة المَوَارِد ، المَعْقُولَة الشَّوَارِد ، المَأثُـورَة عَنْهُـمْ لِتَقَـادُمِ المَوَالِد ، لا لِتَقَـدُّمِ الصَّادِرِ عَلى الـوَارِد؟ ، وَإنِّي لأَعْرِفُ الآنَ مَنْ إذَا أَنْشَـأَ وَشَّـى ، وَإذَا عَبَّرَ ، حَبَّرَ ، وَإنْ أَسْـهَبَ ، أَذْهَبَ ، وَإذَا أَوْجَزَ ، أَعْجَزَ ، وَإنْ بَدَهَ ، شَدَهَ ، وَمَتَى اخْتَرَعَ ، خَرَعَ.»[125]

وَالحَرِيـرِيُّ ـ فـي مَقَامَاتِـه ـ يَتَحَرَّكُ فـي حِدُودِ الشَّـكْلِ المَعْلُوم ، لكِنَّـهُ يَنْطَلِقُ بِـهِ إلى المَجْهُولِ؛ حَيْـثُ آفَاق المُغَامَـرَةِ البِكْـر ، مُحَقِّقًا أَقْصَى تَجَلِّيَاتِ الحُضُورِ اللغَوِيِّ ، بِزَخَمِهِ المُتَنَوِّعِ الحَاشِدِ ، وَمِنْ ذَلكَ نَرَاهُ:

1 ـ

يُقَـدِّمُ ، فـي (المَقَامَةِ السَّـمَرْقَنْدِيَّة) ، بَطَلَهُ أَبَا زيدٍ السُّـروجِيِّ ، وَقَدْ ارْتَقَـى منبرَ مَسْـجِدٍ ؛ لِيَخْطُـبَ خُطْبَةَ الجُمْعَـةِ ، فَتَأتِي جَمِيـعُ كَلِمَاتِهَا خَالِيَةً مِنَ النُّقَطِ ، وَقَد اسْتَفْتَحَهَا هَكَذَا :

«الحَمْـدُ للّه المَمْـدُوحِ الأَسْـمَاء. المَحْمُودِ الآلاء. الوَاسِـعِ العَطاء. المَدْعُو لِحَسْمِ اللأْوَاء. مَالِكِ الأُمَم. وَمُصَوِّرِ الرِّمَم. وَأَهلِ السَّـمَاحِ وَالكَرَم. وَمُهْلِكِ عَادٍ وَإرَم. أَدْرَكَ كُلَّ سِـرٍّ عِلْمُهُ. وَوَسِـعَ كُلَّ مِصْرٍ حِلْمُهُ. وَعَمَّ كُلَّ عَالَمٍ طَوْلُه. وَهَدَّ كُلَّ مَـارِدٍ حَوْلُه. أَحْمَدُهُ حَمْدَ مُوَحِّدٍ مُسْـلِمٍ. وَأَدْعُوهُ دُعَاءَ

مُؤمَّلٍ مُسَلَّم. وَهُوَ اللّٰهُ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ الوَاحِدُ الأحَدُ. الفَرْدُ الصَّمَدُ. لا وَلَدَ لَهُ وَلا وَالِد. وَلا رِدْءَ مَعَهُ وَلا مُسَاعِد»(١٢٦)

وَفي (المَقَامَةِ الوَاسِطِيَّةِ) يُقدِّمُ اللعبَةَ نَفْسَهَا، في خُطْبَةٍ أزْجَاهَا في حَفْلِ خِطْبَةٍ، وَقَدْ اسْتَهَلَّهَا بِقَوْلِهِ:

«الحَمْدُ للّٰهِ المَلِكِ المَحْمُود، المَالِكِ الوَدُود، مُصَوِّرِ كُلَّ مَوْلُود، وَمَآلِ كُلِّ مَطْرُود، سَاطِحِ المِهَاد، وَمُوَطِّدِ الأطْوَاد، وَمُرْسِلِ الأمْطَار، وَمُسَهِّلِ الأوْطَار، وَعَالِمِ الأسْرَارِ وَمُدْرِكِهَا، وَمُدَمِّرِ الأمْلاكِ وَمُهْلِكِهَ، وَمُكَوِّرِ الدُّهُورِ وَمُكَرِّرِهَا، وَمُوَرِّدِ الأُمُورِ وَمُصَدِّرُهَا، عَمَّ سَمَاحُهُ وَكَمُل، وَهَطَلَ رُكَامُهُ وَهَمَل، وَطَاوَعَ السُّؤْلَ وَالأمَل، وَأوْسَعَ المُرْمِلَ وَالأرْمَل، أحْمَدُهُ حَمْدًا مَمْدُودًا مَدَاه، وَأُوَحِّدُهُ كَمَا وَحَّدَهُ الأوَّاه.»(١٢٧)

2 ـ

يُقَدِّمُ، في (المَقَامَةِ الرَّقْطَاءِ)، رِسَالةً، جَمِيعُ كَلِمَاتِهَا مَنْقُوطَةُ، وَبالإضَافَةِ إلى ذَلكَ التزَمَ في كُلِّ كَلِمَةٍ أنْ تَتَوالَى الحُرُوفُ ـ بِالتَّبادُلِ ـ بَيْنَ النُّقَطِ وَعَدَمِ النَّقطِ، عَلى هَذَا النَّحْوِ الدَّقيقِ:

«أخْلاقُ سَيِّدِنَا تُحَبّ، وَبِعُقُوتُهُ يُلَبّ، وَقُرْبُهُ تُحَفّ، وَنَأْيُهُ تَلَف، وَخِلَّتُهُ نَسَب، وَقَطِيْعَتُهُ نَصَب، وَغَرْبُهُ ذَلق، وَشُهُبُهُ تَأتَلِق، وَظَلَفُهُ زَان، وَقَوِيْمُ نَهْجِهِ بَان، وَذِهْنُهُ قُلَّبٌ وَحُرِّب، وَنَعْتُهُ شَرَّقَ وَغَرَّب:

سَيِّدٌ قُلَّبٌ سَبُوقٌ مُبَرٌّ فَطِنٌ مُغْرِبٌ عَزُوفٌ عَيُوفُ

مُخْلِفٌ مُتْلِفٌ أغَرٌّ فَريدٌ نَابُه فَاصِلٌ ذَكيٌّ أنُوفُ

مَنَاظِمُ شَرَفِه تأْتَلف، وَشُئوبُ حبائِهِ يُكَف، وَنَائِلُ يَدَيه فَاض، وَشُحّ قلبهِ غَاض، وَخَلَفَ سَخَائِه يُحْتَلب، وَذَهَبُ عيَابهِ يُحْتَرب، مَنْ لَفَّ لَفَّهُ فَلَجَ وَغَلَب، وَتَاجِرُ بَابِهِ جَلَب وَخَلَب، كَفَّ عَنْ هَضْمِ بَرِيٍّ، وَبَرِيءَ مِنْ دَنَسِ غَوِيٍّ، وَقَرَنَ لِيانَهُ بعِزّ، وَنَكِبَ عَنْ مَذْهَب كِزّ.»[١٢٨]

3 ـ

يُقَدِّمُ، في (المَقَامَةِ المَرَاغِيَّةِ)، خُطبَةً، يَلْتَزِمُ فِيْهَا بِأنْ تَكُونَ إحْدَى كَلِمَاتِهَا مَنْقُوطَةً، وَالأخْرَى لَمْ تُعْجَمْ قطُّ (أيْ: غير مَنْقُوطَةٍ)، وَعَلى هَذَا الشَّكلِ تَتَدفَّقُ:

«الكَرَمُ ثَبَّتَ اللّهُ جَيْشَ سُعُودِكَ يُزِيْن، وَاللؤمُ غَضَّ الدَّهرُ جَفْنَ حَسودِكَ يُشِيْن، وَالأرْوَعُ يُثِيْبُ، وَالمُعْوِرُ يُخِيْبُ، وَالحَلاحِلُ يَنْضِيْفُ، وَالمَاحِلُ يُخِيْفُ، وَالسَّمْحُ يُغْذِي، وَالمَحْكُ يُقْذِي، وَالعَطَاءُ يُنْجِي، وَالمَطَالُ يُشْجِي، وَالدُّعَاءُ يُقِي، وَالمَدْحُ يُنْقِي، وَالحُرُّ يُجْزِي، وَالإلْطَاءُ يُخْزِي، وَاطِّرَاحُ ذِي الحُرْمَةِ غَيّ، وَمَحْرَمَةُ بَنِي الآمَالِ بَغِي، وَمَا ضَنَّ إلاَّ غَبِيْن، وَلا غَبَنَ إلاّ ضَنِيْن، وَلا خَزَنَ إلاَّ شَقِيّ، وَلا قَبَضَ رَاحَهُ تَقِيّ، وَمَافَتِئَ وَعْدُكَ يَفِي، وَآرَاؤكَ تُشْفِي، وَهِلالُكَ يُضِي، وَحِلْمُكَ يُغْضِي، وَآلاؤكَ تُغْنِي، وَأعْدَاؤكَ تُثْنِي، وَحُسَامُكَ يُفْنِي، وَسُؤدُدُكَ يُقْنِي، وَمُواصِلُكَ يُجْتَنَى، وَمَادِحُكَ يُقْتَنِي، وَسَمَاحُكَ يُغِيْث،

وَسَـمَاؤكَ تَغيْث ، وَدَرُّكَ يَفيْـض ، وَرَدُّكَ يَغيْض ، وَ مُؤمِّلُكَ شَيْخٌ حَكَاهُ فَيء ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ شَيء.» (١٢٩)

4 ـ

في (المَقَامَةِ الحَلبيَّةِ) يَنْقلُ مَجَالَ لَعِبِه مِنْ حُدُودِ النَّثرِ الفَنِّيِّ المَسْجُوعِ إلى حُدُودِ النَّظمِ الشِّعريِّ؛ لِيُقَدِّمَ في مِسَاحَاتِ القَصِيْدِ مَا قَدَّمَ في النّثرِ الفَنِّيِّ المَسْجُوعِ، وَأكْثَرَ؛ فَيُقدِّمُ لَنَا أبْيَاتًا عَوَاطِلَ مِنَ النُّقطِ، مِنْهَا:

أعْـدِدْ لِحُسَّـادِكَ حَـدَّ السِّـلاحْ وَأوْرِدِ الآمِـلَ وِرْدَ السَّـمَاحْ

وَصَـارِمِ اللهْـوَ وَوِصْـلِ المَهَـا وَأعْمِـلِ الكُـومَ وَسُـمْرَ الرِّمَـاحْ

وَاسْـعَ لإدْرَاكِ مَحَـلٍّ سَـمَـا عِمَـادُهُ لا لادِّرَاعِ المِـرَاحْ (١٣٠)

ثُمَّ يُقدِّمُ أبْيَاتًا مَنْقُوطَةً كُلّهَا ، وَمِنْهَا :

فَتَنَتْنِـي فَجَنَّنَتْنِـي تَجَنِّـي بِتَجَـنٍّ يَفتـنُّ غِـبَّ تَجَنِّـي

شَـغَفَتْنِي بِجَفْنِ ظَبيٍ غَضِيْضٍ غَنِجٍ يَقْتَضِي تَغَيُّضَ جَفْنِـي

غَشِـيَتْنِـي بِـزِيْنَتَيْـنِ فَشَـفَّتْنِي بِزِيٍّ يَشِـفُّ بَيْـنَ تَثَنِّي (١٣١)

ثُـمَّ يُقدِّمُ أبْيَاتًا ، مَنْقُوطَةً إحْدَى كَلِمَاتِهَـا ، وَالأُخْرى غَيْرُ مَنْقُوطةٍ ، عَلى هَذَا الشَّكلِ:

اسْـمَحْ فَبَـثُّ السَّـمَاحِ زَيْـنُ وَلا تُخِـبْ آمِـلًا تَضَيَّـفْ

وَلا تُجِـزْ رَدَّ ذِي سُـؤَالٍ فَنَّـنَ أمْ فِـي السُّـؤَالِ خَفَّـفْ

وَلا تَظُـنَّ الدُّهُـورَ تُبقِـي مَـالَ ضَنِيـنٍ وَلَـوْ تَقَشَّـفْ (١٣٢)

ثُـمَّ إنَّهُ يُقـدِّمُ أبْيَاتـًا مُتَمَاثِلةَ الحُـروفِ شَـكليًا بِالنُّقـطِ، وَمُتَطابِقةً

الحُروفِ بغيرِ النُّقطِ، وَمِنْهَا:

زُيِّنَتْ زَيْنَبُ بقَدٍّ يُقَدُّ وَتَلاهُ وَيْلاهُ نَهْدُ يَهُدُّ
جُندُهَا جيْدُهَا وَظُرْفٌ وَطَرْفٌ نَاعِسٌ تَاعِسٌ بحَدٍّ يُحَدّ
قَدُّرهَا قَدْ زَهَا وَتَاهَتْ وَبَاهَتْ وَاعْتَدَتْ وَاغْتَدَتْ بِخَدٍّ يُخَدّ (١٣٣)

ثَمَّ إنَّه يُقدِّمُ أبياتًا مُتَشَابِهَةَ الطَّرفين، هَكَذَا:

سِمْ سِمَةً تَحْسُنُ آثَارُهَا وَاشْكُرْ لِمَنْ أعْطَى وَلَوْ سِمْسَمَةْ
وَالمَكْرُ مَهْمَا اسْتَطَعْتَ لا تَأتِهِ لِتَقْتَنِي السُّؤْدَدَ وَالمَكْرُمَةْ (١٣٤)

5 _

فِي (المَقَامَةِ المَغْرِبيَّةِ) يُقَدِّمُ طَرِيقَةَ مَالا يَسْتَحِيْلُ بِالانْعِكَاسِ؛ كقولنا: «سَاكِب كَاس» (135)؛ حَيْثُ تُقْرَأُ مِنَ اليَمينِ إلى اليَسَارِ، كَمَا تُقرَأُ مِنَ اليَسَارِ إلى اليَمينِ، وَقدَّمَ مِنْهَا طَائِفَةً مَنْثُورَةً في إطارِ بِنْيَةِ الحِكَمِ، عَلى هَذَا النَّحْوِ:

«لُمْ أخَا مَلّ. كَبِّرْ رَجَاءَ أجْرِ رَبِّكَ. مَنْ يُربِّ إذَا بَرَّ يَنمُ. سَكِّتْ كُلَّ مَنْ نَمَّ لَكَ تَكِسْ. لُذْ بِكُلِّ مُؤَمِّلٍ إذَا لَمّ وَمَلَكَ بَذَل.» (١٣٦)

ثُمَّ طَفِقَ يُقدِّمُ هَذِهِ الطَّريقةِ نَظْمًا، هَكَذَا:

أُسْ أرْمَلًا إذَا عَرَا وَارْعَ إذَا المَرْءُ أسَا
أسْنِدْ أخَا نَبَاهَةٍ أبِنْ إخَاءً دَنِسَا
أُسْلُ جَنَابَ غَاشِمٍ مُشَاغِبٍ إنْ جَلَسَا

أُسْـرُ إذَا هـبَّ مِـــراً وَارْمِ بـــهِ إذَا رَســـا
أُسْــكُنْ تَقَوَّ فـَعَسَـى يُسْـعِفُ وقتٌ نَكَسَا[١٣٧]

6 ــ

فــي (المَقَامَــةِ القَهْريَّــةِ) يُقـدِّمُ لَنَـا، رِسَـالةً تُقْـرَأُ مِـنْ أوَّلِهَـا إلــى آخِرِهَا، كَمَـا تُقْرَأُ مِـنْ آخِرِهَا إلى أوَّلِها؛ فَهِيَ مَنْسُـوجَةُ عَلى مِنْوَالين، صَاغَهَـا في مِئَتَيْ كَلِمَةٍ مَنْسُـوجَةٍ في بِنْيَةِ الحِكَـمِ، وَهِيَ تَبْدَأ بِجُمْلَةِ: «الإنْسَان صَنِيْعَةُ الإحْسَان»[138]، وَمِنْهَا:

«.. صِـدْقُ الحَديْثِ حِلْيَةُ اللِسَـان. وَفَصَاحَةُ المَنْطقِ سِـحْرُ الألبَاب. وَشَـرَكُ الهَـوَى. آفَةُ النُّفُوسِ. وَمَلَلُ الخَلائقِ شَـيْنُ الخَلائقِ. وَسُـوْءُ الطَّمَع. يُبَاينُ الوَرَع. والتِزَامُ الحَزَامَة. زِمَامُ السَّـلامَة. وَتَطَلُّـبُ المَثَالِب. شَـرُّ المَعَايِب. وَتَتَبُّـعُ العَثَرَات. يُدْحِـضُ المَـوَّدَاتِ. وَخُلُوصُ النِّيَّةِ. خُلاصَـةُ العَطِّيَّةِ. وَتَهْنِئَةُ النَّوَالِ. ثَمَنُ السُّؤالِ..»[١٣٩]

فَهَذَا المَقْطَعُ يُمْكِنُ أنْ يُقرَأَ مِنْ آخِرِهِ إلى أوَّلِهِ، وَسَيَكونُ مَسْجُوعًا في غَالِبِهِ، هَكَذَا:

«السُّـؤال. ثَمَـنُ النَّـوال. وَتَهْنِئَـةُ العَطِيَّـة. خُلاصَـةُ النِّيَّـة. وَخُلُـوصُ المَوَدَّات. يُدْحِـضُ العَثَرَات. وَتَتَبُّعُ المَعَايِب. شَـرُّ المَثَالِـب. وَتَطَلُّبُ السَّـلامَة. زِمَامُ الحَزَامَة. وَالتِـزَامُ الوَرَع. يُبَايِنُ الطَّمَع. وَسُوْءُ الخَلائِق. شَيْنُ الخَلائِق.»

وَلِلحَريريِّ رِسَـالتَانِ ذَائِعَتَانْ، أوردَهُمَا يَاقوتُ (ــ 626هـ) ــ في مُعْجَمِ

الأدَبَاءِ ـ وَالعِمَادُ الأصْفَهانيُّ (ـ 597هـ) ـ في الخَرِيْدَةِ ـ بَنَى كُلاًّ مِنْهُمَا عَلـى الْتِزَامِ حَرْفٍ وَاحِدٍ في شَـتَّى كَلِمَاتِهَا، أمَّا إحْدَاهُمَا فَقَدْ بَنَاهَا عَلى الْتِـزَامِ حَرفِ السِّـينِ؛ فَعُرِفَتْ؛ لِذَلكَ، بِالرِّسَـالةِ السِّـينيَّةِ، وَأمَّا الأخْرَى، فَقَدْ بَنَاهَا عَلى الْتِزَامِ حَرفِ الشِّينِ، فَعُرِفَتْ؛ لِذلِكَ، بِالرِّسَالةِ الشِّينيَّةِ.

وَفـي الرِّسَـالَةِ السِّـينيَّةِ نَقْرَأُ مَا كَتَبَـهُ الحَريريُّ، عَلى لِسَـانِ بَعْضِ أصْدِقَائِهِ، يُعَاتِبُ صَدِيقًا لَهُ، أخَلَّ بِهِ في دَعْوَةٍ دَعَا غَيْرَهُ إليْهَا:

« باسْـمِ القُـدُّوسِ أسْـتَفْتِحُ، وَبإسْـعَادِهِ أسْـتَنْجِحُ، سَـجِيَّةُ سَيِّدِنَا سَـيْفِ السُّلطانِ، سُدَّة سَيِّدِنَا الأسْفَسْهِلاَّر، السَّيِّدِ النَّفِيْـسِ، سَـيِّدِ الرُّؤسَـاءِ، حُرِسَـتْ نَفْسُـهُ، وَاسْـتَنَارَتْ شَمْسُـهُ، وَبَسَقَ غَرْسُهُ، واتَّسَقَ أُنْسُـهُ، اسْتِمَالَةُ الجَلِيْسِ، وَمُسَاهَمَة الأنِيسِ، وَمَوَاسَاة السَّحِيقِ وَالنَّسِيْبِ، وَمُسَاعَدَة الكَسِـيْرِ وَالسَّلِيْبِ، وَالسِّـيَادَةُ تَسْتَدعِي اسْـتِدَامَةَ السُّنَنِ وَالاسْـتِحْفَاظِ بِالرَّسْـمِ الحَسَنِ، وَسَـمِعْتُ بِالأمْسِ تَدَارُسَ الألْسُـنِ سَلاسَـةَ خَنْدَرِيْسِهِ، سلسَالَ كُئُوسِـهِ، وَمَحَاسِنَ مَجْلِسِ مَسَـرَّتِهِ، وَإحْسَـانَ سَـمْعِهِ سِـتَارَتِـهِ، فَـاسْتَسْلَفْتُ الاسْتِدْعَاءَ، وَتَوَسَّمْتُ الإسْرَاءَ، وَسَوَّفْتُ نَفْسِي بِالاحْتِسَاءِ، وَمُؤَانَسةِ الجُلَسَاءِ، وَجَلَسْـتُ أسْتَقْرِي السُّبُلَ، وَأسْتَطْرِفُ تَنَاسِيَ رَسْمِي، وَأُسَامِرُ الوَسْوَاسَ لاسْتِحَالَةِ وَسْمِي:

وَسَيْفُ السَّـلاطِيـنِ مُسْتَأثِـرٌ بِأنسِ السَّـمَاعِ وَحَسْوِ الكُئُـوسِ
سَـلانِي وَلِيسَ لِبَاسُ السُّـلُـوِّ يُنَـاسِـبُ حُسْـنَ سِـمَاتِ النَّفِـيسِ
وِسَــنَّ تَنَـاسِـيَ جُلاَّسِـــهِ وأسْـــوا السَّـجَايا تَنَاسِـي الجَلِيـسِ
وَسَرَّ حَسُـودِي بِطَمْسِ الرُّسُومِ وَطَمْسُ الرُّسُومِ كَرَمْسِ النُّفوسِ

وَأسْـكَرَنِي حَسْرةً وَاسـتعـاضَ لِقَسْـوتِه سَـكْرَةَ الخَنْدَرِيسِ

وَسَـاقَى الحُسَـامَ بِكَأسِ السُّلافِ وَأسْـهَمَنِـي بِعُبـُوسٍ وَبـُوسِ

سَأكسـُـوه لِبْسَـةَ مُسْـتَعَتَبٍ وَألبَـسُ سِـرْبَالَ سَـالٍ يئُـوسِ

وَأسـطُــرُ سِيناتــهِ سِـيْرَةً تَسِيْرُ أسَـاطِيرُهَا كَالبَسُـوسِ»(١٤٠)

وَفي الرِّسَالَةِ الشِّـينيَّةِ يَكْتُبُ الحَرِيريُّ، إلى أبِي طَلحَةَ ابْنِ النُّعمَانِ الشَّاعِرِ، يَمْدَحُهُ وَيَشْكُرُهُ وَيَتأسَّفُ على فِرَاقِهِ، وَمِنْ هَذهِ الرِّسَالَةِ:

«شَـغَفِي بِالشَّـيْخِ شَـمْسِ الشُّـعَرَاءِ، رُيِّشَ مَعَاشُـهُ، وَفَشَـا رِيَاشُـهُ، وَأشْرَقَ شِهَابُهُ، وَاعْشَوْشَبَتْ شِعَابُهُ، يُشَاكِلُ شَغَفَ المُنْتَشِي بِالنَّشوةِ، وَالمُرْتَشِي بِالرِّشْوَةِ، وَالشَّادِنِ بشَرْخِ الشَّبابِ، وَالعَطْشَانِ بِشَمِّ الشَّرَابِ، وَشُـكْري لِتَجَشُّمِهِ وَمَشَقَّتِهِ، وَشَوَاهِدِ شَفَقَتِهِ، يُشَابهُ شُكْرَ النَّاشِدِ لِلْمُنْشِدِ، وَالمُسْتَرْشِدِ لِلْمُرشِدِ، وَالمُسْتَبْشِرِ لِلْمُبَشِّرِ، وَالمُسْتَجِيْشِ لِلْجَيْشِ المُشَمِّرِ، وَشِعَارِي إنْشَادُ شِعْرِهِ، وَإشْجَاءُ المُكَاشِرِ وَالمُكَاشِحِ بِنَشْرِهِ، وَشُغْلِي إشَاعَةُ وَشَائِعِهِ، وَتَشْييدُ شَوَافِعِهُ، وَالإشَارَةُ بِشُذُورِهِ وَشُفُوفِهِ، وَالمَشُورَةُ بتَشْييعِهِ وَتَشْرِيفِهِ، وَأشْهَدُ شَهَادَةً تُشْدِهُ المُقَشِّرِ المُكَاشِفِ، وَالمُشَنِّعَ الكَاشِفَ لإنْشَائِهِ، وَمَشَاهَدَتُهُ تُدْهِشُ الشَّائِبَ وَالنَّاشِي، وَتَلاشِي شِعرِ النَّاشِي، وَلِمُشَافَهَتِهِ تَبَاشِيْرُ الرُّشْدِ، وَاسْتِشْيَارِ الشَّهدِ، وَلِمُشَاحَنَتِهِ تَشْقَى المَشَاحِنِ، وَتَشِيْنُ المَشَاينُ، وَلِمُشَاغَبَتِهِ تُشَظَّى الأشْطَانُ، وَتَشَيَّطَ الشَّيْطَانُ، فَشَرَفًا لِلشَّيْخِ شَرَفا، وَشَغَفًا بِشَنْشَنَتِهِ شَغَفًا:

فَأشْعَارُهُ مَشْهُورَةٌ وَمَشَاعِرُهُ وَعِشْرتُهُ مَشْكورةٌ وَعَشَائِرُهْ شَأي الشُّعَراءِ المشْمَعلِّين شِعْرُهُ فَشَانِيهِ مَشْجُوّ الحَشَا وَمَشَاعِرُهْ

وَأُشْهِدُ شَاهِدَ الأشْيَاءِ، وَمُشْبعَ الأحْشَاءِ، لَيُشْعِلَنَّ شُوَاظَ اشْتِيَاقِي شَحْطُهُ، وَلَيُشْعَثَنَّ شَمْلَ نَشَاطِي نَشْطُهُ.»[141]

نَصُّ المَنْثُور وَالمَنْظُوم

يَتَزَاوجُ المَنْثُورُ وَالمَنْظُومُ، وَيَتَوَاشَجَانِ، فِي بِنْيَةٍ شِعْرِيَّةٍ جَامِعَةٍ، وَخَاصَّةً، ثُنَائِيَّةَ الأدَاءِ، تَتَبَدَّى في صُورَتينِ أسَاسِيَّتين:

ـ أنْ تَكُونَ البِدَايَةُ بِالجُمْلَةِ النَّثرِيَّةِ، يَعْقُبُهَا البَيْتُ المَنْظُومُ، وَيَتَكَرَّرُ هَذَا البِنَاءُ، عَلى مَدارِ النَّصِّ، وَمِنْهُ قَوْلُ القَاضِي الفَاضِلِ (539 ـ 596هـ)[142]:

وَصَلَ مِنَ الحَضْرَةِ

كِتَابٌ بِهِ مَاءُ الحَيَاةِ وَنَقْعِهِ الحَـ يَا فَكَأنِّي إذْ ظَفرْتُ بِهِ الخِضْرُ

فَوَقَفْتُ عِنْدَهُ مِنْهِ عَلى

عُقُودٍ، هِيَ الدُّرُ الذي أنْتَ بَحْرُهُ وَذَلِكَ مَا لا يَدَّعِي مِثْلَهُ البَحْرُ

وَرَتَعْتُ مِنْهُ في

رِيَاضِ يدٍ تَجْنِي وَعَيْنٍ وَخَاطِرٍ تَسَابَقَ فِيْهَا النُّورُ وَالزَّهْرُ وَالثَّمَرُ

وَكَرَعْتُ مِنْهُ في حِيَاضِ

تَسَرُّ مَجَانِيْهَا إذَا مَا جَنَى الظَّمَا وَتَرْوِي مَجَارِيْهَا إذَا بَخِلَ القَطْرُ

وَمَازِلْتُ مِنْهُ أُنْشِدُهُ

كَأنِّيَ سَارٍ في سَرِيرَةِ لَيْلَةٍ فَلَمَّا بَدَا كَبَّرتُ إذْ طَلَعَ الفَجْرُ[143]

ـ أنْ تَكـونَ البِدَايَةُ بِالجُمْلَةِ النَّثريَّةِ، يَعْقُبُهَا شَـطْرٌ مَنْظُومٌ، وَيَتَكَرَّرُ هَذَا البِنَاءُ عَلى مَدَارِ النَّصِّ؛ لِيَكْشِفَ عَنْ نَصٍّ صَدْرُهُ مَنْثُورٌ، وَعَجُزُهُ مَوْزُونٌ مُقَفًّى؛ كَهَذَا النَّصِّ الذي يَسْتَهلُّهُ القَاضِي الفَاضِل، عَلى هَذَا النَّحْوِ:

وَصَلَ كِتَابُ مَوْلايَ بَعْدَمَا.... أجَابَ المُنَادِي للصَّلاةِ فَأعْتَمَا

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ لَدَيَّ......... تَجَلَّى الذي مِنْ جَانِبِ البَدْرِ أظْلَمَا

فَقَرَأتُهُ............. بِعَيْنٍ إذَا اسْتَمْطَرْتُهَا أمْطَرَتْ دَمَا

وَسَاءَلْتُهُ........... فَسَاءَلْتُ مَصْرُوفًا عَنِ النُّطْقِ أعْجَمَا

وَلَمْ يَرُدّ جَوَابًا، .... وَمَاذَا عَلَيْهِ لَوْ أجَابَ المُتَيَّمَا؟

وَرَدَّدْتُه قِرَاءَةً، .... فَعُوجِلْتُ دُونَ الحِلْمِ أنْ أتَحَلَّمَا

وَحَفِظْتُهُ، .... كَمَا يَحْفَظُ الحُرُّ الحَدِيثَ المُكَتَّمَا

وَكَرَّرْتُهُ، .... فَمِنْ حَيْثُ مَا وَاجَهْتُهُ قَدْ تَبَسَّمَا

وَقَبَّلْتُهُ، .... فَقَبَّلْتُ دُرًّا فِي العُقُودِ مُنَظَّمَا

وَقُمْتُ لَهُ، .... فَكُنْتُ بِمَفْرُوضِ المَحَبَّةِ قَيِّمَا

وَأخْلَصْتُ لِكِتَابِهِ، ....وَلَيْسَ عَلى حُكْمِ الحَوَادِثِ مُحْكَمَا

وَلَمْ أصَدِّقْهُ !......... وَلَكِنَّهُ قَدْ خَالَطَ اللحْمَ وَالدِّمَا

وَأرَّخْتُ وُصُولَهُ، .... فَكَانَ لأيدِي الوَسائِمِ مَوْسِمَا

وَشَفَيْتُ بِهِ غَلِيلَ...... فُؤَادٍ أُمَنِّيهِ وَقَدْ بَلَغَ الظَّمَا

وَدَاوِيتُ عَلِيلَ...... حَشَا ضَرَّ مَا فِيهِ مِنَ النَّارِ ضَرَّمَا(١٤٤)

وَكَانَ بَدِيعُ الزَّمَانِ الهَمَذَانِيُّ قَدْ سَبَقَ القَاضِي الفَاضِل إلى هَذَا الشَّكْلِ، في هَذَا النَّصِّ؛ الَّذي كَتَبَهُ، لأبي بكرٍ الخُوَارِزْمِيِّ عِنْدَ قُدُومِهِ

عَليه بِنَيْسَابُور، وَكَانِ قُطَّاعُ الطَّريقِ مِنَ الأعْرَابِ قَدْ سَلَبُوهُ مَالَهُ وثِيَابَهُ:

أَنَـا لِقُرْبِ الأُسْـتَاذِ أَطَالَ اللّٰهُ بَقَاءَهُ كَمَا طَرِبَ النَّشْـوانُ مَالَتْ بِهِ الخَمْرُ

وَمِـنَ الارْتِيـاحِ لِلِقَائِـهِ كَمَـا انْتَفَـضَ العُصْفُـورُ بَلَّلَـهُ القَطْـرُ

وَمِـنَ الامْتِـزَاجِ بِوَلائِـهِ كَمَـا التَقَـتْ الصَّهبَـاءُ وَالبَـارِدُ العَـذْبُ

وَمِـنْ الابْتِهَاجِ بِمَرْآهُ كَمَا اهْتَزَّ تَحْـتَ البَارِحِ الغُصْنُ وَالرَّطْبُ[١٤٥]

غَسَقُ النَّثرِ الفَنِّيِّ

1 _

النَّثرُ الفَنِّيُّ في آخرِ مَوْجَاتِهِ المُبْدعَةِ

لَقَدْ حَقَّقَ النَّثْرُ الفَنِّيُّ عِنْدَ الحَريريِّ أقْصَى تَحَقُّقَاتِهِ الإبْداعيَّة؛ بِحَيْثُ ظَلَتْ مُغَامَرَاتُ الحَريريِّ وَآليَاتُهُ التي ارْتَادَهَا، تَقَاليدَ أسَاسِيَّة لِصِنَاعَة الكِتَابَةِ الفَنِّيَّة عَبْرَ القُرُونِ التَّاليَةِ، وَلَمْ تَظْهَرْ قِمَّةٌ أخْرَى بَعْدَ الحَريريِّ قَادرَةً عَلى الإدْهَاشِ بِالجَديْدِ دَائِمًا، دَاخِلَ الإطَارِ العَامِ لِلصِّنَاعَة الأدَبيَّة الزُّخْرفيَّة الهَنْدَسِيَّة، وَتُشَكِّلُ كُلُّ الإسْهَامَات التَّاليَةِ دَائرَةً كَبيرَةً غَامِرَةً وَحَاشِدَةً، يَطُوفُ فِيْهَا كُلُّ آتْ، حَتَّى فِي الأنْدَلُسِ وَفي مِصْرَ؛ فَفِي الأنْدَلُسِ تَكَرَّرتْ الآليَّاتُ نَفْسُهَا _ الَّتي بَدَأتْ مُنْذُ القرنِ الرَّابع الهِجْريِّ، وَوَصَلَتْ إلى أقْصَاهَا عِنْدَ الحَريريِّ _ بِحَذَافيرِهَا في مَدَارَاتِ النَّثرِ الفَنِّيِّ الأنْدَلُسِيِّ؛ بحيثُ جَاءَتْ إنْجَازَاتُهَا الإبْدَاعيَّةُ خَاضِعَةً تَمَامًا، لِحَرَكَاتِ النَّثرِ الفَنِّيِّ المَشْرِقِيِّ وَتَجليَّاتِهِ، وَيَتَّضِحُ ذَلكَ في إبْدَاعَاتِ

النَّثرِ الفَنِّيِّ عِنْدَ كُلٍّ مِنَ ابْنِ زَيدون (ـ 463هـ)، وَابْنِ خَفَاجَةَ الأَنْدَلِسيِّ (ـ 538هـ)، وَلِسَانِ الدِّينِ بنِ الخَطِيبِ (ت مقتولاً 776هـ)، وَأبي عَامِرٍ أَحْمَدَ بنِ عَبدِ الملكِ بن شُهَيدٍ (ـ 426هـ)، وَقَدْ أَقَرَّ ابْنُ بَسَّام (ـ 541هـ) بِهَـذِهِ الحَقيقَةِ، في مُقَدِّمَةِ «الذَّخِيرَةِ»؛ حِينَ أَوْضَحَ أَنَّهُمْ « أَبَوَا إلاَّ مُتَابَعَةَ أَهْلِ الشَّرْقِ، يَرْجِعُونَ إلى أَخْبَارِهِمْ المُعْتَادَةِ، رُجُوعَ الحَديثِ إلى قَتَادَةَ، حَتّى لَوْ نَعَقَ بِتِلكَ الآفَاقِ غُرَاب، أَوْطَنَّ بِأَقْصَى الشَّامِ وَالعِرَاقِ ذُبَاب، لَجَثَوا عَلى هَذَا صَنمًا، وَتَلَوا ذَلكَ كِتَابًا مُحْكَمًا.»[146]

وَابْنُ بَسَّام، نَفْسُهُ، وَضَعَ كِتَابَهُ «الذَّخِيرَةِ» مُتَمَثِّلاً مَنْهَجَ الثَّعَالِبي (ـ 429هـ) في «يَتِيْمَةِ الدَّهْرِ»، وَالوَاقِعُ أَنَّ الأَنْدَلُسِيِّينَ لَمْ يُضِيْفُوا جَدِيدًا ـ مِنَ النَّاحِيَةِ الكَيْفِيَّةِ إلى الإِنْجَازَاتِ المُتَحَقِّقَةِ للنَّثرِ الفَنِّيِّ الشَّرقِيِّ، فَقَط هُمْ وَسَّعُوا المَجْرَى الرَّئِيسيِّ، وَكَانُوا رَافِدًا مِنْ رَوَافِدِهِ، وَلَمْ يُنْشِئوا نَهْرًا جَدِيدًا مُسْتَقِلاً ـ كَمَا لاحَظَ أحمد أمين (1886 ـ 1954)[147].

وَهوَ مَا حَدَثَ، كَذَلِكَ، في مِصْرَ؛ التي شَهَدَتْ انْطِلاقَ النَّثرِ الفَنِّيِّ، في مَدَارَاتِهَا الإِبْدَاعِيَّةِ اعْتِبَارًا مِنَ القَرْنِ الثَّالِثِ الهِجْرِيِّ؛ حِيْنَمَا أَسَّسَ أحمدُ بن طولون (ـ 270هـ) بِهَا، دِيْوَانَ الإِنْشَاءِ: (دِيْوَانَ الرَّسَائِلَ)؛ فَبَزَغَ فِيْهِ نَجْمُ (ابْنِ عَبْدِ كَان)؛ فَكَانَ إِنْشَاءُ دِيْوَانِ الإِنْشَاءِ إِيْذَانًا بِبِدَايَةِ حَرَكَةٍ أَدَبِيَّةٍ عَفِيَّةٍ؛ تُنَاظِرُ وَتُوَازِي مَا يَحْدُثُ في بَغْدَادَ وَدِمَشْقَ، وَكَانَ تَشْجِيعُ ابْنِ طُولُونَ وَرِعَايَتُهُ لِلكُتَّابِ حَافِزًا عَلى اسْتِقْطَابِ العَدِيدِ مِنَ كُتَّابِ العِرَاقِ، وَهوَ مَا سَاهَمَ في تَرْسِيْخِ النَّثرِ الفَنِّيِّ بِمِصْرَ، وَبَرَزَتْ أَسْمَاءٌ مُبْدِعَةٌ، بَعْدَ ابْنِ عَبْدِ كَان، كَانَ مِنْ أَهَمِّهَا: القَاضِي الفاضِلِ (519 ـ 596هـ)، وَالعِمَادُ الأَصْفَهَانِي (519 ـ 597هـ)، فِي العَصْرِ الأيوبِيِّ، ثُمَّ مُحْيِي الدِّينِ بنُ عبدِ الظَّاهِرِ (ـ 692هـ)، وَابْنُ نَبَاتَة

المِصْريِّ (686 ـ 768هـ) في عَصْرِ المَمَالِيك، وَيُعَدُّ القَاضِي الفَاضِل، بِحَقٍّ، أبْرزَ مُبْدِعي النَّثرِ الفَنِّيِّ ـ بَعْدَ الحَريريِّ ـ بِطَريقَتِهِ التي تَوَسَّعتْ في الوَشْي البَدِيعيِّ وَالبَيَانِ؛ غَيْرَ أنَّنَا نُلاحِظُ هُنَا، مَا لاحَظنَاهُ عَلى النَّثرِ الفَنِّيِّ الأنْدَلُسِّي؛ وَهُوَ أنَّ هَذِهِ الأسْمَاءَ المُبْدِعَةَ ـ وَسِوَاهَا ـ سَاهَمَتْ في تَرْسِيْخِ النَّوعِ الإبْدَاعيِّ للنَّثرِ الفَنِّيِّ، وَلَمْ تَتَجَاوَزْ حُدُودَهُ إلى شَكلٍ آخَرٍ؛ وَبِالتَّالي عَمَّقَتْ المَجْرَى الأسَاسِّي الطَّويلَ، وَشَكَّلَتْ رَافِدًا مُهِمًّا لَهُ؛ غَيْرَ أنَّهَا ـ في الوَاقِعِ ـ لَمْ تَصْنَعْ نَيْلًا جَديدًا، وَبِهَذَا شَكَّلَتْ التَّجَاربُ الهَائِلَةُ للنَّثرِ الفَنِّيِّ فَضَاءً أسَاسِيًّا كبيرًا، شَارَكَ الجَمِيْعُ في صِيَاغَةِ مَلامِحِهِ، وَتَحْديدِ قَسَمَاتِهِ، وَالحِفَاظِ عَلى هَويَّتِهِ، وَتَرسِيْخِ اسْتِرَاتِيْجيَّاتِهِ الإبْدَاعيَّةِ، عَلى امْتِدادِ الخَرِيطَةِ العَرَبيَّةِ المُتَرَامِيَةِ الأطْرَافِ، وَامْتَدَّ كَذَلكَ في رَحَابَةِ التَّاريخِ، وَكَمَا شَكَّلَ شَكْلُ القَصِيدَةِ العَرَبيَّةِ شَكْلَ الشِّعرِ العَرَبيِّ الوَحِيْدِ، قُرُونًا طَويلَةً، ظَلَّ شَكْلُ النَّثرِ الفَنِّيِّ شَكْلَ الكِتَابَةِ الفَنِّيَّةِ النَّثريَّةِ، الوَحِيْدَ، في المَشْهَدِ الإبْداعيِّ العربيِّ، وَشَأنَ كُلِّ شَيءٍ في الدَّولَةِ الإسْلاميَّةِ، أُصِيْبَ النَّثرُ الفَنِّيُّ بِالضَّعفِ وَالهُزَالِ، أثنَاءَ العَصْرِ العُثْمَانيِّ (923 ـ 1213هـ) لِمُدَّةٍ تَتَجَاوزُ الثَّلاثَةَ قُرُونٍ، عَلى أيْدِي الأتْرَاكِ العُثْمَانِيينَ، حَتَّى بَدَأ يَنْهَضُ مِنْ كَبْوَتِهِ، في طَلائِعِ القَرْنِ التَّاسِعَ عَشَرَ، وَالرُّبْعِ الأوَّلِ مِنَ القَرْنِ العِشْرينَ، على أيْدِي جِيْلِ الحَمْلَةِ الفَرنْسِيَّةِ على مِصْرَ مِنَ الكُتَّابِ المِصْرِيِّينَ، وَجِيْلِ الثَّوْرَةِ العُرَابيَّةِ، في حُضُورٍ مُوَازٍ لِحُضُورِ مَدْرَسَةِ البَعْثِ وَالإحْيَاءِ في الشِّعرِ العَرَبيِّ، وَيَأتي في طَلِيْعَةِ هَذَينِ الجِيْلَيْنِ: عبدُ الرَّحمن الجَبَرتِي (1754 ـ 1825)، وَالشَّيخُ حسن العَطَّار (1766 ـ 1853)، وَعبدُ اللّهِ فِكري (1843 ـ 1889)، وَعبدُ اللّهِ النَّديم (1845

ـ 1896)، وإبراهيم اليَازجيُّ (1874 ـ 1906)، وَالإمامُ مُحمَّد عبده (1849 ـ 1905)، وَحِفنـي نَاصِف (1860 ـ 1919)، وَمُحمَّد المُوَيْلِحي (1858 ـ 1930)، وَمُحمَّد توفيق البَكْري (1870 ـ 1932)، وَأحمدُ شَوقي (1868 ـ 1932)، وَحَافِظ إبراهيم (1872 ـ 1932).

وَمِنْ ذَلكَ نَقرَأُ، لِعبدِ الرَّحمن الجَبَرتِي[148]، تَحْتَ عُنوان: «وَصْل: مِنْ نَصَائِحِ الرَّشَادِ لِمَصَالِحِ العِبَادِ» قَوْلَهُ:

«اعْلَمْ أنَّ سَبَبَ هَلاكِ المُلُوكِ اطِّرَاحُ ذَوي الفَضَائِلِ، وَاصْطِنَاعُ ذَوي الرَّذَائِلِ، وَالاسْتِخْفَافِ بِعِظَةِ النَّاصِح، وَالاعْتِزازُ بتَزْكِيَةِ المَادِحِ، مَنْ نَظَرٍ في العَوَاقِبِ، سَلِمَ مِنَ النَّوائِبِ، وَزَوالُ الدُّولِ، باصْطِنَاعِ السُّفَّلِ، وَمَنْ اسْتَغْنَى بعَقْلِهِ ضَلَّ، وَمَنْ اكْتَفَى بِرأيهِ زَلَّ، وَمَنْ اسْتَشَارَ ذَوي الألبَابِ، سَلَكَ سَبيلَ الصَّوَابِ، وَمَنْ اسْتَعَانَ بذَوي العُقُولِ، فَازَ بِدَرَكِ المَأمُولِ، مَنْ عَدَلَ في سُلْطانهِ، اسْتَغْنَى عَنْ أعْوَانهِ.»[١٤٩]

وَمِنْ ذَلكَ، أيْضًا، هَذِهِ الرِّسَالةِ الإخوانيَّة للشَّيخ حَسَن العَطَّار[150]:

«أخِي الذي انْتَثَرَ عِقْدُ نِظَامِي مَعَه، وَصَاحَ غُرَابُ البَيْنِ عَلَى مَجْمَعِ شَمْلِنَا فَصَدَعَه. قَدْ كُنْتُ أظُنُّ أنَّ الأيَّامَ لاتَزَالُ لنَا بَاسِمَة، وَرِيَاحَ المَسَرَّاتِ بنَادي جَمْعِنا نَاسِمَة، فَإذَا أنَا مُكَلِّفُ الأيَّامَ ضِدَّ طِباعِهَا، وَمُتَشَبِّثُ مِنْهَا بِخِلافِ أوْضَاعِهَا، وَمَعَ ذَلكَ فأنَا لا آيسُ مِنَ اجْتِمَاعٍ بَعْدَ فُرْقَة، وَمَسَرَّةٍ تَحْصُلُ وَإنْ طَالَتْ المَشَقَّة، وَبَعُدَتِ الشُّقَّة، وَتَأجَّجَتْ الحُرْقَة.

وَقَدْ يَجْمَعُ اللّٰهُ الشَّتِيْتَينِ بَعْدَمَا يَظُنَّانِ كُلَّ الظَّنِ أنْ لا تَلاقِيَا

فالْحَمْدُ للّٰهِ عَلى آلائِه، وَالشُّكْرُ لَهُ عَلى قَضَائِه، وَعَسَى تَعُـودُ هَذهِ الأَيَّامُ التي جَرَتْ إليهَا شَـوَابقُ الأَمَانِي مُطْلَقَاتِ الأَعِنَّة، وَأبْرَزَتْ الأَقْدَارُ فيْهَا مِنَ الآمَالِ مَا كَانَ سَـاكِنًا كَالأَجِنَّة.حَقَّـق اللّٰهُ ذَلِكَ المَرْجُـوَّ وَالمَأمُول، وَأنْعَمَ بذلكَ المُتَمَنَّي وَالمَسْـئُول، وَنَسْألُ اللّٰه تَعَالَى أنْ تَكونَ شَمْسُهَا دَائِمَاتٍ مُشْـرِقَةَ الأَنْـوَار، وَأنْ تَكونَ هَـذِهِ الجُمْلَةُ لِلدَّوَامِ وَالاسْتِمْرَار.»[١٥١]

وَمِنْ ذَلكَ، أيْضًا، هَذِهِ الرِّسَالةُ الإخوانيَّةُ لِعبدِ اللّٰهِ فكري[152]:

«سَـلامٌ يُعبِّرُ عَن الوِدَادِ طِيْبُ عَبيْـرِهِ، وَيُخْبِرُ عَنْ إخْلاصِ الفُؤادِ لُطْفُ تَعْبيْرِهِ، وَثَنَاءُ مَحَاسِنِ تلكَ الشَّمَائِل، أرَقُّ مِنْ نَسَـمَاتِ الشَّـمَائِل، وَتحيَّةُ بَهِيَّةُ تُبَاهِي الخَمَائل، بنَفَحَاتِ أوْرَادِهَـا، وَأدْعيـةُ مُرْضِيَّةٌ جَعَلَتْهَا الألسِـنَةُ خَيْرَ أوْرَادِهَا، وَسُؤالٌ عَن المِزَاجِ الزَّاهِر، وَصِحَّةِ الخَاطِرِ البَاهِر، لا زلْتُمْ مَحَلَّ نِعْمَـةٍ يتَّصِلُ عَلى مَدَى الأَيَّامِ بَقاؤهَا، وَيزيْدُ عَلى مَرِّ الشُّـهورِ وَالأَعْوامِ بَهاؤهَا، وَلا بَرِحَتْ ثُغُورُ الإقبَالِ إليكُمْ بَواسِـم، وَريَاحُ الآمَالِ لَديكُمْ نَواسِـم، وَبَعْـدُ فَإنَّ بِي مِنَ الأشْـوَاق، مَـا تَضْعُـفُ عَنْ حَمْلِـهِ إلى حِمَاكُـم الأوْرَاق، وَمِنَ التَّأسُـفِ عَلـى مَا حُرِمْتُهُ مِنْ لُقْيَاكُـمْ، وَالتَّلهُفِ إلى مُطالَعَـةِ أنْـوارِ مُحَيَّاكُـمْ، مَـا يَقْصُـرُ عَـنْ وَصْفِهِ لِسَـانُ اليَرَاعَـة، وَيَقْصُـرُ دَوْنَ وَصْفِهِ بَيانُ البَرَاعَـة، وَيَضيْقُ عَنْهُ نِطَاقُ العِبَارَة، وَلا يَنْفَسِحُ لَهُ مَيْدَانُ الإشَارَة.»[١٥٣]

وَمِـنْ ذَلِـكَ، أيْضًـا، هَذَا النَّـصُّ، لِعَبـدِ اللّهِ النَّديمِ[154]، يُـردِفُ فيهِ السَّجْعَةَ بالآيَةِ القُرآنيَّةِ:

«لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ باللّه، اشْتَبَه المُرَاقِبُ باللاَّه، وَاسْتُبْدَلَ الحُلْوُ بالمُرّ، وَقُدِّمَ الرَّقيقُ عَلى الحُرّ، وَبيْعَ الدُّرّ بالخَزَف، وَالخَـزُّ بالخَشَـف، وَأظْهَـرَ كُلُّ لئيْمٍ كِبْـرَه، إنَّ في ذَلكَ لَعبْرَة: سَـمْعًا سَـمْعًا؛ فَالوشَاةُ إنْ سَـعَوا لا يعْقِلُوا، وَيُحبُّونَ أنْ يُحْمَدُوا بِمَا لمْ يَفْعَلُوا، فَكَيْفَ تَشْـتَرُونَ مِنْهُمْ القَارَ فـي صِفَـةِ العَنْبَر، وَقَدْ بَـدَتْ البَغْضَاءُ مِنْ أفْوَاهِهِـمْ وَمَا تُخْفـي صُدُورُهُمْ أكْبَر؟، وَكَيْفَ تَسْـمَعُ الأحْبَابُ لِمَنْ نَهى مِنْهُمْ وَزَجر، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأنْباءِ مَا فيْهِ مُزْدَجر؟، عَجِبْتُ لَهُمْ وَقَدْ دَخَلُوا دَارَنَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُون، فَلَمَّا أحَسُّـوا بَأسَـنَا إذَا هُـمْ مِنْهَـا يَرْكُضُـون!. وَأنْتَ يَـا عَزيْزَ العَلْيَـا، وَوَحِيْدَ الدُّنْيَـا، قَـدْ بَيَّنْـتُ لَكَ فِعْلَهُـمْ، فَبِمَـا رَحْمَةٍ مِـنَ اللّه لِنْتَ لَهُـمْ، وَلكنَّهُمْ طَمَعُوا فـي عَميْمِ طَوْلِكَ، وَلَـوْ كُنْتَ فَظًّا غَليْظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِك، أتَرَاهُمْ يَعْقِلُونَ كَلامَكَ أمْ يَفْهَمُـون؟، لَعَمْـرُوكَ إنَّهُمْ لَفِي سَـكْرَتِهِمْ يَعْمَهُون، لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَدْرُون بِهَا لِلْحَسَـدِ قَرَارا، لَو اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُم فِرَارا، كَيْفَ يَسْـعَي العَاذِلُ بَيْـنَ النَّديمِ وَإلْفِه، وَقَدْ خَلَـتْ النُّذُرُ مِـنْ بَيْنِ يَدَيْه وَمِـنْ خَلْفه، فَيَا سَـادَتـي دَعُونـي مِـنَ المُعْجِـبِ وَالمُطْـرِب، لَيْسَ البِـرَّ أنْ تُوَلُّـوا وُجُوهَكُمْ قِبَـلَ المشْـرقِ وَالمَغْرب، وَاجْعَلُوا سَـيْفَ ثَبَاتِكُـمْ لِلعُذَّالِ مَسْـلُولا، وَأوْفُوا بِالعَهْدِ إنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْـئُولا، فَإنَّهُمْ إنْ

قَالُوا كَذِبَ النَّديمُ أَوْ بَطِر، فَسَـيَعْلَمُونَ غدًا مَنِ الكَذَّابُ الأشِر، وَهَا قَدْ صَارَ أَمْرُ الحِزْبَيْنِ مِنْكَ جَلِيًّا، أَيُّ الفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وأَحْسَنُ نَدِيًّا، أَتَظُنُّ عَهْدَ العَاذِلِ عِنْدَ غَضَبِكَ لا يُنْكَـث؟، مَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إنْ تَحْمِلْ عَليْه يَلْهَث، إنَّهُ لَكُـمْ عَـدوٌّ كَبيْر، فَفِـرُّوا إلى اللّهِ إنِّي لَكُـمْ مِنْهُ نَذِيْر، فَإنَّـهُ جَمَـعَ لِقتَالِـكَ الأوْلادَ والأحْفَـاد، وَآخَريْـنَ مُقَرَّنيْـنَ فــي الأصْفَـاد، تَركُوا أمْـرَ اللّهِ وَاشْـتَغَلُوا بمَـا يَرْضَوْنَه، فَأعْقَبَهُمْ نِفَاقًا في قُلُوبهِمْ إلى يَوْمِ يَلْقَوْنَه.» (١٥٥)

وَمِنْ ذَلكَ، أيْضًا، هذِهِ الرِّسَالةُ الإخْوَانيَّةُ، للشَّيخ إبراهيم اليَازجِي[156]:

«مَـنَ عَلِمَ أَنَّ القَضَاءَ وَاقِع، وَأَنَّ الأعْمَارَ رَهائِنُ المَصَارِع، فَلَمْ يَصْحَبْ دَهْرَهُ عَلى غَيْره، وَلَمْ يَفْتُرْ مِنَ الأقْدَارِ بِفَتْرَة، لَـمْ تَكْبُـرْ عَليْـه الرَّزئيَّـةُ إذَا اغْتَالَـتْ؛ وَلَـمْ يَطمَئِـنْ إلــى السَّــلامَةِ وَإنْ طَالَـتْ؛ فإنَّ لِلدَّهْـرِ رَقْدَةً وَهَبَّـة؛ وَإنَّ لليالي كَمْنَـةً وَوَثْبَة. وَمِثْلُكَ مَـنْ أَدْرَكَ مَبَادِئَ الأُمُورِ وَمَصَايرَهَا؛ وَعَـرفَ مَوَارِدَ الحَيَـاةِ وَمَصَادِرهَا، وَإنَّمَا المَـوْتُ طَوْرٌ مِنْ أطْـوَارِ الوجُـود؛ وَآخِـرُ أعْمَـالِ الحَيَـاةِ في المَوْجُـود؛ وَلا أُزيْـدُكَ عِلْمًا بالكَوْنِ وَشَـرَائِعِه؛ وَالكَائِنِ وَطَبَائِعه؛ إنَّمَا هِيَ ذِكْرَى لِمَنْ فَجَأَهُ الرُّزْءُ فَشَغَله؛ وَحَلَّ بِسَاحَتِهِ القَضَاءُ فَأَذْهَلَه، وَحَسْـبِي مِنَ التَّعزيَةِ عِلْمِي بِمَـا عِنْدَكَ مِنْ مَوَارِدِ العِلْـمِ المُبَـاح، وَمِنَ التَّأسِـيَةِ مَا تَعْلمُهُ مِنْ حَـالِ مُخَاطِبكَ وَهُوَ سَـائِلُ الجِـرَاح؛ وَمَا اخْلفَنِي بِأَنْ أقُـولَ: إنَّ رُزْءَكَ هَذا قَدْ زَادَنِي شَـجَنًا عَلى أشْـجَانِي؛ وَنَكَأَ مَا تَمَاثَلَ مِنْ قُرْحَةِ

أحْزانِي؛ وَلكنِّي قَدْ صَيَّرَنِي الدَّهرُ إلى حَالٍ لا تَعْمَلُ فِيْهَا حَال، وَلا أُبَالِي مَعَهَا بِسَلْمٍ وَلا قِتَال.»[١٥٧]

وَمِنْ ذَلِكَ؛ أيْضًا؛ وَصْفُ الإمَامِ مُحمَّد عبده[158] كِتَابَ «نَهجِ البَلاغَةِ»؛ وَمِنْهُ:

«..فَتَصَفَّحْتُ بَعْضَ صَفَحَاتَه؛ وَتَأمَّلْتُ جُملاً مِنْ عِبَارَاتِه؛ فِي مَوَاضِعَ مُخْتَلفَات؛ وَمَوَاضِيْعَ مُتَفَرِّقَات؛ وَكَانَ يُخيَّلُ لِي فِي كُلِّ مَقَامٍ أنَّ حُرُوبًا شَبَّتْ؛ وَغَارَاتٍ شُنَّتْ؛ وَأنَّ لِلبَلاغَةِ دَوْلَةً؛ وَلِلفَصَاحَةِ صَوْلَةً؛ وَأنَّ لِلأوْهَامِ عَرَامَةً؛ وَلِلرِّيَبِ دِعَامَةً؛ وَأنَّ جَحَافِلَ الخَطَابَةِ؛ وَكَتَائِبَ الزَّرَابَة؛ فِي عُقُودِ النِّظَامِ؛ وَصُفُوفِ الانْتِظَامِ؛ تُنَافِحُ بِالصَّفيْحِ الأبْلَجِ؛ وَالقَوِيْمِ الأمْلَجِ؛ وَتَمْتَلِجُ المُهَجَ؛ وَبرَوَائعِ الحُجَجِ؛ تفلُّ دَعَارَةَ الوَسَاوِسِ؛ وَتُصِيْبُ الخَوَانِسِ.»[١٥٩]

وَمِنْ ذَلِكَ، أيْضًا، رِسَالةُ حِفني نَاصِف[160]، إلى السَّيدِ مُحمَّد توفيق البَكْري؛ التي مِنْها:

«زُرْتُ السَّيِّدَ وَيَعْلَمُ اللّٰهُ شَوْقِي إلى لِقَائِه؛ كَحِرْصِي على بَقَائِه؛ وَكَلَفِي بِشُهُودِه، كَشَغَفِي بوجُودِه؛ فَقَدْ بَعُدَ وَاللّٰهِ عَهْدُ التَّلاق، وَطَالَ أمَدُ الفِرَاق؛ وَتَصَرَّمَ الزَّمَان؛ وَأنَا مِنْ رُؤْيَتِه فِي حِرْمَان؛ قِيلَ لِي: إنَّه خَرَجَ لِتَشْيِيعِ زَائِر، وَهُوَ عَمَّا قليْلٍ حَاضِر، فَانْتَظَرْتُ رُجُوعَه، وَتَرَقَّبْتُ طُلُوعَه، وَلَمْ أزَلْ أُعِدُّ اللحَظَات، وَأسْتَطِيْلُ الأوْقَات، حَتَّى بَزَغَتِ الأنْوَار، وَارْتَجَّ صَحْنُ الدَّار، وَظَهَرَ الاسْتِبْشَار، عَلَى وُجُوهِ الزُّوَّار،

وَجاءَ السَّيدُ في مَوْكِبهِ، وَجلالَة مِحْتدِه وَمَنْصِبِه، فَقُمْنَا لاسْتِقْبَالِه، وَهَيْنَمْنَا بكَامِلِه، فَمَرَّ يتَعَرَّفُ وُجُوهَ القَومِ حَتَّى حاذَانِي، وَكَبَرَ عَلى عَيْنِه أنْ يَرانِي، فَغَادَرنِي وَمَنْ عَلى يَسَاري، وَأخَذَ في السَّلامِ عَلى جارِي.»[١٦١]

وَمِنْ ذَلكَ، أيْضًا، هَذَا النَّصُّ، لِمُحمَّد المُوَيْلِحي[162]، مِنْ كِتَابِه: «حديث عيسى بن هِشام»:

«جَلَسْنَا نَتَجَاذَبُ أطْرَافَ الحَديْث، مِنْ قَديمٍ في الزَّمَانِ وَحَديْث، إلى أنْ صَارَتْ الليلَةُ في أُخْريَاتِ الشَّبَاب، وَاسْتَهَانَتْ بالإزَارِ وَالنِّقَاب، ثَمَّ دَبَّ المَشَيْبُ في فَوْدِهَا، وَبَانَ أثَرُ الوَضْحِ في جِلْدِهَ، فَعَبَثَتْ بالعُقُودِ وَالقَلائد، مِنَ الجَوَاهِرِ وَالفَرائِد، وَنَزَعَتْ مِنْ صَدْرِهَا كُلَّ مَنْثُورٍ وَمَنْظُوم، مِنْ دُرَرِ الكَواكِبِ وَ اللآلِئِ النُّجُوم، وَألْقَتْ بالفَرْقَدَينِ مِنْ أُذُنَيهَا، وَخَلَعَتْ خَواتيمَ الثُّرَيَّا مِنْ يَدَيْهَا، ثُمَّ إنَّهَا مَزَّقَتْ جِلبَابَهَا، وَهَتَكَتْ حِجَابَهَا، وَبرزَتْ لِلنَّاظِرينَ عَجُوزًا شَمْطَاء، تَرْتَعِدُ مُتَوكِّئَةً عَلى عَصَا الجَوْزَاء، وَتُرَدِّدُ آخِرَ أنْفَاسِ البَقَاء، فَسَتَرَهَا الفَجْرُ بملاءَتِهِ الزَّرْقَاء، وَدَرَّجَهَا الصُّبْحُ في أرْدِيَته البَيْضَاء، ثُمَّ قَبَرَهَا في جَوْفِ الفَضَاء، وَقَامَتْ عَليْهَا بَنَاتُ هَديْل، نَائِحَةً بالتَّسْجيْعِ وَالتَّرتِيْل، ثُمَّ انْقَلَبَ المَأتَمُ في الحَالِ عُرْسَ احْتِلاء، وَتَبَدَّلَ النَّحيْبُ بالغِنَاء، لإشْرَاقِ عَروسِ النَّهَار، وَإسْفَارِ مَليكَةِ البُدُورِ وَالأقْمَار.»[١٦٣]

وَمِـنْ ذَلِـكَ، أيْضًا، هَـذَا النَّـصُّ، لِمُحمَّد توفيـق البَـكْـري[164] مِنْ كِتَابِهِ: «صَهَاريجِ اللؤلؤ»:

«ثُـمَّ إذَا غَابَ الهِلال، وَتَوَارَى الحِجَال، ألْفَيْتَ الكَوْنَ مِنَ السَّـوادِ في لَبُوسِ حَديـدِ أوْ لِبَاسِ حِـدَاد، وَكَأنَّمَا المَاءُ سَـمَاء، وَكَأنَّ السَّـمَاءَ مَـاء، وَكَأنَّ النُّجُـومَ دُرّ، يَمُـوجُ فِـي بَحْـر، أوْ ثُقُوبٌ فِـي قُبَّةِ الدَّيجُـور، يَلُـوحُ مِنْهَا النُّور، أوْ سِـكَاكُ دِلاص، أوْ فِلَـقُ رَصَـاص، أوْ عُيُونُ جَرَاد، أوْ جَمْـرٌ في رَمَـاد، أوْ المَاء، صَفَائِحُ فِضَّةٍ بَيْضَاء، سُـمِّرَتْ بِمَسَـامِيرَ صِغَار، مِنْ نُضَـار، فَلا تَفْتَأُ السَّـفِيْنَةُ تُكابِدُ الوَيْـل، مِـنَ البَحْرِ وَالليْـل، حَتَّى يَلُوحَ مِنَ الأُفْـقِ الضِّيَاء، كَابْتِسَامِ الشَّفَةِ اللمْيَاء، فَإذَا السَّفِيْنَةُ كَأنَّهَا سِرٌّ كَتَمَهُ الظَّلام، وَكَشَفَهُ الضِّرَام.»[١٦٥]

وَمِـنْ ذَلِـكَ، أيْضًـا، هَذَا النَّـصُّ، لأحمد شَـوقي[166]، مِـنْ كِتَابِهِ: «أسْوَاق الذَّهَب»:

«وَمَا أنْتِ يَا أهْرَام؟، أشَـوَاهِقُ أجْرَام، أمْ شَـوَاهِدُ إجْرَام؟، وَأوْضَـاحُ مَعَالِـم، أمْ أشْـبَاحُ مَظَالِـم؟، وَجلائِـلُ أبْنِيـةٍ وَآثَـار، أمْ دَلائِـلُ أنَانِيـةٍ وَاسْـتِئْثَار؟، وَتِمْثَـالٌ مُنَصَّـبٌ مِنَ الجَبْرِيَّـة، أمْ مِثَالٌ ضَاحٍ مِـنَ العَبْقَرِيَّة؟، يَا كَلِيْلَ البَصَر، عَنْ مَوَاضِعِ العِبَر، قَلِيْـلَ البَصَر، بِمَوَاقِعِ الآيَاتِ الكُبَر، قِفْ نَاجِ الأحْجَارَ الدَّوَارِس، وَتَعَلَّمْ فَإنَّ الآثَارَ مَدَارِس؛ هَذِهِ الحِجَـارَةُ حُجُورٌ لَعِبَ عَليْهَـا الأُوَل، وَهَذَا الصَّفَّاحُ صَفَائِحُ مَمَالِـكَ وَدُوَل، وَذَلِـكَ الـرُّكَامُ مِنَ الرِّمَال، غُبَـارُ أحْداجٍ

وَأَحْمَال، مِنْ كُلِّ رَكْبٍ أَلَمَّ ثُمَّ مَال.»[١٦٧]

وَمِـنْ ذَلـكَ، أيْضًا، هَذَا النَّصُّ لِحافظ إبراهيم[168]، مِنْ رِسَـالةٍ إلى الإمَام مُحمَّد عبده؛ يَسْـتَعْطِفُهُ فِيْهَا، أنْ يتَدخَّـلَ؛ لِيُخَلِّصَهُ مِنَ اضْطِهَادِ كَتْشِـنر؛ سِـرْدَار الجَيْشِ الإنْجليزيِّ المِصْريِّ في حَمْلَتِهِ على السُّـوَدان عَام 1894؛ حَيْثُ كَانَ حَافظ يَخْدمُ بِالجَيْشِ تَحْتَ قِيَادَتِهِ:

«كِتَابي إلى سَيِّدي، وَأنَا مِنْ وَعْدِهِ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالسَّلْسَبِيل، وَمِنْ تِيْهِي بهِ فَوْقَ النَّثْرَةِ وَالإكْلِيْل، وَقَدْ تَعَجلَّتُ السُّرُور، وَتَسَلَّفْتُ الحُبُور، وَقطَعْتُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّوائِب

وَبَشَّرْتُ أهْلِي بالَّذي قَدْ سَمِعْتُهُ فَمَا مِحْنَتِي إلَّا لَيَالٍ قَلائِلُ

وَقُلْتُ لَهُمْ لِلشَّيْخِ فِيْنَا مَشِيْئَةٌ فَلَيْسَ لَنَا مِنْ دَهْرِنَا مَا نُنَازِلُ

وَجَمَعْـتُ فيـه بَيْنَ ثِقَـةِ الزُّبَيْـديِّ بالصَّمْصَامَـة، وَالحَارِثِ بالنَّعَامَـة، فَلَـمْ أقُـلْ مَا قَـالَ الهُذَلِـيُّ لِصَاحِبِهِ حِيْنَ نَسِـيَ وَعْدَهُ، وَحَجَبَ رِفْدَهُ:

يَا دَارَ عَاتِكَةَ الَّتي أتَغَزَّلُ

بَـلْ أنَادِيـه نِـدَاءَ الأخِيـذَةِ فِـي عَمُّورِيَّـة، شُـجَاعَ الدَّولَـةِ العَبَّاسِـيَّةِ، وَأمُـدُّ صَوْتِـي بذِكْـرِ إحْسَـانه، مَـدَّ المُؤذِّنِ صَوْتَـهُ في أذَانه، وَأعْتَمِدُ عَليهِ في البُعْدِ وَالقُرْب، اعْتِمَادَ المَلاَّحِ على نَجْمَةِ القُطْب.

وَقَـالَ أُصَيْحَابي وَقَدْ هَالَني النَّوى وَهَالَهُم أمْرِي: مَتَى أنْتَ قَافِلُ

فَقُلْتُ: إذَا شَاءَ الإمَامُ فَأوْبَتِي قَرِيْبٌ، وَرَبْعِي بِالسَّعَادَةِ آهِلُ

وَهَأنا مُتَماسِكٌ حَتّى تَنْحَسِرَ هَذهِ الغَمْرَة، وَيَنْطَوي أجَلُ تِلكَ الفَتْرَة، وَيَنْظُرَ لي سَيِّدي نَظْرَةً تَرْفَعُني مِنْ ذاتِ الصَّدْعِ، إلى ذاتِ الرَّجْعِ، وَتَرُدُّني إلى وَكْري الّذي فيْهِ دَرَجْتُ رَدَّ الشَّمْسِ قَطْرَةَ المُزْنِ إلى أصْلِهَا، وَرَدَّ الوَفيِّ الأمَانَاتِ إلى أهْلِهَا.»(١٦٩)

وَهَكَذَا ظَلَّ النَّثْرُ الفَنِّيُّ مُحَافِظًا عَلى زَخَمِهِ اللغَوِيِّ، وَائْتِلاقِ تَعَابيرِهِ، وَهَنْدَسَةِ إيْقَاعَاتِهِ السَّجْعِيَّةِ، وَقِيَمِهِ التَّصويرِيَّةِ، وَمَوَازِيْنِهِ الدَّقيقةِ، قُرُونًا وَقُرُونًا، وَفي المُقَابِلِ كَانَ للنَّثْرِ الفَنِّيِّ المُرْسَلِ؛ القَائِمِ عَلى الازْدِوَاجِ وَتَنَاغُمِ الجُمَلِ وَتَوَازُنِ المَسَافَاتِ بَيْنَهَا، حُضُورٌ مَحْدُودٌ، إذَا قُورِنَ بِالنَّثْرِ الفَنِّيِّ المَسْجُوعِ، وَمِنْ أجْلَى آثَارِهِ المُعَاصِرَةِ مَا أنْشَأَهُ أحمد حسن الزَّيَّات(170) (1885 ـ 1968)؛ الَّذي بَدَا تَمَثُّلُهُ النَّثْرَ المُرْسَلَ في أصْفَى عُهُودِهِ وَأسْطَعِ تَجَلِّيَاتِهِ، وَكَانَ الزَّيَّاتُ ذَا رَنَّةٍ جَزْلَةٍ مُعَتَّقَةٍ، كَثِيفَةٍ، وَقُدْرَةٍ بَاهِرَةٍ عَلى الاصْطِفَاءِ اللغَوِيِّ، وَإقَامَةِ النَّسِيجِ الإيْقَاعِيِّ بِمَوَازِيْنَ هندسيَّةٍ دَقِيْقَةٍ، وَوَلَعٍ بِالاقْتِصَادِ اللغَوِيِّ المُشِعِّ، وَمِنْ ذَلكَ هَذَا النَّصُّ، مِنْ كِتَابِهِ: «مِنْ وَحْيِ الرِّسَالَة»:

«مَنْ السَّائِرونَ في شُحُوبِ الأَصِيْلِ عَلى حُدُودِ المَغْرِبِ، يُسْرِعُونَ الخُطَى كَأَنَّهُمْ هَارِبُونَ مِنَ النَّهَارِ، وَلا يَلْتَفِتُونَ إلى الخَلْفِ كَأَنَّهُمْ نَاجُونَ مِنْ سَدُوم؟، مَنْ السَّائِرُونَ بَيْنَ النُّورِ وَالظَّلامِ عَلى الدَّرْبِ الخَادِعِ المُبْهَمِ، يُخْفِقُونَ كَأطْيَافِ المَسَاءِ عَلى حَوَاشِي الطَّفْلِ، وَيَطْمِسُونَ الطَّرِيقَ مِنَ الوَرَاءِ حَتّى لا يَرْجِعُوا إلى الأَهْلِ؟، مَهْلاً سَاقَةَ الظَّعْنِ وَهُدَاةَ القَافِلَةِ!، سَتَرْحَلُونَ عَنْ وَطَنٍ إلى غُرْبَةٍ،

وَعَنْ وُلاةٍ إلى عَداوَةٍ، وَعَنْ أخْوَةٍ إلى سَادَةٍ.»[١٧١]

وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ الدَّارسِيْنَ إلى أنَّه «لَيْسَ التَّوازُنُ، وَتَنَاغُمُ الفِقْرَاتِ وَالجُمَلِ، هُوَ كُلُّ مَا يُقَرِّبُ أسْلوبَ الزَّيَّاتِ مِنَ الشِّعرِ، وَإنَّمَا هُنَاكَ الخَيَالُ وَحِدَّةُ العَاطِفَةِ وَاللفظُ العَذْبُ، وَالكَلِمَةُ الأنِيْسَةُ، وَعَلى الرَّغْمِ مِنْ حِرْصِ الزَّيَّاتِ في أسْلُوبِهِ عَلى الازْدِوَاجِ أو التَّوَزُنِ، فَإنَّهُ يَنْفُرُ مِنَ التَّرَادُفِ وَالحَشْوِ وَالتَّطويْلِ.»[172]

2 ـ

تَصَدُّعُ مَرْكَزِيَّة النَّثْر الفَنِّيِّ

مُنْذُ أواخِرِ القَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ بَدَأتْ تَهُبُّ عَلى المَشْهَدِ الأدَبيِّ رِيَاحُ التَّغييرِ؛ نَتِيْجَةً للاتِّصَالِ المُبَاشِرِ بِالحَضَارَةِ الأورُبيَّةِ؛ فَتَشَكَّلَ ـ تَدْرِيْجيًّا ـ مَوْقِفٌ مُضَادٌ لأسَاليبِ الكِتَابَةِ الفَنِّيَّةِ، التي اسْتَقَرَّتْ قُرُونًا وَقُرُونًا ـ مَعَ تَوَهُّجِ الحَضَارَةِ العَرَبِيَّةِ ـ فَبَدا النَّثْرُ الفَنِّيُّ في مُفْتَرَقِ طُرُقٍ؛ وَبَدَأ هَذَا المَوْقِفُ بَسِيْطًا؛ بِحَيْثُ لَمْ يَتَجَاوَزْ كَوْنه تَعْريفًا بِطَبيعَةِ الآدَابِ الأورُبِّيَّةِ الحَديثَةِ، وَفُنُونِهَا، وَمَذَاهِبِهَا؛ وَهُوَ مَا كَانَ يَسْتَحْضِرُ حَالَةَ الأدَبِ العَرَبِيِّ ـ حِيْنَئِذٍ ـ وَمُقَارَنَتِهِ بِالأدَبِ الأوربيِّ؛ وَبَدَأتْ تَظْهَرُ انْتِقَادَاتٌ مُتَوَالِيَةٌ لأسَاليبِ الكِتَابَةِ العَرَبِيَّةِ؛ حَدَثَ هَذَا في العِقْدِ الأخَيْرِ مِنَ القَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ ـ في (الهلال) تَحْديدًا ـ حَيْثُ بَدَأتْ الدَّعوةُ إلى الكِتَابَةِ «بِلُغَةٍ طَبِيْعِيَّةٍ سَهْلَةٍ»[173]، وَهَجْرِ التَّكلُّفِ العَقِيْمِ، وَكَانَ مِنْ أصْحَابِ هَذِهِ الدَّعْوةِ أديبُ إسْحَاق (1857 ـ 1885) الَّذي تَحَامَلَ عَلى

السَّـجْعِ وَالبَدِيْعِ وَالزُّخْـرفِ اللغَوِيِّ، وَلَمْ يَرَ في هَـذِه الصِّنَاعَةِ الفَنِّيَّةِ إلاَّ القُيـودَ المُكَبِّلَةَ لِلطَّبِيْعَـةِ؛ وَرَأى أنَّهَا لَمْ تُوْجَدْ عِنْـدَ العَرَبِ الأوَّلِينَ، وَلا فـي الآدَابِ الأُورُبِيَّةِ؛ وَعَـدَّ البَدِيْعَ كُلَّهُ مُجَرَّدَ تَمْوِيْـهٍ، وَرَبَطَ بَيْنَ ظُهُورِهِ وَعُصُورِ الانْحِطَاطِ؛ وَنَظَرَ إلى السَّـجْعِ بِاعْتِبَـارِهِ مُحَصِّلَةً لِفَقْرِ الإبْدَاعِ، وَأنَّـهُ لَمَّـا اسْـتَوْلَتْ العُجْمَـةُ عَلى الألسُـنِ، وَضَعُفَـتْ قُوَّةُ الاخْتِـرَاعِ في الأذْهَـانِ سَـرَى دَاؤهُ في المُكَاتَبَـةِ إلى هَذَا العَهْدِ؛ فَعَـدَلَ الكُتَّابُ عَنْ الكَلامِ الفَحْلِ، وَاللفْظِ السَّاذَجِ، وَالأسْلُوبِ الطَّبِيعِيِّ إلى هَذِهِ الأسْجَاعِ المُلَفَّقَةِ البَالِيَةِ، يَتَنَاقَلونَهَا خَلَفٌ عَنْ سَلَفٍ.(174)

كَمَـا اعْتَبَـرَ نقـولا فيَّـاض (1874 _ 1958) النَّثرَ المُرْسَـلَ أبْلَغَ مِنَ السَّجْعِ؛ «لِمَجِيْئِهِ عَفْوَ القَرِيْحَةِ، خَاليًا مِنْ شَوَائِبِ التَّعَمُّلِ الزَّائِدِ المُخِلِّ، وَأعَـمّ لِمُنَاسَـبَتِهِ لأيِّ مَوْضُوعٍ»(175)؛ غَيْرَ أنَّ ذَلِـكَ الإلْحَاحَ عَلى التَّغيِيرِ لَمْ يَنْشَـأْ _ فِي المُقَابِلِ _ لَدَى المُبْدعيْنَ الَّذينَ ارْتَحَلُوا إلى أوروبا وَتَعَرَّفُوا _ عَـنْ مُعَايَشَـةٍ _ عَلى آدَابِهَـا وَفُنُونِهَا وَمُثُلِهَا؛ فَإنَّ هَـؤلاءِ قَدْ ظَلُّوا عَلى احْتِفَاظِهِـمْ بِطَبِيْعَـةِ الأدَاءِ الفَنِّـيِّ المَـوْرُوثِ عَـنْ الأسْـلافِ المُنْشِـئِيْنَ؛ فَالطَّهْطَـاوِيُّ (1801 _ 1873) قَـدْ ظَـلَّ يَسْـجَعُ؛ حَتَّـى بَعْـدَ عَوْدَتِـهِ مِـنَ البِعْثَةِ؛ وَأحمد فارس الشِّـدياق (1804 _ 1888) يَرْتَادُ أوروبا فَيَظَلُّ عَلى احْتِفَاظِهِ بِسَـجَايَا الأدَاءِ العَرَبِيِّ الهَنْدَسِـيِّ في: «السَّاق عَلى السَّاق فِيْمَا هُوَ الفَارِيَاق»؛ وَمُحمَّد المُوَيْلِحي (1858 _ 1930) رَغْمَ تِرْحَالاتِهِ العَدِيدَةِ إلى الدُّوَلِ الأوربيَّةِ وَإجَادَتِهِ التُّركيَّة وَلِطَائِفَةٍ أخْرَى مِنَ اللغَاتِ الأوربيَّةِ؛ يَكْتُـبُ: «حَديث عِيسـى بن هِشَـام» ؛ وَأحمد شَـوقي (1868 _ 1932) يَعـودُ مِنْ فَرَنْسَـا؛ فَيُوَاصِلُ إنْجَازَ شِـعْرِهِ الكِلاسِـيْكِيِّ كَمَا يَكْتُبُ: «أسْوَاق الذَّهَب».

وَقَـدْ كَانَ للنّثْـرِ الفَنّـيِّ المَسْـجُوعِ هَيْمَنَتـه المُطْلَقَـة عَلـى شَـكْلِ الكِتَابَـةِ الفَنِّيَّـةِ؛ وَكَانَ ارْتِيَادُهُ آيةً عَلى التَّمكُّـنِ وَالاقْتِدَار الإبْدَاعِيِّ؛ وَبَالسَّـجْعِ تَغَنَّـى مُبْدِعـو النّثرِ الفَنِّيِّ، حَتَّى القَرْنِ التَّاسِـع عَشَـر والقَرْن العِشْرِيْنَ؛ فَقَدْ عَدَّهُ الشِّدياقُ مِنَ مَفَاخِرِ اللغَةِ العَربيَّةِ؛ حَيْثُ قَالَ:

«وللْعَربيَّـةِ مَزَايَـا.. فَاقَتْ بِهَـا غَيْرَهَا فَضْلاً وَقَدْرا؛ وَشَـأْنَا وَفَخْـرا؛ منْهَـا السَّـجْع، وَمَـا أَدْرَاكَ مَـا السَّـجْع!؛ كَلِـمٌ مُتَنَاسِـقَةٌ يَعْلَقُهَـا الطَّبْـع، وَيَعْشَـقُهَا السَّـمْع؛ فَتَنْطَبعُ في الذِّكْـرِ أيَّ طَبْـع.. فَمِـنْ أيْنَ لِسَـائِرِ اللغَـاتِ مِثْلَ مَـا للغَةِ العَربيَّـة؟، وأَيُّهَـا يُجَارِيْهَا في حَلَبَـةِ الآدَابِ وَقَدْ فَاتَهَا هَذَا الأَسْلُوبُ الأَشْرَف، وَالنَّوْعُ الأَلْطَف.»[١٧٦]

أمَّـا أحمد شَـوقي، فَقَـدْ عَدَّ «السَّـجْعَ شِـعْرَ العَربِيَّة الثَّانِـي.. وَكُلُّ مَوْضِعٍ لِلشِّعرِ الرَّصِيْنِ مَحَلٌ لِلسَّجْع، وَكُلُّ قَرَارٍ لِمُوْسِيْقَاهُ قَرَارٌ كَذَلكَ للسَّجْع، فَإنَّمَا يُوْضَعُ السَّجْعُ النَّابِغُ فِيْمَا يَصْلُحُ مَوَاضِعَ للشِّعْرِ الرَّصِيْنِ.. قَدْ ظَلَمَ العَربيَّةَ رِجَالٌ قَبَّحُوا السَّـجعَ وَعَدُّوه عَيْبًا فِيْهَا؛ وَخَلَطُوا الجَمِيْلَ المُتَفَرِّدَ بِالْقَبِيْحِ المَرْذُولِ مِنْهُ.»[177]

وَالمُلاحَـظُ أنَّ الاتِّصَـالَ بِالحَضَـارَةِ الأوربيَّـةِ، وَالتَّعـرُّفَ عَلـى إنْجَازَاتِهـا الحَديثَـةِ، وَآلتِهَـا المُنْتَصِـرَةِ المُهَيْمِنَـةِ؛ قَـدْ جَسَّـدَ مَوْقِفَيْنِ ثَقَافِيَّيـنِ مُتَعَارِضَيْنِ؛ مَوْقِفًا يَتطَلَّعُ إلى الاحْتِفَاظِ بِمُكْتَسَـبَاتِ المَاضِي وَتَحْفِيْزِهَا، وَمَوْقِفًا يَتَشَـوَّقُ إلى التَّحرُّرِ مِنْ أغلالِ الماضي والتَّوَغُّلِ في آفاقِ المُسْتَقْبَلِ وَالإحَاطَةِ بإنْجَازَاتِهِ.

وَهَـكَذَا بَدَأتْ تَلُوحُ بَوَادِرُ طَبَقَةٍ جَدِيْدَةٍ تُجَسِّدُ مَوْقِفًا انْقِلابيًا حَادًّا، تِجَـاهَ كُلِّ مَا يَتَّصِـلُ بِالتَّقاليدِ العَربيَّـةِ وَالنُّظُمِ المَوْرُوثَةِ؛ طَبَقَـةٍ مَبْهُورَةٍ

بِإنْجَازَاتِ الغَرْبِ، وَمَشْدُودَةً إلى مُكْتَسَبَاتِه، وَرُبَّمَا كَانَتْ هَذِهِ الطَّبَقَةُ الجَديدةُ أوَّلَ تَشَكُّلٍ لِلْحَدَاثِيِّينَ العَرَبِ في العَصْرِ الحَديثِ، لَقَدْ تَشَكَّلَ وَعْيُهَا الانْقِلابِيُّ مِنْ لَحْظَةِ اكْتِشَافِ الفَجْوَةِ الحَضَارِيَّةِ الهَائِلَةِ المُمْتَدَّةِ بَيْنَ الشَّرقِ وَالغَرْبِ؛ فَاعْتَبَرَتْ أنَّ خَلاصَ الشَّرقِ يَنْبَغِي أنْ يَبْدَأَ بِتَحْرِيرِهِ مِنْ كَافَّةِ القيودِ وَالأغْلالِ وَالرُّكَامِ الذي رَانَ عَلَيْه عَبْرَ العُصُورِ، وَأصْبَحَ كاتِبٌ كَالحَريريِّ «أبْهَجَ القُرَّاءَ طِوَالَ ثَمَانيَةِ قُرُونٍ.. كَمُشَعْوذٍ مُتَغَضِّنٍ؛ وَسَاحِرٍ رَهِيْبٍ، وَإليْهِ يَنْتَسِبُ «الجُنُونُ» الَّذي اسْتَبَدَّ بالذَّوقِ الأدَبيِّ الكِلاسِيْكيِّ؛ هَذَا الانْقِلابُ في المَوْقِفِ إزَاءَ الحَريريِّ بَدَأ انْطِلاقًا مِنَ اللحظَةِ الَّتي اكْتُشِفَ فِيْهَا الأدَبُ الأوربِيُّ.»[178]

وَبالدُّخُولِ في أجْوَاءِ القَرْنِ العِشْرينَ، أخَذَتْ دَائِرَةُ الصِّرَاعِ تَتّسِعُ؛ ففي أعْقَابِ الحَرْبِ العَالميَّةِ الأُولى؛ شَرَعَ فَرِيْقُ المُحْدَثينَ في تَوسِيْعِ دَائرتِهِ؛ فَطَفِقَ يَنْقلُ العَديدَ مِنْ مَشَاهدِ الوَاقعِ الأدَبيِّ وَالفِكْريِّ الأُوربيِّ؛ في صَحَافَةِ ذَلكَ العَهَدِ؛ كَالهِلالِ وَالسُّفورِ وَالمُقْتَطَف وَالسِّيَاسَة؛ وَأخَذَ الصِّرَاعُ بَيْنَ (القَديْم) وَ (الجَديْدِ) يَأخُذُ شَكْلَ الصِّدَامِ المَصِيْريِّ، في مُوَاجَهَةٍ كَانَ طَرَفَاهَا طه حُسين وَمُصْطَفَى صَادِقِ الرَّافِعيّ؛ مَثَّلَتْ مُجَابَهَةً بَيْنَ التَّيَّارينِ المُتَعَارِضَيْنِ؛ المُتَنَازِعَيْنِ؛ وَنَظَرًا لِمَرْكَزيَّةِ هَذهِ المُوَاجَهَةِ ـ الَّتي سَاهَمَ فِيْهَا غَيْرُهُمَا، مَعَهُمَا[179] ـ في تَاريْخِ الصِّرَاعِ بَيْنَ التَّيَّارَيْنِ؛ سَيَعْرِضُ لَهَا البحثُ؛ في شَيءٍ مِنَ التَّفْصيلِ؛ حَيْثُ تَجَسَّدَ في مَنْطِقِ طه حُسين، كُلُّ مَا كَانَ يَصْبُو إليْهِ مَنْ قَبْلَهُ بِنَحْوِ رُبْعِ قَرْنٍ، وَيُرْهِصُونَ بِهِ، كَمَا جَسَّدَ مَوْقِفُ الرَّافِعيِّ، الدِّفَاعَ الأخِيْرَ؛ وَالأعْزَلَ؛ المُتَشَبِّثَ بِتَلابيْبِ حَضَارَةِ النَّصِّ المُعَمَّرِ المُهَدَّدِ.

3 _

الصِّدَامُ المُدَوِّي

بَدَأَ الصِّدَامُ بِرِسَـالَةٍ مَسْجُوعَةٍ أَرْسَـلَهَا مُصطفى صَادق الرَّافعيّ[180] (1880 _ 1937)، في شَهر مَايو من عام1923، إلى صَحِيْفَة: «السِّيَاسَة»؛ الَّتـي كَانَـتْ تَصْدُرُ عَنْ حِزْبِ الأَحْـرَارِ الدِّسْـتُورِيِّينَ؛ وَكَانَ يُدِيْرُهَا د. مُحمَّد حُسَين هيكل (1888 _ 1956)، وَيُشْرِفُ عَلى القِسْمِ الأَدَبيِّ بها د. طه حُسَـين (1889 _ 1973)؛ «فَأَحْدَثَتْ الرِّسَـالةُ ضَجَّةً؛ لأَنَّ صَاحِبَهَا قَذَفَ بِهَا في مُعَسْكَرٍ ثَائرٍ مِنْ مُعَسْكَرَاتِ التَّجديدِ.»[181]

الرِّسَـالَةُ أَنْشَـأَهَا الرَّافِعِيُّ في العِتَابِ عَلى صَدِيْقٍ لَهُ _ مِنْ الشَّـام _ كَانَ قَـدْ تَأَخَّـرَ في الرَّدِ عَلى رَسَـالَةٍ أَرْسَـلَهَا إليْهِ الرَّافِعـيُّ، وَعَلى هَذَا النَّحْو تَمْضِي الرِّسَالَة:

«سَيِّدِي:

كَتَبْتُ إِلَيْكَ مِنْ أَيَّامٍ يَشْـفَعُ لَهَا قُرْبُكَ مِنْ نَفْسِي فَلا أَقُوْلُ إِنَّهَـا بَعِيْدَة، وَتَمُـرُّ قَدِيْمَةً وَلكِنَّ مَا فِي هَـذِهِ النَّفْسِ مِنْهَا يَجْعَلُهَـا دَائِمًا جَدِيْدَة، وَكَأَنَّهَـا تَجْرِي بي إِلى الفَنَاءِ فَهِيَ تَطُـولُ إِلى غَيْرِ حَـدّ، وَتَأْخُذُ مَعْنَى اليَـأْسِ مِنْ كُلِّ أَمْس فَتَنْسَـخُ بِـهِ مَعْنَـى الأَمَلِ فِـي كُلِّ غَـدّ، وَأَرَى الأَيَّـامَ تُعَدُّ بِالأَرْقَامِ أَمَّا هِيَ فَقَدْ جَعَلْتَهَا أَنْتَ تُعَدُّ بِأَنَّهَا لا تُعَدّ.

«وَانْتَظَـرْتُ رَدَّ خِطَابِـي، وَأَنْ تُلْقـي إِلـَّي وَرَقَـةً مِنْ شَـجَرَةِ عِتَابي، فَمَازَالتْ تَنْقَطِعُ السَّـاعَةُ مِنَ السَّاعَةِ وَيلْتَقي اليَوْمُ باليَوم، وَيَذْهَبُ اللومُ إِلى العِتَابِ إِلى اللوم، وَكِتَابُكَ عَلى

ذلك كأنَّهُ الذُّهولُ نَوْمَ اليَقَظَةِ أوْ السُّهْدُ يَقْظَةَ النَّوم.

فَسُبْحَانَ مَنْ عَلَّمَ آدَمَ الأسْماءَ كُلَّها لِيَنْطقَ بِهَا ، وَعَلَّمكَ وَحْدَكَ السُّكوت.. وَالسَّلامُ عَليْكَ في أزَليَّةِ جَفائكَ أمَّا أنَا فَأقُولُ: «وَالسَّلامُ عَليَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أمُوت» ، مَا هَذَا يَا سَيِّدي وَلَيْسَ خَيْطُ العُمْرِ في يَدَيكَ وَلا أمْسِ الضَّائعُ بِمُعَوِّضٍ عليَّ مِنْ غَدِكَ وَ لا أنَا أقَلُّ مِنْ «أنَا» وَ لا أنْتَ أكْثَرُ مِنْ «أنْتَ» ، وَلا أعْلَمْتَنَا مِنْ قَبْلِ أنَّكَ مَعَ القَدرِ تَحرَّكْتَ وَمَعَ القَدَرِ سَكَنْتَ.»(١٨٢)

وَقَدْ عَلَّقَ طَه حُسَين عَلى هَذِهِ الرِّسَالَةِ بِقوْلِهِ:

« أمَّا أنَا فَأعْتَذِرُ لِلْكَاتِبِ الأدَيبِ، إذَا أعْلَنْتُ مُضطرًا أنَّ الأسْلُوبَ؛ الَّذي رُبَّمَا رَاقَ أهْلَ القَرْنِ الخَامِسِ وَالسَّادِسِ، لا يَسْتَطِيْعُ أنْ يَرُوْقَنَا ، في العَصْرِ الحَديثِ؛ الَّذي تَغَيَّرَ فيْهِ الذَّوْقُ الأدَبِيّ، وَلاسيَّمَا في مِصْرَ تَغَيُّرًا شَديْدًا .»(١٨٣)

بَادَرَ الرَّافِعيُّ مُعْلِنًا أنَّ الأسْلُوبَ الَّذي كُتِبَتْ بِهِ الرِّسَالةُ ، « كَانَ الغَايَةَ الَّتي تَتَقَاصَرُ دُونَهَا الأعْنَاقُ، مُنْذُ القَرْنِ الرَّابعِ إلى آخرِ التَّاسعِ، وَلَمْ يُوْحِشْ مِنْهُ تَغَيُّرُ الذُّوقِ الأدَبيِّ، كَمَا يَقُولُ الأسْتَاذُ؛ بَلْ ضَعْفُ الكُتَّابِ فِيْهِ وَتَقْصِيرهُمْ عَنْ حَدِّهِ، وَأنَّهُمْ لا يُوَافِقُونَ بِهِ مَوَاضِعَهُ، وَلا يَعْدلُونَ بِهِ إلى جِهَاتِهِ في ألفَاظِهِ وَمَعَانِيْهِ.. إنَّ أكْثَرَ كُتَّابِ العَصْرِ، وَمِنْهُمْ الأسْتاذُ طَه، لا يُجِيدُونَهُ، وَلا يَسْتَطيعونَهُ مَهْمَا تَكَلَّفوا لَهُ، وَبَالَغُوا في هَذَا التَّكَلُفِ، وَتَحَرُّوا في هَذِهِ المُبَالَغَةِ»(184) ، وَدَلَّلَ الرَّافِعيُّ عَلى عَدَمِ فَنَاءِ الذَّوقِ الأدَبِيِّ، بِمَا صَاحَبَ اكْتِشَافِ مَقْبَرَةِ توت عنخ

آمون، مِنَ انْبِهَارٍ عَالَميٍّ بِدِقَّةِ فَنِّهَا، رَغْمَ مُرُورِ آلافِ السَّنَواتِ عَلى عَهْدِ الذَّوْقِ الأَدَبِيِّ؛ الَّذي تَنْتَمِي إليه.[185]

طَـه حُسَـين عَقَّبَ عَلى هَذَا الـكَلامِ بِقَوْلِه: «أنَا لا أتـردَّدُ في إقْرَارِ الكَاتـبِ الأدَيْـبِ عَلى أنَّنَا لا نُجِيْدُ هَذَا الأسْـلُوبَ، وَعَلى أنَّنَا لا نُريْدُ أنْ نُجِيدَهُ؛ لأنَّ الذَّوقَ الأدَبيَّ، وَلاسِيَّمَا في مصرَ قَدْ تَغيَّرَ، وَقَدْ كُنْتُ أُرِيْدُ أنْ أنَاقِشَ الكَاتِبَ، وَلَكِنَّ لَهُ في نَفْسِـي رَأيًا، لا يَسْـمَحُ بِمُنَاقَشَـتِهِ أو التَّحـدُثِ إليْهِ؛ فَلَندَعْـهُ وَرَأيَهُ وَلنُحْيِ الذَّوقَ الأدَبـيَّ الجَديدَ؛ الَّذي يُلائِمُ حَاجَاتِ النَّاسِ وَحَيَاتِهِمْ.»[186]

وَأضَافَ: «لَسْـنَا نَعِيْشُ عَيْشَـةَ الجَاهِلِينَ، فَمِنَ الحُمْقِ أنْ نَصْنَعَ لُغَةَ الجَاهِلِيِّينَ، وَلَسْنَا نَعِيْشُ عِيْشَةَ الأُمَوِيِّينَ وَلا العَبَّاسِيِّينَ وَلا المَمَالِيْكِ؛ بَلْ لَسْـنَا نَعِيْشُ عِيْشَـةَ المِصْرِيِّينَ في أوائِلِ القَرْنِ المَاضِي، فَمِنَ الإسْرَافِ أنْ نَسْتَعِيْرَ لُغَاتِ هَذِهِ الأجيَالِ وَأسَالِيبَهَا؛ لِنَصِفَ بِهَا أشْيَاءَ لَمْ يَعْرِفُوهَا، وَضُرُوبًـا مِنَ الحِسِّ وَالشُّـعُورِ، لَمْ يُحِسُّـوهَا وَلَمْ يَشْـعُروا بِهَـا؛ إذَا كُنَّا لا نَعِيْـشُ فـي الخِيَـامِ، وَلا نَتَّخِـذُ هَـذِهِ الأدَوَاتِ المُخْتَلِفَـةَ الحَضَرِيَّةِ أوْ البَدَوِيَّةِ؛ الَّتي اتَّخَذَهَا الجَاهِلِيُّونَ أوْ أهْلُ بَغْدَادَ، فَلَيْسَ مِنْ سَـبيْلٍ إلى أنْ نَشْـعُرَ كَمَا كَانَ يَشْـعُرُ الجَاهِلِيُّونَ وَأهْلُ بَغْدَادَ؛ وَإذاً فَلَيْسَ مِنْ سَـبيلٍ إلـى أنْ نكـونَ صَادِقِيْنَ حِيْنَ نَتَكَلَّـمُ أوْ نَكْتُبُ، كَمَـا كَانَ يَتَكَلَّمُ الجَاهِلِيُّونَ، أوْ كَمَا كَانَ يَكْتُبُ أهْلُ بَغْدَادَ.»[187]

وَأضَافَ: «لَنَا حَيَاةٌ خَاصةٌ، وَلَنَا لُغَةٌ خَاصةٌ، تُلائِمُ هَذِهِ الحَيَاةَ، فَمَا لَنَا نُفَرِّقُ بَيْنَ الأشْـيَاءِ المُؤتَلِفة؟، وَمَا لَنَا نُقطِّعُ الأسْـبَابَ المُتَّصِلَةَ؟، وَمَا لَنَا نَعِيْشُ في عَصْرٍ وَنَتَكَلَّمُ في عَصْرٍ آخَر؟.

«أعْرِفُ أنَّ الأسْـلُوبَ الَّذي اتَّخَذَهُ الأسْـتاذُ الرَّافِعِيُّ، كَانَ مُسْـتَعذَبًا

في عَصْرٍ مِنَ العُصُورِ، وَلكِنّي أعْرفُ أنَّهُ إنَّمَا كَانَ مُسْتَعذَبًا؛ لأنَّهُ كَانَ يُلائِمُ هَذَا العَصْرَ، فَإذَا انْقَضَى هَذَا العَصْرُ، وَانْقَضَى مَعَه مَا ألِفَ النَّاسُ مِنَ ضُرُوبِ الحَيَاةِ فيْه، فَيَجْبُ أنْ يَنْقَضِيَ مَعَهُ أيْضًا أسْلُوبُ التَّعبيْرِ؛ الَّذي كَانَ النَّاسُ قَدْ اتَّخَذُوهُ وَسِيْلةً لِوَصْفِ مَا يَجِدُونَ في أنْفُسِهِمْ.

«وَمَهْمَا يَقُل الأسْـتاذُ الرَّافِعيُّ وَأنْصَارُهُ ــ إنْ كَانَ لَهُ أنْصَارٌ، فَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ في أنَّه لَمْ يَشْعُرْ كَمَا كَتَبَ، وَإنَّمَا شَعَرَ بِطريْقَةٍ أخْرَى؛ فَلَسْنَا نَـرَاهُ هُـوَ في كِتَابِـهِ؛ وَإنَّمَا نَرَى فـي هَذَا الكِتَـابِ تَكَلُّفَـهُ وَمُحَاوَلَتَهُ الإجَـادَةَ، ولا تَنْسَ أنَّ الأسْـتَاذَ يُعَاتِـبُ صَدِيْقًا، وَأنَّ العِتَـابَ يَحْتَاجُ فِيْمَا يظْهَرُ، إلى أنْ يُظْهِرَ الصَّديْقُ لِصَديْقِهِ، دَخِيْلَةَ قلبْهِ وَخُلاصَةَ نَفْسِـهِ، لا أنْ يَنْسِجَ لَهُ نَسْجًا، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ صِلَة.» (188)

مِـنْ هُنَا نَتَبَيَّنُ أنَّ مُوَاجَهَةَ طَه حُسَـين لِلرَّافِعِيِّ، قَدْ اتَّخَذَتْ مَسَـارَيْنِ أسَاسِـيَّين: التّصَدِّي لِهَيْمَنَةِ اللغَـةِ بِبُعْدِهَا التُّرَاثـيِّ التَّاريخِيِّ عَلى أجْواءِ التَّجربَـةِ الإنْسَـانيَّةِ الآنيَّةِ، وَالتَّنْديدِ بِهَنْدَسَـةِ السَّـجعِ؛ لِمَا تَقُـومُ بِهِ مِنْ تَقْطِيعٍ رَتِيْبٍ لِتَدَفّقِ أمْوَاجِ الكَلامِ.

وَلَـمْ تَقْتَصِـرْ مِحْنَةُ النَّثرِ الفَنِّيِّ على شَـكْلِهِ المَسْـجُوعِ فَقَط، وَإنَّمَا تَجَاوَزَتْ ذَلِكَ إلى شَـطْرِهِ الآخَرِ؛ الَّذي يَقُومُ عَلى هَنْدسَةٍ إيْقَاعِيَّةٍ أخْرَى؛ هِـيَ هَنْدَسَـةُ الازْدِوَاجِ وَتَـوَازُنِ الجُمَـلِ وَتَنَاغُمِهَـا؛ هَـذَا الشَّـكلُ الَّذي مَثَّلَـهُ بِوضُوحٍ وَدِقَّةٍ الأدِيْبُ البَلِيْغُ أحمد حسـن الزَّيَّـات؛ فَقَدْ وَجَّهَ محمَّد مَنْـدور (1907 ــ 1965) أسْـلِحَتَهُ تِجَـاهَ هَـذَا الأسْـلُوبِ ــ المُتَمَثِّـلِ فـي عَمَـلِ الزَّيَّـاتِ ــ وَكَانَ مِنْ رَأي مندور أنَّ في اتِّسَـاقِ الجُمَلِ، وَتَسَـاوي المَسَـافَاتِ بَيْنَهَا، صَنْعةً تُفْسِـدُ نَغَمَاتِ الوَاقِعِ، وَأنَّ هَذَا الازْدِوَاجَ ضَرْبٌ مِنَ السِّـمتريَّةِ المُمِلَّةِ، الَّتي تُضْنِي الأدِيْبَ مِـنْ جَانبٍ، وَتَخْرُجُ بِالتَّصوير

مِنْ الوَاقِعِ الحَيِّ إلى الأدَبِ المَصْنُوعِ منْ جَانِبٍ آخَرٍ.

وَمَنْدور، بِهَذَا، يَرَى في هَذِهِ الصَّنعَةِ المُحْكَمَةِ أدَبًا قَدْ أُنْشِئَ؛ غَيْرَ أنَّـهُ أدَبٌ غَيْـرُ حَيٍّ، أوْ لا يَعْكِـسُ نَبْضَ الحَيَـاةِ، أدَبٌ مَصْنُوعٌ ـ كَمَا يَقُولُ ـ بِالْبَرْجَلِ وَالمِسْطَرَةِ، وَأنَّ أسْلُوبَهُ هَنْدَسَةٌ مِنَ النَّوعِ التَّخْطِيطيِّ، وَيَتَسَـاءَلُ مَنْدورٌ: أمَا مِنْ نَزْوَةٍ مِنْ شَـيْطَانِ الأدَبِ تَكْسِرُ هَذَا الاتِّسَاقَ، أمَا مِنْ نَفْضَةِ قَلَمٍ تُتْلِفُ قليلاً مِنَ هَذَا الكَمَالِ المُضْنِي؟.[189]

وَمَنْدورٌ، بِهَذا يَصِلُ إلى النَّتِيْجَةِ نَفْسِهَا؛ الَّتي تَوصَّلَ إليْهَا طَه حُسَين، في تَصَدِّيْه لِهَنْدَسَةِ النَّثرِ الفَنِّيِّ المَسْجُوعِ؛ الَّذي مَثَّلتْهُ رِسَالَةُ الرَّافِعِيِّ.

خاتمة

تُعَـدُّ مَرْحَلـةُ النَّثـرِ الفَنِّيِّ الأقْـدَمَ وَالأطْـوَلَ، في حَلْقَاتِ الأشْـكَالِ النَّثرِشعْريَّةِ والشِّعرنثْريَّةِ المُتَوَاليَةُ، وَفيْهَا تَأسَّسَتْ الكِتَابَةُ الفَنِّيَّةُ، في أقْدَمِ صُورِهَا، في عِدَّةِ أطْوَارٍ وَتَجَلِّيَاتٍ، وَقَدْ بَدَأتْ في العَصْرِ الجَاهِليِّ، وَتَمَيَّزَتْ ـ شَـكْليًّا ـ بِالْتِزَامِ السَّجعِ، وَالتَّكْثيفِ اللغَويِّ، وَالتَّشظِي، وَالإيْجَازِ، وَالجُنُوحِ إلى سَـرْدِ الحَقَائِقِ، وَإقَامَةِ البِنْيَةِ المَجَازيَّةِ، وَسَـرْدِ الحِكَـمِ وَالأمْثَالِ، وَتَمَثَّلتْ فـي خُطَبِ الخُطَبَاءِ، وَسَـجْعِ الكُهَّانِ، ثُمَّ انْتَقـلَ النَّثْرُ الفَنِّيِّ، مَعَ مَجِيءِ العَصْرِ الإسْـلاميِّ، نَقْلَةً أخْرَى، بَدَا فيْهَا مُجَسِّـدًا لِلغَةِ الخِطَابِ الدِّيْنِيِّ، وَلَمْ يَتَعمَّدْ السَّجعَ أوْ الزُّخْرفَ البَديعيَّ، وَتَخَفَّفَ مِنْ سَـرْدِ الحِكَمِ وَالأمْثَالِ؛ الَّتي كَانَتْ شَـائِعَةً في النَّثْرِ الفَنِّيِّ الجَاهِلـيِّ في غَيـرِ تَرَابُطٍ، كَمَا وَضَحَتْ فيْهِ، أيْضًـا، بَلاغَةُ الإيْجَازِ، وَهُـوَ مَـا بَدَا في خُطَـبِ عُمرَ بنِ الخَطَّابِ (ـ 23هـ) وَعلـيٍّ بن أبِي طَالِبٍ

(ـ 40هـ) ـ في صَدْرِ الإسْـلامِ ـ وَفي خُطَـبِ: زِيَادِ بن أبيْهِ (ـ 53هـ)، وَالحَجَّـاج بن يُوسـف الثَّقَفـيِّ (ـ 95هـ) ـ فـي أوائِلِ العَصْـرِ الأُمَويِّ ـ وَفـي خُطَـبِ خَطِيبِ الخَوَارِجِ قَطريِّ بنِ الفُجاءَةِ (ـ 79هـ)، ثُمَّ تَأسَّسـتْ مَلامحُ الكِتَابَةِ الفَنِّيَّةِ الجَديدَةِ، في نِهَايَةِ العَهْدِ الأُمَويِّ، على يَدَيْ عبدِ الحَميـدِ بـن يحيى الكَاتِـبِ (ـ 132هـ)، ثُـمَّ ابنِ المُقَفَّـعِ (ـ 142هـ)، ثُمَّ سَـهْلِ بنِ هَـارون (ـ 215هـ)، ثُمَّ الجَاحِـظِ (ـ 255هـ)، وَهِيَ كِتَابَةُ تَنْهَضُ عَلى التَّرابُطِ المَنْطِقيِّ وَالازْدِوَاجِ وَالجُمَلِ المُتَوَازنَةِ، ثُمَّ تَأسَّستْ، فـي القَرْنِ الرَّابِـعِ الهِجْريِّ، كِتَابَـةٌ فَنِّيَّةٌ أخْرَى؛ عَلى أيْـدِي ابنِ العَميدِ (ـ 360هـ)، وَالصَّاحِبِ بنِ عَبَّادٍ (ـ 384هـ)، وأبِي إسْـحَاقٍ الصَّابِي (ـ 384هـ)، وَأبِي بَكـرٍ مُحمَّدٍ بنِ العبَّـاسِ الخُوَارِزميِّ (ـ 383هـ)، وَبَديع الزَّمَـانِ الهَمَذَانِيِّ (ـ 398هـ)، وَأبِي الفَرَجِ عبـدِ الوَاحِدِ بن نَصْرٍ الببغَاءِ (ـ 389هـ)، وَقَابُوسٍ بنِ وَشْـمَكِير (ـ 403هـ)، وَامْتَدَّ هَذَا التَّيَّارُ بقُوَّةٍ في مَشْـهَدِ القَرْنِ الخَامِـسِ الهِجْريِّ، عَلى يَـدَيْ الحَرِيريِّ (ـ 516هـ)، وَفـي القَرْنِ السَّـادسِ عَلى أيْدِي القَاضِي الفَاضِـلِ (ـ 596هـ)، وَالعِمَادِ الأصْفَهَانِـي (ـ 597هـ)، وَسِـوَاهُمَا، ثُمَّ أصِيْبَ النَّثْـرُ الفَنِّيُّ ـ كَكُلِّ شَـيءٍ في الدَّولَةِ الإسْـلاميَّةِ ـ بِالجُمُودِ وَالضَّعْفِ، لِمُدَّةٍ تَتَجَاوَزُ الثَّلاثَةَ قُـرُونٍ، أثْنَـاءَ العَصْرِ العُثْمَانيِّ (923هـ ـ 1213هـ)، ثُـمَّ عَادَ النَّثْرُ الفَنِّيُّ يَسْـتَرِدُّ عَافِيَتَـهُ فـي طَلائِـعِ القَـرْنِ التّاسِـعِ عَشَـرِ؛ مُوَاكِبًـا التَّحَوُّلاتِ السِّيَاسِيَّةِ وَالمُجْتَمَعِيَّةِ وَالثَّقَافيَّةِ الكُبْرَى، عَلى أيْدِي كَوْكَبَةٍ مُبْدِعَةٍ؛ فـي طَلِيْعَتِهَـا عَبْـدُ الرَّحمنِ الجَبَرتي (1754 ـ 1824)، وَالشَّـيخُ حَسَـنُ العَطَّـار (1766 ـ 1835)، وَعَبْـدُ اللّهِ فِكْـري (1834 ـ 1890)، وَعَبْدِ اللّهِ النَّديـم (1845 ـ 1869)، وَإبراهِيـم اليَازِجـيُّ (1847 ـ 1906)،

وَالإمَامُ مُحمَّد عَبدُه (1849 ـ 1905)، وَحِفْنِي نَاصِف (1860 ـ 1919)، وَمُحمَّـد المُوَيْلِحِي (1858 ـ 1930)، وَمُحمَّد توفيق البَكْرِي (1870 ـ 1932)، وَأحْمَـد شَـوقِي (1868 ـ 1932)، وَحَافِـظ إبرَاهِيـم (1871 ـ 1932)، وَغَيْرُهُمْ.

وتجـدرُ الإشـارةُ إلـى أنَّـه إذا كـانَ شـكلُ الرِّسـالةِ والمقامةِ هما الأبـرزُ، في مشـهدِ النَّثـر الفنيِّ، فإنَّـه لا يُمكِنُ التَّغافُـل عن الحضورِ الخـاصِّ لـ«التَّوقيعـات»[190]؛ بأدائِهـا المُكثَّـفِ فـي عبـاراتٍ مُوجزةٍ، تفيضُ بالإشـاراتِ، وتُشِعُّ بالدَّلالاتِ، وعلى الرَّغمِ من أنَّها بلغَتْ أقصى درجـاتِ حضورِهـا الإبداعيِّ، فـي العصرِ العباسـيِّ، وارْتهَن حضورُها بوجـودِ ديوانِهـا الخـاصِّ، ثُـمَّ تلاشـى حضورهـا، إلاَّ أنَّها فتحـتْ أُفُقًا جديدًا لشعريَّةِ النثَّر الفنيِّ.

وَلَئِنْ تَرَاجعَتْ جَمَاليَّاتُ هَذَا النَّصِّ في الرُّبعِ الأوَّلِ منَ القَرْنِ العِشْرِيْنَ، فَإنَّ وَاحِدَةً مِنْ أبْرَزِ آليَّاتِ النَّثرِ الفَنِّيِّ الَّتي بَرَزَتْ في عَمَلِ الحَريري؛ وَهِيَ الْتِزَامُ حُرُوفٍ مُحَدَّدَةٍ في مُفْرَدَاتِ النَّصِّ كُلِّهَا، سَـتَرْجِعُ بِقُوَّةٍ في الرُّبْعِ الأخِيْـرِ مِـنَ القَرْنِ ذَاتِهِ؛ ضِمْنَ آليَّـاتِ المُنْجَزِ الأدَبِـيِّ الحَدَاثِيِّ؛ لِتَحْقِيْقِ الإبْهَارِ الفَنِّيِّ، بِأعَاجِيْبِ اللغَةِ وَتَشَكُّلاتِهَا الخَلاقَّة[191].

وَعلـى مَـدَارِ تاريخِهِ الطَّويلِ، أسَّـسَ خطـابُ النَّثرِ الفنيِّ، مَسَـاراتِهِ الإبداعيَّـةَ الأسَاسِـيَّةَ، على نحوٍ جَعَلَ شـعريَّةَ خطابِـهِ النَّظيرَ الإبداعيَّ المـوازِي لشِـعريَّةِ القَصِيـدِ، فـي مَشْـهَدِ الأدَبِ العَرَبِـيِّ، وَاعْتُبِـرَ النَّثرُ الفنـيُّ جِنْسًـا أدبيًّـا يتضمَّـنُ أشـكالاً سَـرديَّةً مُتعـدِّدةً؛ مِنْهَـا: سَـجْعُ الكُهَّـانِ، وَالخَطَابَةُ، وَالوَصَايَا، وَالحِكَمُ، وَالرَّسـائِلُ، وَالتَّوقيعَاتُ، وَالمقَامَاتُ، وَكَانَتْ النَّظريَّةُ النَّقديَّةُ مُتَحقِّقَةٌ في الممَارَسَةِ الإبداعيَّةِ،

غَيْـرَ أنَّ التَّقعِيدَ النَّظريَّ لها، لـم يكُنْ على النَّحوِ الوَاضِحِ بكثافةٍ في شِـعْرِ القَصِيدِ؛ فثمَّةَ ذِكْرٌ لهـذَا النَوعِ الكِتَابيِّ تحـتَ مُصْطَلَحِ (النَّثرِ) حِيْنًا، وَ (الكِتَابَةِ) حِينًا، وَ (الكَلام) حِيْنًا، وَشَـتَّى السِّـيَاقاتِ تُشِـيْرُ إلى شِعريَّةِ النَّثرِ الفنيِّ، دُونَ أنْ تُحَدِّدَهُ، في المصْطَلَحِ الأخيرِ؛ الَّذي لم يَظْهَـرْ للبَحْثِ قَبْلَ الثُّلثِ الأوَّلِ منْ القَرْنِ الماضِي، لدَى زكي مبارك، وَكارل بروكلمان.[192]

وَقَـدْ مَـرَّ التَّأسِـيسُ النَّظـريُّ لِشِـعريَّةِ خِطَـابِ النَّثرِ الفنـيِّ بمراحِلَ تاريخيَّـةٍ؛ تبـدأ بمُوازَنَـاتٍ حَـوْلَ أسـبقيَّةِ النَّثـرِ أوْ الشِّـعرِ، وَالتَّفاضُـل بينهُمَـا[193]، وَيُلاحَـظُ أنَّ مُصْطَلَـحَ النَّثرِ فـي هَذِهِ المرْحَلَةِ كَانَ يُشِـيْرُ إلـى النَّثرِ الفنيِّ تحديدًا، وَأنَّهُ كَانَ يُطْلَقُ على مَا عَدَا الشِّـعرِ منْ أنواعٍ أدبيَّـةٍ، وَبَـدَتْ الصِّياغَةُ العَرُوضِيَّةُ حَـدًّا تمييزيًّا بَيْـنَ النَّوعينِ الأدَبيَّينِ؛ اللذين تقاسَـمَا آليَّـاتِ الأدبيَّةِ، في مَشْـهَدِ الأدَبِ العَرَبـيِّ، وَمُنْذُ القَرْنِ الثَّاني الهجري لم يَعُدْ الشِّـعرُ وَحْدَهُ دِيوَانُ العَرَبِ، وَقَدْ اشْتَرَكَ النَّوعَانِ المرْكَزيَّانِ في خَصَائصَ جماليَّةٍ شَـتَّى، وَلَمْ يفترِقَا، أحْيَانًا سِـوَى في آليَّـاتِ الأدَاءِ الإيقاعيِّ، وَظَهَرَتْ وَقَفَاتٌ نقديَّةٌ تُشَـدِّدُ على الشِّـعريَّةِ في كِلَيْهِمَـا، وَظَهَـرَتْ الكُتُبُ الَّتي تَبْحَـثُ جماليَّاتِ الشِّـعرِ وَالنَّثرِ مَعًا، وَمِنْهَـا: «البَيَانُ وَالتَّبييـنُ»، لِلْجَاحِظِ، وَ «كِتَـابُ الصِّنَاعَتيْنِ: الكِتَابَةِ وَالشِّـعرِ»، لأبي هِلالٍ العَسْـكريِّ، وَ «المثَلُ السَّـائرُ في أدَبِ الكَاتبِ وَالشَّاعِرِ»، لِضِيَاءِ الدِّينِ بنِ الأثير، و «تحريرُ التَّحبيرُ في صِنَاعَةِ الشِّعرِ وَالنَّثـرِ وَبَيَانُ إعْجَـازِ القُرْآنِ»، لابنِ أبي الإصْبَعِ المصْرِيِّ، كَمَا ظَهَرَتْ طَائِفَةٌ منْ الكُتُبِ الَّتي جَمَعَتْ مختارَاتٍ منهُمَا بالتَّجاوُرِ، وَمِنْهَا: «يتيمَةُ الدَّهـرِ، في أحوال العصر» لِلثَّعالبـيِّ، و «العِقْدُ الفَريدُ» لأحمد بن عبد

ربه، وَ «زَهْرُ الآدَابِ وَثمرُ الألبَابِ» لأبي اسْحَاقٍ إبراهيم بنِ عليٍّ الحصَريّ القيروانـيِّ، وَمِثْلَمَـا ظَهَـرَتْ الـكُتُـبُ الَّتي تَبْحَثُ في شِـعريَّةِ الشِّـعرِ، وَمِنْهَـا: «قَوَاعِدُ الشِّـعرِ»، لأبـي العَبَّاسِ أحمد ثَعْلَب، وَ «عِيَار الشِّـعرِ»، لابنِ طباطبا العَلَويِّ، وَ «نَقْدُ الشِّـعرِ»، لِقُدَامَةَ بنِ جَعْفَر، وَ «العُمْدَةُ في محاسِـنِ الشِّعرِ وَآدَابِهِ وَنَقْدِهِ»، لابْنِ رَشِيق، ظَهَرَتْ الـكُتُبُ الَّتي تَبْحَثُ في شِعريَّةِ النَّثرِ، وَمِنْهَا: «أَدَبُ الكَاتِبِ»، لابْنِ قُتيبَةَ، وَ «إحْكَامُ صَنْعَةِ الـكَلام»، لأبي القاسِـم محمَّد بنِ عبـد الغفورِ الكَلاعِيِّ، وَ «حُسْـنُ التَّوسُّـلِ في صِنَاعَةِ التَّرسُّلِ»، لِشِـهَابِ الدِّينِ الحلَبيِّ، وَ «صُبْحُ الأعْشَى فـي صِنَاعَةِ الإنْشَـا»، لِلْقَلقَشَـنْدِيِّ، وَهِـيَ الـكُتُبُ الأولـى الَّتي أصَّلَتْ لِشِعريَّةِ الخِطَابِ النَّثريِّ وَنظريَّتِهِ النَّوعيَّةِ في مشْهدِ الأدبِ العربيِّ، وَبهَا تَرَسَّخَتْ أقدمُ نظريَّةٍ في شِعريَّةِ النَّثرِ العَرَبيِّ.

الإحَالاتُ وَالتَّعليقات

(1) د. زكـي مبـارك ــ النَّثـر الفَنِّيُّ فـي القرن الرَّابع ــ الجُـزءُ الأوَّل ــ مطبعة السَّعَادَة بِمصر ــ الطَّبعة الثَّانية ــ 1957 ــ ص:74.

(2) د. شـوقي ضيـف ــ البَلاغَـة تطـوُّرٌ وَتَاريخ ــ دار المَعَـارف بِمِصْر ــ الطَّبعة الرَّابعة ــ 1977 ــ ص:377.

(3) أبو هلال العسكري ــ كتابُ الصِّنَاعَتينِ ــ تحقيق: د. مفيد قُمِّيحة ــ دار الكُتب العِلميَّة ــ بيروت ــ الطَّبعة الثَّانية ــ 1989 ــ ص:185.

(4) رَاجِعْ بِهَذَا الخُصُوص: د. محمد عونِي عبد الرَّءوف ــ بِدَايَاتُ الشِّعر العَربِـيِّ بينَ الكَمِّ وَالكَيْف - مكتبـة الخَانجي ــ 1986 ــ ص:65، وَرَاجِعْ لأحمد حسـن الزَّيَّات ــ في أصُولِ الأدَب ــ ط2 ــ 1964 ــ ص:114، وَرَاجِعْ لِسَعيد بحيري: مُلاحَظَاتٌ حَوْلَ مَسْـألةِ العَلاقةِ بينَ الكَمِّ وَالنَّبرِ في الشِّـعرِ العَرَبِـيِّ ــ مجلَّـة: (فصُـول) ــ المُجَلَّد السَّـادس ــ العـدد الثَّالث ــ 1986 ــ ص:191.

(5) المُعْجَم الوَجِيز ــ مجمع اللغةِ العربيَّةِ ــ 1990 ــ ص:303.

(6) المُعْجَم الوَسِيط ــ الجُزءُ الأوَّل ــ 1960 ــ ص:419، وَانْظُرْ: مُخْتَار الصِّحَـاحِ، للـرَّازي ــ نهضة مصر ــ د.ت ــ ص:387، وَانْظُرْ: لِسَـان العَرَب، لابنِ مَنْظور ــ الجُزءُ السَّادس ــ دار إحياء التُّراث العربيِّ ــ بيروت ــ الطَّبعة الثَّالثة ــ 1999 ــ ص:179.

(7) ديفيـن سـتيوارت ــ السَّـجع فـي القُـرآن، بِنْيَتُـهُ وَقَوَاعِـدُهُ ــ مجلة: (فُصُول) ــ خريف 1992 ــ ص: 7.

(8) ابنُ الأثير ــ المَثَلُ السَّائر ــ تحقيق: مُحمَّد مُحيي الدِّين عبد الحميد

ـ الجُزءُ الأوَّل ـ المكتبة العصريَّة ـ بيروت ـ 1995 ـ ص: 195.

(9) عن: جوزيف شـريم ـ الهندسَـةُ الصَّوتيَّةُ في القَصِيْـدَة المُعَاصِرَة ـ مجلة: (عَالَم الفِكْر) 1994 ـ ص:109.

(10) ديفين ستيوارت ـ سابق ـ ص: 14.

(11) المثل السَّائر ـ الجُزءُ الأوَّل ـ سَابِق ـ ص ص: 233 ـ 237.

(12) عن أشْكَال النَّثرِ المَوزونِ عِنْدَ ابنِ سِيْنا رَاجِعْ: أُلفت مُحمَّد كمال عبد العزيز ـ نظريَّةُ الشِّعرِ عِندَ الفَلاسِفَةِ المُسْلِمِينَ ـ الهيئة المصريَّة العامَة للكِتَاب ـ 1984 ـ ص ص:260 ـ 261، وَرَاجِعْ لابنِ عبدِ الغفورِ الكلاعيِّ ـ أحْـكَام صَنعـة الكَلام ـ تحقيق: مُحمَّد رضـوان الدَّايَة ـ دار الثَّقافة ـ بيروت ـ د.ت ص: 95، 141، 142، 236.

(13) مُقدِّمَـة ابـنِ خلـدون ـ الجُـزءُ الأوَّل ـ دَار إحيَاء التُّـراثِ العَربيِّ ـ بيروت ـ لبنان ـ الطَّبعة الثَّالثة ـ 1999 ـ ص: 100 ـ 101.

(14) د. عَلـي الجنـدي ـ في تَاريـخِ الأدَبِ الجَاهِلي ـ دَار غَريب للطِّبَاعَة ـ 1998 ـ ص:269.

(15) انْظُـرْ عَلى سَـبيلِ المِثَـالِ: د. زكـي مُبَـارك (1891 ـ 1952): النَّثر الفَنِّـيِّ فـي القَرنِ الرَّابعِ - الجُزءُ الأوَّل ـ ص: 65، د. شـوقي ضيف (1910 ـ 2005): الفنُّ ومذاهبُهُ في النَّثرِ العَربيِّ - الطَّبعة الثَّانية ـ مكتبة الأندلس ـ بيـروت ـ 1956 ـ ص:32، عَاطِـف جُودة نَصـر: البَدِيع في تُرَاثِنَا الشِّـعْريِّ ـ مجلَّة: (فُصُول) ـ مارس1984 ـ ص: 73.

وَبَيْنَمَـا يـرى د. طـه حُسَـين (1889 ـ 1973)» أنَّنَـا لا نَسْـتَطيعُ بِحَـالٍ مِنَ الأحْـوَالِ - مَهْمَا نَحْرصُ عَلـى أنْ نَكونَ مِنْ أنْصَارِ العَصْرِ الجَاهِليِّ وَعُشَّـاقِه ـ أنْ نَطْمَئِـنَ إلـى أنَّ هَذَا العَصْـرَ كَانَ لَهُ نَثْرٌ فَنِّيٌّ، وَالَّذي لَيْسَ فيْه شَـكٌ أنَّ أقـدَمَ نَـصٍّ يُمْكِنُ أنْ نَطمَئِنَ إليْـهِ هُوَ القُرآن»: مِنْ حَديثِ الشِّـعرِ وَالنَّثرِ- دَار المَعَارف ـ 1965 ـ ص:24. نرى د. زكي مبارك قَد احْتَجَّ عَلى وُجُودِ نَثْرٍ فَنِّيٍّ

في الجَاهِليَّةِ بِقولِهِ: «إنَّ القُرآنَ يُشيرُ إلى أنَّهُ كَانَتْ هُنَاكَ كُتُبٌ دِيْنِيَّةٌ أوْ أدَبيَّةٌ لَمْ يَطَّلِعْ عَليْهَا النَّبيُّ عليْهِ السَّلامُ حَتَّى لا يُتَّهمُ بِأنَّهُ لَفَّقَ القُرآنَ ممَّا نُقِلَ إليْهِ مِنْ عُلُومِ الأوَّليْنَ: «وَمَا كُنْتَ تَتلو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِيْنِكَ إذًا لارْتَابَ المُبْطُلونَ»، وَأضَافَ أنَّ « فُقْدَانَ تلكَ الآثارِ لا يَكْفِي لإنْكَارِ أنَّهُ كَانَ لَهَا نَصِيْبٌ مِنَ الوُجودِ»: النَّثرُ الفَنِّيُّ في القَرْنِ الرَّابعِ - الجُزءُ الأوَّل ـ ص:34.

(16) د: نصر حَامد أبو زَيد ـ مَفْهُومُ النَّصِّ ـ الهيئَة المِصْريَّة العَامة للكِتَاب ـ 1990 ـ ص: 91.

(17) الجَاحظ - البيانُ والتَّبيين ـ تحقيق وشرح: عبد السَّلام محمد هارون ـ الجُزءُ الأوَّل ـ مطبعة لجنة التَّأليف والتَّرجمة والنَّشر ـ الطَّبعة الأولى ـ 1948 ـ ص:289.

(18) أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي ـ ذيْلُ الأمَالي والنَّوادر ـ المطبعة الكُبرى الأميريَّة ببولاق ـ الطَّبعة الأولى ـ 1324هـ ـ ص: 127.

(19) أبو الفرج الأصفهاني ـ كِتَاب الأغانِي ـ الجُزءُ التَّاسِع ـ الهيئة المِصْريَّة العَامة للكِتَاب ـ 2001 ـ ص:84.

(20) أبو عبد اللَّه محمَّد بن إسحاق بن يسار، المُطَّلِبي ـ سِيرةُ النَّبيِّ صلى اللَّه عليه وسلَّم ـ هَذَّبَها: أبو محمَّد عبد الملك بن هشام بن أيُّوب، الحِمْيَريُّ، وحققَّها: محمَّد مُحيي الدِّين عبد الحميد ـ الجُزءُ الأوَّل ـ مكتبة محمد علي صُبيح ـ 1971 ـ راجعْ ص: 8: 10.

(21) أبو عمر أحمد بن محمَّد بن عبد ربه ـ العِقدُ الفَريد ـ الجُزءُ الأوَّلُ ـ مطبعة الجمالية ـ الطَّبعة الأولى ـ 1913 ـ وَقَدْ أوْرَدَها ـ بإيجازٍ ـ صاحبُ: (المَثَل السَّائر) الجُزءُ الأوَّل ـ سابق - ص: 197.

(22) ذيلُ الأمالي والنَّوادر - الجُزءُ الأوَّل - سابق ـ ص:134.

(23) عن: محمَّد عفيفي مطر ـ شُروخٌ في مِرْآةِ الأسْلافِ ـ منشورات وزارة الثَّقافة والإعلام العراقيَّة ـ دار الرَّشيد ـ 1982 ـ ص:17.

(24) السَّابق ـ ص:18.

(25) ديفين ستيوارت ـ سابق ـ ص:8، ويُنْظَرُ تفصيلُ ذلكَ في: «بدايات الشِّعر العَربيِّ بينَ الكمِّ والكَيْف» لمحمَّد عوني عبد الرَّؤوف، و:»مُلاحَظات حولَ مسألةِ العِلاقةِ بينَ الكمِّ والنَّبر في الشِّعر العَربيِّ» لسعيد بحيري، بمجلَّة: (فُصُول)، يونيه1996.

(26) البَيَان والتَّبيين ـ الجزءُ الأوَّل ـ سابق ـ ص:217، وأوْرَدَها ابنُ رشِيق القَيروانيّ في: (العُمْدَة) ـ الجُزءُ الأوَّل ـ ص:20.

(27) البَيَان والتَّبين: الجُزءُ الأوَّل ـ سابق ـ ص: 285.

(28) أبو الفرجِ الأصْفهانيُّ ـ كِتابُ الأغاني ـ الجُزءُ الخَامِس عَشَر ـ الهيئة المِصْريَّة العَامة للكِتَاب ـ 2001 ـ ص: 246، العِقْد الفَريد ـ الجُزءُ الثَّاني ـ سابق ـ ص:385.

(29) كِتَابُ الأغَانِي ـ الجُزءُ الخَامِس عَشَر ـ سابق ـ ص:147، البَيَان والتَّبيين ـ الجُزءُ الأوَّل ـ سَابق ـ ص:309، نَقْدُ النَّثر، لِقُدَامة بن جعفر ـ تحقيق: د. طه حُسَين وعبد الحميد العبادي ـ المطبعة الأميريَّة ببولاق ـ 1941 ـ ص ص: 110 ـ 111، العِقْد الفَريد ـ الجُزءُ الثَّاني ـ سابق ـ ص:385، صُبْح الأعْشَى، للشَّيخِ أبي العبَّاس أحمد القَلقشنديِّ ـ الجُزءُ الأوَّل ـ طبعة دَار الكتب الخديويَّة ـ 1913 ـ ص: 212.

(30) البَيَان والتَّبيين ـ الجُزءُ الأوَّل ـ سابق ـ ص:387، وَوَرَدَ كذلكَ في: لِسَانِ العَرَب ـ الجُزءُ السَّادس ـ سابق ـ ص: 180.

(31) السَّابق ـ ص:290.

(32) نَقْدُ النَّثر ـ سابق ـ ص:121.

(33) مُقدِّمة ابنِ خلدون ـ سَابق ـ ص:72.

(34) المَثَلُ السَّائر ـ الجُزءُ الأوَّل ـ سابق ـ ص:196.

(35) أبو هَلالٍ العَسكري ـ كتاب الصِّنَاعتينِ - سابق ـ ص: 286.

(36) نَقْدُ النَّثر ـ سابق ـ ص ص: 119 ـ 120.

(37) المَثَلُ السَّائر ـ الجُزءُ الأوَّل ـ سابق ـ ص:196، وَرَاجِعْ كَذلكَ: كِتَاب الصِّنَاعتينِ ـ سابق ـ ص: 286.

(38) نَقْدُ النَّثر ـ سابق ـ ص ص: 121 ـ 122.

(39) الحَاقَّةُ ـ ص ص:41 ـ 42.

(40) عن: ديفين ستيوارت ـ سابق ـ ص:10.

(41) فُصِّلَت ـ 3.

(42) ديفين ستيوارت ـ سابق ـ ص:38.

(43) عبد القاهِر الجُرجاني ـ دلائلُ الإعْجاز ـ علَّق عليه: محمَّد رشيد رضا ـ دار المعرفة: بيروت ـ الطَّبعة الأولى ـ 1994 ـ ص:334.

(44) يَتَمثَّلُ هذا في مَا وَصَلَنَا عن مُسَيلِمَة بن حبيب (الكذَّاب)، في قرآنِهِ، المَزْعُوم؛ الَّذي يتلصَّصُ فيه على إيقاعاتِ النَّظمِ القُرآنيِّ، كَمَا نَجِدُهُ في قوله: «وَالمبذرَاتِ زرْعا، والحَاصِدَاتِ حَصْدا، والذَّاريَاتِ قَمْحَا، وَالطَّاحِنَات طَحْنَا، وَالعَاجِنَـاتِ عَجْنَا، وَالخَابِزَاتِ خَبْزَا، وَالثَّاردَاتِ ثَـرْدَا، وَاللاقِمَاتِ لقْمَا، إهَالَةً وسَنًّا.. لَقَدْ فُضِّلتُمْ على أهلِ الوَبَر، وَما سَبَقَكُمْ أهلُ المَدَر، رِيْفُكُم فامْنَعُوه، وَالمُعْتَرّ فَآووه، وَالبَاغِي فَنَاوِئوه..» عنْ: مُصطفى صَادق الرَّافعِي - إعْجَاز القُرآن وَالبَلاغة النَّبويَّة - مكتبة الإيمان ـ 1997 ـ ص:151.

وقولـه: «وَالشَّـمسِ وَضُحَاهَا، فـي ضَوْئِهَا وَمَجْلاهَا، وَالليْـلِ إذَا عَدَاهَا، يَطْلُبهَا لِيَغْشَـاهَا، فَأدْرَكَهَا حَتَّى أتَاهَا، وَأطْفَأَ نُوْرَهَا وَمَحَاهَا» عن: هَامِشِ: البَيَان والتَّبيين ـ الجُزءُ الأوَّل ـ تحقيق وشـرح: عبد السَّلام محمَّد هارون ـ مطبعة التَّأليف والتَّرجمة والنَّشر ـ الطَّبعة الأولى ـ 1948 ـ ص:359.

(45) عن: زكي مبارك ـ النَّثر الفَنِّيُّ في القرنِ الرَّابع ـ الجُزءُ الأوَّل ـ

سابق ــ ص ص:68 ــ 69.

(46) أحمد أمين- ضُحَى الإسْلام- الجُزءُ الأوَّل ــ الهيئة المِصْريَّة العَامة لِلكِتَاب ــ 1997 ــ ص:187.

(47) السَّــابق ــ ص:229، وَيُرَاجَــعُ كَذلــكَ: مِنْ حَديثِ الشِّــعرِ وَالنَّثرِ، لطه حُسَين ــ دار المعارف بمصر ــ 1965 ــ ص:79.

(48) أحمد أمين ــ ضُحَى الإسْلام ــ الجُزءُ الأوَّل ــ سابق ــ ص:65.

(49) د. إحْسَــان عبَّــاس ــ عبــد الحَميد يحيــى الكَاتِب، وَمَــا تبقَّى مِنْ رَسَــائِلِهِ وَرَسَائِلِ سَــالمٍ أبِي العَلاء ــ دار الشُّروق ــ عَمَّان، الأردن ــ 1988 ــ ص:138.

(50) السَّابق ــ ص:142.

(51) السَّابق ــ الصَّفحة نفسها.

(52) السَّابق ــ ص:314.

(53) السَّابق ــ ص:164.

(54) هــو عبــدُ الحَميدِ بنُ يحيى ســعيد العَامريُّ، الشَّــهيرُ بعبدِ الحَميد الكَاتِبِ، نشأَ في الأنْبَار بالعِراق، وعَمِلَ مُعلِّمَ صِبْيانٍ في شَبابِهِ، وتنقَّلَ بينَ عدَّةِ أماكنَ، ثُمَّ التَحَقَ بديوانِ الرَّسائلِ في عهدِ هشَام بن عبد المَلك، وتخرَّجَ على يدِ سَــالمٍ رئيسِ الدِّيوان؛ وأوَّلِ مَنْ أحْدَث تَحَوُّلاً في الكِتَابَةِ الفَنِّيَّة، تَنَبَّهَ لَهُ مَرَوَان بنُ محمَّد، فاتَّخذَهُ كَاتبَ دَوْلَته، وَاستَمَرَّ عبدُ الحميدِ مُخْلصًا لَهُ، وَوَفيًا، حَتَّى بَعْدَ أنْ هُزِمَ في مَوْقِعَةِ الزَّاب؛ حَيْثُ فَرَّ معَهُ إلى مصرَ، فَقُتلا معًا في بوصير ســنة 132هـ، ويُعَدُّ عبد الحَميــد الرَّائدَ الحَقيقيَّ لِهَذَا الاتِّجاهِ بينَ كُتَّابِ الرَّسَــائلِ، فقد دبَّجَ رَسَــائلَ ذاتَ سَلاسَةٍ وَحُسْنِ تَقْسِيم؛ مُعْتَمِدًا عَلى طَاقَاتِ الازْدِوَاجِ؛ فَصَارَتْ رَسَائِلُهُ نَمَاذِجَ يَحْتَذيْهَا البُلَغَاءُ مِنْ بَعْدِه.

(55) أبو منصورٍ عبدُ المَلكِ بن محمد إسْــماعيل الثَّعالِبيُّ ــ يتيمةُ الدَّهر

في أحْوَال العَصْر ــ تحقيق: محمَّد مُحيي الدِّين عبد الحميد ــ الجُزءُ الثَّالث ــ مطبعة السَّعادة بالقاهرة ــ الطَّبعة الثَّانية ــ 1956 ــ ص:158.

(56)عَنْ: الفّنّ وَمَذَاهِبه في النَّثْرِ العَربِيّ ــ سابق - ص:67.

(57) عَـنْ: أحمـد أميـن ــ ضُحَـى الإسْـلام ــ الجُـزءُ الأوَّل ــ سـابق ــ ص:216، واللافـتُ أنَّ الأسْـمَاءَ المَذْكُـورَة، لَمْ تَكُـنْ عَربيَّةً؛ بَلْ فَارسِـيَّةً؛ يَتَجَسَّدُ فيهَا التِقاءُ الثَّقَافتينِ، كَمَا أنَّهُمْ مِنْ أصْحَابِ النَّثرِ الكِتَابِيّ، وَلَيْسَ النَّثر الخَطَابِيّ.

(58) مِنْ حَدِيْثِ الشِّعرِ وَالنَّثر ــ سابق ــ ص ص: 48 ــ 49.

(59) عَـنْ: مُقدِّمَة ابنِ خلدون ــ الجُـزءُ الأوَّل ــ دار إحياءِ التُّراث العَرَبيِّ ــ بيروت ــ الطَّبعة الأولى ــ 1999 ــ ص:228، وَقَدْ وَرَدَتْ هذه الرِّسـالةُ في العَديـدِ من كُتُـبِ الأدبِ العربيِّ؛ باخْتِلافاتٍ طَفِيفـةٍ، ومنها: كِتَابُ الوزراءِ وَالكُتَّـابِ، للجِهْشِـيَاري ــ تحقيـق: مُصطفى السَّـقا، وإبراهيـم الإبياري، وعبـد الحفيظ شـلبي ــ مطبعة الحَلَبِـي ــ القاهرة ــ 1938 ــ ص ص: 74 ــ 79، كَمَـا وَرَدَتْ فـي: صُبْحِ الأعْشَـى ــ الجزءُ الأوَّل ــ سـابق ــ ص ص: 85 ــ 89، وَمِـنَ الكُتُبِ المُعَاصِرَةِ وَرَدَتْ في كتاب: عَصْر المَأمُون، للدُّكتور أحمـد فريد رفاعـي ــ المُجلَّد الثَّاني ــ الطَّبعة الرَّابعة ــ مَطْبَعة دار الكُتُب المِصْريَّـة ــ 1928 ــ ص ص: 53 ــ 54، كَمَـا وَرَدَتْ فـي: المُنْتَخَب مِنْ أدبِ العَـرَب، لطه حُسَـين، وأحمد السَّـكندريِّ، وأحمد أمين، وعَلـي الجَارم، وعبد العزيز البِشْري ــ مطبعة وزارة المَعَارف العمومية ــ 1936 ــ ص:173.

(60) عَـنْ: د. أحمـد فريد رفاعـي ــ عَصْر المَأمُـون ــ المجلد الثَّاني ــ الطَّبعة الرَّابعة ــ ص ص:60 ــ 61.

(61) مِنْ حَديثِ الشِّعرِ وَالنَّثر ــ سابق ــ ص:46.

(62) الفَنُّ وَمَذَاهِبُهُ في النَّثرِ العَرَبيِّ ــ سابق ــ ص:71.

(63) السَّابق ــ ص:73.

(64) السَّابق ـ ص:74.

(65) عبدُ اللّهِ بنُ المُقَفَّع، هُوَ رُوْزبَه بن دَاذَويَه، وُلِدَ سنةَ 106هـ، لأبٍ كَانَ مِنْ عُمَّالِ الحَجَّاج على الخَرَاج، وَكَانَ يَدِيْنُ بالزِّرَادشْتيَّة، وَظلَّ ابنُ المُقَفَّعِ مَجُوسِيًّا، حَتَّى أوائلِ الدَّولَةِ العبَّاسِيَّة، أتْقَنَ اللغةَ العَربيَّةَ، وَتَثَقَّفَ بِثَقَافَتِهَا ـ على أيدي آل الأهْتم بالبَصْرَة ـ بِجَانب ثَقَافَتِهِ الفَارسِيَّةِ وَاليونَانيَّةِ، وَرَغْم دخوله في الإسْلام فإنَّ رُواةً كَثيريْنَ يُشَكِّكونَ في إسْلامِه، حَتَّى رَوَى المُرْتَضَى في أمَاليْه عَن المَهْديِّ قوْله: إنَّ زَنْدَقَةَ بن المُقفَّع هيَ الَّتي قَتَلَتْهُ، القتلَةَ الشَّنيْعَةَ، فَيُقَالُ أنَّه قَصَدَ ديوانَ الحُكُومَةِ بالبَصْرَةِ، وَاسْتَأذَنَ سُفْيَانَ، فَأدْخَلَه في مَقْصُورةٍ، هيَ في الأصْلِ تَنُّورٌ، وَقَالَ لَهُ: وَاللّه لأقْتُلَنَّكَ قِتْلَةً يَسَيْرُ بذِكْرهَا الرُّكْبَانُ، وَأخَذَ يُقَطِّعُ أعْضَاءَهُ قِطْعَةً قِطْعَةً، وَيُلْقِيْهَا في النَّار، وَهُوَ يَرَاهَا تَحْتَرقُ، حَتَّى مَاتَ سَنَةَ 143هـ، وَقِيلَ 145هـ، وَلَمْ يُتَرجِمْ ابنُ المُقَفَّع: كَليْلَة وَدِمْنَة، فَقَط؛ فَقَدْ كَانَ أوَّلَ مَنْ تَرْجَمَ كُتُبَ أرسْطو في المَنْطِقِ وَالجَدَلِ وَالقِيَاسِ إلى العَربيَّةِ، وَمِنْ آثَارِهِ الَّتي بَقِيَتْ: الأدَبُ الصَّغير ـ الأدَبُ الكَبيْرُ، أوْ: اليَتِيْمَة، وَلَهُ كَذَلكَ: رِسَالَةُ الصَّحَابَة، وابنُ المُقَفَّع ثَاني اثْنَيْنِ قَامَتْ على جُهْدِهِمَا الكِتَابَةُ الفَنِّيَّةُ الجَدِيدَةُ؛ بِجَانِبِ عبدِ الحَميدِ الكَاتِبِ.

(66) مِنْ حَدِيثِ الشِّعرِ وَالنَّثرِ ـ سَابق ـ ص ص41 ـ 42.

(67) رَاجِعْ، على سبيلِ المِثالِ: مُصطفى صَادق الرَّافعي ـ إعجازُ القُرآن والبَلاغَة النَّبويَّة ـ مكتبة الإيمان ـ د.ت ـ ص:194، طه حُسَين ـ مِنْ حَدِيثِ الشِّعرِ وَالنَّثر ـ ص:51. عَلى الرَّغْمِ مِنَ الإشَادَاتِ المُتَواليَةِ، مِنْ طه حُسَين، في هذا الكِتَابِ، بابنِ المُقَفَّعِ، رَاجِعْ صَفَحَاتِ:28، 40، 42، 48، 49.

(68) مِنْ حَدَيثِ الشِّعرِ وَالنَّثر ـ سَابق ـ ص:49.

(69) عبدُ اللّهِ بنُ المُقَفَّع ـ كَليْلَة وَدِمْنَة ـ تعليق: د. طَه حُسَين بك وعبد الوهَّاب عزَّام ـ دار المعارف ـ الطَّبعة الثَّالثة ـ د. ت ـ ص ص:26 ـ 28.

(70) د. شَوقي ضَيف ـ الفنُّ ومذاهبُهُ في النَّثرِ العَربيِّ ـ سابق ـ ص:15.

(71) البَيَـانُ والتَّبييـن ـ الجُـزءُ الأوَّل ـ سـابق ـ ص 520، وَهُـوَ مَـا يذكُـرُهُ، كَذَلكَ، فـي: الحَيَوان - الجُـزءُ الثَّالـث ـ ص:66، وَيَذْكُرُهُ في بدايَةِ: البُخَلاءِ، وَسَـهْلٌ بنُ هَارون خَطِيبٌ وَشَـاعرٌ وَأديبٌ مُتَرسِّـلٌ، منْ أصْلٍ فَارسِـيٍّ، وُلِدَ في اسْتِميسَـان (بين الأهواز والبصرة)، سَـنَةَ 215هـ، ثُمَّ تَرَكَ مَوْطِنَـهُ إلـى البَصْرَةِ، ثُمَّ إلـى بَغدادَ، وَاتَّصـلَ بالفَضْلِ بنِ سَـهلٍ؛ الَّذي قدَّمَهُ بِـدَوْرِهِ إلى المَأمُونِ؛ الَّـذي أُعْجَبَ بِبَيَانِهِ وَعَقْلِه؛ فَجَعَلَـهُ عَلى بيتِ الحِكْمَةِ، وَكَانَ الجَاحِظُ يُكْبِرُ سَهْلاً وَيُقدِّرُهُ تقديْرًا، نَفْهَمُ منْهُ، أنَّهُ كَانَ أهَمَّ كُتَّابِ القَرْنِ الثَّاني الهِجْرِيِّ، وَفي كِتَابَتِهِ شُـعُوبيَّةٌ شَـدِيدَةُ العَصَبيَّة عَلى العَربيَّةِ، وَمِـنْ آثارِهِ: تَعْلَـة وَعَفْرَة؛ في مُعَارَضَةِ: كَلِيْلَةِ وَدِمْنَـة، و: الوَامِقُ وَالعَذْرَاء، و: تَدْبيْرُ المُلْكِ وَالسِّيَاسَةِ، وَلَمْ يَصْلنَا منْ هذِهِ الآثارِ إلاَّ النَذْرَ القليْلَ؛ الَّذي أوْرَدَهُ الجَاحِظُ في: البُخَلاء، وَ: البَيَان وَالتَّبيين.

(72) د. أحمـد فريـد رِفاعي ـ عَصْرُ المَأمُون ـ المجلَّد الثَّاني ـ الطَّبعة الرَّابعـة ـ مُلْحـق الكِتَاب الثَّالث ـ مطبعة دَار الكُتُب المِصْريَّة ـ 1928 ـ ص: 50.

(73) الجَاحِظُ ـ البُخَلاء ـ ضَبَطَهُ وَصَحَّحَه: أحمد العَزَامِريّ بك، عليّ الجَارم ـ الجزء الأول ـ مطبعة دار الكُتُب المِصْريَّة - 1939 ـ ص: 33.

(74) السَّابق - ص ص: 40 ـ 41.

(75) الفَنُّ وَمَذَاهِبُهُ في النَّثرِ العَرَبيِّ - سَابق ـ ص:90.

(76) السَّابق - ص ص:91 ـ 92.

(77) الجَاحِـظُ: أبُو عُثمانَ عَمْرو بن بحر بن مَحْبُوب الكِنَاني البَصْريُّ، وُلِـدَ بِالبَصْـرَةِ سَـنَةَ 159هـ، وَنَشَـأَ وَدَرَسَ بهَا، وَكَانَ مُشَـوَّهَ الخَلْـقِ جَاحِظَ العَيْنَيـنِ؛ فَانْصَـرَفَ، عَن النَّاسِ، إلى التَّحصِيْلِ وَالكِتَابَـةِ وَالتَّأليفِ، وَيَرْوِي ابنُ النَّديْم عَنْهُ أنَّهُ كَانَ يَكْتَري دَكَاكِين الوَرَّاقين، وَيَلْبَثُ فِيْهَا؛ لِلْقِرَاءَة؛ وَلِهَذَا احْتَشَـدَتْ كُتُبُـهُ بِالثَّقَافَاتِ المُتَنَوِّعَةِ؛ فَكَانَتْ أشْـبَهَ بِدَوائِرِ مَعَارِف،

وَقَـدْ لازَمَ إبراهيـمَ بنَ سَـيَّار النَّظـام المُتَكلِّـمَ المُعْتَزَلِيَّ، وَأخَـذَ عَنْهُ، حَتَّى أصْبَـحَ عَلى رَأسِ جَمَاعَةٍ تُنْسَـبُ إليْهِ، فُلِجَ في آخِرِ حَيَاتِـه، وَمَاتَ في البَصْرَةِ وَالكِتَـابُ على صَدْرِه؛ قَتَلَتْـهُ مُجَلَّداتٌ مِنَ الكُتُبِ وَقَعَـتْ عَليْهِ، وَفي فَضْلِه يَقـولُ مُحْيِـي الدِّيـنِ اللاذِقَانِـي: « الجَاحِظُ في أمَّـةِ العَرَبِ مِثلُ أرِسْـطُو عِنْدَ الإغْرِيْـقِ، مَـا مِنْ فِكـرَةٍ إلاَّ وَإليْهِ تَعُودُ، وَمَا مِنْ عِلْـمٍ إلاَّ وَعِنْدَهُ مِنْهُ نَصِيبٌ »: ـ آبَـاءُ الحَدَاثَـةِ العَرَبِيَّـةِ ـ الهيئَـة المِصْرِيَّة العَامة لِلْكِتَـاب ـ 2003 ـ ص: 19. وَمِنْ آثارِه: الحَيَوَانُ، وَ: البَيَانُ وَالتَّبيين، وَ: البُخَلاءُ، وَ: سِـحْرُ البَيَانِ، و: مَجْمُوعُ الرَّسَائل، وَ: فَضِيْلَةُ المُعْتَزَلَة، وَ: النَّبِيُّ وَالمُتَنَبيّ، وَتُوفِّيَ سَنَةَ 255هـ.

(78) البُخَلاءُ ـ مُقدِّمَةُ الكِتَابِ ـ ص ص: 6 ـ 7.

(79) مِنْ حَديثِ الشِّعرِ وَالنَّثرِ ـ سَابق ـ ص: 63.

(80) الفَنُّ وَمَذَاهِبُهُ في النَّثرِ العَرَبِي ـ سابق ـ ص:100.

(81) السَّابق ـ ص: 107.

(82) البُخَلاءُ ـ سابق ـ ص:17.

(83) السَّابق ـ ص ص: 19 : 20.

(84) الفَنُّ وَمَذَاهِبُهُ في النَّثرِ العَرَبِيِّ ـ سابق ـ ص: 105 ـ 106.

(85) الجَاحِـظُ ـ الحَيَوانُ ـ تحقيق: عبدُ السَّـلام هَارون ـ الجُزءُ الأوَّل ـ مطبعة البَابِي الحَلَبِي ـ الطَّبعة الثَّانية ـ 1936 ـ ص:3.

(86) الفَنُّ وَمَذَاهِبُهُ في النَّثرِ العَرَبِيِّ ـ سَابق ـ ص:132.

(87) مِنْ حَدِيثِ الشِّعرِ وَالنَّثرِ ـ سَابق ـ ص:79.

(88) عبد الفتاح كليطو ـ المَقَامَات: السَّردُ وَالأنْسَاقُ الثَّقافيَّة ـ ترجمة: عبد الكبير الشَّرقاوي ـ دار توبقال ـ المغرب ـ 1993 ـ ص ص:74 ـ 75. مِنْ النَّماذجِ شَديدةِ الدَّلالةِ عَلى المُغَالاة في التَّرفِ، في ذَلكَ العَهْدِ، مَا أوْرَدَهُ يَاقـوتُ، في مُعْجَمِـهِ [13 /103] عَنْ الوزير المُهَلَّبِيِّ (ت 352هـ)، أنَّه كَانَ إذَا

أرَادَ أكْلَ شـيءٍ بِملْعَقَـةٍ؛ كَالأرْزِ وَاللبـنِ، وَقَفَ مِنْ جَانِبِـهِ الأيْمَنِ غُلامٌ مَعَهُ نَحْوَ ثَلاثيْنَ مِلْعَقَةً زُجَاجًا مَجْرُوْدًا، فَيَأخُذُ مِنْهُ مِلْعَقَةً يَأكُلُ بِهَا مِنْ ذَلكَ اللون لُقْمَـةً وَاحِـدَةً، ثُمَّ يَدْفَعُهَا إلى غُلامٍ آخَـرٍ، قَامَ في الجَانِبِ الأيْسَـرِ، ثُمَّ يَأخُذُ أخْـرَى، فَيَفْعَـل بِهَا فِعْلَ الأوْلَـى، حَتَّى يَنَالَ الكِفَايَةَ؛ لِئَـلَّا يُعِيْد المِلْعَقَةَ إلى فِيْهِ دُفْعَةً ثَانِيَةً.»

(89) مِنْ حَديْثِ الشِّعرِ وَالنَّثرِ ــ سَابق ــ ص:42.

(90) الفَنُّ وَمَذَاهِبُهُ في النَّثرِ العَربيِّ ــ سَابق ــ ص 156، وَفي: المُنْتَخَب مِـنْ أدَبِ العَـرَب ــ وُصِـفَ هَذَا النَّثـرُ الفَنِّيُّ، بِأنَّهُ شِـعْرٌ مَنْثُورٌ. رَاجِـعْ: الجُزْءَ الثَّانِي ــ ص:219، ص:213.

(91) المَقَامَاتُ: السَّردُ وَالأنْسَاقُ ــ سَابق ــ ص:75.

(92) مَقَامَـاتُ أبـي الفَضْـلِ بَديعِ الزَّمَـانِ الهَمَذَانِـيِّ ــ شَـرَحَهَا وَحَقَّقَهَا محمَّـد مُحيـي الدِّين عبد الحَميد ــ الهيئة المِصْريَّة العَامة لِلْكِتَاب ــ 2002 ــ ص:111.

(93) المَقَامَاتُ: السَّردُ وَالأنْسَاق ــ سَابق ــ ص:77.

(94) المَرْجِعُ السَّابق ــ الصَّفحة نَفْسهَا.

(95) المَرْجِعُ السَّابق ــ الصَّفحة نَفْسهَا.

(96) المَرْجِعُ السَّابق ــ الصَّفحة نَفْسهَا.

(97) المَرْجِعُ السَّابق ــ ص:79.

(98) ابنُ طباطبا العَلوي ــ عِيَارُ الشِّـعر ــ تحقيق: طه الحَاجِري ومحمَّد زغلول سلاَّم ــ المكتبة التِّجاريَّة ــ القاهرة ــ 1965 ــ ص:78.

(99) هُـوَ الوزيـرُ الأديبُ أبو الفضْـلِ محمَّد بن الحُسَـين، المَعْروف بابنِ العَميـدِ وَبالأسْـتَاذِ الرَّئيـسِ وَالجَاحِظِ الأخيْـرِ، وَكَانَ يُضْرَبُ بِـهِ المَثَلُ في البَلاغَـةِ، وَكَانَ يُقَالُ: «بُدِئَتْ الكِتَابَةُ بِعَبْـدِ الحَميدِ وَخُتِمَتْ بِابنِ العَمِيد»،

وَهُـوَ أُسْـتَاذُ عَصْرِه، وَرَائِـدُ تَيَّارٍ أدبيٍّ اسْـتَمرَّ قُرونًا طَويْلَةً، اعْتَمَـدَ فِيْه عَلى الْتِزَام السَّـجع وَالتَّوسُّع في البَديع، وَهُوَ يَنْتَمي إلى أصْلٍ فَارسِيٍّ، وَقَدْ اشْتُهِرَ بالعِلْم وَالفِقْه وَالمَنْطِق وَالهَنْدَسَـة وَالفَلْسَفَة وَالطَّبيعَة، وَأصْبَحَ وَزيْرًا، لِرُكْنِ الدَّولَة بن بُويَه سَنَةَ 328، ثُمَّ عَضُد الدَّولة بن بُويَه، فَأسْهَمَ في تَأسْيس الدَّولة البُوَيْهيَّة في فَارِس وَالعِرَاق، وَتُوفِّيَ سَنَةَ 360هـ.

(100) إيفريـت رسـون ـ السَّـجْعُ بَيْـنَ التَّوحِيْـدِيِّ وَمُعَاصِريْـهِ ـ مجلَّـة: (فُصُول) ـ شِتَاء 1996 ـ ص: 317.

(101) يَتِيْمَةُ الدَّهْر ـ الجزءُ الثَّالث ـ ص:167.

(102) هُوَ أبُو القَاسِـم إسـماعيل الصَّاحب بن عبَّاد، ثَانِـي وَزيرٍ يَلْمَع في بَلاط آل بُويَه، وَأحَدُ أبْرَزِ البُلَغَاءِ في عَصْرِه، لُقِّبَ بِالصَّاحِبِ؛ لِمُصَاحَبَتِه ابْن العَمِيـدِ، أخَذَ الأدَبَ على يَدَيْ ابْنِ فَـارسٍ اللغويِّ المَعْروفِ، وَمِنْ أبِي الفَضْلِ ابنِ العَمِيدِ، قَضَى في الوزارةِ ثَمَانِيَةَ عَشَـر عَامًا، رَعَى فِيْهَا الأدَبَاءَ والشُّعَرَاءَ؛ فَالتَفُّوا حَوْلَهُ وَأكْبَروه وَمَدحُوه، وَلِبيَانِ مَنْزِلتِه يَحْكِي الثَّعالِبيُّ، في: يَتِيمَةِ الدَّهْـرِ، كَثِيْرًا مِـنْ فِقَرِ كَلامِه؛ الَّتي كَانَتْ تَجْري مَجْـرَى المَثَلِ، وَكَانَ الصَّاحِـبُ مُعْجَبًـا بِفَنِّـه، تَيَّاهًا بِـهِ، وَقَدْ اسْـتَغَلَّ مُعَاصِرُه وَخصْمُـهُ أبُو حَيَّان التَّوحيـديُّ فيْـهِ هذِهِ النَّزعَـةَ، وَحَمَلَ عَليْه ـ وَعَلى ابْنِ العَمِيدِ؛ أسْـتَاذِهِ ـ في كِتَابِه: مَثَالب الوَزِيْرِيْنِ، وَقَدْ تُوفِّيَ في سَنَةِ 385هـ.

(103) يَتِيْمَةُ الدَّهرِ ـ الجُزءُ الثَّالث ـ سَابق ـ ص:256.

(104) أبُـو إسْـحَاق الصَّابِـي، هُوَ إبراهيم بـن هِلالٍ الحَرَّانِـيّ الصَّابئ، لَـمْ يَكُنْ مُسْـلِمًا، وَلكِـنَّ مَقْدِرَتَهُ على الإنْشَـاءِ البَلِيغ؛ ذِي السَّـجع الدَّقيق جَعَلَـتْ الشَّـهَادَات ـ كَمَا يقـولُ الثَّعالِبيُّ في اليَتِيْمَة - تَتَّفقُ لَـهُ، بِبلُوغ الغَايَةِ في البَرَاعَةِ وَالصِّنَاعَة؛ وَلأنَّهُ كَانَ «أوْحَدَ الدُّنيَا في إنْشَـاءِ الرَّسَـائِلِ»، كَمَا يقـولُ يَاقـوتٌ في مُعْجَمِـه، فَقَـدْ وَلاَّهُ الوَزيرُ المُهَلَّبـيّ ديوانَ الرَّسَـائِل بِبَغْدَاد سَـنَةَ 349هــ، وَيُقَالُ أنَّ مَوْلاهُ عِزَّ الدَّولة بِخْتِيَـار البُويَهِيَّ، عَرَضَ عَلَيْه الوَزَارَة

إنْ أسْـلَمَ فَامْتَنَـعَ؛ وَلَكِنَّهُ كَانَ حَسَـنَ العِشْـرَةِ لِلْمُسْـلِمِيْنَ لِدَرَجَـةِ أنَّه كَانَ يُشَـارِكُهم في صِيَام شَـهرِ رَمَضَـانَ وَكَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أدبَـاءِ عَصْرِهِ الكِبَارِ مِـنَ المُسْـلِمينَ - مِثْل الصَّاحِب بـنِ عَبَّاد ـ صَدَاقَاتٌ وَمَوَدَّاتٌ، حَبَسَـهُ عَضُدُ الدَّولةِ، فَشَـرَعَ في مَحْبَسِـهِ يُؤلِّفُ كِتَابَهُ: التَّاجِي، في أخْبَـارِ آلِ بُويَه، وَقَد تُوفِّيَ في سَنَةِ 384هـ ؛ وَهُوَ في الحَاديةِ وَالتِّسعِينَ مِنْ عُمْرِهِ.

(105) يَتِيْمَةُ الدَّهر ـ الجُزءُ الثَّانِي ـ سَابق ـ ص ص: 254 ـ 255.

(106) أبُـو العَبَّـاس أحمد بـن إبراهيم الضَّبِـيُّ؛ الوَزيرُ الأديـبُ، المُلَقَّبُ بالكَافِـي الأوْحَـد، الوزيـرُ بَعْدَ الصَّاحِـبِ أبي القَاسِـم بن عَبَّـاد، وَتلميذُهُ، وَكَانَ - كَمَـا ذَكَـرَ الثَّعَالِبِـيُّ - جُذْوةً مِنْ نَـارِهِ، وَنَهْرًا مِنْ بَحْـرِهِ، وَخَلِيْفَتُه النَّائِـبُ مَنَابَـهُ فـي حَيَاتِـه، وَالقَائِمُ مَقَامَـهُ بَعْـدَ وَفَاتِـهِ، وَكَانَ الصَّاحِبُ قَدْ اصْطَحَبَه مُنْذُ الصِّبَا، وَأدَّبَهُ بِأدَبِهِ وَقَدَّمَهُ على سَائِرِ نُدَمَائِه، وَنَصُّهُ المَذْكُورُ هُنَا، عَنْ: يَتِيْمَةِ الدَّهرِ ـ ج3 ـ ص ص: 293 ـ 294.

(107) أبُو بَكرٍ محمَّد بنُ العبَّاس الخُوَارزميُّ، الشَّاعرُ وَالأديبُ وَاللغَويُّ، وُلِدَ سَـنَةَ 323هـ، في خُوَارزمَ وَنَشَـأَ بِهَا وَإليْهَا يَنْتَسِـبُ، وَهُوَ ابنُ أخْتِ محمَّد بـن جَريـرِ الطَّبَـريّ؛ صَاحـب التَّاريْـخ المَعرُوف، غَـادَرَ خُـوَارِزْمَ إلـى العِرَاقِ وَالشَّـام؛ حِينَمَا تَفَتَّحَتْ مَوْهِبَتُهُ في الشِّـعرِ وَالنَّثرِ، أخَذَ عَن العُلَمَاءِ وَالشُّعَرَاءِ حَتَّـى صَقَلَ مَوْهِبَتَهُ، وَلَقِيَ سـيفَ الدَّولـةِ وَخَدَمَهُ، وَتَنَقَّلَ كَثِيْـرًا حَتَّى وَصَلَ إلى نيسَـابُورَ؛ فَلَقِيَ الصَّاحِبَ بنَ عَبَّاد، وَقَبْلَ وَفاتِهِ بعام جَرَتْ بَيْنَهُ وَبيْنَ بَديعِ الزَّمَانِ الهَمَذَانيِّ مُنَاظرَةُ شَـهيرَةٌ، وَيُعَدُّ دِيوانُ رَسَـائِلِهِ أرْقَى آثَارِ النَّثرِ الفَنِّيِّ، وَتُوفِّيَ سَنَةَ383 هـ، عنْ سِتِّينَ عامًا.

(108) رسـائل أبي بكـر الخوارزميِّ ـ الطَّبعة الأولى ـ مطبعة الجوائب ـ قسطنطينيَّة ـ 1297 ـ ص: 54.

(109) أبُـو الفَضْـلِ أحمـدُ بـنُ الحُسَـينِ الهَمَذَانِـيُّ، الكَاتِبُ المُتَرسِّـلُ وَالشَّـاعرُ المُبْدِعُ، وَاضِعُ أسـاسِ فنِّ المَقَامَةِ، وَمُحدِّدُ مَعَالِمِهَا بَعدَ أنْ رَسَـمَ

ابـنُ دُرَيـدُ (ــ 321هــ) الطَّرِيقَ إليْهَـا ــ وَقَدْ وُلِـدَ بهَمَذَانَ سَـنَةَ358هـ، وَإليْهَا يَنْتَسِـبُ، وَتَرَكَهَا وَهُوَ ابنُ اثْنَينِ وَعِشْـرِينَ سَـنَةً، وَتَثَقَّفَ على يَدَيْ أحمد بن فـارس اللغـويِّ المَعروفِ، ثُمَّ اتَّصـلَ بالصَّاحِبِ بنِ عَبَّـادِ، فَنَهَلَ منْـهُ وَتَزَوَّدَ، ثُـمَّ تَرَحَّـلَ كَثِيرًا، كَمَا يَـرْوي الثَّعَالِبيُّ، و يُـرْوَى أنَّهُ كَانَ يَتَمَتَّـعُ بِذَاكِرَةٍ قويَّـةٍ؛ بَـلْ خَارِقَةً، لِدَرَجَةِ أنَّـهُ يَحْفَظُ القَصِيْدَةَ الَّتي تَزيدُ على الخَمْسِـينَ بيتًا إذَا سَـمِعَهَا لأوَّلِ مَرَّةٍ، كَمَا كَانَ شَـغُوفًا بِالتَّجديد؛ لدَرَجةِ أنَّه كَانَ يُحَاوِلُ كِتَابَةَ كِتَابٍ يَخْلُو منَ الحُرُوفِ المُنْفَصِلَةِ، وآخَر تَكُونُ أوَّلُ سُطُورِهِ كُلِّهَا مِيْمًـا وَآخِرُهَـا جِيْمًا، وَآخَـر إذَا قُرِئَ مِنْ أوَّلِـهِ إلى آخِرِهِ يَكُـونُ كِتَابًا وَإذَا قُرِئَ مِنْ آخِرِهِ إلى أوَّلِهِ يَكُونُ جَوَابًا على هَذَا الكِتَابِ، وَيَذْكُرُ في رَسَائِلِهِ أنَّـهُ صَنَعَ أرْبَعَمَائَةَ مَقَامَة، وَلكنْ مَا وَصَلَنَا مِنْهَا غَيْرُ اثْنَيْنِ وَخَمْسِـيْنَ فقَط، وَالبَدِيعُ هُوَ أكْثَرُ أدبَاءِ عَصْرِهِ شُهْرَةً، وَإلى جَانِبِ مَقَامَاتِهِ الشَّهِيرَةِ، لَهُ دِيوانُ رَسَائِلَ، وَقَدْ تُوفِّيَ سَنَةَ 393هـ، وَهُوَ في الأرْبَعِينَ مِنْ عُمْرِهِ.

(110) عَـنْ: النَّثْـرِ الفَنِّـيِّ فـي القَـرْنِ الرَّابِـعِ ــ الجُزءُ الثَّاني ــ سَـابق ــ ص:353.

(111) قَابُوس بنُ وَشْمَكِيْر، أميْرٌ زِيَارِيٌ مِنْ أمَرَاءِ الزِّيَارِيِّينَ الفَارسيِّينَ، الَّذيـن حَكَمُـوا طبْرسْـتَانَ وَجُرْجَانَ، تَولَّـى الحُكْمَ عام 367هـ، وَقَـدْ لَقَّبَهُ الخليفـةُ العَبَّاسِـيُّ ــ عَلـى عَادَةِ هَـؤلاءِ الخُلفَاءِ فـي تَلقِيْبِ حُـكَّام الولايَات الفَارسِـيَّةِ ألقَابًا مُخْتَلفَةً ــ بِلقَبِ: شَـمْسِ المَعَالِي، اسْـتَهْدَفَتْهُ غَارَاتٌ مُتَوَالِيَةٌ مِنْ بَنِي بُوَيه، اضْطَرتَهُ في النِّهَايَةِ إلى الفِرَارِ مِنْ إمَارَتِه سَـنَةَ 371هـ، ثُمَّ عَادَ في سَـنةِ 388هـ، وَاسْتَرَدَّ مُلْكَهُ، غَيْرَ أنَّ جُنُودَهُ وَقُوَّادَهُ حَاصَرُوهُ في أُخرِيَاتِ أيَّامِـهِ؛ لِشِـدَّتِهِ عَليْهِمْ وَبَطْشِـهِ الشَّـدِيدِ بِهِمْ، وَاضطـرُّوهُ لِلتَّنازُلِ عـنْ مُلْكِهِ لابْنِـهِ مُتُوجَرَ، وَضَغَطوا عَلى ابْنِه حَتَّى اضطرُوهُ إلى حَبْسِـهِ في إحْدَى القِلاعِ بِجُرْجَـانَ، وَاسَـتمرَّ بِهَا حَتَّـى اغْتيلَ سَـنَةَ403هـ، جَمَعَ اليَزْدَاوِيُّ رَسَـائِلَهُ في كِتابٍ بِعُنوَانِ: كَمَال البَلاغَة.

(112) النَّثـرُ الفَنِّـيُّ في القَـرْنِ الرَّابعِ ـ الجُزءُ الثَّانـي ـ ص:278، : الفَنُّ وَمَذَاهِبُهُ في النَّثرِ العَرَبيِّ ـ سَابق ـ ص ص: 183 ـ 184.

(113) عبد الفتَّاح كليطو ـ المَقَامَاتُ:السَّردُ والأنْسَاقُ الثَّقَافيَّةُ ـ سَابق ـ ص:73.

(114) د. عبـد المَلـك مُرْتَـاض ـ في نَظَريَّـة الرِّوَايَة ـ عَالَـم المَعْرفَة ـ العـدد :240 ـ الكويـت ـ ديسـمبر 1998، وَيُنْظَـرُ الـرَّأيُ نَفْسُـهُ للكَاتِـب نَفْسِـهِ، فـي مجلَّةِ: (الأقـلام) العِرَاقيَّة ـ العـدد :12، 11 ـ تِشْـرين الثَّاني ـ كانُون أوَّل 1986 ـ ص:123.

(115) د. شَوقي ضَيف ـ المَقَامَة ـ الطَّبعة الثَّانية ـ دَار المَعَارف بِمِصْرِ ـ 1964 ـ ص:8.

(116) المَرْجِـعُ السَّـابق ـ ص ص: 8 ـ 9، وَرَاجِـعْ أيْضًـا: هَوَامِـش فـي الدِّرَامَـا وَالنَّقد، للدُّكتور إبرَاهيم حَمَادة ـ الهَيئة المِصْريَّة العَامة للكِتَابِ ـ 1988 ـ ص ص: 168 ـ 169.

(117) المَرْجِعُ السَّابق ـ ص:5.

(118) عبـد الفتَّـاح كليطـو ـ المَقَامَاتُ: السَّـردُ وَالأنْسَـاقُ الثَّقَافيَّة ـ سـابق ـ ص:77، وَرَاجِـعْ، كَذلـكَ: المَقَامَة، لشَـوقي ضَيـف - ص ص:78 ـ 79. وَأشْـهَرُ مَـن احْتَـذَى مَقَامَاتِ الحَريـريِّ: أبُو الطَّاهرِ محمَّد بنُ يُوسُـف السَّرقَسْـطِيُّ (ـ 538هـ)، في المَقَامَاتِ السَّرقَسْـطيَّة، وأحمدُ بنُ أبي بكرٍ بن أحمد الرَّازيُّ ـ في اثْنَتَي عَشَـرَ مَقَامَةً، كَتَبَهَا سَـنَة630هـ ـ وَزَينُ الدِّينِ بن سَيْقَل الجَزْريُّ (ـ 70هـ) ـ في المَقَامَاتِ الزَّينيَّة ـ وَالسِّيُوطِيُّ (ـ 911هـ) ـ في مَقَامَاتٍ أشْبَه بالرَّسَائلِ؛ حَيْثُ تَخْلو منْ بَطَلٍ وَرَاوٍ ـ وَفي القَرْنِ التَّاسِع عَشَـرَ كَانَـتْ مَقَامَاتُ نَاصِيف اليَازجـيِّ (1800 ـ 1871)المَعْرُوفَةِ بـ «مَجْمَع البَحْرَيـنِ» وَقَدْ شُـهِدَ لَهُ بالإجَادَةِ في احْتِذَاءِ الحَريريِّ، وَفي القَرْنِ العشـرينَ تُعَـدُ مَقَامَاتُ محمَّد المُوَيلِحي (1858 ـ 1930) المَعْرُوفَةِ بِحَديثِ عِيْسـى بنِ

هِشَــام أبْرزَ انْجَازَاتِ المَقَامَةِ ، في القَرنِ المَاضِي، وَلَمْ يَقْتَصِرْ تَأثِيرُ مَقَامَاتِ الحَرِيـرِيِّ عَلـى مَـنْ قَلَّدوه في إنْشَـاءِ المَقَامَـات؛ وإنَّمَـا تَعدَّى ذَلكَ إلـى تَأثُّرِ الكُتَّاب بِأسَالِيْبِه، وَهُوَ مِنْ هَذه النَّاحيَةِ كَانَ أوْسَعَ تأثِيرًا ، وَنَتكشَّفُ هَذَا بِمُجرَّدِ مُطالَعَةِ أعْمَالٍ كَـ «صَهَارِيْجِ اللؤلؤ» لِتوفيقِ البَكْري وَ «ليالِي سَطيح» لِحَافظ إبراهيم.

(119) المَقَامَاتُ: السَّردُ وَالأنْسَاقُ الثَّقافيَّة ـ سَابق ـ ص:77.

(120) السَّــابق ـ ص:75، وَرَاجِعْ كَذلكَ: دَائرة المَعَارف الإسْـلاميَّة، لـ (أ. جـي. بيـل) ـ جـ12 ـ الطَّبعة الأولى ـ مَرْكَزُ الشَّـارِقَة للإبْدَاعِ الفِكْري ـ 1998 ـ ص: 3674.

(121) مَقَامَاتُ الحَريريِّ ـ دَار صَادر ـ بيروت ـ 1992 ـ ص:161.

(122) الحَرِيـرِيُّ (446 ـ 516هـ)، أبُو مُحمَّد القَاسِـم بنُ عَليٍّ بنُ مُحمَّد بـنُ الحَرِيـرِيِّ، لُقِّبَ بِالحَريريِّ، نِسْـبَةً إلى عَمْـلِ الحَرير أوْ بَيْعِه، وُلِدَ وَنَشَـأَ في المَسَــانِ بِالقُرْبِ مِنَ البَصْرَةِ، وَبَعْدَ أنْ شَـبَّ ذَهَبَ إلى البَصْرَةِ وَدَرَسَ اللغَةَ وَالأدَبَ بِهَا، وَفِيْهَا تَولَّى مَنْصِبَ «صَاحِبَ الخَبَر»، في دِيوَانِ الخِلافَةِ، وَأشْـهَرُ مُؤلَّفَاتـه: المَقَامَـاتُ، وَعَدَدُهَـا خَمْسُـونَ، وَلَـهُ أيْضًـا مَجْمُوعَـةٌ مِنَ الشِّـعرِ وَمَجْمُوعَةٌ مِنَ الرَّسَائِلِ، وَكِتَابُ: دُرَّة الغَوَّاصِ، في أوْهَام الخواصِ، وَأُرْجُوزَةٌ فـي النَّحـوِ سَـمَّاهَا: مُلْحَـة الإعْـرَاب في النَّحـو، وكتـاب: تَوشِـيحُ البَيَان، وَكِتَاب: صُدُورُ زَمَانِ الفُتُورِ، وَفُتُورُ زَمَانِ الصُّدُور، وَيذكرُ يَاقوتٌ أنَّه كَانَ دَميمَ الخِلْقَةِ مُبْتَلىً بِنَتْفِ لِحْيَتِه.

(123) مَقَامَاتُ الحَريريِّ ـ سَابق ـ ص:12.

(124) السَّابق ـ ص: 51.

(125) السَّابق ـ ص:53.

(126) السَّابق ـ ص: 236.

(127) السَّابق _ ص: 247.

(128) السَّابق _ ص: 223.

(129) السَّابق _ ص: 56 _ 57.

(130) السَّابق _ ص: 403.

(131) السَّابق _ ص: 403 _ 404.

(132) السَّابق _ ص ص:404 _ 405.

(133) السَّابق _ ص ص: 405 _ 406.

(134) السَّابق _ ص ص: 406 _ 407.

(135) السَّابق _ ص ص: 138 _ 139.

(136) السَّابق _ ص ص: 139 _ 140.

(137) السَّابق _ ص ص:140 _ 141.

(138) السَّابق - ص:147.

(139) السَّابق _ ص ص: 148 _ 149.

(140) عَنْ: مُعْجَم الأدَبَاءِ، لِيَاقُوتٍ الحَمَويِّ _ المُجلَّد الثَّامن _ دار إحيَاء التُّراث _ بيروت _ 1988 _ ص ص: 276 _ 278، وَقَدْ وَرَدَتْ كَذَلكَ في: خَريدَةِ القَصْرِ وَجَريدَةِ أهْلِ العَصْر، لِعِمَاد الدِّين الأصْفَهَانِي (_ 597هـ) _ الجزء الأوَّل _ ص: 185.

(141) مُعْجَم الأدَبَاءِ _ المُجلَّد الثَّامن _ ص ص: 281 _ 282، وَتُنْظَرُ، كَذلكَ في: خَريدَةِ القَصْر _ الجزء الأوَّل _ ص: 186.

(142) القَاضِي الفَاضِل (539 _ 596هـ)، هُوَ عبد الرَّحيم بنُ عليٍّ بن الحَسَنِ اللخميّ، وُلِدَ في عَسْقَلانَ، وَقدِمَ إلى مِصْرَ في الخَامِسَةِ عَشَرَة مِنْ عُمْرِهِ، في أيَّام الخَليفَةِ الفَاطِميِّ الحَافظِ لدِيْنِ اللّه، وَعَملَ كَاتبًا في دَواويْنِ الدَّولةِ، وَحِيْنَ وَلِيَ صَلاحُ الدِّينِ أمْرَ مِصْرَ، كَلَّفَهُ بِالوزَارَةِ، وَدِيْوَانِ الإنْشَاءِ،

وَأَصْبَحَ لِسَانَهُ إلى الخُلَفَاءِ وَالمُلوكِ، وَالمُسَجِّلَ لِحَوَادِثِ الدَّولَةِ، وَأَحْدَاثِ تِلْكَ الحِقْبَةِ مِنَ الزَّمَانِ، وَبَعْدَ وَفَاةِ السُّلطَانِ سَنَةَ 589 هـ، اعْتَزَلَ السِّيَاسَةَ حَتَّى تُوفِّيَ في السَّابِعِ مِنْ رَبِيعِ الآخرِ سَنَةَ 596هـ. لَهُ رَسَائِلُ دِيوانيَّةٌ، وَرَسَائِلُ إِخْوَانيَّةٌ، وَدِيْوَانُ شِعْرٍ، وَهُوَ أَحَدُ أَبْرَزِ رُمُوزِ مَدْرَسَةِ الصَّنْعَةِ في الكِتَابَةِ الفَنِّيَّةِ.

(143) أبُو العبَّاسِ أحمد القَلْقَشَنْديّ ـ صُبْحُ الأعْشَى ـ الجُزءُ الأوَّل ـ دار الكتب الخديوية ـ 1913 ـ ص ص: 276 ـ 277.

(144) صُبْحُ الأعْشَى ـ سَابق ـ ص ص: 277 ـ 278.

(145) صُبْحُ الأعْشَى ـ ص ص: 280 ـ 281، وَقَدْ وَرَدَتْ كَذلِكَ، في: رَسَائِلِ بَدِيْعِ الزَّمان ـ طَبْعَة بيروت ـ 1921 ـ ص:128، وَيُنْظَرُ النَّصُّ وَمُنَاسَبَتُهُ في: المُنْتَخَب من أدَبِ العَرَب ـ الجزءُ الثَّاني ـ جَمَعَه وَشَرَحَه: طه حُسَين، أحمد السَّكندري، أحمد أمين، علي الجَارم، عبد العزيز البِشْري، أحمد ضَيف ـ مطبعة دار الكُتُب المِصْريَّة بالقاهرة ـ 1350هـ ـ 1931 ـ ص: 327.

(146) ابن بَسَّام ـ الذَّخِيرَة ـ القِسْمُ الأوَّل ـ المُجَلَّد الأوَّل ـ تحقيق: إحسَان عبَّاس ـ دار الثَّقافة ـ بيروت ـ الطَّبعة الثَّانية ـ 1979 ـ ص ص:11 ـ 12.

(147) أحمد أمين ـ ظُهْرُ الإسْلام ـ الجُزءُ الثَّالث ـ مكتبة النَّهضة المِصْريَّة ـ الطَّبعة الخامسة ـ 1959 ـ ص ص: 229 ـ 230.

(148) عبد الرَّحمن الجَبَرتي (1754 ـ 1825)، وُلِدَ في القَاهرة، لأسْرَةٍ ذاتَ عِلْمٍ رَفيعٍ، تَنْحَدرُ أُصُولُهَا مِنْ أثْيوبيَا، وَرِثَ عَنْ أبيْه ثَروَةً طَائِلَةً، دَرَسَ بالأزْهَرِ الشَّريفِ، ثمَّ أصْبَحَ قَائِمًا بالتَّدريْسِ فيْه، وَقَدْ عَاشَ الجَبَرْتي في فَتْرَةِ تَحوُّلاتٍ كَبيْرَةٍ، آثَرَ أنْ يَكونَ الشَّاهِدَ الأسَاسِيَّ عَليْهَا؛ وَهِيَ فَتْرَةُ نِهَايَاتِ الحُكْمِ العُثْمَانِي، وَفَتْرَةِ الحَمْلَةِ الفَرَنْسِيَّةِ، وَبِدَايَاتِ فَتْرَةِ حُكْمِ محمَّد علِيٍّ، وَبِخَاصةٍ حِيْنَ جَعَلَهُ نَابُليون مِنْ كَتَبَةِ الدِّيوانِ، الَّذي أسَّسَهُ لِلنَّظرِ في مَصَالِحِ الرَّعيَّةِ؛ فَاطَّلَعَ عَلى العَديدِ مِنَ الكِتَابَاتِ وَالمُرَاسَلاتِ وَمَحَاضِرِ

الجَلسَـاتِ، وَقَـدْ عُيِّنَ مُفْتيًـا للحَنَفيَّةِ في عَهْدِ محمَّد علـيّ، وَتُوفِّيَ ـ بَعْدَ أنْ كُفَّ بَصَرُهُ، مِنْ كَثْرَةِ البُكَاءِ عَلى ابْنٍ لَهُ قَدْ قُتِلَ في حَيِّ شُـبرا مَخْنُوقًا ـ فـي رَمَضَانَ 1237/1882، وَهُوَ صَاحِبُ المَوْسُـوعَةِ التَّاريخيَّةِ: عَجَائِبِ الآثارِ في التَّرَاجِمِ والأَخْبَار.

(149) عبـد الرَّحمـن الجَبرتِي ـ عَجَائبُ الآثار فـي التَّراجِم وَالأخبَار ـ الجـزءُ الأوَّلُ ـ طبعـة بـولاق بالقاهرة ـ 1297هـ ـ ص: 11، طبعة: مكتبة الأسْرَة ـ 2003 ـ ص:19.

(150) حَسَـن العطَّـار (1766 ـ 1835)، وُلـدَ بِالقَاهِـرَة، وَهُـوَ مِنْ أصْلٍ مَغَربِيٍّ، لُقِّبَ أبُوه بِالعطَّار نِسْـبَةً إلى مِهْنَتِـه؛ حَيْثُ كَانَ عَطَّارًا، حَتَّى جَاءَتْ الحَمْلَةُ الفَرَنْسِيَّةَ على مِصْرَ سَنَةَ 1798؛ فَهَرَبَ إلى الصَّعيد، وَلكنَّهُ عَادَ إلى القَاهِرَةِ، وَاتَّصَلَ بِبَعْضِ عُلمَاءِ الحَمْلَةِ، واطَّلَعَ على كِتَابَاتِهِمْ وَآلاتِهِمْ، كَمَا عَلَّـمَ بَعْضَهُمْ العَرَبِيَّـةَ، وَعَمِلَ بِالتَّدريسِ بالأزْهرِ أثنَاءَ الحَمْلَةِ الفَرنْسـيَّةِ، وَفرَّ مِنْ مِصْرَ إلى أوروبَّا بعْدَ الحَملَةِ الفَرنْسيَّة، وفي سَنَةِ 1810 تَوَجَّهَ إلى الشَّام، ثُمَّ عَادَ إلى مِصْرَ؛ لِيُدرِّسَ بِالأزْهَرِ في عَهدِ محمِّد عليٍّ، وَتولّى مَشْيَخَةِ الأزْهَرِ سَنَةَ1830، وَأنْشَأَ أوَّلَ صَحِيفَةٍ في الشَّرقِ؛ هيَ: الوقائع المصريَّة سَنَةَ1828، وهـو فـي طليعَةِ مَنْ نَـادَوا بِالأخـذِ بِالعلومِ الحَديثَـة، وَلَهُ مُؤلَّفَـاتٌ عديدَةٌ في النَّحو، وَالتَّوحيد، وَالبَلاغَةِ، كَمَا كَانَ شَاعرًا وَمُترسِّلاً.

(151) عَنْ كِتَابِ: حسـن العطَّار ـ لِمحمَّد عبد الغني حسـن ـ سِلسِلة: نوابـغِ الفِكـرِ العَربيِّ، رقـم: 40 ـ دار المَعَارِف، مصـر ـ الطَّبعة الثَّانية ـ 1993 ـ ص:106.

(152) عبد اللّه فِكْري (1834 ـ 1889)، وُلِدَ بمكَّةَ؛ حَيْثُ كَانَ وَالدُهُ قَـدْ ذَهَـبَ إليهَا مَعَ جَيْشِ وَالي مِصْرَ، وَنَشَـأَ فـي القَاهِرَةِ، وَتَعَلَّـمَ في الأزْهَرِ الشَّريفِ، وَأصْبَحَ وَكِيلاً لِنظَارَةِ المَعَارِف، فَكَاتبًا أوَّلَ في مَجْلسِ النُّواب، فَنَاظِرًا لِلمَعَارِفِ المِصْريَّةِ، وَاسْـتَقَالَ بَعْدَ أرْبَعَةِ أشْـهُرٍ، وَاتُّهِمَ بِالاشْتِراكِ في

الثَّـورَة العُرَابيَّــةِ، فَسُــجِنَ ثُمَّ بُرِّيءَ، وَاخْتيرَ سَــنَةَ 1889رَئيسًــا للوفْـدِ العلْميِّ لمِصْرَ في مُؤتَمَرِ اسْـتُوكهولم، وَكَانَ يجيـد التركية، أَنْجَزَ عدَّةَ مُؤلَّفَاتٍ أَبْرَزُهَــا: الفَوائـدُ الفِكْريَّة، وَ:المَمْلَكَةُ البَاطنيَّة، وَ: شَـرْحُ بَديعيَّةِ صَفْوَت، وَرَسَائِلُ وَمَقَالاتٌ.

(153) عَـنْ كِتَـابِ: المُنْتَخَـب مِـنْ أَدَب العَـرَب ـ جَمَعَـه وَشَـرَحَه: طـه حُسَـين وَآخـرون ـ الجزءُ الثَّاني ـ مطبعة دار الكُتـب المِصْريَّة بِالقَاهِرَة ـ 1350 / 1931م ـ ص:520.

(154) عبـد الله النَّديـم (1854 ـ 1896)، وُلِـدَ فـي حَـيِّ المَنْشِـيَّة بالإسْكندريَّة، يَصِلُ نَسَبُهُ إلى الإمَام الحَسَنِ، عَمِلَ بِالتَّدريسِ ثُمَّ أَنْشَأَ فِرْقَةً مَسْرَحيَّةً صَغيرَةً، كَمَا أَنْشَأَ الجَمْعيَّةَ الخَيريَّةَ الإسْلاميَّةَ في الإسْكندريَّة، وَبَـدَأ نَشْـرِ مَقَالاتِهِ فـي جَرِيْدَةِ: المَحْروسَــة، وَجَريْـدَةِ: العَصْـرِ الجَديْد، ثمَّ أَصْـدَرَ جَريْـدَةَ: التَّنكِيت وَالتَّبْكِيـت، ثمَّ أَنْشَــأَ بَعْدَهَا جَريْـدَةَ: اللطَائِف، وَقَدْ تأثَّرَ بِأفْكَارِ الأفْغَانِيِّ، وَحِيْنَ قَامَتْ الثَّورَةُ العُرَابيَّةُ كَانَ مِنْ خُطبَائِهَا، فَطَارَدَتْهُ الحُكُومَةُ المِصْريَّة، وَاسْـتَتَرَ عَنْهَا عَشْرَ سِنِيْنَ، ثمَّ قُبِضَ عَليْه سَنَةَ 1309 / 1891، فحُبِـسَ أيَّامًــا، ثمَّ خَرَجَ إلى يَافَا، ثمَّ سُـمِحَ لَهُ بِالعَوْدَةِ بَعْدَ نَحْوِ عَامَ، فَعَادَ، وَأَنْشَـأَ مَجلَّةَ: الأسْـتَاذ، ثمَّ نَفَاهُ الإنجليزُ مَـرَّةً أخْرَى، فَخَرَجَ إلى يَافا، ثمَّ إلى الآسـتَانَة؛ حَيْثُ عَمْلَ في دِيوانِ المَعَارِفِ في البَابِ العَالِي، حَتَّى وَفَاتِه، لَهُ: السَّــاقُ على السَّـاق في مُكَابَدَةِ المَشَــاق، وَ: كَانَ وَيَكُون، وَ: النِّحْلَـة في الرِّحْلَـة، وَدِيْوَانَانِ، وَرِوَايَتَــانِ تَمْثِيْلِيَتَانِ هُمَا: العَـرَبُ، وَ: الوَطَنُ، وَقَدْ جَمَعَ أخُوه بعضَ كِتَابَاتِه، وَنَشَرَهَا بِعنوَانِ: «سُلافَة النَّديم».

(155) مِنْ رِسَــالَةِ: نَــار الغُدوِّ وَثَار العَدوّ، ضِمْنَ كِتَابِ: سُــلافَة النَّديم، جَمْع شَـقِيْقِه: عبد الفتَّاح النَّديم. طبعــة الهيئة العَامة لقصور الثَّقافة ـ 1995 ـ ص:52.

(156) إبراهيم اليَازجيُّ (1847 ـ 1906)، أصْلُهُ مِنْ حِمْص، هَاجَرَ أجْدَادُه

إلـى لُبْنَانَ، وفي بيروتَ وُلِدَ وَنَشَـأَ وَقَرَأَ الأَدَبَ علـى أبيْه، تَوَلَّى تَحْرِيرَ جَرِيْدَةِ: النَّجاح سَـنَةَ 1872، انْتَدَبَهُ المُرْسـلونَ اليَسُـوعيُّونَ لترْجَمَةِ الأَسْـفَارِ المُقدَّسَةِ وَكُتُبٍ أُخْرَى لَهُمْ؛ فَأَنْفَقَ فِيْهَا تِسْـعَةَ أعْوَام، سَـافَرَ إلى أُوروبَّا، وَاسْـتَقَرَّ في مِصْـرَ، فَأَصْدَرَ مَجلَّةَ: البَيَان؛ بالاشْـتِرَاكِ مَعَ الدُّكتور بَشَّـار زَلْزَل، وَبَعْدَهَا مَجلَّـة: الضِّيَـاء، كَانَ أديْبًا لُغويًّا شَـاعِرًا، وَكَانَ يُجِيْدُ العِبْرِيَّةَ وَالسِّـريَانيَّةَ وَالفَرَنْسِـيَّة، وَكَانَ ممَّا امْتَازَ به: جَوْدَةُ الخَطِّ، وَفنُّ الرَّسْـمِ وَالنَّقْشِ وَالحَفْرُ، عَاشَ مِنْ كِتَابَتِه حَيَاةً بَسِيْطَةً، وَمَاتَ في القَاهِرَةِ، ثمَّ نُقِلَ جُثْمَانُهُ إلى بيروتَ، مِـنْ أعْمَالِه: نَجْعَةُ الرَّائدِ في المُتَرَادِفِ وَالمُتَوَارِد، الفَرَائِدُ الحِسَـانِ مِنْ قَلائدِ اللسَانِ، دِيْوَانُ شِعْرٍ.

(157) عَنْ: المُنْتَخَب في أدَبِ العَرَب ـ سابق ـ ص ص: 531 ـ 532.

(158) الإمَامُ محَّمد عبده (1849 ـ 1905)، وُلِدَ في قريةِ حِصْةِ شَبْشِـير بِمُحَافَظةِ الغَربيَّة، وَدَرَسَ بِالأزْهَرِ الشَّـريف، وَاتَّصَلَ بِجمال الدِّين الأفغانيِّ، وَنُفِـيَ عَقِـبَ الثَّـورَةِ العُرَابِيَّـةِ، ثمَّ عَادَ إلـى مِصْرَ وَاشْـتَغَلَّ بِالتَّدرِيـسِ، وَعُيِّنَ مُفْتيًا للدِّيَارِ المِصْريَّة سَـنَةَ1899حَتَّى وَفَاتِه عَام 1905، أَصْدَرَ جَرِيْدَةَ: العُرْوَة الوُثْقَى، مَعَ الأفغانيِّ في بَارِيْسَ، وَ: رِسَـالَةَ التَّوحِيْد، وَ: شَرْحِ مَقَامَاتِ البَدِيع الهَمَذَانِيِّ، وَ: شَـرْحِ نَهْجِ البَلاغَة، وَ: تَفْسِيْرِ جُزْءِ عَمَّ، وَ: الإسْلام وَالنَّصرَانيَّة مَعَ العِلْمِ وَالمَدَنيَّة.

(159) عَـنْ: مَدْرَسَـةِ البَيَانِ في النَّثْـرِ الحَدِيْثِ، للدُّكتـور حِلمي محمَّد القَاعُود ـ دار الاعْتِصَام ـ 1986 ـ ص:49.

(160) حِفْنِـي نَاصِـف (1860 ـ 1919)، وُلِـدَ فـي قريـةِ برطـةِ الحَـجِّ بِمُحَافظَـةِ القليوبيَّةِ، وَدرَسَ بالأَزْهَرِ ثُمَّ دَار العُلوم. عَمِلَ بِالتَّدريس ثمُّ القَضَاءِ ثُمَّ دَرَّسَ تَاريخ الأدَبِ العَربيِّ في الجَامِعَةِ الأهْلِيَّةِ ـ وَكَانَ مِنْ مُنْشِـئِيْهَا سَـنَة 1908 ـ، شَـارَكَ فـي الثَّـورَةِ العَرابيَّة؛ بِخُطَـبٍ كَانَ يَكْتُبَهَـا وَيُوَزِّعُهَا عَلى خُطَبَـاءِ المَسَـاجِدِ وَفـي الشَّـوارعِ، وَشَـارَكَ الإمَـامَ محمَّد عبده فـي تَحْرِيرِ

الوَقَائـِع المِصْريَّـة ، وَتَتلْمَـذَ على يَديْـهِ العَديدَ مِـنْ أعْلام النَّهضَـةِ الحَديثَةِ ، مِنْهُمْ: مَصْطفى كَامِل، وأحمد لُطفي السَّـيد ، وأحمد شَوقي، وعبد العزيز فَهْمي، وطَه حُسَين، وأحمد حسن الزَّيَّات. من أعماله: تَاريخُ الأدب، أوْ حَيَاة اللغَة العَربيَّة ، وَ: مُمَيِّزَاتُ لُغَاتِ العَرَب، وَ: المُقَابلَة بَيْنَ لَهَجَاتِ بَعْضِ سُكَّان القُطْرِ المِصْريِّ، وَعَقِب وَفَاتِهِ أصْدَرَ ابْنُهُ دِيْوَانَه: شِعْر حِفني نَاصِف.

(161) عَنْ: المُنْتَخَب مِنْ أدَب العَرَب ـ الجُزء الأوَّل ـ لأحمد السَّكندريِّ وَآخَرينَ ـ المطبعة الأميريَّة ببولاق ـ 1936 ـ ص ص: 568 ـ 569.

(162) محمَّد المُوْيلِحي (1858 ـ 1930)، كَانَ أبُوه: إبراهيم المويلحي، يُصْـدِرُ أهَـمَّ مَجلَّـةٍ أدَبيَّةٍ في عَصْرِهِ؛ هِيَ: مِصْبَاح الشَّـرَق، أخَـذَ عنْهُ الأدَبَ، وَنَشَأَ في بِيْئَةٍ سِيَاسيَّةٍ وَأدَبيَّةٍ تَتَمتَّعُ بالثَّرَاءِ وَالنُّفوذ، اتَّصَلَ بِكِبارِ أئمَةِ الأدَبِ وَالعِلْم، وَعَلى الرَّغْم مِنْ قُرْبِ أسْرَتِه مِنَ العَائِلَة الحَاكِمَة بَادَرَ بالانْضِمَام إلى الثَّـورَةِ العُرَابيَّـة ، حِيْنَ انْدَلَعَتْ، وَقَدْ حُكِمَ عَليْه بالإعْدَام ثُمَّ خُفِّفَ إلى طَرْدِه مِنْ وَظِيْفَتهِ وَنَفْيهِ؛ فَسَافَرَ إلى إيطَاليَا1883 ، ثُمَّ ارْتحَلَ إلى فَرنْسَا؛ مُلَبِّيًا دَعْوَةَ الأفْغَانِيِّ، وَشَارَكَهُ في تَحْرير: العُرْوةِ الوُثْقَى، وَبَعْدَ عَوْدَته إلى مِصْرَ شَارَكَ فـي تَحْريـر: المُؤَيِّد، و: الأهْرَام، و: المُقطَّم، عَاشَ مَيَّـالاً للْعُزلَة وَلَمْ يَتَزَوَّجْ، وَكَانَ يُجِيـدُ عـدَّةَ لُغَـاتٍ مِنْهَـا الإنْجليزيَّةُ وَالفَرنْسـيَّةُ وَالإيْطَاليَّـةُ وَالتُّركيَّة وَاليُونَانيَّـةُ وَاللاتِينيَّـةُ، عَمِلَ بعِـدَّةِ وَظَائفَ مِنْهَا: كَاتِبٌ بِـوَزَارَةِ الحَقانيَّة، ثُمَّ بِـوَزَارَةِ الدَّاخِليَّـةِ (مأمُور)، ثُمَّ عَمِلَ بالصَّحَافَة، ثُمَّ بِوَزَارَةِ الأوْقَاف، انْسَـحَبَ مِنَ الحَيَاةِ الأدَبيَّة وَآثَرَ العُزْلَةَ بَعْدَ وَفَاةِ وَالدِه سَنَةَ1906 ، حَتَّى وَفَاته سَنَةَ1930 ، وَلَهُ: حَدَيثُ عِيْسَى بنُ هِشَام، وَ: أدَبُ النَّفْسِ.

(163) محمَّـد المُويلِحي ـ حَديثُ عِيْسـى بن هِشَـام ـ الهيْئَـةُ المِصْريَّة العَامـة لِلْكِتـاب - 1996 ـ ص ص: 362 ـ 363. وَكَانَ محمَّدٌ المُويلِحيُّ قَدْ نَشَـرَهُ في صَحِيفةِ: مِصْبَاحِ الشَّـرقِ؛ الَّتي كَانَ يُحرِّرُهَا مَعَ أبيْهِ، بَيْنَ سَـنَتَيْ (1898 ـ 1900)، ثُمَّ نُشِرَ كَكِتَابٍ لأوَّلِ مرَّةٍ سَنَةَ 1906.

(164) محمَّد توفيق البَكْري (1870 _ 1932)، وُلِدَ بالقَاهِرَةِ، تَوَلَّى نِقَابَةَ الأَشْرَافِ وَمَشْيَخَةَ المَشَايخ، كَانَ يُجِيدُ التُّركِيَّةَ وَالفَرَنْسِيَّةَ وَالإِنْجليزيَّةَ، وَكَانَ عُضوًا دَائمًا بِمَجْلِسِ الشُّورَى، وَكَانَ مُقرَّبًا مِنَ الخديوي عبَّاس، ثُمَّ انْقَلَبَ الحَالُ؛ فَانْزَوَى، وَأُصِيْبَ بِالوسْوَاسِ، وَنُقِلَ إلى مُسْتَشْفَى العَصْفُوريَّةِ ببيروتَ، وَظَلَّ بِهَا سَتَةَ عَشَرَ عَاما؛ حَتَّى طَالَبَ الأَدَبَاءُ بِعَوْدَتِهِ فَأُعِيْدَ، وَظَلَّ في عُزْلَتِهِ حَتَّى وَفَاتِهِ سَنَة 1930. وَمِنْ أَعْمَالِهِ: صَهَارِيْجُ اللؤلؤ، وَ: أَرَاجِيْزُ العَرَبِ، وَ: بَيْتُ الصِّديْقُ، وَ: بَيْتُ السَّادَاتُ.

(165) محمَّد توفيق البَكْري _ صَهَارِيْجُ اللؤلؤ _ مطبعةُ الهِلال _ 1906 _ ص ص:13 _ 14.

(166) أحمد شَوقي (1868 _ 1932)، مِنْ أَصْلٍ تُركِيٍّ، وَلكنَّهُ وُلِدَ في القَاهِرَةِ، وَنَشَأَ بِهَا مُسْتَظِلاً بِرِعَايَةِ القَصْرِ الحَاكِمِ مُنْذُ مَوْلِدِهِ، دَرَسَ سَنَتَيْنِ في قِسْمِ التَّرجَمَةِ بِمَدْرَسَةِ الحُقُوقِ بالقَاهِرَةِ، وَعَيَّنَهُ الخديوي توفيْق بالْقَصْرِ سَنَةَ1887، ثُمَّ أَوْفَدَهُ إلى فَرَنْسَا؛ فَدَرَسَ الحُقوقَ فِى مُونبيليه، وَبَعْدَ عَودَتِهِ سَنَةَ 1891، عَمِلَ رَئِيْسًا لِلْقِسْمِ الإفرنْجِيِّ بِالقَصْرِ، وَصَارَ شَاعِرَ الخديوي عبَّاس حِلْمي، بُويِعَ بِإِمَارَةِ الشِّعرِ سَنَةَ 1927، وَإلى جَانِبِ شِعْرِهِ كَانَ رَائِدَ المَسْرَحِ الشِّعريِّ، وَآثَارُهُ الأَدَبِيَّةُ عَدِيدَةٌ؛ مِنْهَا الشَّوقيَّاتُ (أربعة أجزاء) - دُوَلُ العَرَبِ وَعُظَمَاءُ الإِسْلام - وفي النَّثرِ الفَنِّيِّ: أَسْوَاقُ الذَّهَبِ، وَفي المَسْرَحِ الشِّعْرِيِّ: مَجْنُون ليلى _ مَصْرَع كيلوبترا _ قمبيز _ علي بك الكَبير _ البَخِيْلَة _ شَيْطَانُ بِنْتَاءور _ السِّتُ هُدَى _ روايةُ لاديَاس، أَوْ آخرُ الفَرَاعِنَة.

(167) أحمد شَوقي _ أَسْوَاق الذَّهَب _ مكتبة مصر _ د. ت _ ص: 74.

(168) حافظ إبراهيم (1872 _ 1932)، وُلِدَ في دَيروط. تُوفِّيَ أَبُوه بَعْدَ عَامَيْنِ مِنْ وِلادَتِهِ، ثمَّ مَاتَتْ أمُّهُ بَعْدَ قليلٍ، نَشَأَ يَتِيمًا في بيْتِ خَالِهِ بِالقَاهِرَةِ، نَظَمَ الشِّعرَ مُنْذُ صِغَرِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ تَخَلَّصَ مِنْ شِعْرِ الصِّبَا، التَحَقَ بِالمَدْرَسَةِ الحَربيَّةِ، وَتَخَرَّجَ فيْهَا عَامَ 1891، وَسَافَرَ في حَمْلَةٍ إلى السُّودَانِ، وَشَكَّلَ

مَع بَعْضِ الضُّبَاطِ جَمْعِيَّةً سـرِيَّةً اكْتَشَـفَهَا الإنْجليزُ؛ فَحَاكَمُوا أَعْضَاءَهَا، وَأُحيْـلَ إلـى الاسْـتِيدَاعِ؛ فَلَجَأَ إلى الإمَـام محمَّد عبـده؛ فَأُعيْدَ إلـى الخِدْمَةِ بالبُوليس، حَتَّى أُحِيْلَ إلى المَعَاشِ؛ فاشْـتَغَلَ مُحَـرِّرًا بجَريدَةِ الأَهْرَام، وَعَمِلَ مُديـرًا لِـدَارِ الكُتُـبِ المِصْريَّـة. لُقِّبَ بِشَـاعرِ النِّيلِ، وَبِشَـاعرِ الشَّـعْبِ. لَهُ، بالإضَافَـةِ إلى دِيْوَانِهِ، كِتَابُ: ليالي سَـطيح، وَقَامَ بِتَعْريْبِ رِوَايَةِ: البُؤسَـاءِ، لِفيكتور هوجو.

(169) حَافظ إبرَاهيم ـ ليَالي سَطيح ـ الدَّار القَوميَّة للطِّباعَةِ وَالنَّشرِ، القَاهِرَة ـ 1964 ـ ص: 88.

(170) أحمد حسـن الزَّيَّات (1885 ـ 1968)، وُلِدَ في قريَةِ كفرِ دُمَيْرَةِ القَديـمِ مَرْكَـز طلخَا بمُحَافَظةِ الدَّقهليَّة، حَفِظَ القُـرآنَ الكَريمَ وَجَوَّدَهُ في كُتَّـابِ القَريـةِ، وَدَخَـلَ الأزْهَـر الشَّـريفَ وَهُوَ في الثَّانيَة عَشَـرَةَ مِـنْ عُمْرِهِ، وَحيـن أنْشـئَتْ الجَامِعَةُ المِصْريَّةُ سَـنة 1908، بَادَرَ ـ مَعَ زَميْلَيْه: طَه حُسَـين وَمُحمَّد زَنَاتِي ـ بالالتِحَاقِ بِهَا وَحَصَلَ على لِيسَانسِ الآدَاب سَنَةَ 191، وَعَمِلَ بِالتَّدريْـسِ فـي المُدَّة مِنْ:1907 إلـى 1914، ثمَّ حَصَلَ على ليسَـانسِ الحُقُوق سَنَةَ 1925، وَعَمِلَ بِالجَامعَة الأمْريكيَّة بِالقَاهِرَةِ رَئيسًا لِقسْم اللغَة العَرَبيَّة، وَفـي سَـنة 1932 انْتَدبَتْهُ جَامِعَةُ بَغْدَادَ لِيكُونَ أسْـتَاذًا لِـدَارِ المُعَلِّميْنَ العَاليَةِ بها، وَعَاد لِيؤسِّـسَ مجلَّة :الرِّسَالَة، ثم مجلَّة: الرِّوَايَة، وَانْتُخِبَ عُضْوًا بِمَجمَعِ اللغَـة العَربيَّة سَـنَةَ 1948، وَمِـنْ أعْمَاله: مِنْ وَحْـي الرِّسَـالَةِ، وَ: تَارِيْخُ الأدَبِ العَرَبِيِّ، وَ: في أُصُولِ الأدَب، وَ: دِفَاعٌ عَنْ البَلاغَة.

(171) أحمد حسن الزَّيَّات ـ مِنْ وَحي الرِّسَالَة ـ المُجَلَّد الأوَّل ـ الطَّبعة السَّادسة ـ مَكْتَبَة نَهْضَة مِصْرَ بِالفَجَّالَة ـ 1957 ـ ص ص:199 ـ 200.

(172) د. نِعْمَـة رحيـم العَـزَّاوي ـ أحمـد حسـن الزَّيَّـات: كَاتِبًـا وَنَاقِدًا ـ الهَيْئَـةُ المِصْريَّـةُ العَامـةُ لِلْكِتَابِ ـ القَاهِرَة، بَالاشْـتِرَاكِ مَعَ دَارِ الشُّـئُون الثَّقَافيَّةِ العَامةِ ـ بغداد ـ 1986 ـ ص:58.

(173)عَـنْ مَقَالٍ بِعُنْـوَان: كُتَّابُ العَرَبِيَّـةِ وَقُرَّاؤهَا، بِمجَلَّـةِ: (الهِلال) ــ 15فبرايـر1897 ــ ص:458، وَهُـوَ بِدُونِ إشَـارةٍ إلـى كَاتِبِه، مِمَّـا يُرَجِّحُ أنَّهُ لِجُورجي زِيدَان؛ مُحَرِّرُ: (الهِلال).

(174) رَاجِـعْ: بييـر كَاكيَا ــ تَطوُّر القِيَمِ الأدَبيَّـةِ ــ مجلَّةِ: (فُصُول) ــ المُجَلَّد الرَّابع ــ العَدد الثَّالث ــ 1984 ــ ص: 89.

(175) نقـولا فيَّاض ــ الكُتَّابُ وَالإنشَـاءُ، مجلَّـة: (الهِلال) ــ أوَّل يوليو 1893 ــ ص: 350.

(176) عَنْ: بير كَاكيَا ــ تَطوُّر القِيَم الأدَبيَّة ــ سابق ــ ص:78.

(177) أحمد شَوقي ــ أسْوَاق الذَّهب ــ مكتبة مِصْر ــ د.ت ــ ص:115.

(178) عبـد الفتَّـاح كليطُـو ــ المَقَامَاتُ: السَّـردُ وَالأنْسَـاقُ الثَّقافيَّة ــ سَابق ــ ص:76.

(179) رَاجِعْ تَفَاصِيْلَ هَذِهِ المُوَاجَهَةِ في: حَديْثِ الأرْبَعَاءِ، لطه حُسَـين ــ الجزء الثَّالث ــ دَار المَعَارف بِمِصْر ــ ط: 11 ــ 1981 ــ ص ص:36 ــ 50.

(180) مُصْطفـى صَـادق الرَّافِعـيُّ (1880 ــ 1973)، وُلِـدَ فـي بَهْتِيـم بِمُحَافظَـةِ القَليُوبيَّـة، وَهُوَ مِـنْ أصْلٍ لُبنانـيٍّ، حَفِظَ القُرآنَ، ثُـمَّ حَصَلَ على الشَّـهَادَةِ الابْتِدَائيَّةِ، وَهُوَ في السَّـابِعَةَ عَشَرَ مِنْ عُمْرِه، وَبِسَبَبِ إصَابَتِه بِحُمَّى عَنِيفَـةٍ ضَعُفَ سَـمْعُهُ، حَتَّى انْتَهى إلـى الصَّمم، وَهُوَ في الثَّلاثِيـنَ مِنْ عُمْرِهِ؛ فَـكَانَ يُكْتَـبُ لَهُ مَا يُرَادُ مُخَاطبَتُـهُ بِهِ؛ وَلِذَا لَمْ يُتِـمَّ تَعْليْمَهُ، لكنَّهُ عَكَفَ علـى القِـرَاءَةِ وَالتَّحصِيْلِ، وَعُيِّنَ في سَـنَةِ 1899 بِمَحْكَمَةِ طَلْخَا الشَّـرعية، ثـمَّ انْتَقَـلَ إلـى مَحْكَمَـةِ إيْتَـاي البَـارُود، ثـمَّ مَحْكَمَـةِ طنْطـا الشَّـرعيَّةِ، فَمَحْكَمَتِهَـا الأهْليَّـة، حَتَّى وَفَاتِهِ. بَـدَأ حيَاتُهُ الأدبيَّةَ شَـاعِرًا، وَصَدَرَ الجُزْءُ الأوَّلُ مِنْ دِيوانِه سَـنَةَ1902، وِمِنْ مُؤلَّفَاتِهِ: تَاريْخُ آدَابِ العَرَبِ:1911، وَ: تَحْتَ رَايَـةِ القُـرَآنِ، وَ: إعْجَازُ القُـرَآن:1912، وَ: حَديْـثُ القَمَـر:1912، وَ:كِتَابُ المَسَاكِيْن:1917، و:أوْرَاقُ الوَرْدُ:1930، وَ:السَّحَابُ الأحْمَر:1924، وَ:رَسَائِلُ

الأحْزَانِ:1924 ، وَجُمِعَتْ مَقَالاتُهُ؛ الَّتي نَشَرَهَا في مجلَّةِ : (الرِّسَالةِ) ، في ثَلاثَةِ أجْزَاءَ ، بِعُنَوانِ : وَحْي القَلَم.

(181) د. شَوقِي ضَيف ــ الأدَبُ العَرَبيُّ المُعَاصِرُ في مِصْر ــ دَار المَعَارف ــ الطَّبعَة الثَّامنَة ــ 1983 ــ ص: 190 ، وَالوَاقِعُ أنَّ نَصَّ الرَّافِعيِّ كَانَ ، في كَثِيرٍ ، نَمُوذجًا لآليَّاتِ النَّثرِ الفَنِّيِّ؛ القَائِمَةِ على قَوانِين البَدِيْع؛ كَالسَّجع وَالتَّجْنِيسِ وَالمُوَازَنَاتِ وَالمُقَابَلاتِ. رَاجِعْ على سَبِيْلِ المِثَالِ ، الفَصْلَ المُعَنْونَ بـ: سَحْقِ اللؤلؤةِ ، في كِتَابِهِ : كِتَاب المَسَاكِيْنِ : 1917 ؛ غَيْرَ أنَّ نَصَّهُ تَحَلَّلَ ، تَدْريجيًّا ، مِنْ هَذِهِ الآليَّاتِ البَديعيَّةِ ، وَانْسَابَتْ حَرَكَتُهُ ، وَجَرَى مَاؤهُ ، رَغْمَ حِفَاظِهِ على الرَّصَانَةِ نَفْسِهَا ، وَهُوَ مَا مَثَّلَ انْتِقَالَهُ مِنَ فَضَاءِ النَّثرِ الفَنِّيِّ إلى فَضَاءِ النَّثرِ الشِّعريِّ.

(182) طَه حُسَين: حَديثُ الأرْبَعَاء ــ سابق ــ ص ص:5 ــ 6.

(183) السَّابق ــ ص:7.

(184) السَّابق ــ ص:8.

(185) السَّابق ــ ص:9.

(186) السَّابق ــ الصَّفحَةُ نَفْسُهَا.

(187) السَّابق ــ ص ص:10 ــ 11.

(188) السَّابق ــ ص ص:11 ــ 12. وَللمَنفلوطي رأيٌ مُشَابِهِ يرفُضُ فيْهِ تَكَلُّفَ أدَاءِ القُدمَاءِ ، يَقولُ فيْهِ :

« لَيْسَ مِنَ الرَّأي وَلا مِنَ المَعقُولِ أنْ ينظِمَ الشُّعَرَاءُ الشِّعرَ ، وَيكتُبَ الكُتَّابُ الرَّسَائِلَ في هَذَا العَصْرِ؛ عَصْرِ الحَضَارَةِ وَالمَدنيَّةِ ، وبَيْنَ هَذَا الجُمهُورِ؛ الَّذي لا يَعرِفُ أكْثَرَ مِنْ العَاميَّةِ إلَّا قليلًا ، باللغَةِ الَّتي كَانَ يَنْظِمُ بِهَا امْرؤ القَيس وَطَرَفَة وَالقطامِيِّ وَالخَطفِيِّ وَرُؤبَة وَالعَجَّاجُ ، وَيكتُبُ بِهَا

الحَجَّـاجُ وَزِيَـادُ وَعبـدُ اللّهِ بن مَـرْوان وَالجَاحِـظُ وَالمعرّيُّ في عُصُورِ العَربيَّةِ الأوْلى؛ فَلَيْس عَصْرُنَا كَعَصْرِهِمْ، وَلا جُمْهُورُنَا كَجُمْهُورِهِمْ، وَأحْسَـبُ لوْ أنَّهُمْ نُشِـرُوا اليَـوْمَ، مِنْ أجْدَاثِهِمْ، لَمَـا كَانَ لَهُمْ بُـدٌّ مِنْ أنْ يَنْزِلُوا إلى عَالَمِنَـا ، الّذي نَعيْشُ فيْهِ؛ لِيُخَاطِبُونَا بِمَا نَفْهَمُ أوْ يَعُودُوا إلى مَرَاقِدِهِمْ مِنْ حَيْثُ جَاءوا.»

المَنفلوطِـي ـ النَّظـرَات ـ الجُـزء الثَّالـث ـ الطَّبعـة الثَّامنـة ـ مطبعـة الاسْتقامة ـ 1947 ـ ص: 8.

(189) رَاجِـعْ: فـي المِيْـزَانِ الجَديـد ـ لِمحمَّد مَندور ـ نَهْضَـةُ مِصْر ـ الطَّبعة الثَّانية ـ ص ص: 12 ـ 13.

(190) «التَّوقيعـات»: شـكل نثرفنيٍّ، يجمع بين آليَّـات الكتابة الدِّيوانيَّة والكتابة الذَّاتيَّة الإبداعية، وقد ارتبط هذا الشَكل بالمُكاتبات أو الشَّكاوى التـي كانت تعرض على الولاة؛ فيُوقِّعون عليها، بعباراتٍ وجيزةٍ دقيقةٍ ونافذةٍ، قد تأتي في صورةِ آيةٍ قرآنيَّةٍ، أو بيت شِـعر، أو حكمة، أو قولٍ مُكثَّفٍ دال، وأقـدمُ نماذجِهـا وردتْ عن أبي بكر الصديق؛ حينمـا بعث خالد بن الوليد إليه خطابًا من دومة الجندل يطلب أمرَه في أمْر العدوِّ؛ فوقَّع إليه أبو بكر: «ادنُ من المـوت تُوهـب لك الحياة»، وقد رُفعتْ شـكوى إلى عمر بـن الخطَّاب من أحد ولاته فوقَّع إليه: «كثُرَ شـاكوكَ وقلَّ شـاكروك فإمَّا اعتدلتَ وإمَّا اعتزلتَ»، ومنهـا مـا وقَّع به أبـو جعفر المنصور، حيـن كتب إليه عاملُـه بمصرَ، يذكرُ نقصانَ النِّيل: «طهِّرْ عسكرَكَ من الفساد، يُعطِكَ النِّيلُ القِياد».

وفي العصر العبَّاسيّ وصلتْ التَّوقيعات إلى أقصى ذراها؛ نظرًا لوجود ديوان خاصٍّ بها، وبروز كُتَّاب فيها؛ بعضُهم من الوزراء، من أشهرُهم: يحيى البرمكيّ وأولاده، وبخاصَّة ابنه جعفر، يقول ابن خلدون: «كان جعفر بن يحي البرمكيّ يُوقِّعُ القصصَ بين يديْ الرَّشيد، ويرمي بالقصَّة إلى صاحبها، فكانت توقيعاتُه يتنافسُ البلغـاءُ في تحصيلها؛ للوقوفِ فيها علي أسـاليبِ البلاغـةِ وفنونِها حتَّى

قيل: أنَّها كانت تُباعُ كلّ قصَّة منها بدينار.»، ومن كلامه لكُتَّابه: «إنْ استطعتم أن يكون كلامكم كلّه مثل التَّوقيع فافعلوا».

وعلى الرَّغم من اشتهار كُتَّاب من أصولٍ فارسيَّةٍ بكتابة التَّوقيعات في العصر العباسيِّ، إلاَّ أنَّها ليستْ فارسيَّة الأصلِ كما يزعم بعضُ البعض؛ ومنهم شوقي ضيف في كتابه: «تاريخ الأدب العربي (العصر العباسيّ الأوّل)»، ص: 489، وأوَّل، وأشملُ، مصدرٍ حملَ إلينا طائفةً كبيرةً من «التَّوقيعات» كتاب: «العِقد الفريد»، لابن عبد ربه الأندلسيّ، ثم كتاب: «الوزراء والكتَّاب»، للجهشياري، وفي كتاب: «نثر الدُّر»، للآبي، طائفةٌ كبيرة منها، وفي كتب أبي منصور الثَّعالبيِّ، ومنها: «تحفة الوزراء»، نجدُ قدرًا غيرَ يسيرٍ منها، كذلك في كتاب: «صبح الأعشى»، للقلقشندي.

وعلى الرَّغم من الحضورِ الخاصِّ للتَّوقيعات، في مشهد النَّثر الفنيِّ، فقد اندثرتْ؛ لارتباطها بآليَّات النِّظام السِّياسِّي وإدارة الدَّولة الإسلاميَّة؛ فكما نشأتْ وتطوَّرتْ بتطورهما، وازدهرَتْ في أروقة دواوينها، وبخاصَّة ديوان التَّوقيعات، ذوتْ بتلاشي هذا النِّظام، وشكل إدارته.

(191) رَاجِعْ ــ على سَبيْلِ المِثَالِ ــ رِوَايَةِ: الزَّمنِ الآخَر، لإدوار الخَرَّاط ــ الطَّبعة الأولى ــ دار شُهْدي ــ 1985 ــ ص: 74، 164، 368، وَكَذَلكَ دِيوانَهُ: طُغْيَانُ سَطوَةِ الطَّوايَا ــ أصْوَات أدبيَّة، العَدَد :151 ــ الهَيئَة العَامةُ لقُصُور الثَّقَافةِ ــ 18مارس1996، من ص: 9 إلى ص:53، وَتَنْتَشِرُ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ بِكَثْرَةِ في شِعْرِ السَّبعِينيَّاتِ ؛ فَتَبْدُو ــ على سَبيْلِ المِثَالِ ــ عِنْدَ حَسن طِلب، في دِيوانِهِ: آيَة جيْم ــ الهيئة المصرية للكتاب ــ 1992 ــ ص: 13، 16، 25، 23، 29، 30، 31، 32، 35، 37، 39، 40، 41، 45، 46، 47، 50، 53، 86، 89، كَمَا تَبْدُو عِنْدَ جَمَال القَصَّاص، في دِيْوانِهِ: شَمْسُ الرُّخَام ــ الهَيئَةُ المِصْرَيَّةُ العَامةُ لِلْكِتَابِ ــ 1991 ــ ص:8، كَمَا تَبْدُو عِنْدَ رِفْعت سَلاَّم، في دِيوانِهِ: إشْرَاقاتُ رِفعت سَلاَّم ــ الهَيئَةُ المِصْريَّةُ العَامةُ لِلْكِتَابِ ــ 1992 ــ ص: 43، وَفي دِيوانِهِ:

كَأنَّهَا نِهَايَةُ الأرْضِ ـ مَرْكزُ الحَضَارَة العَربيَّة ـ 1999 ـ ص:18 ـ 19.

(192) يُقـرِّرُ زكـي مبـارك في مُقدِّمـةِ كتابـهِ: النَّثر الفنيّ فـي القرنِ الرَّابع، أنَّ هذا الكتابَ «أوَّل كتابٍ منْ نوعِهِ في اللغةِ العربيَّةِ، وهو ـ على الأقـلِّ ـ أوَّلُ كتـابٍ صُنِّفَ عـنْ النَّثرِ الفنيِّ في القرنِ الرَّابـعِ؛ فهو بذلكَ أوَّلُ منارَةٍ أُقيمَتْ لهدايَةِ السَّارين في غيَابَاتِ ذلكَ العهدِ السَّحيق». الجزء الأوَّل ـ سابق ـ ص: 5.

(193) رَاجِعْ، على سبيلِ المثالِ: الممتع في صنعةِ الشِّعرِ، لعبد الكريم النَّهْشَـليِّ، تحقيق: عبَّاس عبد السَّتَّار، دار الكتب العلميَّة، بيروت، 1983، ص: 11، العُمـدة في محاسِـنِ الشِّـعرِ وَآدابِـهِ ونقدِهِ لابن رشـيق، طبعة أمين هنديَّة بمصر ـ 1925 ـ الجزء الأوَّل ـ ص: 5.

الفَصْلُ الثَّانِي

النَّثرُ الصُّوفيُّ الشَّعريُّ

وَمُرَاوغَاتُ «مَا وَرَاءَ اللغَةِ» (*)

« يَا هَذَا! إنَّكَ إنْ عَرفْتَ هَذِهِ اللغَةَ
وَاسْتَخْرَجْتَ حَالَكَ مِنْ هَذَا الدِّيوَانِ
وَحَصَّلْتَ مَالَكَ وَعَلَيْكَ مِنْ هَذَا الحسَابِ
أوْشَكَ أنْ تَكونَ مِنَ المجذُوبيْنَ إلى حُظُوظِهِمْ
الرَّاسِخِيْنَ في عِلْمِهِمْ
وَالخَالِدِيْنَ في نِعْمَتِهِمْ
وَإنْ كُنْتَ عَنْ هَذِهِ الكِنَايَاتِ عَمِيًّا
وَعَنْ هَذِهِ الإشَارَاتِ أعْجَمِيًّا
طَاحَتْ بِكَ الطَّوائِحُ
وَنَاحَتْ عَلَيْكَ النَّوائِحُ
وَلَمْ تُوجَدْ في زُمْرَةِ الغَوَادِي وَالرَّوَائِح.»

أبُو حَيَّان التَّوحِيديُّ

الإشَارَاتُ الإلهِيَّةُ - ص: 49.

ليْسَ كُلُّ النَّثرِ الصُّوفيِّ شِـعريًّا؛ فمِنْهُ نَثْرٌ يَسْرِدُ نظريَّاتِ التَّصوُّفِ، وَفَلْسَـفَاتِهِ، وَأشْـكَالَ الأحْـوَالِ وَالمقَامَاتِ، وَحَالاتِ الشَّـطحِ وَالتَّرقِّي الصُّوفيِّ؛ مُركِّزًا على رِسَالةِ التَّوصِيلِ؛ بإيرَادِ المَعْنَى بوضُوحٍ، والتَّدليل عليْـهِ، وَرَسْـمِ النَّظريَّةِ وَالتَّأويْـلِ[1]، وَمِنْهُ نَثرٌ صُوفِيٌّ آخَرٌ، يتجسـد في نصوص سـردية إبداعية، تشدد على الرسـالة الجمالية؛ باشتغالها على مَـادةِ اللغَةِ، وَإعَادَةِ تَشْـكِيلِهَا تَشْـكِيْلاً خَاصًّا، وَيُشَـدِّدُ ـ هَذَا النَّثرُ الأخيـرُ ـ عَلـى اللغَـةِ كَدَالٍ؛ لَـهُ كِيانُـهُ الفِيْزيقِيُّ وَالإيقَاعِـيُّ، وَعَلى فِعْـلِ الـكِتَابةِ ؛ كَخَلْقٍ فَنِّيٍّ وَتَأسِـيْسٍ إبْدَاعِيٍّ خَـاصٍّ، مُعَادِلٍ لِحَركَةِ التَّجربَةَ الصُّوفيةِ، بِكُلِّ مَا تَمُورُ به مِنْ تَوْقٍ، وَتَوَقُّدٍ، وَتَوَحُّدٍ، وَاجْتِثَاتٍ، وَاكْتِوَاءٍ، وَإشَـارَاتٍ، وَحُجُبٍ، وَتَلْويحَاتٍ، وَتَطوُّحَاتٍ، فَهِيَ لَيْسَـتْ ـ فَقَط ـ تَجْربَةَ كِتَابَةٍ؛ وَبِالتَّالِي فَهِيَ لا تَنْطَلِقُ مِنْ شَكْلٍ مُحَدَّدٍ.

وَيَتَمَيَّـزُ التَّعبيْرُ هُنَـا بالإبدَاعيَّةِ؛ وَالاكْتِفَاءِ، وَالتَّكثِيفِ الشَّـديدِ، وَهَـذَا مَـا حَـدَا بِالبَعْـضِ أنْ يَنْظُـرَ إلى بَعْـضِ مُنْجَـزَاتِ النَّثْـرِ الصُّوفيِّ الشِّـعريِّ، بِاعْتِبَارِهَـا أقْـدَمَ نَمَـاذجِ قَصِيدَةِ النَّثْـرِ[2]؛ على الرَّغْـمِ مِنْ أنَّ بَعْضَ أصْحَابِهَا لَمْ يُدْرجُوهَا كِشِـعْرٍ، وَقَدْ حَدَثَ هَذَا مُنْذُ تَفَجَّرَ الوعِيُ بِحُدُوثِ الشِّعريَّةِ خَارَجَ الوَزْنِ.

لَمْ يَبْدَأْ النَّثرُ الصُّوفيُّ الشِّـعريُّ، كَنُصُـوصٍ طَويلَةٍ وَمُكْتَمِلَةٍ، في مَرْحَلـةٍ وَاحِـدَةٍ، فإنَّ مَـا وَصَلَنَا ـ مِن بداياتهِ ـ لا يَعْدُو كَوْنِهِ شَـذَرَاتٍ مَجَازيَّـةٍ مُكثَّفَـةٍ، رُبَّمـا يَكُـونُ أقدُمَهَـا هَـذِهِ الشَّـذَرَاتُ المُكثَّفَـةُ المَشْـحُونَةُ، الَّتـي تَعْقُـبُ خُطَـبَ الإمَـامَ عليّ بن أبِـي طَالِب، فـي: نَهْجِ البَلاغَـةِ، وَتَلِيْهَـا مَرْحَلَـةُ البِدَايَـاتِ التَّأسِيسـيَّةِ لِكِتَابَةِ النَّثْـرِ الصُّوفيِّ

الشِّـعريِّ، وَكَانَ ذَلكَ في القَرنيْنِ الثَّاني وَالثَّالثِ الهِجريَّين، حَيْثُ بَدَأَ مُتَصوِّفـةُ القَرْنِ الثَّانــي صِياغَة تَجَارِبِهِمْ في عِبَارَاتٍ مُكثَّفة، أمْسَـتْ، فِيْمَـا بَعْـدُ، أقـوالاً مَأثُـورَةً، وَفـي القَـرْنِ الثَّالث دَخَـلَ النَّثْـرُ الصُّوفيُّ الشِّـعريُّ مَرْحَلَـةَ التَّدويْن[3]، حِيْنَمَـا بَدَأتْ نَظَريَّاتُ التَّصـوفِ تَظْهَرُ في أنْسَاقٍ كِتَابيَّةٍ جَديدَةٍ.

لَقَـدْ ظَـلَّ النَّثْـرُ الصُّوفيُّ الشِّـعريُّ، ينمو فـي الهَامِشِ، بِمَعْـزَلٍ عَنْ آليَّـاتِ النَّثْـرِ الفَنِّيِّ، المُتَاخِـم لَهُ، وَالمُهَيْمـِنِ عَلى المَشْـهدِ الإبْدَاعيِّ، مُتَّحِـدًا بِتَجْرِبَتِـه الخَاصـةِ، وَمُبْتكِـرًا لَهَـا لُغَتَهَـا الخَاصةَ وَإجـرَاءَاتِ إنْتَـاجِ دلالاتِها؛ فَمِنْ مَرْحَلةِ البِدَايَـاتِ؛ بِعِبَارَاتِهَا الأقْرَبِ إلى بِنْيَةِ الأقْوَالِ المَأثُـورَةِ وَالتَّوقِيعَـاتِ ـ تَحَوَّلَ النَّـصُّ إلى كِتَابَةٍ، تَتَجَسَّـدُ فِيْهَا لُغَةُ مَا وَرَائيَّاتِ اللغَةِ؛ لُغَةٌ إشَـاريَّةٌ، تُشِيرُ دَائِمًا، وَأحْيَانًا لا تُشِيرُ إلاَّ إلى ذَاتِها، وَوَاصَـلَ هَـذَا النَّصُّ تَجْربَتَـهُ وَمُغَامَرَاتَـهُ، في الـدُّرُوبِ المَجْهُولةِ، حَتّى وَلَـجَ إلـى مَنْطِقةِ تَفجِيْرِ اللغَةِ؛ وَتَشْـيِيئِهَا والاسْـتِغرَاقِ في آليَّـاتِ الحَالَةِ الصُّوفيَّةِ؛ كَالفَنَاءِ وَالمْحوِ وَالحِلُولِ وَالاتِّحَادِ وَالتَّجريْدِ، وَيَبْدُو أبُو يَزِيد البِسْطَاميُّ (ـ 261هـ أو 243 هـ)[4] عَلامَةً فَارِقَةً في هَذِهِ المَنْطِقَةِ؛ حَيْثُ تَوَسَّـعَ في اسْـتِعْمَالِ أشْـكَالِ التَّجريدِ التَّصويريَّةِ، والتَّعبيرِ عَنْ حَالاتِ الفَنَـاءِ، تَعْبِيْرًا مُدْهِشًـا، وَمِنْ ذَلكَ قَولُهُ: «خَرَجْـتُ مِنْ بَايَزيدِ يَّتي كَمَا تَخْـرُجُ الحَيَّةُ مِنْ جِلْدِهَا»[5]، وَقَولُهُ: «انْسَـلَخْتُ مِنْ نَفْسِــي كَمَا تَنْسَـلِخُ الحَيَّـةُ مِنْ جِلْدِهَا، ثُمَّ نَظَرْتُ إلى نَفْسِـي، فَإذَا أنَا هُـوَ»[6]؛ حَيْثُ يَتَجَرَّدُ وَيَفْنَـى وَيَتَّحِـدُ، وَفـي قِصَّةِ مِعْرَاجِـه الَّتي رَوَاهَـا، يَقُـولُ: «صَعَدْتُ إلى السَّـمَاءِ، وَضَرَبْتُ قُبَّتي بِإزَاءِ العَرْشِ»[7]، وَمِـنْ أبْرَزِ تعبيرَاتِه عَنِ المَحْوِ وَالفَنَـاءِ قَوْلُهُ: «أشْـرَفْتُ عَلى مَيْدَانِ الليسـيَّةِ، فَمَا زِلْتُ أطِيْرُ فيْه عَشْـرَ

سِـنيْنَ، حَتَّى صِرْتُ مِنْ لَيْسَ بلَيْسَ في لَيْسَ، ثُمَّ أشْرَفْتُ عَلى التَّضييعِ، حَتَّـى ضِعْتُ ضَيَاعًا، وضعـتُ، فَضِعتُ عن التَّضييـعِ، بلَيْسَ في لَيْسَ، فـي ضَيَاعَـةِ التَّضييعِ»[8]، وَهِيَ مَقولَـةٌ في الفَنَاءِ لا مَزيـدَ بَعْدَهَا؛ حَيْثُ يَتَحَقَّـقُ فيْهَـا التَّعبيرُ عن الفَنَاءِ التَّامِ؛ بتَغْييبِ الفَنَاءِ عَن الفَنَاءِ، وَقَدْ دَفَعَهُ الاسْـتهلاكُ في شُـهودِ الجَلالِ ـ ذَاتَ مَرَّةٍ ـ إلـى أنْ يَخرُجَ إلى النَّاسِ، وَيَسْـألُهُمْ عنْ نَفْسِهِ، يُفتِّشُ عنْهَا، وَيَطْلُبُهَا مَعَ الطَّالبيْنَ»[9]، كَمَا دَفَعَهُ شُـعورُهُ بِفَنَائِهِ وَاتِّحَادِهِ إلى أنْ يَلْهَجَ: «سُـبْحَانِي مَا أعْظَمَ شَـانِي»[10]، وَلَمْ يَتَوسَّـلْ أبُو يزيد بِالتَّصنيعِ البَلاغِيِّ؛ للتَّعبيْرِ عنْ أحْوَالِهِ وَمَقَامَاتِهِ الفَذَّةِ؛ بَـلْ اعْتَمَدَ على تَرْميْـزِ لُغَةٍ أقرَبَ إلى تَجْرِبَتِهِ فـي الخُصوصِيَّةِ، لُغَةٍ تَنُوءُ بِمَـا تُضْمِـرُهُ في حَنَايَاهَـا، وَتُراهِنُ علـى حُضُورِهَا الفَيَّاضِ، وَاسْـتَثمَرَ إبْدَاعِيَّةَ الشَّـطحِ؛ فَتَحَدَّثَ عنْ المَشْـي في الهَوَاءِ، وَالمَشْـي على المَاءِ، وَالعُرُوجِ إلى السَّمَاءِ.

وَقَـدْ بَلَغَـتْ لُغَتُهُ دَرَجَةً عَاليَـةً مِنَ التَّصويْرِ الـدَّالِ، وَكَثَافَةِ التَّعبيْرِ، على نَحْوِ مَا نَجِدُ في قَوْلِهِ:

«كُنْـتُ أطُـوفُ حَـوْلَ البيْـتِ أطلُبُهُ، فَلمَّـا وَصَلْتُ إليْهِ رَأيْـتُ البيْتَ يَطوفُ حَوْلِي.»[11]

وَقَولُهُ: «طَلَبْتُ قَلْبي لَيْلَةً مِنَ الليالِي فلَمْ أجدْهُ، فلمَّا كَانَ في السَّحَرِ سَمِعْتُ قائِلاً يقولُ لِي: يَا أبَا يزيد، هُوَ ذَا تَطْلُبُ غَيْرَنا؟!.»[12]

وَقَولُهُ: «أدْخَلَنِي مَعَهُ مُدْخَلاً أرَانِي الخَلْقَ كُلَّهُمْ بَيْنَ إصْبَعِي.»[13]

وَقَولُهُ: «أنَا اللوحُ المَحْفُوظُ كُلّهُ.»[14]

وَقَـدْ كَانَ أبُـو يزيـد ـ بِهذَا المَنْهَـجِ ـ بِدايَـةً، نَسْـتَطِيعُ أنْ نَلْحَظَ اسْتمرَارَهَا ـ بِوضُوحٍ ـ فِيْمَنْ أتَوا مِنْ بَعْدِهِ، وَمِنْهُمْ الجُنَيْدُ (ـ 297هـ)،

وَالشِّـبلِيُّ (ـ 334هـ)؛ الَّذي قَـالَ يَوْمًا لأصْحَابِهِ: يَا قَـوْمُ ! أمُرُّ إلى مَا لا وَرَاءَ، فَـلا أرَى إلاَّ وَرَاءَ؛ وَأمُـرُّ يَمينًا وَشـمَالاً إلى مَـالا وَرَاءَ، فَلا أرَى إلاَّ وَرَاءَ، ثمَّ أرْجعُ فَأرَى هَذا كُلَّهُ في شَعْرَةٍ مِنْ خِنْصَرِي.»[15]

وَقَـالَ أيْضًـا: «لَوْ دَبَّـتْ نَمْلَةٌ سَـوْدَاءُ، عَلـى صَخْرَةٍ صَمَّـاءَ، في ليْلَةٍ ظَلْمَاءَ، وَلَمْ أشْعُرْ بهَا، أوْ لمْ أعْلَمْ بهَا لقُلْتُ: إنَّهُ مَمْكُورٌ بي.»[16]

وَقَالَ أيْضًا: «أنَا الوقْتُ، وَلَيْسَ في الوقْتِ غَيْري، وَأنَا مَحْق.»[17]

وَعلـى الرَّغـم مِـنْ هَذا المَنْهَـجِ التَّعبيـرِيِّ، وَهَذِهِ الـرُّوحِ، نَقـرَأُ رَأيًا للشِّـبليِّ فـي أبِي يزيد، يقـولُ فيْهِ: « لَوْ كَانَ أبُو يزيـدُ، رَحِمَهُ اللَّه، هَا هُنَا، لأسْلَمَ (!) عَلى يدِ صبْيَاننَا.»[18]

غَيْرَ أنَّ أبَا يزيد ـ في الوَاقعِ ـ كَانَ بِدايَةً انْطلقَ مِنْهَا كثيرُونَ، وَقَدْ مَثَّلَـتْ تَجربَتُهُ حدّاً فَاصِلاً بيْنَ مَا قبلَـهُ وَمَا بَعْدَهُ، وَحَقيقَةُ الأمْرِ أنَّ «كُلَّ أخْلافِ أبِي يزيد إنَّمَا نَسَجُوا على مِنْوَالِهِ، وَأقوالُهُمْ يُمْكنُ أنْ تَنْدَرجَ في نَفْسِ الأبوَابِ الَّتي ابْتدَعَهَا وَأطلَقَ فيْهَا القولَ»[19]، ومِنْ أبرَزِ التَّجارِبِ الَّتي عمَّقَتْ هذَا المسَـارَ، تجربَةُ أبي القاسِمِ الجنيدِ؛ فهُوَ يُعبِّرُ عنْ حَالِ الفَنَاءِ بالأدَاءِ اللغويِّ الصُّوفيِّ كثيفِ الشَّفَرَاتِ والإشَارَاتِ، بقولِهِ:

«وَهَبَنِيْهِ ثمَّ اسْـتَتَرَ بي عَنِّي؛ فأنَا أضَرُّ الأشْيَاءِ عليَّ، الوَيْلُ لـي مِنِّـي، أكادَنـي وَعَنْهُ بـي خَدَعَنـي، كَانَ حُضُورِي سَـبَبَ فقدِي، وكانتْ مُتعَتِي بِمُشَاهَدَتـي كَمَال جُهْدَي، فـالآنَ عَدِمْـتُ قُوَايَ لعناءِ سِـرِّي. لا أجِـدُ ذوقَ الوُجودِ ولا أحلـو مِـنْ تمكيْـنِ الشُّـهودِ، ولا أجِـدُ نعيمًـا مِـنْ جنسِ النَّعيـمِ، ولا (أجِدُ) التَّعذيبَ منْ جِنْـسِ التَّعذيبِ، فطَارَتْ المَذاقـاتُ عنِّـي، وتفانَتْ اللغـاتُ منْ وَصْفِـي، فلا صِفَةَ

تُبـدِي ولا داعيـة تُجـدِي. كانَ الأمْرُ في إبدائـه كمَا لمْ يَزلْ في ابتدائه.»[٢٠]

وبلُغَةِ التَّصَوُّفِ ذاتِهَا، يُعبِّرُ عنْ التَّرقِّي في دَرَجَاتِ الفَنَاءِ، بقولِهِ:

«اعْلَـمْ أنَّـكَ مَحْجُـوبٌ عَنْكَ بـكَ، وأنَّكَ لاتصِـلُ إليْه بكَ، ولكنَّكَ تصِلُ إليْه به، لأنَّهُ لمَّا أبْدَى إليْكَ، رُؤيَة الاتِّصَالِ بـه، ودَعَاكَ إلى طَلَبٍ لهُ فطلبْتَهُ، فكنْتَ في رُؤيَةِ الطَّلبِ برؤيَـةِ الطَّلـبِ والاجْتهَـادِ لاسْـتدرَاكِ مَـا تُريـدُهُ بطلبكَ، كُنْـتَ مَحْجُوبًا، حتَّـى يَرْجِـعَ الافتقارُ إليْه فـي الطَّلبِ، فيكونُ رُكنُكَ وعِمَادُكَ في الطَّلبِ بشِـدَّةِ الطَّلبِ، وأدَاءِ حقـوقِ مَا انتخبَ لكَ منْ عِلْمِ الطَّلبِ، والقيَام بشـرُوطِ مَا اشْـتَرطَ عليْكَ فيْـه، ورِعَايَةِ مَا اسْـتَرْعَاكَ فيْه لنفسِـكَ، حَمَـاكَ عنْـكَ، فيُوصِلُكَ بفنائكَ إلى بقائـكَ لوصُولكَ إلى بغيتِـكَ، فيبقي ببقائِهِ، وذلكَ أنَّ توحيدَ المُوَحِّدِ باقٍ ببقاءِ الوَاحِـدِ، وإنْ فنِيَ المُوَحِّدُ، فحينئذٍ أنْـتَ أنْتَ، إذْ كُنْتَ بلا أنْتَ، فبقيْتَ منْ حَيْثُ فنِيْتَ.»[٢١]

ويُعَبِّرُ عنْ تطوُّحَاتِهِ بينَ الأحْوَالِ بقولِهِ:

«الخوفُ يقبضُني. والرَّجاءُ يبسِـطُني. والحقيقةُ تجمَعُنِي، والحَـقُّ يُفرِّقُنِـي، فـإذَا قبضَنِـي بالخـوفِ أفنانِـي عنِّـي بوجُـودِي، فصَانَنِي عنِّي. وإذَا بَسَـطَني بالرَّجَاءِ ردَّني عليَّ بفقدِي، فأمَرَني بحِفْظِي، وإذَا جَمَعَني بالحَقيقَةِ أحْضَرَنِي فدَعَانِي، وإذَا فرَّقني بالحَقِّ أشْهَدَنِي غيرِي فغَطَّاني عنْهُ، فهو في ذلكَ كلِّه مُحَرِّكِي غيْر مُمْسِـكِي، ومُوْحِشِـي

غيْرِ مُؤْنِسِــي، بحضُورِي أذوقُ طعمَ وجودِي، فليتَهُ أفنانـي عنِّــي فمتَّعَنـي، أوْ غيَّبنِـي عنِّي فروَّحَنـي وللفَنَاءِ أشْـهَدَنـي، فنائِــي بقائِي، ومنْ حقيقَةِ فنائِي أفنانِي عنْ بقائِي وفنائِي فكنــتُ عنْــدَ حقيقَةِ الفَنَــاءِ بغيْرِ بقَــاءٍ ولا فنَــاءٍ، بفنائِي وبقائِي لوجُودِ الفَنَاءِ والبَقَاءِ، لوجُودِ غيرِي بفنائِي.»[٢٢]

وَبِهَذَا الأداءِ الشِّعريِّ الخاصِّ، شَــرَعَ النَّثْرُ الصُّوفيُّ الشِّــعريُّ يَشـقُّ طَريقَهُ، بِتَجليَّاتٍ وَتحوُّلاتٍ، شَتَّى، تُحَافِظُ ـ في مُجْمَلِهَا ـ على نَسِيجٍ لُغَوِيٍّ يَعْمَلُ على مُسْــتَوِيَيْنِ؛ مُسْــتَوِيً ظَاهِرِيٍّ، وَمُسْــتَوىً بَاطِنيٍّ؛ مُسْتَوىً قَريْبٍ، وَمُسْتَوىً بَعيدٍ، وَقَدْ تَجَلَّى حُضُورُهُ في تَجَارِبَ عَديدَةٍ، يقفُ في طَليعَتِهَا: (رَسَائِلُ) الجُنَيْد، وَ (طَوَاسِيْنُ) الحَلاَّج (ـ 309هـ)، وَ (المَوَاقِفُ وَالمُخَاطَبَـاتُ) لِلنَّفَّرِيِّ (ـ 354هـ)، وَ (الإشَـارَاتُ الإلهيَّةُ) لِلتَّوحِيدِيِّ (ـ 309هــ)، وَ (الغَوثيَّــة)[23]، وَ (الفَتْحُ الرَّبَّانِيُّ وَالفَيْـضُ الرَّحمَانِيُّ)، لعبد القــادر الجِيْلانِي (ـ 561هــ)، و (هياكل النُّور) و (حِكمة الإشْــراق) (الغربــة الغربيَّــة) للسُّــهرورديِّ المَقتــولِ (549 ـ 586 هــ)، وَ (فُصُــوصِ الحِكَــم)، وَ (الفُتُوحَــاتُ المَكيَّةُ)، وَ (رَسَــائِلُ) مُحيي الدِّين بنِ عَرَبيٍّ (ـ 638 هــ)، وَ (الجَوْهَــرَةُ المُضِيئَــةُ)، وَ (جَوْهَــرَةُ الدِّسُــوقِيِّ) ـ وَهِيَ الصُّــورَةُ المُصَغَّــرَةُ مِــنَ (الجَوْهَــرَةِ المُضِيْئَةِ) ـ لإبرَاهيم الدِّســوقي (ـ 676هـ)، و (الحِكم) لابن عطاء الله السّكندريِّ (658 ـ 709).

وَبِهَــذِهِ الأعْمَــالِ اسْــتَطَاعَ النَّثْرُ الصُّوفيُّ الشِّــعريُّ، أنْ يُحــدِّدَ مَعَالِمَ دَوْلَتِــهِ فــي خَريطَةِ الإبدَاعِ العَربــيِّ، وَأنْ يُحَافظَ علــى قَوْمِيَّتِهِ الخَاصةِ، بِرُؤاهُ الخَاصةِ، وَأدائِهِ المُتَفرِّدِ.

العُكُوفُ عَلى جَمَاليَّاتٍ خَاصةٍ وَبَدِيلَةٍ

أثْبَتَـتْ تَجَاربُ النَّثرِ الصُّوفيِّ الشِّـعريِّ، بِمَلامِحِهَا الخَاصةِ، وَوَعْيهَا الفَريْـدِ، أنَّهـا نتَـاجُ تجربةٍ خاصَّـةٍ وَعي خَاصٍّ وَمُسْـتقلٍّ، وَجَـاءَ أدَاؤهَا مُلائِمًـا لِهَـذِهِ التَّجربَـةِ، غَيْرَ بَاحِـثٍ لَهَا عَنْ تَجَسُّـدٍ في صِيْغَـةٍ قَائِمَةٍ، وَهَذَا مَا جَعلَهَا كِيَانًا خَاصًّا قَائِمًا، أمَامَ كِيَانَاتِ النَّثرِ الفَنِّيِّ الغَفِيْرَةِ، المُهَيْمنَـةِ على خَريْطَةِ الإبْدَاعِ العَربِـيِّ، وَإنْ كَانَ هَذَا الكِيَانُ الخَاصُّ قَدْ ظَلَّ مَحْكُومًا عليْهِ بِالإقَامَةِ في الهَامِشِ، لِعُهُودٍ طَويلَةٍ.

وَلَقدْ أثْبَتَتْ تجَاربُ النَّثرِ الصُّوفيِّ الشِّـعريِّ، أنَّهَا ليْسَـت امْتِدَادًا إلاَّ لِذَاتِهَا؛ فاسَـتقلَّ خِطَابُهَا الفنيُّ بالتحامِهِ بأشْكَالِ التَّجربَةِ وتحوُّلاتِهَا، بَـرزَ هَـذا على مِحْورِ التَّشـكيلِ اللغويِّ الخـاصِّ؛ الَّذي اصْطَـدَمَ مِرَارًا بحوائِـطِ اللغَةِ؛ فكَانَ يُعبِّرُ باللغَةِ أوْ بصَمْتِهَـا، بالقَوْلِ ومَا وَرَاءَ القَوْلِ، كَمَا بَرَزَ في التَّصويرِ الشَّـطحيِّ الأقربِ إلى المِخيَالِ السِّرياليِّ الحُرِّ، وفي التَّوسُّعِ في التَّشفيرِ والتَّرميزِ، وفي تداخُلاتِ الجَسَديِّ والرُّوحيِّ، والفيزيقـيِّ والمِيافيزيقـيِّ، والباطنـيِّ والوجـوديِّ، وفـي تطوُّحاتِهِ بيْنَ الظَّاهـرِ والبَاطِنِ، وإزالةِ المَسَـافاتِ بيْنَ المُتناقِضَاتِ، وفي إشْـرَاقاتِهِ الرُّوحيَّةِ، واسْـتبطاناتِهِ العميقَةِ، وتوسُّـعِهِ في المُناجَيَـاتِ والغنائيَّاتِ، وفـي سَـرْدِياتِّهِ الرَّمزيَّـةِ والعَجَائبيَّـةِ الفنتاسـتيكيَّةِ، وفـي إشْـرَاقاتِهِ الرُّوحيَّـةِ، وقد ارْتَبَطَ التَّصويرُ في هَذا الخِطَابِ بالمَرَائيِّ الخاصَّةِ الَّتي تردُ على القلبِ والرُّوحِ في المُجَاهَدَاتِ والأحْوَالِ والمَقَاماتِ والشَّطَحَاتِ والكَرَامَـاتِ؛ فكَانَ المَجَـازُ الصُّوفيُّ حقيقةً مَعيشَـةً، وبَـرزَ التَّرميزُ

ضِمْـنَ أبَـرْزِ قَضَايَـا التَّعبيـرِ في هَـذا الخِطَابِ؛ وهُـو ضَرورَةٌ التـزَمَ بهَا الخِطَـابُ فـي أحْيَانٍ عديدَةٍ، لمُوَاجَهَةِ الصِّدَام الَّذي لا مَحَالةَ سَـيَحْدُثُ مِنْ انكشَافٍ يُؤدِّي بالضَّرورَةِ إلى اسْتباحَةِ الدِّماءِ.

وبهذَا الأدَاءِ الشِّـعريِّ الخاصِّ تَجَلَّى اسْـتِقلالُ خطاب النَّثرِ الصُّوفيِّ الشِّـعريِّ، عـنْ خطـاب النَّثرِ الفَنِّـيِّ بآليَّاتِهِ الَّتـي هَيْمَنَتْ عَلى المَشْـهَدِ الإبْدَاعـيِّ فـي القَـرْنِ الرَّابـعِ الهِجريِّ، فـي عِـدَّةِ مَظَاهـرَ؛ أجْلاهَا أنَّ مَدَارَاتَـهُ الأسَاسِـيَّةَ قَـدْ ظَلَّـتْ مَشْـغُولةً بتَصـوُّرَاتِ الحَالَـةِ، وَلَيْسَـتْ بمُقْتَضَيَاتِ الغَرَضِ، وَتَخَلَّتْ عَنْ سَرَطَانَاتِ الزَّخْرَفَةِ البَلاغيَّةِ، وَعَمَدَتْ إلـى تَفْجيْـرِ أضْرَحَةِ اللغَـةِ، وَتَفْجيْرِ أغْـوَارِ الحَالَةِ الإنْسَـانيَّةِ في حُقُولِ اللغَةِ، وَالكَشْفِ عَنْ لَوَاعِجَ تَتَضَوَّرُ في أعْمَاقِ الرُّوحِ الجَيَّاشَةِ، وَحَرَكَةِ الـرُّؤى البَاطِنيَّـةِ، وَمَجَـازَاتِ الكُشُـوفِ وَالتَّرقِّي الرُّوحيِّ، وَكَشَـفَتْ عَـنْ حِسٍّ ميتَافيزيقـيٍّ مُتَضـرِّمٍ وَمُتَأرجِحٍ، بيْـنَ الانْفِصَـالِ وَالاتِّصَالِ، وَالغِيَـابِ وَالحُضُورِ، وَالتَّشَـظِّي وَالاتِّحَادِ، وَالمَحْـوِ وَالإثبَاتِ، وَامْتَلأتْ بالمُنَاجيَـاتِ الفَيَّاضَـةِ المَكلُومَـةِ، فـي إيقَاعيَّةٍ مُكثَّفةٍ؛ هِـيَ إيقاعيَّةُ تَجْربَتِهَا الإنْسَـانيَّةِ ذَاتِهَـا؛ فَحَجْمُ العِبَـارَةِ وَبِنْيَتُهَا التَّركِيبيَّـةُ يَتَحَدَّدانِ بمَدَّاتِ الإيقَاعِ وَدَرَجَتِهِ وَحَالتِهِ، وَجَسَّدَتْ أنْسِجَتُهَا اللغويَّةُ انْزيَاحَاتٍ عَنْ النَّمُوذَجِ الفَنِّيِّ المُهَيْمِنِ؛ وَالمُتَمَثِّلُ في الإنْشَائيَّاتِ اللغويَّةِ الثَّقيلَةِ، وَالزَّخمِ البَديعيِّ وَالبَيَانيِّ الكَثيفِ، وَالتَّوَازي الإيقاعيِّ المُتَكرِّرُ؛ الشَّبيْهِ _ في دَائريَّتِهِ _ بِنِظَامِ البَيْتِ، في الشِّعرِ البَيْتِيِّ المَوْزُونِ المُقفَّى، وَاسْتَخْدَمَتْ السَّجْعَ أحْيَانًا؛ وَلكِنَّهُ اسْتِخدَامٌ خَاصٌّ؛ لِتشْكِيْلِ مُنَاخٍ مُخْتلفٍ عمَّا ألَحَّ عليْـهِ كُتَّابُ النَّثـرِ الفَنِّيِّ المُبْدِعونَ، وَهُوَ مَا سَـوْفَ يَبْدُو لَدَى الحَلاَّجِ، وَالتَّوحِيديِّ، وَابْنِ عَرَبيٍّ.

وَقَدْ اتَّسَمَتْ هَذِهِ التَّجَارِبُ بِالإِشَارَةِ، الدَّائِمَةِ، إلى مَا وَرَاءَ اللغةِ؛ إلى ذَلكَ الكَامِنِ، الَّذي لا يُمكِنُ الإِمْسَاك بهِ؛ وَلِهَذَا اسْتَوْجَبَتْ مُجَاهَدَاتٍ ورِيَاضَاتٍ لِلْفَوزِ بِالأَسْرَارِ بَعْدَ كَشْفِ الحُجُبِ، ثمَّةَ لُغَةُ نَزَّاعَةُ إلى التَّرميْزِ وَالإيمَاءِ وَالإِشَارَاتِ وَالتَّلويحَاتِ؛ بِأَضْوَاءٍ خَفيفةٍ عَنْ عَوَالِمَ خفيَّةٍ لا تُحَدُّ وَلا تُنَالُ، عَوَالِمَ عَامِرَةٍ وَكَامِنَةٍ فِي العَالَمِ المَنْظُورِ، وَفيْمَا وَرَاءَ هَذَا العَالمِ المَنْظُورِ، وَالنَّصُّ، ذاتُه، يُجَسِّدُ هَذِهِ الحَالةَ المُرَاوِغَةَ الخَلاَّقَةَ.

وَتُشَدِّدُ الشِّعريَّةُ هُنَا عَلى تَحَقُّقِ الحُضُورِ الفِيْزِيقِيِّ للغَةِ، وَعَلى إِبْرَازِ نبْرَةٍ بَاطنيَّةٍ كَثِيفَةٍ وَعَمِيقَةٍ، بَوْحُهَا أقرَبُ إلى تَضْمِيدِ الرُّوحِ، وَلَمْلَمَةِ أَشْتَاتِ الذَّاتِ الفَانيَةِ في عَرَاءِ المَلكُوتِ، وَتَتَوَهَّجُ الأَعْضَاءُ، المُصْغِيَةُ، بِفُيوضِ الأَسْرَارِ، وَتُصْبِحُ الكِتَابَةُ نَزْفًا مُنْدفِقًا عَلى الأَعْرَافِ بيْنَ عَالَمَيْنِ: عَالَمِ الحُضُورِ وَعَالَمِ الغِيَابِ، وَكِلاهُمَا فِي مَرْحَلَةِ التَّجَلِّي الفَيَّاضِ، وَقَدْ اسْتَجَادَ عبدُ القَاهِرِ الجُرجَانيُّ هَذَا المَنْزَعَ؛ حيْنَ رأى أنَّهُ «يَجِبُ الفَضْلُ إذَا احْتَمَلَ في ظَاهِرِ الحَالِ غيرَ الوَجْهِ الَّذي جَاءَ عليْهِ وَجْهًا آخَر.»[24]

وَبِهَذَا حَقَّقَتْ لُغَةُ النَّثر الصُّوفيِّ الشِّعريِّ شِعْرِيَّتَهَا؛ القَائِمَةَ عَلى الكَشْفِ عَنْ أَصْوَاتٍ أخْرَى، كَامِنَةٍ في اللغَةِ، وَأَشَارَتْ إلى أَسْرَارٍ وَحُجُبٍ لا تَنْتَهِي فِي فَضَاءَاتِهَا، وَمَا بَيْنَ المُسْتَوَى الظَّاهِرِيِّ لِلغَةِ وَالمُسْتَوَى المُضْمَرِ، تَتَوهَّجُ الأَرْوَاحُ، وَتَتَدَّفقُ أَمْوَاجُهَا، وَمَا بَيْنَ جَدَلِيَّةِ الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ، وَالحَاضِرِ وَالغَائِبِ، يَتَبدَّى السَّعْيُ الدَّائمُ إلى «الإِمْسَاكِ بِمَا هُوَ»بَاطِنيٌّ وَرُوحِيٌّ»[25].

وَالإيقَاعُ، هُنَا، لَيْسَ عُنْصُرًا تَزْينيًا، أَوْ خَلْفيَّةً لِلْمَشْهَدِ اللغَوِيِّ، أَوْ إِطَارًا لَهُ؛ بَلْ هُوَ جُزْءٌ أَسَاسِيٌّ مِنْ مُكَوِّنَاتِهِ، وَرُبَّمَا كَانَ أَوَّلَ هَذِهِ

المُكوِّنَاتِ، وَهُوَ يَقُومُ هُنَا بِمَا «يُمْكِنُ وَصْفُهُ بِالرَّوحَانيَّةِ؛ حَيْثُ يَتَجَاوزُ حُدُودَ المَعْنَى المُبَاشِرِ إلى مَنْطقةٍ، يُمْكنُ أنْ نُطلِقَ عليْهَا: مَنْطِقَةَ «مُخَاطبَةِ الأرْوَاح.»[26]

وَارْتَبَطَ المَجَازُ، هُنَا، بِالإشْرَاقَاتِ، وَتَعلَّقَ بِفيوضِ الأحْوَالِ وَالمَقَامَاتِ وَتَرَقِّيَاتِ الرُّوحِ وَمَجَازاتِ الجَسَدِ وَحَالاتِ الشَّطحِ. وَكَانَ الحَذَرُ وَالحِرْصُ على عَدَمِ الجَهْرِ بِمَا يَتَرَاءَى في الخُلُواتِ حَافِزَينِ على إسْدَالِ السَّتائرِ الشَّفيفةِ على» الحَقيقَةِ»، وَأصْبَحَتْ العِبَارَةُ الرَّهيفَةُ تَتَفَتَّحُ على مَتَاهَاتِ الدَّلالاتِ البَعيدَةِ، وَأمْسَتْ «اللقطَةُ» الدَّالةُ تُؤدِّي مَا تُؤدِّيه «الصُّورُ البَلاغيَّةُ»، وَنَهَض السَّردُ البَاطِنيُّ الرَّهيفُ، البَعيدُ عَنْ جَلبَاتِ الزَّخَارفِ بِتَأسيسِ مناخٍ خاصٍّ للشِّعريَّةِ، وَلَمْ تَكُنْ المَرَائِي ـ الَّتي نَرَاهَا في إبْدَاعَاتِهِمْ ـ وَسيْلَةً للإيمَاءِ بِشَيءٍ؛ بَلْ كَانَتْ ـ بِالنِّسبَةِ إليْهِمْ ـ حَقَائقَ مَعيْشَةً في حَالاتِ الشَّطحِ.

وَسَعَتْ هَذِهِ التَّجَاربُ إلى إيْجَادِ عَالمٍ لُغَويٍّ، نَزَّاعٍ إلى التَّعبيْرِ عَمَّا هُوَ خَفِيٌّ، وَشَائِكٌ، وَقَصِيٌّ، وتوَّاقٍ إلى الإمْسَاك بِمَا يَصْعُبُ الإمْسَاكُ بِهِ؛ النَّبْضِ الخَفِيِّ لِلرُّوحِ، وَهِيَ تَلْتَاعُ في تَوْقِهَا، وَشَطحَاتِهَا، وَصَبَوَاتِهَا المُدَمِّرَةِ، وَيَسْتَمِدُّ شِعْرِيَّتَهُ مِنْ بِئْرِ الرُّوحِ، وَمِنْ تَفَجُّرِ لُغَتِهَا الإشْرَاقِيَّةِ، وَمِنْ انْثِيَالِهَا الطَّليْقِ الغَضِّ المُتَنَاقِضِ كَالحُلْمِ.»[27]

وَاللغَةُ، هُنَا، ذَاتَ طَبيعَةٍ خَاصةٍ؛ لأنَّهَا مُلْتَبِسَةُ بِتَجَاربَ خَاصةٍ، وَصَادرَةٍ عَنْهَا في الأسَاسِ، لا عَنْ كِتَابَةٍ سَابِقَةٍ مُتَمَثِّلَةٍ؛ وَبِالتَّالي تَتَبَدَّى صَاعِدَةً مِنْ أعْمَاقِ الرُّوحِ، مُتوقِّدَةً، أسْيَانَةً، مَكْلُومَةً، وَحُرَّةً، وَيَتَأسَّسُ حُضُورُهَا الكِتَابيُّ هُنَا بِاعْتبَارِهَا نَقْشًا وَحَفْرًا وَخَلاصًا، وَهِيَ تَعْكِسُ توتُّرًا حَادًّا بَيْنَ وَجَعِ اللحَظةِ الآنيَةِ المَعِيشَةِ وَالزَّمنِ السَّرمَديِّ المُطلَقِ،

وَيَبْـرزُ هَـذَا التَّوتُّـرُ فـي تَوقُّدِ الحُضُـورِ اللغَـويِّ وَالتَّراكِيـبِ الخَاصةِ، في ألَقٍ وَشُـبُوبٍ وَجَيَشَـانٍ وَشَـبَقٍ وَلَوْعَةٍ وَعَرَامَةٍ وَطاقَةٍ سِـحْرِيَّةٍ مُشعَّةٍ، وَتَعْكسُ أبْنِيَةُ اللغَةِ انْفجَارَاتِ الرُّوحِ، وَمَا يَمورُ فِيْهَا مِنْ اكْتوَاءٍ وَجُنُوحٍ وَعتْمَةٍ وَانْشِطَارَاتٍ، وَقَدْ عَكَسَتْ هَذِهِ الحَالةُ سَعْيَ الذَّاتِ المُبْدعةِ إلى إيْجَادِ لُغَةٍ مُعَادلَةٍ لِتطوُّحاتِهَا وَشَـطَحَاتِهَا وَتوقُّداتِهَا، لُغَةٍ تُجَسِّدُ الصُّرَاخَ فـي دَيَاجيْرِ العَدَمِ، وَالتَّوقِ إلى التَّمَاهي في مِسـاحَاتِهَا البَعِيْدَةِ العَصِيَّةِ؛ وَلِـذَا نَزَعَـتْ، فـي كَثِيْرٍ مِنَ الحَـالاتِ، إلـى المُخَاطَبَـاتِ وَالمُنَاجَياتِ وَالبـوْحِ وَالارْتمَـاءِ فـي أفضِيَةِ الكُشُـوفِ البَاهِرَةِ، وَالعُـرُوجِ مِنْ حُدُودِ الجَسَـدِ، وَالنُّـزوعِ إلـي الفَنَاءِ؛ الَّـذي يَكونُ شَـرْطًا للاتِّحَـادِ وَالالتِئامِ وَالخَـلاصِ وَتَمَاهِي الجُزْءِ في الكُلِّ؛ وَلِهَذَا فَهِيَ لُغةُ الذَّاتِ المَبْتُورَةِ مِنْ نَفْسِـهَا؛ بِكُلِّ مَا يَتَوقَّدُ في عَتْمَتِها المُوْحِشَةِ الرَّحيبَةِ، مِنْ لَواعِجَ وَشَبَقٍ عَـارمٍ للذَّوَبـانِ في المَدَى العَامرِ البَاهِرِ، وَبِهَذَا انْسَـجَمَ النَّصُّ معَ ذاتِهِ، وَانْخَرَطَ في بِنْيَةٍ تَنْصَهرُ بِهِ، وَتَتَلَّونُ أسْلُوبيًّا بِلواعِجِهِ وَتَوَقُّدِهِ الجَيَّاشِ.

المَشْهَدُ الإبْدَاعِيُّ لِلنَّثرِ الصُّوفيِّ الشِّعْريِّ

تَعَـدَّدتْ التَّجليَّـاتُ الإبْدَاعِيَّةُ للنَّثرِ الصُّوفيِّ الشّـعريِّ، وَلكنْ بَرَزَتْ فيْهِ، بِقُوَّةٍ، تَجَارِبُ مُهَيْمِنةٌ، تَتَمَتَّعُ كُلٌّ مِنْهَا بِخُصُوصِيَّةِ الأدَاءِ وَفَرَادَتِهِ، وَلكنَّهَا تَشْـتَرِكُ، كُلُّهَا، في خَصِيْصَةٍ أسَاسَيَّةٍ؛ هِيَ إبْدَاعيَّةُ الخِطابِ وَاكْتِنَـازِهِ بالـدَّلالاتِ الفَيَّاضَـةِ، وَالتَّركيـزُ على قِيْمةِ الخَلْقِ الشِّـعريِّ لِمَـادَةِ اللغَـةِ نَثْرًا، وَعلى إبْرَازِ آليَّاتِ التَّشـكُّلِ؛ الَّتي تَفَجَّـرَتْ في حُمَيَّا هَذِهَ التَّجارِبِ، وَشـكَّلَتْ شِـعْرِيَّتِها الخَاصـةِ، تَتَبَدَّى هَـذِهِ الخَصِيْصَةُ بِوُضُوحٍ، في تَجَارِبِ أبْرَزِ مُبْدِعي النَّثرِ الشِّعريِّ الصُّوفيِّ، وَهُمْ:

الحَلاَّج [28]

كَانَ التَّحـدِّي الأكْبَـرُ الَّـذي وَاجَـهَ خطـابَ الحَـلاَّج؛ بمحمولاتِـهِ المغايـرةِ، هُـوَ حَاجِـزُ اللغـةِ الصُّلـبِ، بِكَهَنوتِـهِ التَّاريخِـيِّ وَسُـلْطَتِهِ الاجْتِمَاعيَّـةِ، وَكَيفيَّة اخْتِرَاقِهِ وَتشْـييد لُغَةٍ خَاصَّـةٍ على أنْقَاضِ اللغَةِ، وَبِمَعْزِلٍ عَنْ اسْـتِرَاتيجيَّاتِهَا التَّليدَةِ، شَـرَعَ الحَلاَّجُ في تَفْريْغِ الدَّوَال مِنْ حُمُولاتِهَـا الدَّلاليَّةِ المُكَدَّسَـةِ فيْهَا، ثُمَّ دَفَعَ بِهَا في سِـيَاقَاتِهِ الخَاصَّةِ؛ لِتُصْبِحَ لُغَتَهُ الخَاصَّةَ، بِأنسَاقِهَا الخَاصَّةِ، وَآلياتِهَا الشَّخصِيَّةِ.

هَـذِهِ اللغـةُ الخَاصَّـةُ هِـيَ الأسَـاسُ الفِعلـيُّ الَّـذي شَـكلَّتْ عَليْـهِ (الطَّواسِـيْنُ) بِنْيَتَهَا الخَاصَّةَ المُسْـتَقِلَّةَ المُحْكَمَةَ، حَيْثُ تَبْدُو الجُمَلُ، فِيْهَـا، فَاقِـدَةً لأيِّ عِلاقَةٍ تَاريخيَّةٍ سَـابقَةٍ عَليْهَا سِـوَى عِلاقَةِ التَّركيْبِ النَّحويِّ، الَّتي يَسْـتَحِيْلُ اسْـتِبعَادَهَا، هَذَا التَّشْـديدُ القَويُّ على تَحقيْقِ الوَظيفَـةِ الشِّـعريَّةِ للنَّـصِّ، بِإبْـرَازِ خُصُوصِيَّتِـهِ الأدبيَّةِ الذَّاتيَّـةِ، هُوَ مَا يُذكِّرُنَـا بِطُمُـوحِ الشَّـكلانيِّنَ في إنْتَـاجِ «كَلام يَتَكلَّـمُ، وَلكنَّهُ لا يَقـولُ شَـيْئًا، وَلا يَقُومُ بِغَيرِ الـكَلامِ، كَلام فَارِغٍ، وَلكنَّـهُ ليْسَ أبَدًا كَلامَ الفَرَاغِ؛ إنَّهُ لا يُبِيْنُ وَإنَّمَا يُشِـيْرُ، وَهَكَذَا بِوَاسِـطَةِ هَذَا الكَلامِ نَفْسِهِ، يَنْكَشِفُ المَجْهُولُ، وَيَبْقَى مَجْهُولاً.» [29]

هَكَذا بَدَا الخِطَابُ خَالِصًا لِذَاتِهِ، مُتَجَرِّدًا مِنْ أيِّ حَرَكَةٍ خارجيَّةٍ، وَمُسْتَغرِقًا في حَرَكتِهِ المُسْتَقِلَّةِ، وَإيقَاعَاتِهِ الطِّلَّسَمِيَّةِ السِّحريَّةِ:

«خُرُوجُـهُ مَعْكُوسٌ في اسْـتِقرارِ تَأرِيْسِـهِ، مُشْـتَعِلاً بِنَارِ تَعْرِيْسِهِ، وَنُورِ تَرْويْسِـهِ. مِيْرَاضُهُ مَخِيْلُ رَمِيْض، مِقْيَاضُهُ

مَعيْلُ وَميْض، شَراهِمُه بَرْهَميَّةٌ، صَوارِمُه مُخَيلِيَّة، عَمايَاه بَطْهَميَّة.

هَـاه! يا أخي لوْ فهِمْـتَ لتَرضَّمتَ الرَّضمَ رَضْمًا، وَتَوَهَّمتَ الوَهْمَ حَتْمًا، وَرجعْتَ غَمًّا وَفنيْتَ هَمًّا.»(٣٠)

لَقَـدْ اسْـتَغْرَقَ الحَلاَّجُ فـي تَشْـيِيءِ اللغَـةِ، وَالتَّركيْزِ علـى أبْعَادِهَا الصَّوتيَّةِ وَالفيزيَائيَّةِ؛ لِتَجْسِيدِ أفُقٍ هَادرٍ وَعَصِيٍّ مَعًا؛ مُكْتَنِزٍ بالأسْرَارِ، وَنَزَّاعٍ لِلإشَارَاتِ البَرْقيَّةِ، مِنْ خِلالِ نَسيْجٍ لُغَويٍّ مَهْجورٍ وَحُوْشِيٍّ.

وَقَدْ جَسَّدَتْ تَجْربَةُ الحَلاَّجِ الهَادرَةِ، وَضْعيَّةَ الذَّاتِ المُفَارقَةِ لِلْمَعرفَةِ السَّـائدَةِ وَطُرُقِهَـا المُعَبَّـدَةِ، الـذَّاتِ المُجَاهِـدَةِ لإيجَادِ صِيْغَـةٍ فَرديَّةٍ، شَديدَةِ الخُصُوصِيَّةِ وَالانْفِصَالِ، صِيْغَةٍ تَتَخَطَّي الآنِيَّ إلى مَا وَرَاءَهُ، وَمَا وَرَاءَهُ إلـى مَـا وَرَاءَهُ؛ حَيْـثُ الأزَلُ الأبَدِيُّ الكَامِلُ، في تَكثِيْفٍ شِـعْريٍّ دَقيْقٍ وَنَزَّافٍ.

وَلَمْ يَكتَفِ الحَلاَّجُ باللغَةِ؛ لِتَحْقيْقِ تَأثيْرِهِ الطِّلَّسميِّ السِّحْريِّ، وَإنَّمَا ضَمَّ إلى عُنْصرِ اللغَةِ مَادَةً أخْرَى لِلتَّعبيْرِ؛ هِيَ الرُّسُـومُ الرَّمْزيَّةُ؛ لِتَتَجَاوَرَ لُغَةُ الحُروفِ وَلُغَةُ الخُطُوطِ، في تَشْكِيْلِ فَضَاءَاتِ النَّصِّ.

فَيَسْتَهِلُّ ـ على سَبيْلِ المِثَالِ ـ: طَاسِين التَّنزِيهِ، هَكَذَا:

الأوَّلُ مَفْعُولاتُهُ، وَالثَّانِي

مَرْسُومَاتُهُ، وَالدَّائرَةُ الكَوْنَيْنِ.

وَالنُّقَطُ مَعْنَى التَّوحِيْدِ، وَإنْ انفَصَلَ عَنْ الدَّائرَةِ.

هَذِهِ الدَّائرَةُ الثَّانيَةُ مِنْ جُمْلَةِ الجُمَلِ على أقَاويْلِ أهْلِ المِلَلِ وَالمُهَلِ وَالمُقَلِ وَالسَّيَلِ.

فَالأَوْلَى ظَاهِرَةٌ، وَالثَّانِيَةُ بَاطِنَةُ، وَالثَّالِثَةُ إشَارَةٌ.

هَـذِهِ كُلُّهَـا مَكْنُونَـةٌ مَكْنُوسَـةٌ، مَرْجُـوزَةٌ مَطْـرُوزَةٌ، مَشْمُوزَةٌ مَرْكُوزَةٌ، مَغْرُوزَةٌ مَبْهُورَةٌ، فـي ضَمَائرِ الضَّمَائِرِ، في الدَّائرِ وَالحَائِرِ، وَالغَائرِ وَالنَّائرِ وَالمَائِرِ.[٣١]

كَمَا جَسَّـدَ الحَلاَّجُ، بِشَـخْصِهِ ـ بِامْتِيَازٍ ـ ضَـرَاوَةَ الرِّحلَةِ الأَبَدِيَّةِ المُسْـتَحِيلَةِ، مِـنْ أَقْطَـارِ الوَاقِعِ المَنْظُـورِ الجَيَّاشِ، إلى مَـا وَرَاءَ الوَاقِعِ المَـوَّارِ، وَمِـنْ حُـدُودِ المَعْنَـى القَائِمِ، إلى مَـا وَرَاءِ المَعْنَى، وَهِـيَ رِحْلَةٌ ضَارِيَةٌ، في غُرْبَةٍ كَامِلةٍ، إِسْرَاءٌ مُتَوَاصِلٌ، إلى المَا وَرَاءَ، دُوْنَ وُصُولٍ، إِسْرَاءٌ تَظَلُّ فيْهِ اللغَةُ مُسْتَودَعًا وَمَتَاهَةً.

كَانَـتْ المَعْرِفَةُ ذَاتُهَا حِجَابًا، وَكَانَ الجَسَـدُ قيْدًا وَسِـجْنًا وَمَنْفيً لِلـرُّوحِ المُبْدِعَـةِ الجَوَّابَـةِ. وَكَانَـتْ تِرْحَالاتُـهُ المَوْصُولَةُ إلـى المَجْهُولِ الضَّـارِي وَالكَامِـنِ، ضُرُوبًا مِـنْ الفَقْـدِ المُتَوالِي وَالوَجْـدِ المُتَأَرجِحِ، لَـمْ تَعُدْ الإشَـارَاتُ تكْفِي، وَصَـارَتْ اللغةُ حِجَابًا لا طَرِيْقًـا، وَمَا عَادَتْ العِبَـارَةُ تَتَّسِـعُ، وَكَانَتْ الـرُّوحُ ـ المُنْفَـرِدَةُ في المَنْفَـى المُلْتَهِبِ ـ قَدْ اكْتَظَـتْ بِالاكْتِمَالِ، حِيْنَمَا شَـرَعَ يَصْرُخُ ـ في شَـوَارِعِ بَغْدَادَ ـ: «أَنَا الحَقُّ»، وَكَانَتْ الرُّوحُ قَدْ احْتَشَدَتْ وَهَيْمَنَتْ[وَتَلاشَى حُضُورُ الجَسَدِ]، حِيْنَمَا كَانَ يُجْلَدُ، وَحِيْنَمَا أُخْرِجَ لِلْقَتلِ؛ يَتَبَخْتَرُ في قَيْدِهِ وَيُرَدِّدُ: «حَسْبُ الوَاجِـدِ إفْـرَادُ الوَاحِدِ لَهُ»[32]، وَكَانَـتْ الرُّوحُ المُبْدِعَةُ قَـدْ وَصَلَتْ إلى حَقِيقَةِ البَدْءِ، حِيْنَمَا سُـئِلَ عَنِ التَّصوُّفِ، وَهُوَ مَصْلُوبٌ، فَقَالَ لِلسَّائِلِ:» أَهْوَنُـهُ مَـا تَـرَى»[33]؛ فَتقْطِيْعُ الجِسْـمِ، وَالانْفِصَـالُ عَنْهُ، أَدْنَـى مَرَاقِي الـذَّاتِ المُبْدِعَةِ إلى فَضَـاءَاتِ اللانِهَائِيَّةِ، وَانْتِهَاءُ الحَقِيقَةِ إِيْذَانٌ بِابْتِدَاءِ الحَقِيقَـةِ، لَقَـدْ كَانَ شُـعُورُهُ بِمَا وَرَاءَ اللغَةِ، وَمَـا وراءَ المَادَّةِ، وَمَا وَرَاءَ

الوُجُودِ، حَادًّا، وَمُتَجَاوِزًا شُعُورَهُ بِجَسَدِهِ؛ بَلْ كَانَ شُهُودُهُ الكَامِلِ لِلْمَا وَرَاءِ لا لِلْمُتَعَيَّنِ، كَانَ المُتَعَيَّنُ بَابًا إلى مَا وَرَائِهِ:

«النُّقطَةُ أصْلُ كُلِّ خَطٍّ، وَالخَطُّ كُلُّهُ نُقَطٌ مُجْتَمِعَةٌ، فَلا غِنَى (لِلْخَطِّ) عَنْ النُّقطَةِ، وَلا النُّقطَةِ عَنْ الخَطِّ، وُكُلُّ خَطٍّ، مُسْتَقِيمٍ أوْ مُنْحَرِفٍ فَهُوَ مُتَحَرِّكٌ عَنْ النُّقطَةِ بِعْيِنِهَا، وَكُلُّ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ بَصَرُ أحَدٍ فَهُوَ نُقْطَةٌ بَيْنَ نُقْطَتَيْنِ.»(٣٤)

كَمَا تَجَسَّدَ وَعْيُهُ بِمَا وَرَاءَ المَادَّةِ ـ أيْضًا ـ حِيْنَمَا «أُتِيَ بِهِ يَوْمَ وَقْعَتِهِ مُسَلْسَلاً مُقيَّدًا، وَهُوَ يَتَبَخْتَرُ في قَيْدِهِ، وَهُوَ يَضْحَكُ»(35)، كَانَ الفَنَاءُ، في الحَقِّ قَدْ اسْتولَى على جَمِيْعِ كِيَانِهِ، وَكَانَ انْطلاقُهُ مِنْ حُدودِ الجَسَدِ إلى فَضَاءَاتِ المُطْلَقِ الأزَليِّ المَاوَرَائِيِّ تَخَليًا كَامِلاً؛ بَلْ غِيَابًا، عَنْ فَرْدَانِيَّتِهِ الظَّاهِريَّةِ الغَريْبَةِ.

وَلَقَدْ جَسَّدَ الحَلاَّجُ بِكُلِّهِ غُرْبَةَ النَّصِّ المُوَاجِهِ، وَقِيَامَةَ الكِتَابَةِ المُغَايِرَةِ لِمَنْطِقِ ذَاكِرَةِ السُّلْطةِ وَآليَّاتِهَا وَمَنْطِقِهَا، بِكُلِّ حُضُورِهَا الوَهَّاجِ:

«أفْهَامُ الخَلائِقِ لا تَتَعلَّقُ بالحَقيْقَةِ، وَالحَقيْقَةُ لا تَليْقُ بِالخَليْقَةِ، وَالخَواطِرُ عَلائِقُ، وَعَلائِقُ الخَلائِقِ لا تَصِلُ إلى الحَقائِقِ، الإدْرَاكُ إلى عِلْمِ الحَقيْقَةِ صَعْبٌ، فَكَيْفُ إلى حَقيْقَةِ الحَقيْقَةِ؟، وحقُ الحَقِّ وَرَاءَ الحَقيْقَةِ، وَالحَقيْقَةُ دُونَ الحَقِّ. الفَرَاشُ يَطيْرُ حَولَ المِصْبَاحِ إلى الصَّبَاحِ وَيَعودُ إلى الأشْكَالِ فيُخْبِرُهُمْ عَنْ الحَالِ بِألْطَفِ المَقالِ، ثُمَّ يَمْرَحُ بِالدَّلالِ طَمَعًا في الوُصُولِ إلى الكَمَالِ، ضَوْءُ المِصْبَاحِ عِلْمُ الحَقيْقَةِ، وَحَرارَتُهُ الحَقيْقَةُ، وَالوُصُولُ إليْهِ

حَقُّ الحَقيْقَةِ.

«لَمْ يَرْضَ بِضَوْئِهِ وَحَرَارَتِهِ، فَيُلْقِي جُمْلَتَهُ فيْهِ، وَالأشْكَالُ يَنْتَظِرُونَ قُدُومَهُ لِيُخْبِرَهُمْ عَنْ النَّظرِ حيْنَ لَمْ يَرْضَ بِالخَبَرِ، فحينئذٍ يَصِيْرُ مُتَلاشِيًا مُتَصَاغِرًا مُتَطَائِرًا، فَيَبْقَى بِلا رَسْمٍ وَجِسْمٍ وَاسْمٍ وَوَسْمٍ فَبِأيِّ مَعْنَىً يَعُودُ إلى الأشْكَالِ وَبِأيِّ حَالٍ بَعْدَ مَا صَارَ؟، مَنْ وَصَلَ وَصَارَ إلى النَّظَرِ، اسْتَغْنَى عَنْ الخَبَرِ، وَمَنْ وَصَلَ إلى المَنْظُورِ اسْتَغْنَى عَنْ النَّظَرِ، لا تَصِحُّ هَذِهِ المَعَانِي لِلْمُتَوانِي وَلا الغَانِي، وَلا الجَانِي، وَلا لِمَنْ طَلَبَ الأمَانِي، كَأنِّي كَأنِّي، أوْ كَأنِّي هُوَ، أوْ هُوَ أنِّي: لا يَرُوعُني إنْ كُنْتُ أنِّي.

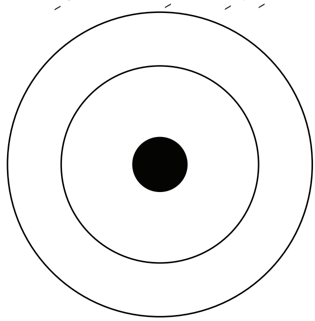
«يَا أيُّهَا الظَّانُّ، لا تَحْسَبْ أنِّي أنَا الآنَ، أوْ يَكُونُ، أوْ كَانَ، لا بَأسَ إنْ كُنْتُ أنَا لكِنْ لا أنَا.»[٣٦]

وَمَا كَانَ تَقْطيْعُهُ وَضَرْبُ عُنُقِهِ، وَإشْعَالُ النَّارِ في رُفاتِهِ، وَحَمْلُ رَمَادِهِ إلى قمَّةِ مَنَارَةٍ؛ لِيُنْثَرَ وَتَذْرُوهُ الرِّيحُ في مِيَاهِ دِجْلةٍ أوْ سَمَاءِ الخِلافَةِ، بِقَادِرٍ عَلى مَحْوِ رِحْلَةِ الحَلاَّجِ، مِنْ الوُجُودِ، فَسَوفَ تَسْرِي إلى النَّاسِ فيْمَا يَتَنَفَّسُونَ، وَسَوْفَ تَأتي طَائفَةٌ، بَعْدَ ذَلكَ، تَعْتَقدُ بِمَبْدَأ الحُلولِ وَتَنْسِبُهُ إليْهِ ـ في مُنْتَصَفِ القَرْنِ الخَامِسِ الهِجْرِيِّ ـ وَتُحوِّلُهُ إلي زعِيْمٍ تَعْتَقِدُ في مَهْديَّتِهِ وَرُجُوعِهِ، وَيُنْتَدَبُ الغَزَاليَّ: الشَّافعيُّ الأشْعريُّ، وَعبْدُ القَادرِ الجيلانِيِّ: الحَنْبَليُّ، وَغَيْرُهُمَا، لِلدِّفَاعِ عَنْ الحَلاَّجِ، وَإعَادَةِ الاعْتبَارِ إليْهِ، وَاعْتبَارِهِ شَهِيْدًا وَقِدِّيسًا، مُنْذُ القَرْنِ الخَامِسِ الهِجْرِيِّ[37]، وَهُوَ مَا سَيَقودُ إلى بَعْثٍ جَديْدٍ لِلْحَلاَّجِ، وَإقامَةٍ دَائِمَةٍ لِنَارِهِ الجَوَّابَةِ.

النَّفَّريُّ[38]

شَـكَلَّتْ تَجْربَةُ النَّفَّريِّ؛ المُتَجَسِّـدَةُ في: (المَوَاقِفِ وَالمُخَاطَبَاتِ)، اخْتِرَاقًـا حَقيقيًّا لرَغَـاوي اللغَةِ وَزَبَدِهَا، اخْتِرَاقًا رَهِيفًا يَشُـقُّ الحُجُبَ، وَيصِـلُ إلى أعْمَـاقِ التَّجربَـةِ التَّحتيَّةِ المَـوَّارَةِ المُتَّقدَةِ، في قلْـبِ اللغَةِ، بِمَعْـزِلٍ عـنْ التَّعقيدِ اللغَـويِّ، وَبالقَليْلِ مِنَ التَّراكِيـبِ اللغَويَّةِ تَتَفَتَّحُ في العِبَارَةِ مَسَالكُ الدَّلالاتِ المُشِعَّةِ الَّتي تَتَوَاشَجُ في فَضَاءِ النَّصِّ.

فِعْلُ الكتابةِ، هُنَا، فِعْلُ إصْغَاءٍ، وَمُتَابَعَةٌ للْمُكاشَفَاتِ وَمَا يَرِدُ على القَلْـبِ مِنْ أحْوَالٍ وَتَضَوُّرَاتٍ، لَيْسَ جَوْهَرُ الشَّـكلِ عِنْدَ النَّفَّريِّ «صِيْغَةَ كِتَابَةٍ؛ وَإنَّمَا هُوَ صِيْغَةُ وُجُودٍ، أعْنِي أنَّهُ وَعْدٌ بِبِدَايةٍ دَائِمَةٍ، وَمِنْ هُنَا لا يَنْطلقُ النَّفَّريُّ مِنْ أوَّلانيَّةٍ شَكليَّةٍ، بَلْ يَنْطلِقُ، عَلى العَكْسِ، مِنْ أوْلانيَّةِ اللا شَـكْلِ، كِتَابَةُ النَّفَّريِّ تَصْدُرُ، ضِمْـنَ التَّراثِ العَرَبيِّ، عنْ أصَالَةٍ شَـخْصيَّةٍ مُطْلَقَةٍ.. لا أثَـرَ فِيْهَا لأيِّ نَمُوذَجٍ سَـابقٍ، وَلا أثَرَ فِيْهَا للذَّاكرَةِ الجَمَاليَّةِ»[39]؛ حَيْثُ لا تَسْـتَنِدُ عَلى تَقَاليدِ الشِّـعرِ العَرَبيِّ المَعْرُوفَةِ، أوْ مَوْضُوعَـاتِ النَّثْـرِ الفَنِّيِّ المُحَدَّدةِ، في تَخْليْقِ شِـعْريَّتِهَا الخَاصةِ، وَإنَّمَا تَعْتَمِـدُ عَلـى حَرَكَاتِهَـا الدَّالةِ وَأصَالَـةِ أدَائِهَا، في لُغَةٍ شَـفَّافةٍ، عَامِرَةٍ بالتَّرميْـزِ والتَّكثيْـفِ، وَإيقَـاعٍ بَاطنـيٍّ رَهِيـفٍ، لا يَنْهَضُ علـى فَاعِليَّةِ النَّبرِ وَحْدَهَا؛ وَإنَّمَا يَسْـتَثْمِرُ بِدَايَاتِ السُّـطورِ الثَّابتةِ في تَشْكِيلِ قَافيَةٍ



مَعْكُوسَةٍ، بِالإضَافَةِ إلى مِسَاحَاتِ السُّطورِ، وَتَفَاوتِهَا طُولاً وَقِصَرًا، حَسَب حَرَكَةِ التَّجربَةِ.

وَعَلى قَدْرِ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ الخِطَابُ الإبْدَاعِيُّ لـ (المَوَاقِفِ وَالمُخَاطَبَاتِ) مِنْ أصَالَةٍ شَدِيدَةٍ في الأدَاءِ ـ الَّذي هُوَ انْعِكَاسٌ لأصَالَةِ التَّجربَةِ ـ فَإنَّهُ يَبْدُو عَمِيقَ الأوَاصِرِ بِالصِّيَغِ الإبْدَاعيَّةِ للأحَاديْثِ القُدْسِيَّة [40]، وَهَذِهِ الأوَاصِرُ لا تُقلِّلُ مِنْ اسْتِقلاليَّةِ الإبْدَاعِ، وَخُصُوصيَّتِهِ، وَأصَالةِ نَبْرَتِهِ، في (المَوَاقِفِ وَالمُخَاطَبَاتِ).

وتتجسَّد في خطابِ «المواقف والمُخاطبات» كثافةٌ شعريَّةٌ عاليةٌ، في بناء مقطعيٍّ؛ يُشدِّد على توازي الفواتح، في عباراتٍ فياضةِ الإشاراتِ، وفيها تتحوَّلُ الذَّات إلى مُتلقٍ؛ فنِيَ عن كلِّ ما حوله، وتلاشى من ساحته الجميعُ، وفنِيَ عن ذاتِه، ولم يعُدْ، بعد الفَناءِ عن السِّوى والآدميَّة، حضورٌ سوى للصَّوتِ الإلهيِّ الباذخِ الكثيف، يتلقَّاه الإنسانُ الإلهيُّ، في غيبةٍ كاملة لأناه؛ فهو محضُ مُتلقٍ لكلِّ فِعْلٍ وقوْلٍ:

مَوْقِفُ البَحْرِ [41]

أوْقَفني في البَحْرِ فَرَأيْتُ المَرَاكِبَ تَغْرَقُ وَالألْوَاحَ تَسْلَمُ،
ثُمَّ غَرِقتْ
الألْوَاحُ، وَقالَ لِي: لا يَسْلَمُ مَنْ رَكب.
وَقالَ لي: هَلَكَ مَنْ ألْقى بنَفْسِهِ وَلمْ يَرْكَبْ.
وَقالَ لي: في المُخَاطَرَةِ جُزْءٌ مِنَ النَّجاةِ، وَجَاءَ المَوْجُ فَرَفَعَ مَا تَحْتَهُ، وَسَاحَ على السَّاحِلِ.

وَقــالَ لــي: ظاهِــرُ البَحْــرِ ضَــوْءٌ لا يُبْلَــغُ، وَقَعْــرُهُ ظُلْمَةٌ لا تُمَكَّنُ، وَبَيْنَهُمَا حِيتانٌ لا تُسْتأَمَنُ.

وَقــالَ لــي: لا تَرْكَــبُ البَحْــرَ، فَأَحْجُبُــكَ بالآلــةِ، وَلا تُلْقِ نَفْسَكَ فيْهِ فأَحْجُبُكَ بهِ.

وَقالَ لي: فـي البَحْرِ حُدُودٌ، فَأَيُّهَا يُقِلُّكَ.

وَقالَ لي: غَشَشْتُكَ إنْ دَللتُكَ على سِوَاي.

وَقالَ لي: إنْ هَلَكْتَ في سِوَاي كُنْتَ لِمَا هَلَكْتَ فيْهِ.

وَقالَ لي: الدُّنيَا لِمَنْ صَرَفْتُهُ عَنْهَا، وَالآخِرَةُ لِمَنْ أقبَلْتُ بهَا إليْهِ وَأقبَلْتُ بهِ عَليَّ.»

مِـنْ الوَاضِحِ أنَّ هَـذِهِ الكِتَابَةَ، تَبْـدَأ مِنْ تَحْطِيمِ الحُـدُودِ المَنْطِقيَّةِ المُتَعَـارَفِ عَليْهَـا؛ لِتُؤسِّـسَ مَنْطِقَها الخَـاصَّ؛ ففي البَحْرِ (لا يَسْـلَمُ مَنْ رَكِـبَ)، وَفـي الوَقْـتِ نَفْسِـهِ (خاطَرَ مَـنْ ألْقَى بِنَفْسِـهِ ولَـمْ يَرْكَـبْ)، وَكَذَلـكَ (هَلَـكَ مَنْ رَكِبَ وَلَمْ يُخَاطِرْ)، وَفي الوَقتِ نَفْسِـهِ نَجِدُ الغَرَقَ لا يُمِيْتُ: (إذَا وَهَبْتَ نَفْسَكَ لِلبَحْرِ فَغَرِقْتَ فيْهِ كُنْتَ كَدَابَةٍ مِنْ دَوَابِهِ).

كِتَابَةٌ تَتَحَرَّكُ مِنَ المُتَعَّيْنِ الوَاضِحِ، وَتَنْتَهِي بِمَتَاهَاتٍ تَتَفَتَّحُ، كِتَابَةٌ تَنْطلِـقُ مِـنْ مَعَالِمِ الحُضُورِ، إلى مَدَارِجِ الغِيَـابِ. مَتَاهَاتٌ تَتَفتَّحُ، في إثْرِ جُمَلٍ بَسِـيْطَةِ التَّرْكِيْبِ، عَاريَةً مِنَ الزَّخَارِفِ، تَبْدَأُ بِمَقولَةِ: (قَالَ لِي)، وَأيْنَ هُوَ النَّفَّرِيُّ الوَاقِفُ؟، إنَّهُ وَاقِفٌ في جَلالِ الشُّهُودِ وَشُهُودِ الجَلالِ، وَتَلْعَـبُ المُفَارَقَةُ دَوْرًا رَئِيْسًـا في صِيَاغَةِ الشِّـعريَّةِ؛ حَيْـثُ يُقَوِّضُ ظَاهِرُ الجُمْلَةِ مَا قَبْلَهَا؛ لِتَتَحَطَّمَ حُدُودُ المَنْطقِ الظَّاهِريَّةِ، وَحَيْثُ تَتَجَسَّدُ اللغَةُ في دَرَجَةٍ عَاليَةٍ مِنَ الكَثَافَةِ وَالتَّنغِيْمِ، دَرَجَةٍ أقْرَبِ إلى حَرَكَةِ المُحِيْطِ

الهَادِئِ العَميْقِ، وَتَتَدَفَّقُ النَّبرَةُ الشِّعريَّةُ خَافتَةً عَمِيْقَةً.[42]

لَقَدْ جَاءَتْ تَجْربَةُ النَّفَّريِّ فَريدَةً؛ لأنَّهَا نِتَاجُ حَيَاةٍ فَريْدَةٍ، تَجربَةٌ خَاصَّةٌ وَمُنْعَزلَـةٌ عَـنْ السِّـيَاقِ العَامِ، وَضَاربَةٌ فـي فَضَائِهَا الخَـاصِّ؛ كَالنَّفَّريِّ ذَاتِـهِ، الَّـذي عَاشَ جَوَّابًـا في أقْطَـارِ الأرْضِ، حَتَّى وَفَاتِهِ، في مُسْـتَهَلِّ النِّصـفِ الأخَيْرِ مِنَ القَرْنِ الرَّابِعِ الهِجْـريِّ، وَقَدْ كَانَ يُدَوِّنُ (المَوَاقِفَ) وَ (المُخَاطبَـاتِ)، علـى « قُصَاصَاتٍ مِنَ الوَرَقِ، نُقِلَـتْ، بَعْدَ مَوْتِهِ؛ فَلَقدْ كَانَ هَائِمًـا فـي الصَّحَـاري، وَلَـمْ يَقُـمْ فـي أرْضٍ مُعَيَّنَةٍ مُحَـدَّدةٍ إقَامَةَ اسْتِقرَارٍ، كَمَا لَمْ يُتَحْ لأحَدٍ أنْ يَعْرِفَ عنْهُ شَيْئًا.»[34]

هَكَذا جَاءَتْ لُغَةُ النَّفَّريِّ خَاصَّةً.

وَهَكَذَا جَاءَ خِطَابُهُ خِطَابًا تَتَّسعُ (الرُّؤيَا) في مَشْهَدِهِ.

وَ»كُلَّمَا اتَّسعَتْ الرُّؤيَا ضَاقَتْ العِبَارَةُ»، كَمَا يَقُولُ.

أبُو حَيَّان التَّوحِيديُّ[44]

تأتـي «الإشـارات الإلهيَّة»، لأبي حيَّان التَّوحيديِّ، مُجسِّـدةً، موقفَ الصُّوفيِّ من اللغةِ، وهو ما يتبدَّى في قولِهِ:

«هَيْهَـاتَ ضَاقَ اللفظُ، وَاتَّسـعَ المَعْنَى، وَانْخَـرقَ المُرَادُ، وَتَـاهَ الوَهْـمُ وَحَـارَ العَقْـلُ، وَغَـابَ الشَّـاهِدُ فـي الغَائبِ، وَحضَرَ الغَائبُ في الشَّاهدِ، وَتَنَكَّرتْ العَيْنُ مَنْظُورًا بهَا، وَمَنْظُورًا إليْهَا، وَمَنْظُوراً فيْهَا، فَكَيفَ يُمْكِنُ البَيانُ عَنْ قِصَّةِ هَذَا إشْكَالُهَا؟، وَأيْنَ الدَّوَاءُ وَالعِلَّةُ هَذَا إعْضَالُهَا؟، اليَأسَ اليَأسَ، القُنُوطَ القُنُوطَ!، الوَيْلَ الوَيْلَ».[٤٥]

إنَّهَا مِحْنَةُ الذَّاتِ الكُليَّةِ المَبْتُورَةِ عَنْ كِيَانِهَا الأكْمَلِ، مِحْنَتُهَا في عَالَم شَاسِعٍ وَخَاوٍ وَضَارٍ، تَدَاخَلَتْ فيْه المَسَالكُ المُخْتَلِفَةُ، وَوَقَفَتْ فيْهِ اللغَةُ مَشْدُوهَةً وَعَاجِزَةً عنْ احْتِوَاءِ تَجْرِبَةٍ فَوَّارةٍ مُتَشَابِكَةٍ وَغَامِرَةٍ، لَيْسَ في مُسْتَطاعِ الذَّاتِ المُبْدِعَةِ في هَذِهِ الحَالةِ، سِوى العُوَاءِ وَالتَّطايُرِ في حُمَمٍ؛ لِيُصْبِحَ فَضَاءُ النَّصِّ مُعَادِلاً لِلْجَسَدِ المُبْدِعِ؛ الَّذي يَنُوءُ بِفُيوضِ الرُّؤى في دُرُوبِهِ، هَذِهِ الفُيوضُ الَّتي تَتَوالَى عَليْهِ وَتَغِيْبُ، وَهُوَ ـ مُلْتَبِسًا بِهَا وَمُتَّحِدًا ـ يَحْضُرُ وَيَغيْبُ، وَيَتَشَظَّى وَيَتَّحِدُ، وَيَفْنَى وَيَعُودُ، وَلا يَثْبُتُ على حَالٍ، يَتَّحدُ المَجَالُ اللغَويُّ بِمَدَارَاتِ التَّجرِبَةِ اتِّحَادًا كَامِلاً؛ فَحَيْثُ يَنُوءُ الجَسَدُ بِمَا يَحْمِلُ تَنُوءُ اللغَةُ بِمَا يَتَوَاشَجُ في ضُلوعِهَا، وَمَا يَفِيضُ على أوْعِيتِهَا؛ فَحَدَاثَةُ النَّصِّ لَيْسَتْ حَدَاثَةَ كِتَابَةٍ، بَلْ هِيَ حَدَاثَةُ تَجْرِبَةٍ مَعِيْشَةٍ، مُرَاوِغَةٍ وَجَيَّاشَةٍ وَعَارِمَةٍ، وَالأدَاءُ اللغَويُّ الخَاصُّ يُجَاهِدُ أنْ يَتَّحِدَ بِخُصوصِيَّةِ التَّجرِبَةِ.

«يَا هَذَا، إنَّ الَّذي صَمَدَكَ إليْهِ، وَوَلَهَكَ فيْهِ، وَإيمَاؤكَ نَحْوَه، وَإعْجَابُكَ مِنْهُ، حَاضِرُهُ غَائِبٌ، وَغَائِبُهُ حَاضِرٌ، وَحَاصِلُهُ مَفْقُودٌ، وَمَفْقُودُهُ حَاصِلٌ، وَالاسْمُ فيْهِ مُسَمَّى، وَالمُسَمَّى فيْهِ اسْمٌ، وَالتَّصريْحُ بهِ تَعريضُ، وَالتَّعريضُ بهِ تَصْريْحُ، وَالإشَارةُ نَحْوَهُ حِجَابُ، وَالحِجَابُ نَحْوَهُ إشَارَةٌ، وَهَذِهِ قِصَّةٌ لا تُعَرَفُ إلاَّ بهِ، وَحَالٌ لا تُعْزَى إلاَّ إليْهِ، وَشَأنٌ لا يُوجَدُ إلاَّ لهُ، لأنَّهُ بائِنٌ مِنَ الأشْيَاءِ بِمَا هُوَ بهِ هُوَ.»[٤٦]

ثَمَّةَ حِرْصٌ وَاضِحٌ على تَوزيْنِ الجُمَلِ عنْ طريقِ الازْدِوَاجِ، وَحِرْصٌ مُمَاثِلٌ عَلى تَوسِيْعِ آفَاقِ الدَّلالَةِ عنْ طريقِ عِلاقَاتِ التَّضادِ؛ الَّتي تَتِمُّ بِتَبَادُلِ مَوَاقعِ كَلِمَاتِ كُلِّ فَاصِلَتيْنِ.

وَثمَّـةَ كُشُـوفٌ مُتَواليَـةٌ، وَأحْـوَالٌ مُتَبَايِنَـةٌ، وَمَقَامَـاتٌ مُتَعاقِبَـةٌ، وَتَطوُّحَاتٌ لا تَنْتَهِي:

«يَا هَذَا! أمَا تَرى كَيْفَ أديْرُكَ مِنْ بَابٍ إلى بَابٍ، وَكَيْفَ أصفُ لكَ حَالاً بَعْدَ حَالٍ، وَكيْفَ أُلْقِي إليْكَ فَنًّا بَعْدَ فنٍّ، وَكيْفَ أُقوِّي رَجَاءَكَ حَتَّى تَكَادَ تَطمَئِنُ، وَكَيْفَ أُغلِّبُ بَأسَكَ حَتَّى تَكَادَ تَرْجَحَنَّ؟، وَكَيْفَ أُنَاغِيكَ بِالسَّلوَةِ عَنْ الدُّنيَا؟، وَكَيفَ أُسَارُّكَ بِأعَاجيبِ المَولَى؟، وَكيْفَ أجْذِبُكَ إليَّ تَارَةً ثُمَّ أنْجَذِبُ مَعَكَ أخْرَى.»(٤٧)

وَيُفَسِّرُ هَذِهِ العَلاقَةَ الحَمِيْمَة، قَوْلُ النَّفَّرِيِّ:

«أنْتَ ضَالتِي، وَأنَا ضَالتُكَ، وَمَا مِنَّا مَنْ غَابَ.»(٤٨)

أمَّـا مَوقِـفُ التَّوحِيـديِّ مِـنَ النَّثْـرِ الفَنِّـيِّ المَسْـجُوعِ؛ الَّـذي هَيْمَـنَ علـى كِتَابَـاتِ مُعَاصِرِيْـهِ ـ فـي القَـرْنِ الرَّابـعِ الهِجـرِيِّ ـ فَيَبْـدُو في كِتَابِهِ: «الإمْتَـاعِ وَالمُؤانَسَـةِ»، كَمَـا يبدُو ـ بِالتَّفصيْـلِ ـ في كِتابِهِ: «مَثَالِـبِ الوَزيرَيـنِ»؛ حَيْثُ أوْرَدَ فـي: «الإمْتَاعِ وَالمُؤانَسَـةِ»، رَأيًا في ابْنِ العَميْدِ؛ زَعيْمِ التَّيَّارِ التَّزْيينِيِّ المَسْجُوعِ في النَّثْرِ الفَنِّيِّ، قَالَ فيْهِ:

«أوَّلُ مَـنْ أفْسَـدَ الكَلامَ أبُـو الفَضْلِ؛ لأنَّـهُ تَخَيَّلَ مَذْهَبَ الجَاحِـظِ، وَظَـنَّ أنَّـهُ إنْ تَبِعَهُ لَحِقَـهُ، وَإنْ تَـلاهُ أدْرَكَهُ، فَوَقَعَ بَعيدًا عَنِ الجَاحِظِ، قَريبًا مِنْ نَفْسِهِ.»(٤٩)

وَالتَّوحِيديُّ نَفْسُـهُ كَانَ يُرَاوحُ بَيْنَ السَّـجعِ وَالمُزَاوَجَةِ؛ «كَمَا كَانَ يَفْعَلُ الجَاحظُ؛ الَّذي ارْتَضَاهُ إمَامًا في حَيَاتِهِ العَقليَّةِ وَالأدبيَّةِ.»(50)

وَعلـى الرَّغمِ مِنْ رَأيِ التَّوحيديِّ في شَـكلِ الكِتَابَـةِ الفنيَّةِ المُهَيْمِنِ

فـي عَصْرِهِ، فَإنَّنَا نقرأُ لَهُ رَأيًا مُتَحَمِّسًـا في كِتابِ: «التَّاجِي»، لِلصَّابِي ـ وَهَـذَا الأخَيْرُ مِنْ فَرِيْقِ الصَّاحِبِ بنِ عَبَّاد وَابْنِ العَمِيْدِ؛ اللذيْنِ خَصَّصَ التَّوحيـديُّ كِتَابَـهُ: مَثَالِبِ الوَزِيرِيْـنِ، في قَدْحِهِمَا ـ يقـولُ فيْه: «لَوْ لَمْ يَكُـنْ لَهُ غَيْرُهُ لَكَانَ بِهِ أعْرَقَ النَّاسِ في الخَطابَةِ، وَأعْرَقَ الكُتَّابِ في الكِتَابَةِ، هَـذَا، وَنَظْمُهُ مَنْثُورُهُ، وَمَنْثُورُهُ مَنْظُومُهُ، إنَّمَا هُوَ ذَهَبٌ إبْرِيْزٌ؛ كَيْفَمَا سُبِكَ فَهُوَ وَاحِدٌ، إنَّمَا يَخْتَلِفُ بِمَا يُصَاغُ مِنْهُ وَيَشْكُلُ عَليْهِ.[51]

وَالوَاقِـعُ أنَّ المَوقِـفَ مِـنَ الوَزِيْرَيْـنِ، يَرْتبِـطُ بِسَـبَبٍ شَـخْصِيٍّ بيْـنَ التَّوحيديِّ وابْنِ عبَّاد تَحديْدًا؛ فَقَدْ كَانَ التَّوحيدِيُّ يَعْمَلُ نَسَّـاخًا لِلْكُتُبِ لَـدَى الصَّاحِـبِ بنِ عَبَّاد، وَقَدْ لَقِيَ مِنْهُ أسْـوَأَ مُعَامَلَةٍ، وَمِنْ ذَلكَ أنَّهُ كَانَ يَكْتُـبُ شَـيْئًا، فَلَمَّا أبْصَرَ الصَّاحِبَ بـنَ عَبَّاد أمَامَهُ قَـامَ وَاقِفًا؛ احْتِرَامًا لَهُ، «فَصَاحَ بِحَلْقٍ مَشْقُوقٍ: اقْعُدْ؛ فَالوَرَّاقُونَ أخَسُّ مِنْ أنْ يَقُومُوا لَنَا!.»[52]

وَقَدْ عَانَى التَّوحيديُّ ـ بِشِـدَّةٍ ـ مِنْ وَطـأةِ العُزْلَةِ المَفْرُوضَةِ عليْهِ، وَالإهْمَالِ المَضْرُوبِ على مَشْهَدِهِ، وَقَدْ رَصَدَ لَنَا ذَاتَهُ حِينَئِذٍ بِقَوْلِهِ:

«فَقَـدْتُ كُلَّ مُؤنِـسٍ وَصَاحِـبٍ، وَمُرْفِقٍ وَمُشْـفِقٍ، وَاللّٰهِ! لَرُبَّمَـا صَلَّيْـتُ فـي الجَامعِ فَـلا أرَى إلى جَنْبِي مَـنْ يُصَلِّـي مَعي، فإنْ اتَّفقَ فَبَقَّالٌ أوْ عَصَّارٌ أوْ نَدَّافٌ، أوْ قَصَّابٌ، وَمَنْ إذَا وَقفَ إلى جَانبِي أسْـدَرَنِي بِصُنَانِه، وَأسْـكَرَنِي بِنَتنِه؛ فَقدْ أمْسَـيتُ غَرِيْبَ الحَالِ، غَرِيْبَ اللفظِ، غَرِيْبَ النِّحلَةِ، غَرِيْبَ الخلْقِ، مُسْتَأنِسًا بالوَحْشَةِ، قَانِعًا بالوحْدَةِ، مُعْتادًا للصَّمْتِ، مُجْتَنِفًا على الحَيْرَةِ، مُحْتَمِلاً الأذَى، يَائِسًـا مِنْ جَمِيْعِ مَنْ تَرَى.»[٥٣]

وَقَـدْ سَـاهَمَ المَوْقِـفُ الاجْتِمَاعِـيُّ في تَشْـكِيْلِ المَوْقِـفِ الجَمَالِيِّ؛

المُفَـارِقِ لِجَمَاليَّـاتِ المَرْحَلةِ، لَـدَى التَّوحِيديِّ؛ فَقَدْ شَـكَّلتْ الظُّروفُ القَاسِـيَةُ، ثَقيلَةُ الوَطءِ، على رُوحِ التَّوحيـديِّ، مَوْقفًا مُضَادًا لأيدلوجيَا الكِتَابَـةِ المُجَايلَـةِ لَهُ، وَالمُهَيْمِنَةِ؛ الَّتي تَتَأسَّـسَ عَلى اسْـتِنفَادِ طَاقَاتِ السَّـجعِ وَالبَديْـعِ، وَالتَّفنُّـنِ فـي التَّزيينِ وَالزُّخْـرفِ الهَنْدسِـيِّ، غَيْرَ أنَّ التَّوحيـديَّ، فـي حَقِيقَةِ الأمْرِ _ كَغيْرِهِ مِنَ المُتَصَوِّفَةِ _ كَانَ يَسْـجَعَ أحْيَانًـا، وَعَلـى الرَّغـمِ مِـنْ هَـذَا فَلْنَتَأمَـلْ ثَوْرَتَهُ عَلـى طَرَائِـقِ التَّصنِيْعِ الزُّخرفيِّ الهَنْدسِيِّ الخَارجِيِّ بِقَوْلَه:

«يَـا هَذَا! ذَهَبَ اللفظُ المُنَمَّقُ؛ فهَاتِ الآنَ المَعْنَى المُحَقَّقَ، طَالَ القَولُ المُزَيَّنُ؛ فَحَصِّلْ المُرَادَ المُعَنَّنَ، وَكَثُرَتْ العِبَارَةُ؛ فَحَقِّقْ الإِشَارَةَ، تَرَدَّدَ الهَذيانُ؛ فَقَرِّبْ أنْتَ البَيَانَ.»[٥٤]

عبدُ القَادِرِ الجِيلانِي[55]

بِالإضَافَـةِ إلـى كِتَابيْـهِ: «الفَتْـحِ الرَّبَّانِـي وَالفَيْـضِ الرَّحمَانِي»، وَ: «الغُنْيَـةِ»، نَجِدُ لِلْجِيلانِي مَجْمُوعَةً مِنَ النُّصُوصِ الصَّغيْرَةِ، مِنْ أجْلاهَا: الغَوْثِيَّةُ؛ وَفيْهَا عَمَدَ الجِيْلانِي إلى تَقْنِيَةٍ أثيْرَةٍ في النَّثرِ الصُّوفِيِّ الشِّعريِّ، هِيَ المُنَاجَاةُ؛ لِيُؤسِّـسَ بِهَا شِعْرِيَّةَ نَصِّهِ، بِمَا تُتِيْحه من إنشاديةٍ باطنيةٍ، وَبَـوْحٍ غِنَائِـيٍّ سَـيَّالٍ، وَهُـوَ، هُنَا، يَعْتَمِـدُ _ دَاخِـلَ مَجْـرَى المُنَاجَاةِ _ علـى رَهَافَـةِ الحَالَةِ، وَعلى وَهَجِ البَـوْحِ، وَعَلى تَـوَازِي التَّضَادِ، وَتَوَازِي التَّركِيْـبِ، وَالتَّـوازي النَّاتِجِ عَنْ تِكرَارِ الفَوَاتِحِ في بِدَايَاتِ السُّـطورِ، بِمَا يُشَـكِّلُ قافيَةً مَعْكُوسَـةً، تُحَقِّقُ النَّبْرَ دَاخِلِ الخِطَابِ، بَيْنَمَا تَقِلُّ، هُنَـا، المُغَامَـرَةُ اللغَويَّةُ؛ الَّتي تجَلَّتْ في: «الطَّواسِـين»، وفي: «المَوَاقِفِ وَالمُخَاطبَـاتِ»، وفي: «الإشَـارَاتِ الإلهيَّـةِ»؛ فَتقِلّ _ بِالتَّالِـي _ عَنَاصِرُ

الحُضُـورِ اللغَـويِّ المُدْهِـشِ؛ بِأدَائِـه الكَثِيْـفِ الرَّهِيْـفِ، وَتَظَـلُّ اللغَةُ مُحْتَفِظَـةً بِوَظِيْفَتِهَا الإِخْبَارِيَّةِ، وَتَتحَقَّقُ الشِّـعرِيَّةُ، هُنَا، مِنْ تَدَفُّقِ البَوْحِ الاسْتِبْطَانِيِّ العَمِيْقِ، وَمِنْ غِنَائيَّةِ النَّجْوَى المُتَدفِّقَةِ، وَمِنْ بَاطنيَّةِ النَّبرَةِ:

«يَـا غَـوْثُ الأَعْظَـمُ، أَنَـا مَـأوَى كُلِّ شَـيءٍ وَمَسْـكَنِهُ، وَمُنْتَظِرُه.. وَإلَيَّ المَصِيْرُ.

يَـا غَوْثُ الأَعْظَمُ، لا تَنْظُرْ إلـى الجَنَّةِ وَمَا فِيْهَا، تَرَانِـي بلا وَاسِطَةٍ، وَلا تَنْظُرْ إلى النَّارِ وَمَا فيْهَا تَرَانِي بلا وَاسِطَةٍ.

يَا غَوْثُ الأَعْظَمُ، أَهْلُ الجَنَّةِ مَشْـغُولُونَ بِالجَنَّةِ.. وَأَهْلُ النَّار مَشْغُولونَ بِالنَّار.. وَأَهْلِي مَشْغُولونَ بي.

يَـا غَوْثُ الأَعْظَمُ، إنَّ لِي عِبَـادًا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ يَتَعَوَّزُونَ مِنَ النَّعيْمِ، كَأَهْلِ النَّارِ يَتعوَّزُونَ مِنَ الجَحيْمِ.

يَـا غَـوْثُ الأَعْظَمُ، أَهْـلُ القُـرْبِ يَسْـتَغيْثُونَ مِـنْ القُرْبِ، كَأَهْلِ البُعْدِ.»(٥٦)

وَفـي: «الفَتْحِ الرَّبَّانِي وَالفَيْضِ الرَّحْمَانِي»، يُقَدِّمُ ـ بِامْتِيَازٍ ـ خِطابِ النَّثـرِ الفَنِّـيِّ الصُّوفيِّ الشِّـعريِّ، المُتَحرِّرِ مِـنْ رَتابَـةِ الازْدِوَاجِ وَتَوَازِيَاتِ الجُمَـلِ، وَالقَابِـضِ علـى شِـعْرِيَّةِ الحَالـةِ الصُّوفيَّـةِ؛ بِمَرَائِيْهَـا الفَيَّاضَةِ المَجْلـوَّةِ الَّدالـةِ، وَلُغَتِهَـا الكَثِيْفَةِ الإِشَـارَاتِ، في نَبْرَةٍ بَاطنيَّـةٍ عَمِيْقَةٍ وَدَافِئَـةٍ مُتَصَاعِدَةٍ مِنْ قَاعِ الرُّوحِ، عَاريَةً مِنَ الزَّخَارفِ، مُشِـيْرَةً، دَائِمًا، إلـى مَـا وَرَاءَ اللغَةِ، يَتَبَدَّى هَـذَا الأَدَاءُ في مَوَاضِعَ عَديـدَةٍ، في خِطَابِ: «الفَتْحِ الرَّبَّانِي وَالفَيْضِ الرَّحْمَانِي»، مِنْهَا النَّمَاذِجُ التَّاليَةُ:

« (وَيْحَـكَ)، فـي فتِيْتِكَ زُجاجٌ مُكَسَّـرٌ، وَأَنْـتَ تَأكُلُه، وَلا تَعْلَمُ بِهِ؛ لِقُوَّةِ شَرهِكَ، وَغَلَبَةِ شَهْوتِكَ، وَهَوَاكَ، وَشِدَّةِ حِرْصِكَ.»(٥٧)

«(وَيحْـكَ)، تَهْرَبُ مِنِّي وَأنَا شُـحْنَتَكَ أحْفَظُهَا؟، مَكَانُكَ عِنْـدي، وَإلاَّ فَأنْـتَ هَالكٌ، يَـا جُويْهِلُ، حُجَّ إلـيَّ أوَّلاً، ثُمَّ إلـى البَيْـتِ ثانيًا، أنَا بَـابُ الكَعْبَةِ، تَعَالَ..، سَـوْفَ تَرَونَ إذَا انْجَلَى الغُبَارُ، اقْعُدُوا يَا سُيَّاسِـي، احْتَمُوا بي فَإنِّي قَدْ أُعْطيْتُ القُوَّةَ.»(٥٨)

«يَا جَاهِلُ اتْرُكْ الدَّفتَرَ مِنْ يدَيْكَ، وَتَعَالَ، اقْعُدْ هَاهُنَا بَيْنَ يَديَّ عَلى رَأْسِكَ.»(٥٩)

«لا تُبَـالِ أيْـنَ كُنْـتَ وَأيْـنَ حَلَلْـتْ، لأنَّـكَ أيْنَمَـا سَـقَطْتَ لُقِطْـتَ، يَخْدِمُكَ الحكـمُ وَالعِلمُ وَالقَـدَرُ وَالإنْسُ وَالجنُّ وَالمَلَكُ.»(٦٠)

«إنِّـي فـي حِبَالِكَ أفْتلُ أقْبلْ لا تُعَاديْنـي. أنَا مَسْجدُ لِصلاتِكَ، وَلإزَالةِ نَجاسَتِكَ وَأوْسَاخِكَ، أُطَرِّقُ لكَ الطَّريْقَ.»(٦١)

«أنْـتَ قَبْرٌ تأتـي قَبْرًا مِثلَـكَ، مَيِّتٌ تأتي مَيِّتًـا مِثلَكَ، أنت زَمَنٌ يَقُودُكَ زَمَنٌ مثلُكَ، أعْمَى يَقُودُكَ أعْمَى مِثلُكَ.»(٦٢)

إنَّ شِـعريَّةَ الخِطَـابِ، هُنَا، تَتَأسَّـسُ على قاعدَةِ الغِنَائيَّـةِ، عَبْرَ بِنْيَةِ المُخَاطَـبِ، في وَحَدَاتِ سَـرْدِ شِـعْريَّةٍ؛ عَاليَـةِ التَّكثيْفِ، تَعْتَمـدُ تَنَوُّعَ الأسَاليْبِ الإنشَائيَّةِ، بِالإضَافَةِ إلى التَّصويْرِ، وَالنَّبرَةِ البَاطنيَّةِ العَميْقَةِ، وَتَتَعَاضَدُ هَذِهِ الآليَّاتُ؛ لِبَثِ حَالَةِ صُوفيَّةٍ، بَثًّا شِعْريًّا خَالِصًا، تُصْبِحُ بِهِ ـ مَعَ: «المَوَاقِفِ وَالمُخَاطبَاتِ»، وَ: «الإشَـارَاتِ الإلهيَّةِ» ـ نَوْعًا غِنَائيًّا، في مَشْـهَدِ النَّثـرِ الصُّوفيِّ الشِّـعريِّ، فِيْمَا تُمَثِّلُ: الطَّواسِـيْنُ، وَحْدَهَا، نَوْعًا آخَر، في هَذَا المَشْهَدِ الخَاصِّ.

السُّهرورديُّ المقتولُ[63]

وقـد دخـل النَّثـرُ الصُّوفيُّ الشِّـعريُّ على يـديْ شـهاب الدِّين يحيى السُّهرورديِّ؛ المعروف بالسُّـهرورديِّ المقتول، مُنعطفًا جديدًا، تواشجَ فيه الخطابُ الصُّوفيُّ بالخطابِ الفلسـفيِّ في سـرديَّاتٍ شعريَّةٍ كثيفةِ الإشـاراتِ، وتنوَّعت آليَّات إنتاج شـعريَّة الخطابِ بينَ شـعريَّة النَّجوى، وشـعريَّة التَّشـكيلاتِ المجازيَّةِ الصُّوفيَّة كثيفةِ الإشـاراتِ، وشعريَّة السَّـرديَّاتِ الصُّوفيَّةِ الرَّمزيَّةِ، وتقفُ في طليعةِ هذه الشِّـعريَّاتِ شـعريَّةُ السَّـرديَّاتِ الصُّوفيَّةِ الشِّـعريَّة؛ بمبناهـا الحكائيِّ، وقـد تميَّزَ خطابُ السَّـرد الشِّـعريِّ فيها، بالكثافـةِ الرَّمزيَّة الشَّـديدة، وبشـعريَّة الأداء الفنتـازيِّ؛ التي يتجاور فيها ما هـو وقائعيٌّ معيشٌ بما هو تجريديٌّ، وما هـو جزئـيٌّ بما هو كليٌّ، وما هو آنيٌّ بما هو أزلـيٌّ، في بنيةٍ عجائبيَّةٍ، عبْـرَ مخيـالٍ خـلَّاقٍ، وبنيـةٍ نصيَّـةٍ تفيـضُ بالإبداعيَّـةِ، بالإضافـةِ إلى اكتنازها بطبقاتِ الحمولاتِ الصُّوفيَّةِ والفلسفيَّةِ.

وتتجلَّـى شـعريَّةُ النَّجـوى عنـده، فـي أداءٍ غنائـيٍّ تتمـاوجُ حركته أحيانًا، كما في كتابه: «هياكل النُّور»؛ الذي يبدؤه بقولِهِ:

«أيِّدنا بالنُّور
وثبِّتنا على النُّور
واحْشُرْنا إلى النُّور
واجْعلْ مُنتهى مطالبِنا رضَاكَ
وأقصى مقاصِدِنا، ما يعِدُنا
لأن نلقاكَ.

ظلمْنَا نفوسَنا

لسْتَ على الفيضِ بضنيْن.

أسَارَى الظُّلماتِ

بالبابِ قيامٌ

ينتظرونَ الرَّحمَةَ

ويرجونَ الخيْرَ.

الخيرُ دأبُكَ، اللهُمَّ،

والشَّرُّ قضاؤك.

أنتَ بالمجدِ السَّنيِّ

تقتضِي المَكارمَ

وأبناءُ النَّواسيتِ

ليسوا بمراتبِ الانتقام

ارْفعْ السُّوءَ

ووفِّقْ المُحسنيْنَ.»(٦٤)

وتتجلَّى شِـعريَّةُ النَّجوى في كثافةٍ شـعريَّةٍ واضحـةٍ، في قولِهِ، في «الهيكل الثَّاني»، من «هياكل النُّور»:

« أنتَ لا تغفلُ عن ذاتكَ

وما منْ جزءٍ من أجزاءِ بدنكَ إلاَّ وتنساه أحيانًا

فلو كنتَ أنتَ هذه الجُملة

أو جزءًا من أجزائِها

ما كانَ يستمرُّ شعورُكَ بذاتكَ مع نسيانِها

فأنتَ وراءَ هذه الجُملةِ.» (٦٥)

ومنْ هذِهِ النَّجوى كذلكَ، في الهيكلِ ذاتِهِ، قولُهُ:

« بدنُكَ أبدًا في التَّحلُّلِ والسَّيلانِ

ولو أتتْ التَّغذيةُ بما تأتي بهِ

ولمْ يتحلَّلْ من العتيقِ قبلَ ورودِ الجديدِ شيءٌ

لَعَظُمَ بدنُكَ جدًّا

ولمَّا كانَ الجوهرُ المُدركُ منكَ ثابتًا على حالٍ واحدٍ

فأنتَ أنتَ

لا ببدنكَ

وكيفَ تكونُ أنتَ إيَّاه وهو في التَّحلُّلِ

وليسَ عندكَ منه خبرٌ

فأنتَ وراءَ هذِهِ الأشياءِ.» (٦٦)

أمَّا شعريَّةُ السَّرديَّاتِ الرمزيَّةِ، فتتبدَّى، في إطار قصٍّ عجائبيٍّ، كثيفِ الإشاراتِ، يتخطَّى منطقَ المَعيشِ، في سرودٍ نثرشعريَّةٍ، تقفُ في طليعتِها سرديَّتُه: «الغُربة الغربيَّة»؛ التي تعتمدُ في بناء خطابها السَّردي منظورًا كونيًّا كليًّا للعَالمِ، وتعتمدُ الرَّمزَ والإشارةَ، وتُشدِّدُ على التَّناصِّ مع السَّردِ القرآنيِّ، وعلى عوالم عجائبيَّةٍ، في أداءٍ سرديٍّ شديدِ التَّكثيفِ، ومِخيالٍ طيِّعٍ وأداءٍ لغويٍّ مُشرقٍ، وقد بناها على هذا النَّحو:

«لمَّا سافرتُ مع أخي عاصم من ديار ما وراءَ النَّهر إلى بلاد المغربِ لنصيدَ طائفةً من طيور ساحل اللجَّةِ الخضْرَاءِ،

فوقعنا بغتةً في «القرية الظَّالم أهلُها»؛ أعني مدينة قيروان، فلمَّا أحسَّ أهلُها أنَّنا قدِمنا عليهم فجأةً، ونحن من أولاد الشَّيخ المشهورِ هادي بن أبي الخير اليمانيِّ، أحاطوا بنا، فأخذونا وقيَّدونا بسلاسلَ وأغلالٍ من حديدٍ، وحبسونا في قعرِ بئرٍ لا نهايةِ لسُمكِها، وكانَ فوقَ البئرِ المُعطَّلةِ التي عُمِّرتْ بحضورِنا قصرٌ مشيَّدٌ، وعليها أبراجٌ عاليةٌ، فقيلَ لنا: لا جُناحَ عليكم إنْ صعدتُمْ القصْرَ متجرِّدِيْنَ مَسَاءً، أمَّا عند الصُّبحِ فلا بدَّ من الهُوِيِّ في غيابةِ الجُبِّ.

وكان في قعرِ البئرِ ظُلُماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ، إذا أخْرَجْنا أيدينا لم نكدْ نَراها، إلاّ أنَّا في آونةِ المَسَاءِ نرتقي القصْرَ مُشرفيْنَ على الفضاءِ ناظرين من كُوَّةٍ، فربَّما تأتينا حماماتٌ من أيوكِ اليمنِ مُخبِراتٍ بحالِ الحُمَّى، وأحيانًا تزورُنا بروقٌ يمانيَّةٌ تُومِضُ من الجانبِ الأيمنِ الشَّرقيِّ وتُخبرُنا بطوارقِ نجدٍ، وتزيدُنا رياحُ الأَرَاكِ وجْدًا على وَجْدٍ، فنتحنَّن ونشتاق إلى الوطن.

فبينا نحنُ في الصُّعود ليلاً وفي الهبوطِ نهارًا، إذْ رأينا الهدهدَ دخلَ من الكُوَّةِ مُسلِّمًا في ليلةٍ قمراء، وفي منقارِهِ رُقعةٌ صُدِّرتْ «من شاطئ الوادي الأيمنِ في البقعةِ المباركةِ من الشَّجرةِ»، وقالَ لنا: إنِّي أحَطتُّ بوجهِ خلاصِكُما وجئتُكما «من سبإٍ بنبإٍ يقين»، وهُو ذا مشروحٌ في رقعةِ أبيكما.

فلمَّا قرأنا الرُّقعةَ فإذا فيها أنَّه من الهادي أبيكما وأنَّه:

بسـم اللّٰه الرَّحمـان الرَّحيـم، شـوَّقناكم فلم تشـتاقوا، ودعوناكم فلم ترتحلوا، وأشَرْناكم فلم تفهموا، وأشارَ فـي الرُّقعـة إليَّ بأنَّـكَ يـا فـلانُ: إنْ أردتَ أن تتخلَّصَ منْ أخيكَ، فـلا تنيا في عزمِ السَّـفر، واعتصِما بحبلِنا؛ وهو جوهرُ الفلكِ القدسيِّ المُستولي على نواحي الكسوفِ.

فـإذا أتيـتَ «واديَ النَّملِ» فانفُضْ ذيلَـكَ، وقلْ: الحمدُ للّٰه الذي أحياني بعدما أماتني «وإليه النُّشـور»، وأهْلِكْ أهْلَكَ واقتُـلْ امْرأتكَ؛ «إنَّها كانت من الغابرين»، وامْضِ حيثُ تؤمـرُ فـ «إنَّ دابرَ هؤلاءِ مقطـوعٌ مُصْبِحين»، وارْكبْ في السَّفينةِ، وقلْ: «باسمِ اللّٰه مَجراها ومَرسَاها».

وشـرَحَ فـي الرُّقعـةِ مـا هـو كائـنٌ فـي الطَّريـق؛ فتقدَّمَ الهدهـدُ، وسـارتْ الشَّـمسُ فـوق رؤوسِـنا إذْ وصَلنـا إلـى طرفِ الظِّلِّ؛ فركبنا السَّفينةَ، وهيَ تجري بنا، «في موجٍ كالجبـالِ»، ونحـنُ نرومُ الصُّعـودَ على جبلِ طورِ سـينا؛ حتَّى نزورَ صومعةِ أبينا.

وحالَ بيني وبين ولدي «الموجُ فكانَ من المغرقين»، وعرفتُ أنَّ قومي «موعدُهم الصُّبحُ؛ أليسَ الصُّبحُ بقريب؟»، وعلمتُ أنَّ «القريـةَ التـي كانـتْ تعمـلُ الخبائـثَ» يجعـلُ «عاليها سافلها»، ويُمطِرُ «عليها حجارةً من سِجِّيلٍ منضود».

فلمَّـا وصْلنـا إلـى موْضِـعٍ تتلاطمُ فيـه الأمـواجُ وتتدحرجُ المياهُ، أخذتُ ظِئري التي أرْضَعتني وألقيتُها في اليمِّ.

وكنَّـا نسـيرُ فـي جاريـةٍ «ذاتَ ألـواحٍ ودُسُـرٍ»، فخرَقْنـا

السَّـفينةَ؛ خِيفةَ مَلـكٍ وراءَنا «يأخُذُ كلَّ سـفينةٍ غَصْبا»، والفُلـكُ المشـحونُ قد مرَّ بنا على جزيـرةِ يأجوج ومأجوج إلى الجانبِ الأيسرِ من الجُوديِّ، وكانَ معيَ من الجِنِّ مَنْ يعمـلُ بين يديَّ، وفي حُكمِي عَيْـنُ القِطْرِ، فقلتُ للجِنِّ: «انفخـوا فيـه، حتَّى صارَ مثـلَ النَّار»، فجعلتُ سـدًّا حتَّى انفصلتُ عنهم، وتحقَّقَ «وَعْدُ ربِّي حقّا»

ورأيـتُ فـي الطَّريق جماجمَ عـادٍ وثمود، وطُفـتُ في تلكَ الدِّيـارِ، «وهـيَ خاويـةٌ على عروشِـها»، وأخـذتُ الثَّقلينِ مـَع الأفـلاكِ وجعلتُهـا معَ الجِـنِّ فـي قـارورةٍ صنعتُها أنا مسـتديرة وعليها خطوطٌ كأنَّها دوائـرُ، فقطعْتُ الأنْهارَ مـنْ كبدِ السَّـماءِ، فلمَّا انقطعَ الماءُ عـن الرَّحى، انْهدمَ البنـاءُ، فتخلَّصَ الهواءُ إلى الهـواءِ، وألقيتُ فَلكَ الأفلاكِ على السَّماواتِ حتَّى طحَنَ الشَّمسَ والقمرَ والكواكبَ؛ فتخلَّصـتُ مـنْ أربعة عشـرَ تابوتًا، وعشـرةَ قبـورٍ، عنها ينبعـثُ ظـلُّ اللّه، حتَّـى يقبضَنـي إلـى القـدسِ؛ «قبضًـا يسيرا»، بعدَ أنْ «جعلَ الشَّمسَ عليه دليلا».

ولقيتُ سـبيلَ اللّهِ؛ ففطنت «إنَّ هذا صِراطي مُسـتقيما»، وأختــي وأهلي قد أخذتْهَا «غاشـيةٌ من عـذابِ اللّه» بياتا؛ فباتـت فـي قِطعٍ من الليـلِ مُظلمة، وبهـا حُمَّى وكابوسٌ يتطرَّقُ إلى صَرَعٍ شديدٍ، ورأيتُ سراجًا فيه دهنٌ، وينبجسُ منه نورٌ، ينتشـرُ في أقطارِ البيْتِ، ويشـتعلُ مِشـكاتِها، ويُشـعِلُ سُـكَّانَها من إشراقِ نورِ الشَّـمسِ عليهم؛ فجعلتُ

السِّراجَ في فمِ تِنينٍ ساكنٍ في بُرجِ دولابٍ، تحته بحْر قلزم، وفوقه كواكبُ ما عرفَ مطارحَ أشِعَّتِها إلاَّ بارئها، «والرَّاسخونَ في العِلم.»

ورأيتُ الأسَدَ والثَّورَ قد غابا، والقوسَ والسَّرطانَ قد طُويَا في طيِّ تداوُرِ الأفلاكِ، وبقِيَ الميزَانُ مُسْتويًا إذا طلعَ النَّجمُ اليمانيُّ منْ وراءِ غيوم رقيقةٍ متألِّقةٍ، ممَّا نسجتْهُ عناكبُ زوايا العالمِ العنصريِّ في عالمِ الكوْنِ والفسادِ.

وكانَ معنا غنمٌ، فتركْنَاهَا في الصَّحراءِ؛ فأهلكتْها الزَّلازلُ، ووقعتْ فيها نارٌ صاعقةٌ.

ولمَّا انقطعتْ المسافةُ وانقرضَ الطَّريقُ، «وفارَ التَّنُّورُ» منْ الشَّكلِ المَخْروطِ، فرأيتُ الأجْرَامَ العُلويَّةَ، اتَّصلْتُ بها وسمِعْتُ نغماتِها ودستاناتِها، وتعلَّمْتُ إنشادَها، وأصْوَاتُها تقرَعُ سمعِي كأنَّها صَوْتُ سلسلةٍ تُجَرُّ على صخرَةٍ صمَّاء، فتكادُ تنقطعُ أوتاري، وتنفصِلُ مفاصِلي منْ لذَّةِ ما أنالُ، ولا يزالُ الأمرُ يتكرَّرُ عليَّ حتَّى انقشَعَ الغمامُ وتخرَّقت المَشيمَةُ.

وخرجتُ منْ المَغاراتِ والكهوفِ حتَّى تقضَّيتُ منْ الحُجراتِ؛ مُتوجِّهًا إلى عيْنِ الحياةِ؛ فرأيتُ الصَّخرَةَ العظيمَةَ على قمَّةِ جبلٍ كالطَّودِ العظيم، فسألتُ عنْ الحِيتانِ المُجتمعَةِ في عيْنِ الحَياةِ المُتنعِّمَةِ المُتلذِّذة بظلِّ الشَّاهقِ العظيمِ: إنَّ هذا الطَّود ما هو؟، وما هذهِ الصَّخرةُ العظيمَةُ؟

فاتَّخذَ واحدٌ من الحيتانِ سبيلَه في البحْرِ سَربا، فقال:

«ذلـكَ مـا كنـتَ تبغـي، وهـذا الجَبلُ هـو طُورُ سَـيناء، والصَّخـرَةُ صَوْمَعـةُ أبيْـكَ»، فقلتُ: «ومَا هـؤلاءِ الحِيتان؟»؛ فقـال: «أشْـباهُكَ، أنتم بنـو أبٍ واحِدٍ، وقَعَ لهم شـبيهُ واقعتِـكَ: فهُم إخوانك، «فلمَّا سـمِعتُ وحقَّقتُ، عانقتُهُمْ: ففرِحْتُ بهم وفرِحُوا بي.

وصَعَـدْتُ الجبـلَ، ورَأيْـتُ أبانـا شـيْخًا كبيـرًا؛ تـكادُ السَّـماواتُ والأرْضُونَ تنشـقُّ من تجلِّي نورِهِ: فبقيتُ باهتًا مُتحيِّـرًا منه، ومشـيتُ إليه، فسـلَّم عليَّ، فسـجدتُ له، وكِدْتُ أنمحِقُ في نورِهِ السَّاطعِ.

فبكيْتُ زمانًا، وشـكوتُ عِندَه مـنْ حبْسِ قيروانَ، قال لـي: «نِعمّـا! تخلَّصـتَ، إلا أنَّـكَ لا بـدَّ راجعٌ إلـى الحبْسِ الغربـيِّ، وإنَّ القيـدَ بعدمـا خلعتَـه تامًّـا»، فلمَّـا سـمِعتُ كلامَه، طارَ عقلِي وتأوَّهتُ صارِخًا صُراخَ المُشرِفِ على الهَلاكِ، وتضرَّعْتُ إليْه.

فقالَ: «أمَّا العَوْدُ فضروريٌّ الآنَ، ولكنِّي أُبشِّرُكَ بشيئيْنِ: أحَدُهُمـا أنَّـكَ إذا رجِعْتَ إلى الحبْـسِ، يُمكنُكَ المَجيءُ إلينا، والصُّعودُ إلى جنَّتنِا هينًا متى ما شِئتَ، والثَّاني أنَّكَ تتخلَّـصُ في الأخيرِ إلـى جنابنِا، تاركًا البـلادَ الغربيَّةَ، بأسرِهَا مُطلقًا.»

ففرِحْتُ بمَا قالَ.

ثمَّ قالَ لي: «اعْلَمْ أنَّ هذا جبلُ طورِ سَيناءِ، وفوقَ هذا جبلُ طُورِ سِـينيْنَ: مَسْـكن والدي وجدِّكَ، ومَا أنـا بالإضَافةِ

إليْه إلاَّ مثلك بالإضَافة إلَّي.

ولنـا أجدادٌ آخرونَ، حتَّى ينتهيَ النَّسـبُ إلـى المَلِكِ الذي هو الجدُّ الأعظمُ، الذي لا جدّ له ولا أب، وكلُّنا عبيدُه، به نسـتضيءُ ومنه نقتبسُ، وله البَهاءُ الأعْظمُ ولهُ الجَلالُ الأرْفعُ، والنُّورُ الأقهرُ، وهُو فوقَ الفوقِ، ونورُ النُّور، وفوقَ النُّورِ، أزَلاً وأبدًا، وهُو المُتجلِّي لكلِّ شيءٍ، و«كلُّ شيءٍ هالكٌ إلاَّ وَجْهَهُ.»

فأنـا في هـذه القصَّةِ، إذْ تغيَّرَ الحَالُ عليَّ، وسـقطتُ من الهَواءِ في الهاويةِ، بيْنَ قومٍ ليسـوا بمؤمنيْنَ، محبوسًا في ديارِ المَغربِ، وبقِيَ معِي من اللذَّةِ ما لا أُطيقُ أنْ أشـرَحَهُ؛ فانتحبْتُ، وابتهلْتُ، وتحسَّـرْتُ علـى المُفارقةِ، وكانتْ تلكَ الرَّاحةُ أحلامًا زائلةً على سُرعةٍ.

نجَّانا اللّهُ منْ أسْـرِ الطَّبيعةِ، وقيْدِ الهيولى، «وقلْ الحَمْدُ للّهِ سـيُريكم آياتـِه فتعرفونَهـا، ومـا ربُّـكَ بغافـلٍ عمَّـا تعملـونَ»، «وقـلْ الحَمْـدُ للّهِ بـلْ أكثرُهـم لا يعلمـونَ»، والصَّلاةُ على نبيِّهِ وآلِهِ أجمعيْن.»(٦٧)

والسُّـهرورديُّ باتِّخاذِهِ الشَّـكلَ القصصيَّ وسـيلة للتَّعبيـرِ عن رؤى صوفيَّـة وفلسـفيَّة، يسـتكملُ ما بدأه ابن سـينا (ــ 428هــ) في قصَّتهِ الرَّمزيِّـة: «حـيّ ابـن يقظان»، ولكنَّـه يتجـاوزَه في تكثيـفِ الرُّموز، وتكثيـفِ البنـاءِ، وشـعريَّةِ الأداءِ السَّـرديِّ، و تتبـدَّى شـعريَّةُ البنـاء الحِكائـيِّ، وعجائبيَّةُ السَّـردِ، لدَي السُّـهرورديِّ، كذلكَ، في نصٍّ: «صوت أجنحة جبريل»، و: «عقل سرخ»، يقول في النَّصِّ الأخيْرِ:

«.. صديـقٌ من الأصْدقاءِ الأعِزَّةِ سَـألنِي: هـل الطَّيْرُ تفهَمُ مَنطِقَ بعضِهَا بعضًا؟، قلتُ: نعم تفهَمُ، قالَ: مِنْ أينَ علِمْتَ بذلـكَ؟، قلـتُ: فـي ابتـداءِ الحَالِ، حيْـنَ شَـاءَ المُصَوِّرُ، حقيقـةً، أنْ يُظهِرَنـي مـنْ عَدَمِـي، خلقنِـي علـى صُـورةِ بـازيٍّ، وفي تلكَ البلادِ التي كنْتُ فيها أبوازًا أخرى، قد تكلَّمنـا بعضُنا مع بعضٍ، وسـمِعْنَا، وكنَّـا نفهَمُ كلامَ بعضِنـا الآخرَ، قال: كيْفَ وصَلَ الحَـالُ، بعدَ ذلكَ، إلـى هـذا المقام؟، قلتُ: في يوم بَسَـطَ صيادو القضَاءِ والقدرِ شـبكةَ التَّقديْـرِ المُقـدَّرِ، وعبَّـأوا فيْهَـا حُـبَّ الإرادةِ، فأسَرُوني بهذِهِ الوسيلةِ.

بعـدَ تلـكَ البلادِ التي كانـتْ وكْرًا لنا حملونـا إلى بلادٍ أخْـرَى، عندما خاطوا عينـيَّ، و وضعُوا عليَّ أربعةَ أغلالٍ مُتخالفـاتٍ، و وكَّلوا بي عشْـرًا: خمْسًـا وجوهُها قِبلِي و ظهورُهـا للخـارجِ، وخمْسًـا ظهورُهم خلْفِـي، و وجوهُهم للخـارجِ، هـذِهِ الخمسَـةُ التـي وجوهُهـا قِبلِـي وظهورُهـا للخـارجِ، وضعوني حينذاكَ في عالَم مـن الحيْرَةِ، بالقدْرِ الذي نسـِيْتُ فيه وَكْرِي، وتلكَ البلادُ، وما كانَ معلومًا لديَّ، أتخيَّلُ أنِّي كنْتُ دومًا هكذا.

وبعـدَ مُضِيِّ مُدَّةٍ على هذِهِ الحالِ، فتحوا قليلاً من عينيَّ، كنتُ أرى بذلكَ القدْرِ المفتوحِ منها، أشـياءَ كنْتُ أرَاها مـا رأيتُهـا مِنْ قبـل؛ فأتعجَّبُ مِـنْ ذلكَ، وفي يـوم كانُوا يفتحون قـدْرًا قليلاً مِنْ عينيَّ أكثرَ مِنْ ذي قبل، وكنْتُ

أرَى أشياءَ أظلُّ مُتعجِّبًا منْهَا.

أخيْـرًا فتحُوا كلَّ عينـيَّ، و أظهرُوا العَالـمَ، على صفتهِ هـذِهِ، كنْتُ أنظرُ إلى الأغْلالِ التي وضعُوها عليَّ، وإلى المُوكَّليـنَ، أقولُ لنفسِـي: يبدو أنَّه مـا كانُوا ليطرَحُوا عنِّـي هذهِ الأغـلالَ الأربعـةَ المُتخالفـةَ، ولا ليُبعدوا عنِّي المُوكَّليـنَ؛ فينفتح جناحي بالشَّـكلِ الـذي أطيْرُ لحظةً في الهَوَاءِ، ويحلّ عنِّي قيدِي.

بعـدَ مُدَّةٍ، وجدْتُ المُوكَّلينَ عنِّـي غافليْنَ، قلتُ: لا أجدُ سـانحةً أفضـلَ مـنْ هـذِهِ، زحفـتُ إلى طـرفٍ، وهكذا أغلالي عليَّ، وجَّهتُ وجهي وأنا أُعرِّجُ صَوْبَ الصَّحَراءِ.

وفـي تلكَ الصَّحراءِ لمحْتُ شـخصًا مُقبلاً، توجَّهتُ إليْه، وسلَّمتُ عليه؛ فردَّ الجوابَ، بأكملِ لُطفٍ، عندما أمعنتُ النَّظرَ إلى ذلكَ الرَّجلِ، وجدْتُ لحيَتَهُ حمراءَ، ولونَ وجههِ كذلكَ، ظننتُهُ شـابًّا؛ قلتُ: أيُّها الشَّـابُ مَـن أينَ تُقبلُ؟، قـالَ: أيْ بُنيَّ، هذا خطابٌ خطأٌ، أنا أوَّلُ ابنٍ للخلقِ، أنتَ مازلـتَ تُخاطبُني شـابًّا؟، قلتُ: لم لا تبـدو لحيتُكَ بيضاءَ وأنا عجوزٌ نورانيٌّ، ولكنَّ الذي أسَرَكَ في الفخِّ، و وثقكَ بحبالٍ مُتخالفاتٍ، وفوَّضَ أمْرَ حِراسـتِكَ للمُوكَّلينَ، قد ألقانـي زمنًا طويلاً، في بئـرٍ مُظلمةٍ، ولوني الأحمر الذي تراه بسـبب ذلـكَ، وإلاَّ فأنا أبيضُ نورانـيٌّ، وكلُّ أبيضٍ يتعلَّقُ به النُّورُ إذا اختلطَ بأسودَ يبدو أحمرَ؛ فشفقُ الغروبِ أو الشُّـروقِ الـذي هـو أبيـضُ، و بـه يتعلَّقُ نور الشَّـمسِ،

وطرفٌ منه بجانب النُّور الذي هو أبيض، وطرفٌ بالجانب الآخر الذي هو أسودُ؛ لذا يبدو أحْمرَ»[٦٨]

إنَّ إحْدى أبرزِ ظواهرِ السَّردِ الشِّعريِّ في خِطابِ السُّهرورديِّ هنا، تتمثَّلُ في وعيه المُبكِّرِ، على نحْوٍ لافِتٍ، بشِعريَّةِ الخِطابِ في بنيةِ القِصَّةِ، وبناءِ عوالمِها العجائبيَّةِ، وطبقاتِها المَجازيَّةِ، وكسْرِ المَألوفِ، والتَّنقُّلِ بيْنَ النِّسبيِّ والمُطْلقِ، في خطابٍ نثرشعريٍّ، يُشدِّدُ على إنتاجِ شعريَّته، قدرَ تشديده على تشكيل رؤاه النَّظريَّة..

مُحْيي الدِّين بن عَرَبيّ[69]

عِنْدَ مُحيي الدِّين بنِ عَربِيّ تَتَعَدَّدُ تَجَليَّاتُ النَّثرِ الصُّوفِيِّ الشِّعريِّ؛ فَتَجْربَتُهُ في الإبْدَاعِ النَّثريِّ، مُتَعدِّدَةُ المَلامحِ، زَاخِمَةُ التَّجليِّاتِ، كَثيفَةُ الدَّلالاتِ، غَريْزَةُ التَّحوُّلاتِ، وَمِنْ نَاحيَةِ الكَمِّ هُوَ الأغْزَرُ إنْتَاجًا، بِالإضَافَةِ إلى أنَّهُ صَاحبُ أكْبَرِ نَظريَّةٍ في التَّصوُّفِ الإسْلامِيِّ، وَمِنْ أهَمِّ المَلامحِ الَّتي بَرَزَتْ في إبْدَاعَاتِه النَّثريَّةِ: شُيُوعُ التَّجَسُّدِ اللغَويِّ المَاديِّ لِلنَّصِّ عَبْرَ أبْعَادِهِ الفِيْزَيقيَّةِ وَالإيقاعيَّة؛ الَّتي تَتَوَالَى إشَارَاتُهَا وَتَتَنَوَّعُ أسَاليْبُهَا، في جُمَلٍ مُكثَّفةٍ، مَجْلُوةِ الإيقَاعِ.

«لَيتَ اللَّه أوْقفَني عَلى مَا جَنيْتُهُ، وَلَوَّحَ لي بالذَّنبِ الَّذي ارْتَكبْتُهُ وَأتيْتُهُ، فأسْتَقْبلُ المَتَابَ على التَّعيين، وَأنْتقلُ مِنْ سِجِّين إلى عَلِّيين، تَرادفَ عَلَيَّ هيمَان، إذْ كتابُهُمَا مَرْقومَان، كَيْفَ يقعُ التَّميزُ بَيْنَ الكِتَابيْن، وَنَقفُ عَلى حَقيْقَةِ المثالَيْنِ، ارْفَعْ الهِمَّةَ في خَديْمك أيُّهَا الخَديْمُ الجِحْجَاح، فَقَدْ سَوَّيتُ قَوَادَمَ الجنَاح، وَأخَذْتُ في المَيْلِ

وَالإِجْنَـاح، وَتَخَلَّصْتُ مِنْ رِقِّ الإِمْسَـاءِ وَالإِصْبَـاح، وَبَعَثْتُ نَحْـوَكَ طِرْسًـا مَلأْتُـهُ سَـوَادًا، وَجَعَلْتُهُ لِلتَّعرِيْـفِ بِمَقامِكَ العَلِيِّ مِهَادًا.»(٧٠)

إنَّـه، هُنَـا، يَسْـتَنْفِدُ كَافةَ الخِبـرَاتِ الَّتـي ارْتَادَتْهَا تَجْرِبَـةُ الإبْدَاع الشِّـعريِّ، فـي النَّثـر الصُّوفِيِّ الشِّـعريِّ مِنْ قَبْلِـه، وَيَصْهَرُهَـا في أتُونِ تَجْرِبَتِـهِ الخَاصَّـةِ، وَيَحْمِلُهَـا في نَبْرَتِـهِ البَاطنيَّةِ العَمِيْقَةِ، وَاسْـتِخْدَامه السَّـجْعَ يَنْتَمِـي إلى اسْـتِخْدَامِ المُتَصوِّفَةِ إيَّاهُ؛ كَطَاقَـةٍ إيقَاعيَّةٍ تُطوِّعُها تَجْربتُهُ وَتَجْعلُهَا وَسِـيْلةً لِتَشْـكِيْلِ مُنَاخِ الحَالَةِ الرُّوحيَّةِ لُغَويًا، في صُورَةِ مُعَـادَلاتٍ لُغَويَّـةٍ مُكثَّفَـةٍ وَفيَّاضَـةٍ، تُحِيْلُ إلـى التَّتابُعِ الزَّمَنِـيِّ الخَاصِّ بِالتَّجْربَةِ، وَبالتَّالي إلى الإقَامَةِ في حُدودِ النَّصِّ، الَّذي يُشِـعُّ ولا يَخْضَعُ إلاَّ لِنِظَامِهِ الخَاصِّ.

وَقَدْ اسْـتَثْمَرَ مُحيي الدِّين بن عَربِيّ كَافـةَ الإمكَانَات الَّتي عَرفَهَا النَّـصُّ الصُّوفـيُّ، مِـنْ قَبْلِـهِ، وَأضَـافَ إليْهَـا، مُعَبِّـرًا عَنْ شَـتَّى أطْوَارِ التَّجربَـةِ الصُّوفيَّةِ، وَبِمُخْتَلِفِ طَرَائِقِهَا التَّعبيريَّةِ، وَمِنْ تِلْكَ الإمْكَانَاتِ الَّتي تَوَفَّرَتْ في إبْدَاعِهِ النَّثرشِعريِّ، شيوعُ التَّراكِيْبِ الصُّوفيَّةِ المُمَيَّزَةِ لِلْكِتَابَةِ الصُّوفيَّةِ، كَمَا نَجِدُ في قَوْلِهِ:

« إنَّـكَ أنْـتَ الرَّقيـم، وَإنَّـكَ الصِّـرَاطُ المُسْـتَقِيْم، وَأنْتَ السَّالِكُ وَإلَيْكَ تَسْلُكُ.»(٧١)

كَذَلِـكَ اسْـتَحْدَثَ طَرِيقَـةً لِلتَّعامُـلِ مَـعَ النَّـصِّ القُرآنِـيِّ، دَعَاهَا بـ (التِّلاوةِ الإلهِيَّةِ)، وَتَتَمُّ بِأنْ يَأتِي بِالسُّـورَةِ القُرآنيَّةِ، وَيُقَسِّمُهَا إلى آيَاتٍ، وَبَيْنَ هَذِهِ الآيَاتِ يَضَعُ جُمَلَهُ؛ الَّتي تَحْتَذِي إيْقَاعَ الآي نَفْسَهُ، في خِطَابٍ مُتَجَانِسِ الأدَاءِ، وَمِنْهُ:

«وَالنَّجـم إذَا هَـوَى، فـي قلـبٍ تَعَرَّى عَـنْ الهَـوَى، مَا ضَلَّ صَاحبُكم وَمَا غَوَى، وَلكِنَّهُ شَـرِبَ فارْتَـوَى، وَمَا يَنْطِقُ عَـنْ الهـوَى؛ لِخُرُوجِهِ مِـنْ كُرَةِ الهَـوَى، إنْ هُـوَ إلاَّ وَحْي يُوْحَـى، أنْزَلنَاهُ عَليْهِ بلا وَاسِـطَةٍ كَشْـفًا وَتلْوِيْح، فَكَانَ بهِ عِنْدَ نُزولِ الوَاسِـطةِ في عَالَمِ الألفَاظِ عَجُولاً فصيْحا، عَلَّمَهُ شَـديْدُ القُوَى، بحَضْرَةِ الاسْـتوَا، ذُو مِرَّةٍ فاسْتَوَى، بمَـا أيَّدَهُ مِـنَ القُوَى، وَهُـوَ بالأُفُـقِ الأعْلَى، غَايَـةَ مَراتبِ رُوْحَانيَّـاتِ العُلَـى، ثُمَّ دنَا فَتَدَّلـى، عَلى المَقَـامِ الأجْلَى، فَـكَانَ قابَ قوسـيْنِ أوْ أدْنَى، مِنَ المَقَامِ الأسْـنَى، خَلْفَ حِجَـابِ العِـزَّةِ الأحْمَى، فَأَوْحَى إلى عَبْـدِهِ مَا أوْحَى، فَمَا أمْسَـى عليْـهِ يَوْمٌ وَلا أضْحَـى، مَا كَذَبَ الفُـؤادُ مَا رَأى، مِنْ حُسْـنِ الـرُّؤى، أفَتُمَا رُونَـهُ على مَا يَـرَى، وَهُوَ بحَيْثُ لا يُـرَى، وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَـةً أخْرَى، عِنْـدَ الصَّيْحَةِ الكُبْرَى، عِنْدَ سِـدْرَةِ المنْتَهَى، وَمُسْتَقَرِّ الحُسْنِ وَالبهَا، عِنْدَهَا جَنَّةُ المأوَي المَحْفُوفَةُ بالبَلْوَى..»[٧٢]

وَهَـذِهِ الطَّريقَـةُ تَطْويـرٌ لِطَريْقَتِهِ فـي تَأويْلِ القُرَآنِ؛ الَّتـي أوْرَدَهَا في: «الفُتُوحَـاتِ المَكِيَّـةِ»[73]، وكثيـرًا مـا تشـيعُ في سـرديَّاتِ ابـن عربيّ عجائبيَّاتُ الشَّطحِ الصُّوفي الشِّعريَّة، التي تقومُ بتفجيرِ إشراقاتٍ صوفيَّةٍ شـعريَّةٍ، في عِدَّةِ مواضعَ، تمنحُ كُتلةَ النَّصِّ شـعريَّةً، وَكَثيرًا مَا يَحْملُ لنَا سَرْدُهُ تَعْبيرَاتٍ شطحِيَّةً تُضَارِعُ الصُّورَةَ السِّريَاليَّةَ، تَأثيرًا، مِثْل:

«ثُـمَّ وَقَـفَ وَقالَ لـي: انْظُرْ مَـا تَرَكْتَ خلفَـكَ، فَنَظَرْتُ، فَرَأيْتُ الطَّريْقَ الَّذي مَشَـيْتُ كُلَّهُ شَوْكًا يَصِلُ إلى مَعْقدِ

الإزَارِ، وَشَوْكًا آخَرَ مُنْبَسِطًا في الأرْضِ، قالَ: انْظُرْ إلى قدَمَيْكَ، فنَظَرْتُ إلى قدَمَيَّ فلَمْ أرَ لهُمَا أثَرًا.»[٧٤]

«وَقالَ أريْدُ سَفَرًا، فخَرَجَ إلى القرْيَةِ الَّتي كَانَ منْهَا في الشَّرقِ على فَرْسَخَيْنِ، كُلَّمَا وَصَلَ إليْهَا مَاتَ رَحِمَهُ اللّٰه تَعَالَى.»[٧٥]

«وَجَاءَهُ رَجُلٌ وَأنَا عِنْدَهُ في جَمَاعَةٍ، وَفي عيْنيْهِ وَجَعٌ شَديْدٌ، يَصيْحُ منْهُ مثْل النُفَسَاءِ، فَدَخَلَ عليْهِ وَقدْ شَقَّ عَلى النَّاسِ صِيَاحُهُ، فاصْفَرَّ وَجْهُ الشَّيخِ، وَقَعَدَ وَقلَعَ يَدَهُ المُبَارَكَةَ وَوَضَعَهَا عَلى عيْنَيْهِ، فَسَكَنَ الوَجَعُ منْ جَبيْنهِ وَاضْطَجَعَ الشَّخْصُ كَأنَّهُ المَيِّتُ، ثمَّ قامَ وَخَرَجَ مَعَ جَمَاعَة.»[٧٦]

كما يجنح الأداء الشِّعريُّ عنده، أحيانًا، إلى شعريَّة الأداء الغنائيِّ؛ عبْرَ سطور شعريَّةٍ مُكثَّفةٍ، تقوم على بنيةِ الحِكمةِ، وتتوسَّعُ في توازياتِ التَّركيب والتَّوازيات الإيقاعيَّة وتوازياتِ الدّلالاتِ، والتكثيفِ اللغويِّ وتكثيفِ البنيةِ المَجازيَّةِ، وتكثيفِ الدّلالات، كما في رسالته: «لا يُعوَّل عليه»[77]، ومنها:

« الوجدُ الحاصل عن التواجد، لا يُعَوَّلُ عليه.

والوجود الذي يكون عن مثل هذا الوجد، لا يعول عليه.

كلُّ مشهدٍ لا يُريكَ الكثرةَ في العينِ الواحدةِ لا تُعوِّلْ عليْه.

كلُّ تجلٍّ لا يعطيكَ العلِمَ بحقيقةٍ لا تُعوِّلْ عليْه.

كلُّ باطنٍ لا يُشهدُكَ ظاهرَه لا تُعوِّلْ عليْه.

كلُّ صاحبِ نَفَسٍ لا يكون معه تنفيسٌ لا يُعوَّلُ عليْه.

كلُّ نورٍ لا يُزيلُ ظُلمةً لا يُعوَّلُ عليْه.

كلُّ كشفٍ يريكَ ذهابَ الأشياءِ بعدَ وجودِها لا يُعوَّلُ عليْه.

كلّ مقام لا يريك الحقَّ خالقًا على الدَّوام لا يُعوَّلُ عليْه.

كلّ حبٍّ إلهيٍّ لا يكون معه حصْرٌ لا يُعوَّلُ عليْه.

كل حب يكون معه طلب، لا يعول عليه.

كل شوقٍ يسكن باللقاء، لا يعول عليه.

المحبة إذا لم تكن جامعة لا يعوَّل عليها.

كل حال يشهدك الماضي والمستأنف، لا يعول عليه.

المَطلَعُ إذا ميَّزَ لك بينَ الأعلى والأسفلِ لا تُعوِّلْ عليْه.

المنـزلُ إذا حـالَ بينكَ وبينَ سـيركَ لا تعوِّلْ عليْـه؛ فإنَّه ما ثَمَّ قرارٌ في الجانبيْنِ.

كلُّ امتـزاجٍ لا يعطيـكَ أمـرًا لـم يكنْ عندكَ قبـلَ وجودِه لا يُعوَّلُ عليْه، وليسَ بامْتزاج.

الصَّبرُ إذا لم تشكُ فيْه إلى اللّهِ فلا تُعوِّلْ عليْه.

المُراقبةُ إذا لم يصْحَبْهَا الدَّوام لا يُعوَّلُ عليْها.

الإخلاصُ الذي لا يعطِي الحِكمةَ لا يُعوَّلُ عليْه.

الصِّدقُ إذا لم يكنْ معه إقدامٌ لا يُعوَّلُ عليْه.

الذِّكرُ إذا لم يرفعْ الحِجابَ فليسَ بذكرٍ؛ فلا يُعوَّلُ عليْه.

الولايةُ التي تقبلُ العَزلَ لا يُعوَّلُ عليْها.

القربُ الذي لا يُشهدُكَ عدمَ المظهرِ لا يُعوَّلُ عليْه.

الفقرُ الذي لا ترى اللّه فيْه عينَ كلِّ شيءٍ لا يُعوَّلُ عليْه.

الفَناءُ الذي لا تُشاهِدُ فيْه فقرَك لا تُعوِّلْ عليْه.

الحِكمةُ إذا لم تكنْ حاكمَةً لا يُعوَّلُ عليْها.

التَّوحيدُ إذا عرَّيتَه منْ النَّسبِ لا يُعوَّلُ عليْه.

السَّفرُ إذا لم يسفرْ لا يُعوَّلُ عليْه.

المَعرفةُ إذا تعدَّتْ إلى مفعوليْنِ فليسَتْ معرفةً، فلا يُعوَّلُ عليْها.

السَّمَاعُ إذا لم يُوجَدْ في الإيقاعِ وفي غيْرِ الإيقاعِ لا يُعوَّلُ عليْه.

خرْقُ العادَةِ إذا لم يرجِعْ عادة لا يعوَّلُ عليْه.

العزمُ معَ الشُّهودِ لا يُعوَّلُ عليْه.

كلُّ هيبةٍ تزولُ بمباسَطةِ الحقِّ لا يُعوَّلُ عليْها.»

إبرَاهِيْمُ الدِّسُوقِيُّ[78]

يَتَأسَّسُ الخِطَابُ الإبْدَاعيُّ لإبرَاهيم الدِّسوقيِّ، في مِحْرَقةِ أحْوَالِهِ الخَارِقَةِ، وَمَقَامَاتِهِ السَّامِيَةِ؛ حَيْثُ تتدفَّقُ في مَجْرَاهُ الخَوَارِقُ القُدسِيَّةُ، وَتَتَبَدَّى الذَّاتُ المُبْدِعَةُ في حَالةٍ كونيَّةٍ شَامِلَةٍ وَقادِرَةٍ على التَّصريْفِ المُطلَقِ وَالخَوَارِقِ المُبْهِرَةِ، وَالتَّجَدُّدِ في كُلِّ عَهْدٍ؛ فَهِيَ مُتَجَاوزةٌ قانونَ الزَّمَنِ، وَهُوَ ـ كَمَا يَسْرِدُ في كِتَابِهِ: «الجَوْهَرَةِ»، وَكَمَا يَذْكُرُ الشَّعرَانيُّ (898 ـ 972هـ) في طَبَقاتِهِ الكُبْرَى ـ أحَدُ الَّذين صَرَّفَهُمْ اللّهُ في العَالَمِ، وَخَرَقَ لَهُ العَادَاتِ.[79]

وَالدِّسُوقيُّ صَاحِبُ لغَةٍ يَغْلِبُ عليْهَا الشَّطْحُ، وَتَحْتَشِدُ بِالفُيُوضِ الرُّوحِيَّةِ، وَتَزْخَرُ بِالتَّرمِيْزِ، وَهُوَ يَنْطَلِقُ مِنْ عَالَمِ الحُضُورِ إلى دَوائِرِ

الغِيَـابِ، وَمِنْ لُغَةِ الحَالِ إلى لُغَةِ الرُّقَـى وَالتَّعاويْذِ وَالألغَازِ وَالإبْهَام، في شَـظَايَا لُغَويَّـةٍ، تَعْكِسُ حَالاتِ الرُّوحِ الذَّائبَةِ، وَاسْـتِعْصَائِهَا على البَوْحِ وَالتَّوَاصُلِ.

وَقَـدْ كَانَ يَرَى أنَّ عُلمَاءَ الحَقيْقَةِ، يَتَكَلَّمونَ بِكُلِّ لِسَـانٍ، وَأنَّ مَا لَيْـسَ مِـنْ لُغَةِ العَرَبِ، لا يَفْهَمُهُ إلاَّ مَنْ لَهُ قَلْبٌ أوْ فَهَّمَهُ الرَّبُّ، وَلا إنْكَارَ على أنَّ عُلمَاءَ الحَقيْقَةِ هُمْ يَتَكَلَّمُونَ بِكُلِّ لِسَانٍ وَلَهُمْ لُسُـنُ عِجَام[80]، وَقَدْ قَالَ الشَّعرَانِيُّ عَنْهُ أنَّهُ كَانَ «يَتَكَلَّمُ بِالعَجَمِيِّ وَالسِّريَانِيِّ وَالعبْرَانِيِّ وَالزِّنجِيِّ وَسَـائرِ لُغَاتِ الطُّيورِ وَالوَحْـشِ»[81]، وَكَانَ إذَا اعْتَرَاهُ الحَالُ، تَدَفَّقَ بِخِطَابٍ زَاخِرٍ بِالغَرَائبِيِّ وَالسِّحريِّ.

وَيَتَبَـدَّى مَنْهَجُهُ النَّصِـيُّ في خِطَابٍ، يَحْتَفِي بِالرُّمُـوزِ، وَبِالإبْهَام في كثيـرٍ مِنْ الحَالاتِ، وَهُوَ لا يَرَى أنَّ هَذِهِ الرُّمُوزَ اللغَويَّةَ المُسْـتَغْلَقَةَ (إلاَّ علـى خَاصةِ الخَاصةِ مِنْ أهْـلِ الطَّرِيْقِ) عَارِيَةٌ مِنَ الدَّلالةِ؛ بَلْ هِيَ مُتَّصِلَةٌ بِالكَوَامِنِ، وَمُتَرجِمَةٌ لِلْخَوَافِي، وَيُبَيِّنُ أنَّ أهْلَ العِرْفَانِ «لَهُمْ مِنْ إشَارَاتِ العِبَـارَاتِ، عِبَارَاتٌ مُعْجَمَةٌ، وَألْسُـنٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَكَذَلِـكَ لَهُمْ في مَعَانِي الحُـرُوفِ، وَالقَطْعِ وَالوَصْـلِ، وَالهَمْزِ، وَالشَّـكْلِ، وَالنَّصبِ، وَالرَّفعِ، مَـا لا يُحْصَـرُ، وَلا يَطَّلعُ عليْهِ إلاَّ هُـمْ، وَكَذَلكَ لَهُمْ الاطِّلاعُ على مَا هُوَ مَكْتُوبٌ على أوْرَاقِ الشَّـجرِ، وَالمَاءِ، وَالهَـوَاءِ، وَمَا في البَرِّ، وَالبَحْرِ، وَمَـا هُوَ مَكْتُـوبٌ على صَفْحَةِ قُبَّةِ خَيْمَةِ السَّـمَاءِ، وَمَا فـي جِبَاهِ الإنْسِ وَالجَـانِ، مِمَّا يَقَعُ لَهُمْ في الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، وَكَذَلكَ الاطِّلاعُ على مَا هُوَ مَكتُوبٌ بِلا كِتَابَةٍ، مِنْ جَميْعِ مَا في الفَوْقِ، وَمَا تَحْتَ التَّحْتِ.»[82]

كمـا يُوضِّحُ أنَّ لَهُمْ ألْسُـنٌ، «إذَا دَخَلُوا الحَضـرَاتِ، مُخْتَلِفَةٌ، وَفي إشَـارَاتِهِمْ، وَكَلِمَاتِهِـمْ، مَـا يُفْهَـمُ، وَمِنْهَـا مَـا لا يُفْهَـمُ، وَكَذَلِكَ مِنْ

أحْوَالِهِـمْ مَـا يُعَبَّـرُ عَنْهُ، وَمِنْهَا مَـا لا يُعَبَّرُ عَنْهُ، وَكَذلكَ في أسْـرَارِهِمْ مَا لا يَصِلُ إليْهِ مُؤوِّلٌ، وَلا مُعَبِّرٌ، وَلا مُطَّلِعٌ، وَلا مُفَسِّـر»، وَأضَافَ أنَّهُمْ «تارَةً يَتَكلَّمُونَ بِلِسَانِ التَّمزيْقِ، وَتَارَةً بِلِسَانِ التَّحقيْقِ؛ حَسَبَ الحَضرَاتِ الَّتي يَدْخُلُونَهَا.»[83]

وَيُعَدُّ هَذَا الكَلامُ مَدْخَلاً مُلائِمًا لِلولوجِ إلى رِوَاقِ شِعْرِيَّةِ نَثْرِ إبْرَاهيم الدِّسُـوقيِّ؛ الَّذي يَتَأسَّـسُ على القَطيعَةِ اللغَويَّةِ، وَتَحْقيْـقِ أعْلَى دَرَجَاتِ الاسْتِقلالِ اللغَويِّ، وَشَخْصَنَةِ الخِطَابِ، وَمِنْهُ هَذِهِ الرِّسَالَةُ؛ الَّتي أرْسَلَهَا ـ مَعَ الحَجيْجِ ـ إلى الرَّسُولِ (ص):

«سَلامٌ على أميْرٍ حَيِيِّ المُحَيَّا جَميْلِ المَعْنَى سَخِيِّ المَرَاشِفِ رَخِيِّ المَعَاطفِ كَريْمِ الخُلقِ سَنِيِّ الصَّدقِ عَرْفُوط الوقتِ وَرْدسَانيِّ الفَهْمِ ثَاقبِ المَرْحَبِ مَحْبُولِ الرَّحبِ قَطَّابَةِ النَّفلِ قَيْدُوحِ النَّمَاطـةِ لَيْدُوحِ النَّبَاطةِ سَرْسَـامعِ الوَحْبِ بهَدَيانـيِّ الوَعْبِ بهَسَـانـيِّ الحَدَاقةِ سَهْبَرِيِّ النَّسَاقةِ مَوْزِ الرُّموزِ عَمَّوزِ النُّهُوزِ سِـلاحَاتِ أُفُقِ فَرْدَفَانيَّةِ أمقِ شَوَامِقِ اليَرَامِقِ حَيْدُو فرْقيْـد وَفرْغاط الأسْـبَاط وَمُبيِّـط البسَـاط الكَرْقوليَّة وَالقدد القيلوليَّة إنْ جدوَلَ شَـذُولٌ وَإنْ عَرْذَلَ خَرْدَلَ السُّبل السُّـبل ببط العُقود النَّمَّاحة النَّيَّاحَة جَاجُويّ نيَاكلكويّ سَـبَا مُقْطَّعَـات حِيْم وَمُحَكَّمـات حَكيْم بَدَايـع لَوَايع إنْ شَـدَتْ أنْشَـدَتْ عَنيقَبات رَسْـمَانيَّة نَاتُوتيَّـة نَابْهَتنيَّة بَابليَّة أرْسَى أرْسُون كَميْن كبيُوت نَاتُون نُون وَجيْم وَنُقْطَة عيْن تَنْعيْم أزْمَح هَمْدَج تَنْسَـج هَيْـج دَهْبَر عَبُوت قَيْدَاف قيْدُوف عَرَائـش مجليَّـات شَعْشَـانيَّة علـى قطط النَّبَـط لا النَّمط

وَالبُعْد لا الشَّطَط فلاَّق القَنْدَم خَلاَّق الزَّيْدَم وَابقيّ الهَنْدَم إنْ طَاطَا فَطَاوَمَا وَإنْ تَعَاطَى فاسْتَبْرَق يَسْمَع عَنيْن النَّبَك وَعَنيْن الثَّبَك مِنْ أَرْبَاح فَوائد وَأَدْرَاج قلائد ليش من لفظِ قسِّ الأَيادي وَلا لَهُ بهَا أَيادي نَهْدَانيَّة البَهَاسَبْهَانيَّة الرَّبَاقل تَيَشْلَقتْ بالنَّباهَة أبَبَا وَتَعَطرَفت بالسِّيَاحَة عَبَبَا طَرَايقا عَجيْنَا عَرَائفُهَا جَبَا إنْ تَمَادى تَمَدَّى وَإنْ بَعَّدَا عَدَّدَا لَفْظُهُ بَارِقٌ لَحْظُهُ حَاذقٌ إنْ يَنْشد فرْدَقونيَّة قدْ أعدَّت بالرَّشْطَاط مِنْ قُرُورُبَان وَجَرْمُوز إنْ كُروم المُرتَبْلاه وَلا أَشْيَاءَ أَلَمْ تَكُ وَالدُتَكَ وَالدُتك.»(٨٤)

إنَّهُ لا يَكَادُ يَدْخُلُ في الحَال، حَتَّى يَتَشَظَّى، وَيَتَشَظَّى خِطَابُهُ، في فَضَائِهِ العَارم، تَتَدَافَعُ كَلِمَاتُهُ المَتَشَظيَّةُ، بِكُلِّ غَريْبٍ وَبِكُلِّ لِسَانٍ، مُجْتَاحَةً فَضَاءَ النَّصِّ بضَرَاوةٍ؛ وَبِهَذَا فَقَدْ تَمَكَّنَ الدِّسُوقيُّ مِنْ جَعْلِ اللغَةِ خَارجَةً على فِعْلِ التَّوصِيْلِ، وَغيْرِ رَاغِبَةٍ في الكَشْفِ عَمَّا وَرَاءَهَا، وَمُكتَفيَةً بِتَخْليْقِ حَالَةٍ مِنَ الهَوَسِ اللغَويِّ الصُّوفيِّ، حَالَةٍ مِنَ الغِيَابِ في الحَالَةِ الصُّوفيَّةِ، وَتَوَقُّدَاتِ التَّعبيْرِ العَنيْفِ العَصِيِّ؛ الَّذي لا يَكْشِفُ أكْثَرَ مِنَ الحُضُورِ الفِيزيقيِّ لِلْكَلِمَاتِ، وَالهَيَاكِلِ الصُّوتيَّةِ المُجَرَّدَةِ لَهَا.

وَمِنْ رِسَالَةٍ إلى بَعْضِ مُريْدِيْهِ:

«إنَّ شَجَرَةَ القُلُوبِ إذَا هُزَّتْ فَاحَ مِنْهَا شَذَا يُغَذِّي الرُّوحَ فَيَسْتَنْشِقُ مَنْ لا عِنْدَهُ زَكَمٌ فَتَبْدُو لَهُ أَنْوَارٌ وَعُلُومٌ مُخْتَلفَةٌ مَانِعَةٌ مَحْجُوبَةٌ مَعْلُومَةٌ لامَعْلُومَةٌ مَعْرُوفَةٌ لا مَعْرُوفَةٌ غَرِيْبَةٌ عَجِيْبَةٌ سَهْلَةٌ شَطَّةٌ فائقَةٌ طَعْمٌ وَرَائحَةٌ وَشَمٌّ يَمٌّ مَحَلٌّ جَمِيْلٌ جُهْدُ رَاب عَلوبُ نَفْط نَبوط هَوْبَط سَهْبَط جَرْموا غميطًا غَلَب

عَمن عَسَـب غَلَب عَرْمَاد عَلمُود على عَروس عَلْمَاس مَسْـرُود
قَدْ قدْ فرْسم صَبَّاع صَبْع صَبُوغ نبوب جَهْمَل جَمَايد حَربُوعَس
قنْبُود سـمَّاع بنَّاع سَـرْنُوع خَتْلُوف كـدَّاف كَرُّوب كمْتُوف
شَـهْدا سَـهْنَبيل خَتْلُولـف خَتُوف رَصص مَامن فمـن قرْفنيود
سـعي طَبُوطاطـا برْطاكمْـط كهْرَجَـة جهد بيـد فيلُودَات
كهلُـودَات كيْكل كلُـوب فافهم مبْرَم وقـرْم منْعَم وَأخبْرَ
سَهْدَم سُوس سُفيوس كلاَّ فيدلاَّ تهتُّر عن عنيلاَّ سَعْسَد سَج
تَزَيْد وَلا تَتَكوْكع زَنْدَحْدَام هدَام سَكَهْدَل.»[٨٥]

إنَّ الدُّخُـولَ فـي الحَـالِ، إيـذَانٌ بِالخُـرُوجِ مِـنَ الدَّلالَـةِ المُحِيْطَـةِ، المُهَيْمِنَـةِ، وَالدِّسُـوقيُّ، هُنَا، لا يُفَـرِّغُ اللغَةَ مِنْ كُلِّ مُحْتَوَىً مُسْـتَقرٍّ، فَقَـط، وإنَّمَـا يَتَعَدَّى ذَلِـكَ إلى إقَامَةِ أشْـكالٍ مِنَ الكَلمَـاتِ الغَرَائِبيَّةِ المُتَدَافِعَـةِ؛ لِيَصْنَـعَ لُغَـةً فـي اللغَةِ؛ لُغَـةً مُغْلَقَةً علـى ذَاتِهَـا، وَلا تَفِي إلاَّ لاحْتِيَاجَاتِهَا الخَاصةِ.

ابنُ عطاءِ الله السَّكندريِّ (658 _ 709)[86]

تتبـدَّى شـعريَّةُ النَّثـر الصُّوفـيِّ الشِّـعريِّ، في حِكَـم ابنِ عطـاءِ اللّه السَّـكندريِّ، المائتيـن وأربـع وسِـتِّين، المكتوبةِ في عـام 686هـ، في عبـاراتٍ غنائيَّـة، باطنيَّـة، عاليـة التَّكثيـف، ذاتَ صِياغـاتٍ وإشـاراتٍ وإيمـاءاتٍ وشَـفَراتٍ صوفيَّـة، تعتمـدُ بنيـة النَّجـوى، والحِكمـة، وفـي معظمِهـا، يتوجَّـه الخطـابُ إلـى السَّـالك الطَّريـق، مـع ميلٍ واضـح إلى التَّصويـر ومجازيَّة الخِطابِ، وابـنُ عطاءِ اللّه _ باعتمادِهِ الأداءَ المُكثَّفَ المُشعَّ بالدّلالاتِ والإشاراتِ، في عباراتٍ مُكثَّفة، تبلغُ، غالبًا، سطرًا أو

سطريْنِ ــ يعتمد بنيةَ الحكمةَ من ناحيةٍ، ويقتربُ، في الوقتِ ذاتِهِ، من بنيةِ «المواقف والمُخاطبات» للنَّفَّريِّ من ناحيةٍ أخْرَى، ومنْ حِكمِهِ[87]:

ــ «*رُبَّما أفادَكَ في ليْلِ القبْضِ، ما لمْ تستفِدْه في إشْرَاقِ نهارِ البَسْطِ، لا تدرونَ أيُّهم أقربُ لكم نفعًا.*»

ــ «*أرِحْ نفسَكَ مِنْ التَّدبير؛ فمَا قامَ به غيرُكَ عنكَ، لا تقُمْ به لنفسِكَ.*»

ــ «*لا يُشكِّكنَّكَ في الوعْدِ عَدَمُ وقوعِ الموعودِ، وإنْ تعيَّن زمنُهُ؛ لئلاَّ يكونَ ذلكَ قدْحًا في بصيرتِكَ، وإخْمَادًا لنورِ سَريرتِكَ.*»

ــ «*مَا قادَكَ شيْءٌ مثلُ الوَهْم.*»

ــ «*بسَطَكَ؛ كيلا يُبقيكَ مَعَ القبْضِ، وقبضَكَ كيلا يترُككَ مَعَ البَسْطِ، وأخْرَجَكَ عنْهُما؛ كيلا تكونَ لشيءٍ دونَهُ.*»

ــ «*متى أوْحَشَكَ مِنْ خَلقِهِ، فاعْلَمْ أنَّه يُريدُ أنْ يفتحَ له بابَ الأُنْسِ بهِ.*»

ــ «*إلى المَشيئَةِ يستنِدُ كلُّ شيء، ولا تستنِدُ هيَ إلى شيءٍ.*»

ــ «*رُبَّما أعْطاكَ فمنعَكَ، و رُبَّما منعَكَ فأعطَاكَ، و متى فتَحَ لكَ بابَ الفهمِ في المَنعِ، صَارَ المنعُ عينَ العَطاءِ.*»

خَاتِمَةٌ

لَقَدْ اسْـتَطاعَتْ شِـعريَّةُ النَّثرِ الصُّوفيِّ، أنْ تَحْفُرَ مَشْـهَدَهَا الخَاصَّ المُتَمَيِّـزِ، فـي خَريْطَةِ الشِّـعريَّةِ العَربيَّـةِ، عَبْـرَ مَجْمُوعَةٍ مِـنَ الطَّرائِقِ الإبْدَاعيَّةِ؛ الَّتي شَكَّلَتْ اخْتِرَاقًا شِعريًا حُرًّا، وَعَاريًا مِنْ آليَّاتِ المَفْهُوم الشِّعريِّ القَائِم، وَمُتَخَطِّيًا ـ حَتَّى اللحْظَة الشِّعريَّة الرَّاهِنَة ـ في كَثيْرٍ مِنَ الأحْيَانِ ـ إنْجَازَات الشِّعريَّةِ المُعَاصِرَةِ ـ في أشْكَالِهَا المُخْتَلفَةِ ـ بِتَجَاربَ خَلاَّقةٍ؛ تَتَخَطَّى الأُطُرَ المُسْـتقرَّةَ وَغَيْرَ المُسْـتَقرَّةِ، وَلَقَدْ كَانَ مِـنْ أجْلى الإنْجَـازاتِ القُصْوَى، الَّتـي تَحَقَّقتْ في هَذِهِ التَّجَـارِبِ: تَوَقُّدُ التَّجربَـةِ البَاطِنيَّـةِ، وَتَثْوِيْرِ بِنْيَةِ الخِطَابِ الشِّـعريِّ المُهَيْمِـنِ، وَالتَّمَاهِي فـي دَوَائرِ الأحْوَالِ وَمَـدَارَاتِ المَقَامَاتِ، وَالتَّجَسُّـدُ الشَّـخْصَانِيُّ للغَةِ، وَالتَّكثيْـفُ الشَّـدَيْدُ، وَهَيْمَنَـةُ الإيْقَـاعِ البَاطِنيِّ؛ الَّذي يُجَسِّـدُ حَرَكَةَ الشُّـعورِ، وَبِالإضَافَـةِ إلى هَذَا الإيْقَـاعِ البَاطِنيِّ اسْـتَخْدَمَ النَّثْرُ الصُّوفيُّ الشِّعريُّ السَّجْعَ أحْيَانًا، وَهَذَا الاسْتِخْدَامُ جَعَلَهُ يَتَمَاس ـ شَكْليًّا ـ مَعَ حَرَكَةِ النَّثْرِ الفَنِّيِّ؛ وَلكِنَّ سَـجعَهُ لَمْ يَكُنْ عُنْصُرًا زُخْرُفيًّا تَزْيينًا؛ بَلْ كَانَ جُزْءًا مِنْ طُقُوسِيَّةِ الحَالَةِ الصُّوفيَّةِ المَشْبُوبَةِ المُتَضَوِّرَةِ النَّزَّاعَةِ ـ أحْيَانًا ـ إلى التَّوازيَاتِ الصَّوتِيَّةِ.

وَظَهَرَتْ ـ في هَذَا المَشْـهَدِ ـ حَالاتٌ خَلاَّقةٌ كَانَتْ تحْفُرُ مَجْرَاهَا الخَـاصَّ فـي أرَاضٍ أجَـادبَ، وَتَوَقَّـدَتْ نِيْرَانُهَـا الرُّوحيَّـةُ في وَحْشَـتِهَا الضَّاريَـةِ؛ فَهـيَ إبْدَاعَـاتٌ تُجَسِّـدُ ـ كَمَـا أصْحَابُهَـا ـ غُرْبَـةَ النَّـصِّ الطَّليعِيِّ وَتَهْمِيْشِـهِ، وَهِيَ مُسَاويَةٌ لأصْحَابِهَا تَمَامًا؛ كَالنَّفَّريِّ الَّذي ظَلَّ في غُرْبَةٍ مَوْصُولَةٍ، وَمِنْ غُرْبَةٍ إلى غُرْبَةٍ، رَحَّالاً بِلَوَاعِجِهِ الضَّاريَةِ، حَتَّى وَافتْـهُ المَنيَّـةُ دُونَ أنْ يَجْمَعَ قُصَاصَاتِ (المَوَاقِـفِ) وَ (المُخَاطَبَاتِ)، أوْ

يَجِدَ مُسْـتَقَرًّا بِأَرْضٍ، وَكَالتَّوحِيديِّ الَّذي أَحْرَقَ كُتبَهُ يَأسًـا وَقُنُوطًا، بَعْـدَ حَيَاةٍ خَانِقَةٍ، وَكَالحَلاَّجِ الَّـذي انْقَلَبَ عليْهِ حَائِطُ اللغَةِ الَّذي عَاشَ يُحَطِّمُ فيْهِ دُونَ أَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ إِسْـقَاطِهِ؛ لِيُلاقِيَ ـ بِاطْمِئنَانٍ ـ أَضْرَى مَـا يُلاقِيْهِ النَّـصُّ الآخَرُ، وَلكنَّـهُ قُبَيْلَ الرَّحيْلِ خَطَّ لنَا: «الطَّواسِـيْنَ»؛ الَّتي سَـتَبْقَى ـ بِجَانِبِ قَصَائِدِهِ وَمَقْطُوعَاتِهِ الشِّعريَّة ـ مِنْ بَيْنِ خَمْسِيْنَ مُصَنَّفًا ذَهَبَتْ في تَلافيْفِ الضَّيَاعِ.

هِيَ حَالاتٌ مُتَشَظِّيَةٌ في مَشْهَدِ التَّاريْخِ، وَلكنَّهَا تُشَكِّلُ، مُجْتَمِعَةً، وَبِإِجْرَاءَاتِهَـا الخَاصَّـةِ المُخْتَلفَـةِ، وَآليَّاتِهَـا المُتَبَايِنَةِ، مَلامِحَ المَشْـهَدِ الإِبْدَاعِـيِّ الخَـاصِّ للنَّثْـرِ الصُّوفِيِّ الشِّـعريِّ؛ الَّذي سَـتَرَى فيْـهِ الطَّليْعَةُ الشِّـعريَّةُ النَّثريَّةُ، مَوْرِدَهَا القَومِيَّ، الَّذي سَـتَنْهَلُ مِنْهُ مَا يُؤصِلُ مَسْعَاهَا وَيُعَزِّزُهُ.

الإحَالات وَالتّعليقَات

(*) الَّـذي نَعْنيْه بمُصْطَلَح: مَا وَرَائيَّـاتِ اللغَةِ، يَخْتَلِفُ عَمَّا أبْرَزَتْهُ النَّظريَّةُ النَّقديَّةُ المُعَاصِرَةُ؛ فَنَحْنُ نُريْدُ مِنْ هَذَا المُصْطَلَح، الدَّلالَةَ على شَخْصَنَةِ اللغَةِ وَتَجَسُّدِها، وَعَلى مَا تَتَوَالَى إشَارَاتُهُ وَرَاءَ تَجَسُّدِهَا؛ بِحَيْثُ يَتَوَازَى الحُضُورَانِ؛ الظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ، المُتَعَيْنُ وَالمُضْمَرُ، الحَاضِرُ وَالغَائِبُ، بَيْنَمَا وَرَدَ المُصْطَلَحُ عندَ يَاكُوبسـون، وَ جِيرار جِينـه، وَرولان بارت؛ للدَّلالَةِ على لُغَةٍ تَتَحَدَّثُ عَنِ اللغَةِ؛ فَقَدْ ذَكَرَ ياكوبسـون ـ وَهُوَ يُعرِّفُ الوَظيفَةَ الـ«مَا وَرَاءَ لُغَويَّة» للغَةِ ـ أنَّ «مَا وَرَاءَ اللغَةِ، هِيَ لُغَةٌ تَتَحَدَّثُ عَنْ اللغَةِ، إنَّهَا شَفْرَةٌ تُشيْرُ إلى شَفْرَةٍ سَابِقَةٍ لَهَـا»؛ وَوِفْقًـا لِهَذَا سَـتَكُونُ الدِّراسَـاتُ اللغويَّةُ وَالأسْـلُوبيَّةُ وَالنَّقديَّـةُ ضُرُوبًا لِمَـا وَرَاءَ اللغَـةِ. (رَاجِـعْ مَا وَرَاءَ اللغَةِ: الشِّـقَاق»، في مُلْحَق جَريـدَة: الأهْرَام، صَفْحَة:11 ؛ ثَقَافَة، بِتَاريخ 14/4/2000).

(1) مِـنْ ذَلِـكَ أعْمَـالٌ عَديـدَةٌ لِمُحيـي الدِّين بْن عَربـيٍّ، لا تَخْلُـو ـ تَمَامًا ـ مِنَ النَّثرِ الصُّوفِيِّ الشِّـعريِّ، مِنْهَـا: فُصُوصُ الحِكَم ـ الفُتُوحَاتُ المَكِّيَّةُ ـ رَسَـائِلُ ابْنِ عَرَبِـيٍّ ـ مَوَاقِعُ النُّجُوم وَمَطالِعُ أهِلَّةِ الأسْـرَارِ وَالعُلوم ـ الأنْوَارُ فيْمَـا يُمْنَـحُ صَاحِـبُ الخُلوَةِ مِنْ أسْـرَار ـ شَـجَرَةُ الكَوْنِ»، وَلابْـنِ عَطَاءِ اللّهِ السَّكندَريِّ: اللّه «القَصْدُ المُجَرَّدُ في مَعْرِفَةِ الاسْمِ المُفْرَدِ «، وَلِعَبْدِ الكَريم الجِيلي: الإنْسَانُ الكَامِلِ في مَعْرِفَةِ الأوَاخِرِ وَالأوَائِل.

(2) رَاجِـعْ: مُحمَّـد ديـب ـ الجِنْسُ الأدَبي بَيْـنَ المَوْهِبَةِ الفَرديَّـةِ وَالرَّافِدِ الغَربِيِّ ـ مَجَلة: (عَلامَات) ـ ج12 /م3 ـ يونيو1994 ـ ص:161. وَالإشَارَةُ هُنَا إلـى تَعْليْقِ أدُونيسَ على كِتَابَةِ النَّفَّريِّ. كَذَلكَ قَـرَنَ مُحيي الدِّين اللاذقَانيّ قَصِيـدَةَ النَّثـرِ العَربيَّـةِ، بِمَوَاقِـفِ النَّفَّـريِّ وَمُخَاطبَاتِـه، وَطَواسِـيْنِ الحَلاَّج؛ بِاعْتبَارِهَـا مَثَائِـلَ، وَجُـذورًا فـي تُرَاثِنَا الفَنِّـيِّ الخَصِـبَ. رَاجِعْ كِتَابَـهُ: آبَاء الحَدَاثَة العَرَبيَّة، طبعة الهيئَة العَامة لِلْكتاب، 2003، ص ص: 136 ـ 137.

(3) تُرَاجَـعُ مَرَاحِل تَأسِـيسِ النَّثرِ الصُّوفِيِّ, في بِدَايتِهَا التَّأسيسـيَّةِ لَدَى:

أبـي بَكْـرِ الكلاباذري ـ التَّعرُّف لِمَذْهَبِ أهْـلِ التُّصوُّف ـ تحقيق: محمود النَّـوادِي ـ مكتبـة الكُليَّـات الأزْهـريَّـة ـ القَاهـرة ـ 1400هـ/ 1980م ـ ص:36، وَمَا بَعْدَهَا.

(4) أبـو عبد الرَّحمن السَّـلميُّ ـ طَبَقَـاتُ الصُّوفيَّـة ـ تحقيق:نُور الدِّين شريبَة ـ مكتَبَة الخَانجِي ـ القاهرة ـ الطَّبعة الثَّانية ـ 1986 ـ ص: 27.

(5) فريـد الدِّين العَطَّار النَّيسَـابُوريّ ـ تَذْكـرَةُ الأوْليَاءِ ـ المُجلَّد الأوَّل ـ تَرجَمَـة وَتَقدِيـم وَتَعْليْق: مَنَال اليَمَنِي عبد العزيـز ـ الهيئَة المِصْريَّة العَامة لِلْكِتَاب ـ 2006 ـ ص:380، نيكلسون ـ في التَّصوُّفِ الإسْلامِيِّ ـ تَرْجَمَة وَتَعْلِيْق: الأسـتاذ الدُّكتور أبُو العِلا عفيفي ـ مطبعة لجنة التَّأليف وَالنَّشـر ـ القاهـرة ـ 1956 ـ ص:78.

(6) النُّور مِنْ كَلمَاتِ أبي طَيْفور، لِلسِّهلَجِيِّ ـ ضِمْنَ: شَطَحَات الصُّوفيَّة، لعبد الرَّحمن بدوي ـ الجزء الأوَّل ـ أبُو يزيد البِسْطامِي ـ الطَّبعة الثَّالثة ـ وكالة المَطْبُوعَات ـ الكويت ـ 1978 ـ ص:151.

(7) أبُو نَصْر عبد الله بن على السّـراج الطُّوسـيّ ـ اللُمَع في التَّصوُّفِ ـ نَشْـرَة ألـن نيكلسـون ـ ليـدن 1914 ـ ص:391، وَقَدْ وَرَدَتْ قِصَّـةُ مِعْرَاجِهِ كَامِلَـةً فـي كِتَـابِ: تَذْكـرَة الأوليَـاءِ ـ الجُـزْءُ الأوَّل ـ سـابق ـ ص ص: 397 ـ 402، وَذَكَـرَ ابْـنُ الجُـوزيّ أنَّ أهـلَ بسْـطَام أنْكَرُوا علـى أبِي يزيدَ حِكايَـةَ مِعْرَاجِـهِ، وَبِسَـبَبِهَا أخْرَجُـوه مِنْ بسْـطَام. رَاجِعْ لابْنِ الجُـوزيِّ: نَقْد العِلْم وَالعُلَمَاء، أوْ: تَلْبِيْس إبْلِيس ـ مكتبة صُبيح ـ د.ت ـ ص:162، وَرَاجِعْ أيضًا: د.عبد الحليم محمود ـ سُـلْطَان العَارفيْنَ: أبُو يزيد البِسْـطَامِي ـ دار المَعَارف ـ 1985 ـ ص: 60.

(8) اللُمَع في التَّصوُّف ـ سابق ـ ص: 387.

(9) النُّور مِنْ كَلِمَاتِ أبي طَيْفُور، ضِمْنَ: شَطَحَاتِ الصُّوفيَّةِ ـ سَابق ـ ص:95، ص:151، وَ:الرِّسَالة القُشَيْريَّة ـ طبعة المَكتبَة التَّوفِيْقيَّة ـ د. ت ـ ص: 134.

(10) وَرَدَتْ في كَثيرٍ مِنَ المَصَادرِ، مِنْهَا: اللُمَع في التَّصوُّفِ ــ سـابق ــ ص:390، وَ: تَذْكرَة الأوْلِيَاءِ ــ سَـابق ــ ص: 357، وَ: شَـطَحَات الصُّوفيَّة ــ سَابق ــ ص:143، وَ: نَقْد العِلْمِ وَالعُلَمَاءِ، أوْ تَلْبِيس إبْلِيس ــ سابق ــ ص:334.

(11) النُّور مِنْ كَلمَاتِ أبي طَيْفُور ــ ضِمْنَ: شَـطَحَات الصُّوفيَّة ــ سَابق ــ ص: 100.

(12) السَّابق ــ ص: 101.

(13) السَّابق ــ ص: 102.

(14) السَّابق ــ ص: 145.

(15) اللُمَع في التَّصوُّف ــ سَابق ــ ص: 402.

(16) شَطَحَات الصُّوفيَّة ــ سابق ــ ص: 44.

(17) اللُمَع في التَّصوُّف ــ سَابق ــ ص:404.

(18) اللُمَع في التَّصوُّف ــ سَابق ــ ص:397.

(19) شَطَحَاتُ الصُّوفيَّة ــ سَابق ــ ص: 48.

(20) رسـائل الجُنيـد - تحقيـق د. علـي حسـن عبـد القـادر ــ دار برعي وجـداي. وقـد ظلَّـت رسـائلُ الجُنيـد محجوبَـةً قرونًا طويلـةً، يتطلَّـعُ العلماءُ والباحثـونَ في التَّصوُّفِ إلي كشـفِهَا، حتَّى صَـدَرَتْ عن دار برعي وجداي، بتحقيـق للدكتـور علي حسـن عبـد القادر، وعـن هـذه الطَّبعة نشَـرَتْ في صحيفةُ: أخبار الأدب، وعن: أخبارِ الأدب نُشِـرَتْ في موقعِ: جهاتِ الشِّـعر، راجِعْ: رسائل الجُنيد، في كلِّ هذه المراجعِ، فصل: كتاب الفَنَاء.

(21) السَّابق ــ فصل: مسألة أُخرى.

(22) السَّابق ــ فصل: مسألة أُخرى.

(23) نَشَـرَهَا د. يُوسـف زيدان، ضِمْنَ نُصُوصٍ أُخْرى غَيْرِهَا، وَقَصَائِدَ، فِـي: دِيـوَانِ عبد القَادر الجِيلانِي: القَصَائِد الصُّوفِيَّـة، وَالمَقَالات الرَّمزيَّة ــ

مُؤسَّسة أخْبَار اليَوم ـ القَاهِرة ـ 1990.

(24) عبـد القَاهـر الجُرْجَانِيّ ـ دَلائِـل الإعْجَازِ ـ تَعْلِيق: السَّـيد مُحمَّد رَشِيد رِضَا ـ دَار المَعْرِفَة ـ بيروت ـ الطَّبعة الأولى ـ 1994 ـ ص:192.

(25) فاسِيلي كَاندينسكـي ـ الرَّوحَانِيَّة في الفَنِّ ـ تَعْرِيْب: فهمي بَدَوي، وَتَقدِيم: محمود بقشِيش ـ الهيئة المِصْريَّة العَامة لِلْكِتَاب ـ 1994 ـ ص:52.

(26) السَّابق ـ ص:48.

(27) علـي جَعفـر العَـلَّاق ـ الشِّـعرُ خَارِجَ النَّظْمِ، الشِّـعرُ دَاخِـل اللغَةِ ـ مجَلَّة: (نِزْوى) ـ عُمَان ـ العَدَد الأَوَّل ـ نوفمبر 1994 ـ ص: 30.

(28) أبُـو المُغيث؛ الحُسَـيْنُ بنُ مَنْصُور الحَـلَّاج (244 ـ 309هـ مقتولا)، أصْلُهُ مِنْ بَيْضَاءِ فَارسَ، نَشَأَ بِوَاسِطِ، في العِرَاقِ، ثُمَّ انْتَقَلَ إلى تَسْتُر؛ حَيْثُ صَحِبَ سَهْلا بن عبد اللّهِ التَّستريّ (ـ 283هـ)، لِمُدَّةِ عَامِيْن، ثُمَّ صَحِبَ عُمَرَ بنَ عُثْمَانَ المَكِّيَّ؛ الَّذي ألْبَسَهُ خِرْقَةَ الصُّوفيَّةَ، حَتَّى وَصَلَ إلى بَغْدَاد، وَأخَذَ عَن الجُنَيْدِ (ـ 298هـ)، ظَهَرَ أمْرُهُ أوَّلَ مَا ظَهَرَ سنة 229هـ، وَهُوَ زَعِيْمُ القَائليْنَ بِالحلُولِ، وَكَانَ في بِدَايَةِ أمْرِهِ يُظْهِرُ التَّشييعَ لِلْعبَّاسِيينَ، وَكَثُرَتْ الوشَايَاتُ إلى الخَلِيفَةِ العَبَّاسِيِّ المُقْتَدِرِ؛ فَقُبِضَ عليْهِ وَسُجِنَ، وَعُذِّبَ، وَقُطِّعَتْ أطْرَافُهُ الأَرْبَعَـة، ثُـمَّ قُتِلَ، ثُمَّ حُزَّ رَأسُـهُ، ثُـمَّ أُحْرِقَتْ جُثَّتُـهُ، وَأُلْقِيَ رَمَادُهَـا في نَهْرِ دِجْلَة، وَنُصِبَ رَأْسُـهُ على جِسْـرِ بَغْدَاد. أوْرَدَ ابْنُ النَّديم لَهُ أسْمَاءَ سِتَّةً وَأرْبعيْنَ كِتَابًا، غَريبَةَ الأسْمَاءِ، مِنْهَا: الكبريتُ الأحْمَرُ ـ قُرَآنُ القُرآن وَالفُرْقَان ـ هُوَ هُوَ ـ اليَقِيْنُ. وَأُحْرِقَتْ كُتُبُهُ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا سِوى: الطَّواسِيْن، وَالدِّيوَان.

(29) تُـودُورُوف ـ نقـدُ النَّقـد ـ ت: سَـامي سـوَيْدَان ـ مركـز الإنمَاء القَوميّ ـ بيروت ـ الطَّبعة الأولى ـ 1986 ـ ص: 60.

(30) الحَـلَّاج ـ الدِّيـوان، يلِيْـهِ كِتَـابُ الطَّواسِـيْن ـ تَحْقيْـق وَتَصْحيْح (الطَّواسِـيْن) بُولس بُويا اليَسُـوعِيّ ـ منشـورَات الجَمَل ـ كُولونيَا، ألمانيا ـ 1997 ـ ص: 139.

(31) السَّابق ـ ص: 143.

(32) عَـنْ: الطَّبقَـات الكُبْرَى، لِلإمَام عبد الوَهاب الشَّـعرَانِيّ ـ الجزء الأوَّل ـ المكتبَة التَّوفِيقيَّة ـ د.ت ص: 186.

(33) الطَّبقَاتُ الكُبْرَى ـ سَابق ـ ص: 185 ، أخْبَارُ الحَلاَّج، لِمَاسِينون وب كِرَاوس ـ مطبعة القلم ـ باريس ـ 1936 ـ ص: 36.

(34) أخْبَارُ الحَلاَّج ـ سابق ـ ص: 16.

(35) السَّابق ـ ص:34.

(36) الطَّواسِيْن، ضِمْنَ كِتَاب: الدِّيوَان، يَلِيْهِ كِتَابُ الطَّواسِيْن ـ سَابق ـ ص ص: 122 ـ 123.

(37) كَامِـل مُصطفَـى الشَّـيبي ـ مُقَدِّمَـة المَرْجع السَّـابق ـ ص: 19 ، وَرَاجِعْ كَذَلكَ: مَيْثَم الجنَابِي ـ السَّـمَاعُ لِحَقَائِق المُطْلَق ـ مَجلَّة: (نِزْوى) ـ عُمَان ـ العدد الحَادي وَالعِشْرُون ـ يناير2000 ـ ص ص: 75 ـ 82.

(38) مُحمَّـد بن عبـد الجَبَّار النَّفَّريُّ (؟ ـ 354هـ)، يُمَثِّـلُ الصُّورَةَ المُثْلَى لِلصُّوفِيِّ الرَّحَالِ المُتَوَحِّد، لِلدَّرَجَةِ الَّتي لا نَعْثُرُ عَلى شَيءٍ مِنْ تَفَاصِيلِ حَيَاتِهِ، سِوى إشَارَاتٍ قَليْلَةٍ وَمَقْتَضَبَةٍ، تُبَيِّنُ أنَّهُ كَانَ جَوَّابَ آفَاقٍ، في أقْطَارِ الأرْضِ، وَأنَّه كَانَ إمَامًا بَارعًا في كُلِّ العُلوم، وَأنَّه تُوفِيَ بِالقَاهِرَةِ سَنَةَ 354هـ، وَأنَّه تَرَكَ وَرَاءَهُ قُصَاصَاتِ المَوَاقِفِ وَالمُخَاطَبَاتِ؛ لِيَجْمَعَهُمَا مِنْ بَعْدِه، ابْنُهُ.

(39) أدُونِيس ـ تَأسِيْس كِتَابَةٍ جَدِيْدَة III ـ مَجلَّة: (مَوَاقِف)17 ـ 18/III ـ نُوفمبر/ديسمبر1971. ص:7.

(40) رَاجِعْ ـ على سَبيْلِ المِثَال ـ: الاتحَافَات السَّـنيَّة بالأحَاديْثِ القُدْسِـيَّة ـ لِزَيْـنِ الدِّين عبد الرَّءوف بن تَـاج العَارفيْنَ بن عليّ بن زَيْن العَابدِيْنَ الحَدَّادي ـ الطَّبعة الرَّابعة ـ مكتبَة وَمَطْبَعَة مُحَمَّد علي صُبيح ـ 1973 ـ ص ص: 38 ـ 39.

(41) مُحمَّـد بنُ عبد الجَبَّار النَّفَّـريُّ ـ المَوَاقِفُ وَالمُخَاطَبَاتُ ـ تَحقيْقِ:

آرثـر أرْبِـري ـ تَقْديم وَتَعليْق: د.عبد القَادِر محمـود ـ الهيئة المِصْريَّة العَامة لِلْكِتَاب ـ 1985 ـ ص:71.

(42) هَـذِهِ النَّبـرَةُ الشِّـعريَّةُ؛ الَّتي حَمَلَتْهَـا كِتَابَةُ النَّفَّـريِّ، كَانَ لَهَا فِعْلُ السِّـحْرِ فـي جِيْـلِ الخَمْسِـينيَّاتِ ـ فـي الشِّـعرِ العَرَبِيِّ ـ الَّـذي اقْتَـرَنَ عَمَلُهُ الطَّليعِـيُّ بِمَا سُـمِّيَ بـ (قَصِيْدَةِ النَّثْـرِ) ـ ؛ فَأَدُونيـسُ، في أَوَّلِ دِرَاسَـةٍ لَهُ عَنْ قَصِيْـدَةِ النَّثْـرِ ـ نُشِـرَتْ في مَجلَّة: (شِـعْر)، صَيْف1960 ـ أَشَـارَ إلى أنَّ هَذَا الجِنْسَ الشِّـعريَّ، نَشَـأَ أَسَاسًـا في الأدَبِ العَرَبِـيِّ، بِخَاصةٍ نَثْـر المُتَصَوِّفَةِ، وَحَـاوَلَ أدُونِيسُ أنْ يُقِيمَ جِسْـرًا بَيْـنَ النَّثرِ الصُّوفِيِّ وَالتَّجربَةِ الشِّـعريَّةِ النَّثريَّةِ الجَديـدَة، كَمَـا قَدَّمَ كِتَابَةَ النَّفَّـريِّ، كَنَمُوذَج (قَديْـم) لِكِتَابَةٍ (جَديدَة)، كَانَتْ خُرُوجًا على الشَّكليَّة الكِلاسِيكِيَّة، وَتَأْسِيسًا لِشَكْلٍ شِعْرِيٍّ آخَر.

وَاعْتَبَـرَ كِتَـابَ المَوَاقِـفِ وَالمُخَاطَبَاتِ، لِلنَّفَّـريِّ، أَهَمَّ مَصَـادرِ قَصِيدَةِ النَّثْـرِ، وَقَـالَ: « لا أعْـرِفُ كَيْـفَ أصِفُ دَهْشَـتِي ـ حِيْـنَ قَرَأتُـهُ ـ ؟ أعْرِفُ أنَّني شَـعَرْتُ ـ وَأنَا أقْرؤهُ ـ أنْ لِمَا أقْرؤهُ فِعْلَ القَتْل: قَتْلِ مُعْظَم الشِّـعرِ الَّذي سَـبَقَهُ، وَمُعْظَـم الشِّـعرِ الَّذي أتَـىَ بَعْدَهُ، هَكَـذَا أدْرَكْتُ أنَّني أمَامَ شَـاعِرٍ عَظِيْم»، وَأَوْضَحَ أنَّهُ يَعْتَمِدُ اللا شَكْل وَالنِّظَام، وَلا يُكَرِّرُ لُغَةً مَعْرُوفَةً، وَأنَّهُ يَكْتَشِـفُ لُغْـةً غَيْرَ مَعْرُوفَـةٍ، وَأنَّ اللغَةَ عِنْدَهُ خَالِقَةً وَلَيْسَـتْ مَخْلُوقَةً، وَأرْجَعَ قِيْمَـةَ الشِّـعريَّةَ عِنْدَهُ إلى كَوْنِهَـا، تُوحِي بِأكثر مِنْ مَعْنَـى، وَفي كَوْنِهَا لا تَكْتَمِـلُ بلْ تَظَـلُّ مَفْتُوحَةً، وَفِي كَوْنِهَا نُقْطَةَ انْطِـلاقٍ لا نُقْطَةَ وُصُولٍ، وَفي كَوْنِهَا كَالإنْسَانِ ذَاتِهِ، يَتَحَرَّكُ أبدًا صَوْبَ وُجُودٍ مَفْتُوحٍ أبدًا.»

رَاجِـعْ: أدُونِيـس ـ تَأسِـيس كِتَابَـةٍ جَديـدَةٍ III ـ مَجلَّة: (مَوَاقِـف)17 III. 18نوفمبر / ديسمبر1971.

وَذَكَـرَ إبرَاهيم شُـكْرَ الله ـ في مُقدِّمَةِ ديوانه: مَوَاقِفِ العِشْـقِ وَالهَوَانِ وَطُيُـورِ البَحْـرِ؛ الصَّادرِ عَـنْ دَار العَالَم العَربِـيّ لِلطِّبَاعَـة ـ 1982 ـ وَلْنَتَأمَّلْ العُنْـوَانَ جَيِّـدًا ـ أنَّـهُ وَقَـفَ «طَويْـلاً أمَـامَ كِتَـابِ المَوَاقِـفِ وَالمُخَاطَبَات،

لِلنَّفَّـرِيِّ، أتَأَمَّلُ في انْبِهَارِ كَثَافَـةِ اللغَةِ، وَاحْتِدَامِهَـا، وَتَجَاوزهَا لِوَظِيْفَتِهَا، عِنْدَ الشُّـعرَاءِ التَّقليديينَ؛ فَهِيَ لَيْسَـتْ إطَارًا بيَانيًا تَزْويقيًّا، وَألفَاظًا مُتَوَرِّمَةً؛ بَـلْ هِـيَ حَرَكَةٌ مِنَ العِلاقَاتِ المُتَدَاخِلَةِ؛ الَّتي تَسْـتَطيعُ التَّعبيْـرِ عَنْ الحَقيقَةِ الزِّئبقيَّـةِ؛ الَّتي لا يُمْسِـكُ بِهَا المَـرْءُ حَتَّى تَنْفَلتَ؛ مُنْزَلِقَةً مِـنْ بَيْنِ أصَابعِهِ، أوْ تَتَحَـوَّلُ إلى حَقيْقَةٍ أُخْرى أشَـدّ شُـمُولاً... وَآثَـرْتُ مَنْهَجَ النَّفَّـرِيِّ؛ حَيْثُ الإيْقَاعُ حَرَكَةُ تَنَاغُمٍ دَاخِليٍّ، وَلَيْسَ تَطَابُقًا نَغميًا، بَيْنَ أجْزَاءٍ خَارِجيَّةٍ شَكْليَّةٍ.»

(43) مُقَدِّمَةُ كِتَابِ: المَوَاقِفِ وَالمُخَاطَبَاتِ _ سَابِق _ ص:19، كَذَلِكَ لَمْ يَذْكُرْ الشَّـعرَانِيُّ، في كِتَابِـهِ: الطَّبَقَات الكُبْرَى، مَعْلُومَاتٍ أسَاسِـيَّةً، عَنْ حَيَاةِ النَّفَّرِيِّ.

(44) أبُـو حَيَّـان التَّوحِيـديُّ (310 _ 414هـ)، عَليُّ بن مُحمَّـد بن العَبَّاس التَّوحِيـديُّ، فَيْلَسُـوفٌ، وَمُتَصَـوِّفٌ، مُعْتَزِلـيٌّ، وَصَفَهُ يَاقوتٌ بِأنَّه «شَـيْخٌ في الصُّوفيَّةِ، وَفيْلَسُـوفُ الأدَباءِ، وَأدَيْبُ الفَلاسِفَةِ، وَمُحَقِّقُ الكَلامِ، وَمُتَكَلِّمُ المُحَقِّقيْنَ، وَإمَامُ البُلَغَاءِ»، وُلِدَ في شِـيْرَاز (أوْ في نَيْسَـابُور)، وَمَكَثَ مُدَّةً فـي بَغْدَاد، ثمَّ ارْتَحَلَ إلى الرِّي فَصَحِبَ ابْـنَ العَمِيْدِ وَالصَّاحِبَ بنَ عَبَّاد، فَلَمْ يَحْمَدْ قُرْبَهُمَا، ثُمَّ وُشِـيَ بِهِ إلى الوزيرِ المهلَّبيِّ؛ فَطَلَبَهُ، فَاسْـتَتَرَ مِنْهُ، وَأثْنَاءَ اسْـتِتَارِهِ تُوفِّيَ. تَحَمَّسَ التَّوحِيديُّ لِطَرِيْقَةِ الجَاحِظِ في الكِتَابَةِ وَمَوْسُوعِيَّتِهِ، وَآثَرَهَـا عَلى طَرِيْقَةِ ابْنِ العَمِيْدِ وَالصَّاحِـبِ بنِ عَبَّاد؛ الَّتي هَيْمَنَتْ عَلى كِتَابَةِ عَصْـرِهِ، وَأنْجَـزَ آثَارًا عَديْدَةً، أحْرَقَ مُعْظَمَهَا، فـي مِحْنَتِهِ، كَمَدًا، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَـا إلاَّ مَـا نُقِلَ قَبْلَ الإحْرَاقِ، وَهِيَ: الإمْتَاعُ وَالمُؤانَسَـةُ _ الإشَـارَاتُ الإلَهيَّةُ _ المُقَابَسَـاتُ _ الصَّدَاقَـةُ وَالصَّدِيْـقُ _ البَصَائِرُ وَالذَّخَائِـرُ _ المُحَاضَرَاتُ وَالمُنَاظَـرَاتُ _ تَقْرِيْـظُ الجَاحِـظِ _ مَثَالِبُ الوَزِيْرَيْـنِ، وَلَمْ يَسْـلَمْ التَّوحِيديُّ مِـنْ تُهْمَةِ الزَّنْدَقَـةِ، قَالَ ابْنُ الجُوزِيُّ: زَنَادِقَةُ الإسْـلامِ ثَلاثَةٌ: ابْـنُ الرَّوانديّ، وَالتَّوحِيديّ، وَالمَغْرِبِيّ، وَشَرُّهُمْ التَّوحِيديُّ؛ لأنَّهُمَا صَرَّحَا وَلَمْ يُصَرِّحْ.

(45) أبُـو حَيَّـان التَّوحِيدِيِّ _ الإشَـارَاتُ الإلهِيَّة _ تَحْقِيْـق: عبد الرَّحمن

بَدَوى ـ الهيئة العَامة لِقُصُور الثَّقَافَة ـ فبراير1996 ـ ص:178.

(46) السَّابق ـ ص: 278.

(47) السَّابق ـ ص: 170.

(48) المَوَاقِفُ وَالمُخَاطَبَاتُ ـ ص: 107.

(49) الإمْتَـاعُ وَالمُؤانَسَـة ـ صَحَّحَه وَضَبَطَه وَشَـرَحَ غَرِيْبَـهُ: أحْمَد أمِين وَأحْمَد الزَّين ـ الجُزْءُ الأوَّل ـ المَكتبَة العَصْرِيَّة ـ بيروت ـ د.ت ـ ص:66.

(50) د.زكـي مُبَـارَك ـ النَّثْرُ الفَنِّـيُّ في القَرْنِ الرَّابِـع ـ الجُزْءُ الأَّول ـ مَطْبَعَة السَّعَادَةِ بِمِصْر ـ الطبعةَّ الثَّانية ـ 1957 ـ ص:115.

(51) الإمْتَاعُ وَالمُؤانَسَة ـ الجُزْءُ الأوَّل ـ سَابِق ـ ص: 68.

(52) عَـنْ: المُقَابَسَـاتِ، لأبـي حَيَّان التَّوحِيدِيِّ ـ تَحْقِيْق وَشَـرْح: حَسَـن السَّندوبِي ـ دَار سُعَاد الصَّبَّاح ـ الطبعةَّ الثَّانية ـ 1992 ـ ص: 95. وَتَفْصِيْلُ هَـذَا المَوْقِفُ، وَهَذِهِ العِلاقَةِ، في كِتَابِهِ: مَثَالِـبُ الوَزِيْرَيْنِ، وَقَدْ كَانَ لِهَذَا الكِتَـابِ أسْـوَأُ الأثَرِ، على أبي حَيَّـان؛ «لأنَّ الصَّاحِبَ ابْنَ عَبَّاد، بِمَا كَانَ لَهُ مِنْ وَاسِعِ السُّلْطَةِ وَالعَطَايَا الدَّارة على الأدَبَاءِ وَالعُلَمَاءِ وَأهْلِ الفَضْلِ؛ قَدْ سَلَّطَ عليْهِ كُلَّ ذِي لُسُـنٍ وَبَيَانٍ؛ فَتَصَدُّوهُ بالإسَـاءَةِ مِنْ سَـائِر نَوَاحِيْه، حَتَّى اخْمَلُوا ذِكْرَهُ، وَغَمَرُوا اسْمَهُ، وَجَعَلُوهُ طَرِيْدًا شَرِيْدًا، لا يَأويْهِ حَجَرٌ وَلا يَسْكُنْ إلى مَدَرٍ، حَتَّى قَالَ يَاقوتٌ: وَلَمْ أرَ أحَدًا مِنْ أهْلِ العِلْمِ ذَكَرَهُ في كِتَابٍ وَلا دَمَجَهُ في ضِمْنَ خِطَابٍ، وَهَذَا مِنْ العجَبِ العُجَابِ».

عَنْ تَصْدِيْرِ كِتَاب: المُقَابَسَاتِ ـ الطَّبعة الثَّانية ـ ص: 13.

(53) أبُو حَيَّان التَّوحِيدِي ـ رِسَـالَةُ الصَّدَاقَةِ وَالصَّدِيْقِ ـ عُنِىَ بِتَحْقِيْقِهَا وَالتَّعْلِيْقِ عليْهَا: إبرَاهيم الكِيلاني ـ دار الفكـر ـ دمشق ـ 1964 ـ ص: 7.

(54) الإشَارَات الإلَهِيَّة ص: 246.

(55) عبـدُ القَـادر الجِيلانِـي (470 ـ 561 هـ)، عبـدُ القَادر بن مُوْسَـى

بن عبد اللّٰهِ بن جنْكي دُوْست الحُسْنِيّ، وُلِدَ في جيلان، وَرَاء طُبْرُسْتَان، وَيَنْتَسِبُ إليْهَا، ثُمَّ انْتَقَل إلى بَغْدَاد في شَبَابِه سَنَةَ 488هـ، فَاتَّصَلَ بشيُوخ العِلْم وَالتَّصوُّف، وَبَرَعَ في أسَاليْب الوَعْظ وَالفِقْه، وَتَصَدَّرَ للتَّدريس وَالإفْتَاء، لَهُ طَريْقَةٌ مَعْرُوفَةٌ في التَّصوُّفِ؛ هِيَ الطَّريْقَةُ القَادِريَّةُ، كَرَامَاتُهُ كَثيْرَةٌ ـ بَعْضُهَا فيْهَا شَطْحٌ كَثيْرٌ ـ ذَكَرَهَا اليَافِعيُّ، في: نَشْر المَحَاسِنِ، مِنْ مُؤلَّفَاته: «الفَتْحُ الرَّبَّاني، وَالفَيْضُ الرَّحْمَاني» ـ «الغُنْيَة: لِطَالِبي طَريْقَ الحَقِّ» ـ دِيْوَانُ شِعْرٍ، قَامَ بِجَمْعِهِ وَنَشْرِهِ د. يُوسُف زِيدان، تَحْتَ عُنْوَان: دِيوان عبد القَادر الجِيلانِي ـ صَدَرَ عَنْ دَار أخْبَار اليَوم ـ 1990.

(56) دِيوَان عبد القَادر الجِيلانِي: القَصَائِدُ الصُّوفيَّةُ، المَقَالاتُ الرَّمْزيَّة ـ دِرَاسَة وَتَحْقِيْق: د. يُوسُف زيدان ـ مُؤسَّسة أخبَار اليَوم ـ القَاهِرة ـ 1990 ـ ص: 217. وَالغَوثُ هُوَ القُطْبُ، وَيُبيِّنُ الجُرجَانِيُّ أنَّهُ سُمِّيَ «غَوْثًا بِاعْتبَارِ التجَاءِ المَلْهُوفِ إليْه، وَهُوَ الوَاحِدُ؛ الَّذي هُوَ مَوْضِعُ نَظَرِ اللّٰهِ في كُلِّ زَمَانٍ، أعْطَاهُ الطِّلَّسْمَ الأعْظَمَ مِنْ لَدُنْهُ، وَهُوَ يَسْري في الكَوْنِ، وَأعْيَانِه الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَة، سَرَيَانَ الرُّوح في الجَسَد، بِيدِهِ قِسْطَاسُ الفَيْضِ الأعَمّ وَزْنه ١. يَتْبَعُ عِلْمَهُ، وَعِلْمُهُ يَتْبَعُ عِلْمَ الحَقِّ، وَعِلْمُ الحَقِّ يَتْبَعُ المَاهيَّاتِ الغيْرِ مَجْعُولَة؛ فَهُوَ يَفيْضُ رُوحَ الحَيَاةِ، على الكَونِ الأعْلَى وَالأسْفَلِ، وَهُوَ على قَلْبِ إسْرَافيْل؛ مِنْ حَيْثُ حِصَّته المَلَكيَّة، الحَامِلَة مَسْألَةَ الحَيَاةِ وَالإحْسَاسِ، لا مِنْ حَيْثُ إنْسَانيَّتِه، وَحُكْمُ جِبْريْل فيْه، كَحُكْم النَّفْسِ النَّاطِقَةِ في النَّشْأةِ الإنْسَانيَّة، وَحُكْمُ مِيْكائيْل فيْه، كَحُكْم القُوَّة الجَاذبَة فيْهَا، وَحُكْمُ عَزْرَائيْل فيْه كَحُكْمِ القُوَّةِ الوَاقِعَةِ فيْهَا.»: التَّعريفَات ـ ص: 119.

(57) عبد القَادر الجِيلانِي ـ الفَتْحُ الرَّبَّانِي، وَالفَيْضُ الرَّحْمَانِي ـ دَار الرَّيَّان للتُّرَاثِ ـ د.ت. رَقم الإيدَاع: 1988 ـ ص: 89.

(58) السَّابق ـ ص: 176.

(59) السَّابق ـ ص: 411.

(60) السَّابق ــ ص: 241.

(61) السَّابق ــ ص: 243.

(62) السَّابق ــ ص: 248.

(63) أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك السُّهرورديُّ؛ المُلقَّب بشهاب الدِّين، والمعروف بالسُّهرورديِّ المقتول؛ تمييزًا له عن صوفيَّينِ آخرين هما: شهاب الدِّين عُمر السُّهروردي مُؤلِّف كتاب:«عوارف المعارف»، وصاحب الطَّريقة السُّهرورديَّة، و أبو النَّجيب السُّهروردي.

ولد في سُهرورَدَ في شمال غرب فارس، في سنة :594هـ، طلب العِلمَ باكرًا في أصفهانَ، ثمَّ في ديار بكر والأناضول، ثم بلاد الشَّام وتعلَّم في رحلات علميَّة اقتفى فيها أثر العلماءِ، وصَاحَبَ المُتصوِّفة، وأخذ نفسَه بالرِّياضات الرُّوحيَّةِ والمُجاهداتِ، مُتنقِّلا من مَراغة وأصفهان إلى بلاد الشَّام إلى العراق إلى تركيا ثم حلب التي ناظرَ فقهاءَها فلم يُجاره أحدٌ منهم، وذاعَ ذِكرُه، وقرَّبه الظَّاهر حاكم حلب؛ فتآمرَ عليه فقهاؤها، وحوكم وأُعدِمَ فيها.. وحكايةُ إعدامِه ذكرَها العِمادُ الأصفهانيُّ؛ الذي كان مُعاصرًا له، في كتابه: «البستان الجامع»، وتتلخَّص في أنَّ الفقهاءَ دعوه إلى مناقشةٍ فِقهيَّةٍ علنيَّة؛ فغلبَ عليهم، ودبَّروا مكيدةً له في مُناظرةٍ علنيَّة أخرى في جامع حلب، وسأله بعضُهم: أيقدر اللّه أن يخلُقَ نبيًّا آخرَ بعدَ محمد (ص)؛ فقالَ، فيما أوردَه العِمادُ الأصفهانيُّ، : لا حدَّ لقدرته!؛ فقالوا إنَّه يُجيزُ خلقَ نبيٍّ آخرُ بعدَ محمَّد؛ خاتم النَّبيِّين!، وأعلنوا أنَّه مارقٌ عن الدِّين، وكتبوا محضرًا، وكفَّروه، وطالبوا بإعدامِه، وكتبوا لصلاح الدِّين الأيوبي أنَّه سيُفسد ابنه الذي يُعلِّمه، فكتبَ صلاح الدِّين إلى ابنه الظَّاهر أن يقتلَه؛ فأُعدِمَ في عام 581 هـ، وأُحرِقتْ كتُبه، وكان في الثَّامنة والثَّلاثين؛ مثل الحلاَّج الذي لقِيَ مصيرَهُ الدِّراميَّ قبلَ ثلاثة قرونٍ، وللسُّهرورِيِّ كتبٌ بالعربيَّةِ وبالفارسيَّةِ عديدةٌ، منها: حِكمةُ الإشراق ــ المشارع والمُطارحات ــ هياكل النُّور ــ كلمات الصُّوفيَّة

ـ الأربعون اسمًا ـ الأسماء الإدريسيَّة ـ الألواح العِماديَّة ـ المُناجاة ـ المَعارج ـ اللمحات ـ التَّلويحات، ويُمثِّلُ كتابُه: «حِكمة الإشـراق» مدرسـةً فلسـفيَّة صوفيَّة متكاملةً؛ ما تزالُ حاضرةً في الهند وباكستان وإيران.

(64) هيـاكلُ النَّـور ـ للحكيـم السُّـبحاني، والهيـكل الصَّمدانـي، فيلسوف الإسلام شِهاب الدِّين أبو الفتوح يحيى بن حبش السُّهرورديّ الشَّهير بالسُّـهرورديّ المقتـول ـ الطَّبعـة الأولى ـ مطبعة السـعادة بجـوار محافظة مصر ـ 1335 هـ ـ ص ص: 8 ـ 9.

(65) السَّابق ـ ص: 11.

(66) السَّابق ـ ص: 12.

(67) شِـهاب الدِّين يحيى سُـهروردي ـ مجموعة مصنَّفات شـيخ إشراق ـ تصحيح ومُقدِّمة: هنري كربين ـ طبعة طهران ـ 1373 ـ ص ص:276 ـ 297.

(68) شيخ الإشراق: شهاب الدِّين السُّهرورديّ ـ كلمات الصُّوفية ـ تحقيق: قاسم محمد عباس ـ دار المدى، سوريا ـ 2009 ـ ص ص: 113 ـ 115.

(69) مُحْيي الدِّين بن عربيّ (560 ـ 638 هـ)، مُحمَّد بن عَليّ بن مُحمَّد بن عَرَبِيّ، أبُو بَكْرٍ الحَاتِميّ الطَّائيّ الأنْدَلُسِـيّ، مُتَصَوِّفٌ، مِنْ أئِمَّةِ المُتَكلِّمِيْن في كُلِّ عِلْم، وُلِدَ في مَرْسَـيَّة، بِالأنْدَلُس، سَـنَةَ 560هـ، ثُمَّ انْتَقَلَ إلى أشْبِليَّةَ، وَقَامَ بِرِحْلَةٍ وَاسِعَةٍ، زَارَ فيْهَا: المَغْرِبَ، وَمِصْرَ، وَالشَّامَ، وَبِلادَ الرُّوم، وَالعِرَاقِ، وَفي مِصْرَ أنْكَرَ عَليْهِ البَعْضُ شَـطَحَاتٍ صَدَرَتْ عَنْهُ، فَسَـعَوا إلى إرَاقَةِ دَمِه، وَحُبِـسَ، ثُـمَّ خَرَجَ نَاجِيًا، بِمُسَـاعَدَةِ عَليٍّ بنِ فَتْـحِ اليحْيَائِيِّ، ثُـمَّ زَارَ الحِجَازَ، وَاسْـتَقَرَّ في دِمَشْـقَ حَتَّى وَفَاتِـه، في لَيْلَةِ الجُمْعَة، فـي 28 مِنْ رَبِيْعِ الآخر 638 هـ، بَيْنَ اتْبَاعِهِ الصُّوفيَّة، وَدُفِنَ في الصَّالِحِيَّةِ، بِسَـفْحِ قَاسِيُون، وَابْنُ عَرَبِيّ ـ كَمَـا يَقولُ الذَّهَبِيُّ ـ: قُدوَةُ القَائِليْـنَ بِوحْدَةِ الوجُودِ، لَهْ نَحْو أرْبَعِمائَةِ كِتَابٍ وَرِسَـالَة؛ مِنْهَـا: الفُتُوحَاتُ المَكِّيَّـةُ ـ فُصُوصُ الحِكَم ـ عَنْقَـاءُ مَغْرِب، في التَّصـوُّفِ ـ مُحَاضَرَةُ الأبْرَارِ وَمُسَـامَرَةُ الأخْيَارِ ـ كُنْـهُ مَا لابُدَّ لِلْمُرِيْدِ مِنْهُ ـ

مَوَاقِـعُ النُّجـوم وَمَطَالِعُ أهِلَّةِ الأَسْـرَارِ وَالعُلُوم ـ شَـجَرَةُ الكَـوْنِ ـ دِيْوَانُ: فَتْح الذَّخَائرِ وَالأغْلَاقِ ـ شَرْحُ: تُرْجُمَان الأَشْوَاق ـ دِيْوَان شِعْرٍ في التَّصوُّف.

(70) مُحْيي الدِّين بن عَرَبِيّ ـ كِتَابُ الكُتُب، ضِمْنَ: رَسَائِل ابْنِ العَرَبِيِّ ـ المكتبة التَّوفيقيَّة ـ د. ت ـ ص:340.

(71) كِتَـابُ التَّجليَّـاتِ، ضِمْنَ: رَسَـائل ابْـنِ العَرَبِيِّ ـ الجُـزْءِ الثَّاني ـ سَابق ـ ص: 3.

(72) مُحْيـي الدِّيـن بـن عَرَبِـيّ ـ التَّنزيـلاتُ المَوْصِليَّة ـ رَاجَعَهَـا وَعَلَّقَ عَليْهَـا: عبـد الرَّحمن حَسَـن محمـود ـ مكتبـة عَالَم الفِكـر ـ القاهرة ـ الطَّبعة الأولى ـ 1986 ـ ص:221.

(73) رَاجْعْ: الفُتُوحَات المَكِّيَّة ـ السِّفر الثَّاني ـ الطَّبعة الثَّانية ـ الهيئة المِصْريَّة العَامة لِلْكِتَاب ـ 1985. ص: 206.

(74) رِسَـالة رُوْحِ القُـدْس ـ قَـدَّمَ لَهَـا: بَـدَوي طه عـلَّام ـ مكتبة عَالَم الفِكـر ـ القَاهرة ـ ط1 ـ 1989 ـ ص: 93.

(75) السَّابق ـ ص: 96.

(76) السَّابق ـ ص: 99.

(77) تقع رسـالة «لا يُعوَّل عليه»، ضمن رسـائل ابن عربي ـ سـابق - بين صفحتيْ:233 ـ 247.

(78) إبرَاهيـم الدِّسُـوقيُّ (623 ـ 676هـ)، بُرْهَان الدِّين بـن عبد العَزيز، يَنْتَهِـي نَسَـبُهُ لأبيْه إلى الإمَام الحُسَـين بـن عَليٍّ بن أبي طَالَب، وَنَسَـبُهُ لأمِّه إلى القُطْبِ الصُّوفيِّ أبِي الفَتْح الوَاسِـطيِّ، وُلِدَ في مَدينَة دسُوق سَنَةَ 623هـ، وَإليْهَا يَنْتَسِـبُ، حَفِظَ القُرآنَ الكَريمَ وَتَفَقَّهَ عَلى مَذْهَبِ الإمَام الشَّـافِعيِّ في صِبَاهُ، وَيُـرْوَى أنَّـهُ دَخَـلَ الخلْوَةَ، وَهُـوَ في الخَامِسَـةِ مِنْ عُمْـرِه، وَلَمْ يُغَادِرْهَـا إلاَّ وَهُوَ في الثَّالثَّة وَالعِشْـرِيْنَ في سَـنَةِ 646هـ، حِيْنَ تُوفِّيَ وَالدُهُ، وَقَدْ اسْـتَجَابَ لِدَعْوَةِ

مُريدِيْـهِ وَأتْبَاعِــهِ بِالخُرُوجِ إلى الحَيَاةِ العَامَّةِ، وَعُرِفَ بِطَرِيْقَتِهِ البرْهَامِيَّة؛ نِسْـبَةً إلى اسْمِهِ، وَتُعْرَفُ، أَيْضًا ـ بِالبُرْهَانيَّة؛ نِسْبَةً إلى لَقَبِهِ، وَبِالدِّسُوقِيَّة؛ نِسْبَةً إلى مَسْـقَطِ رَأسِهِ، عَيَّنَهُ المَلِكُ الكَامِلُ مُحمَّد الأيُّوبيُّ شَيْخًا للإسْلام، وَقَدْ نَهَضَ بِهَذَا العَمَلِ رَافِضًا الحُصُولِ على أيِّ أجْرٍ، ثُمَّ تَفَرَّغَ لِمُرِيْدِيْهِ، وَيُرْوَى أنَّهُ شَـارَكَ فِـي صَدِّ الحَمْلَـةِ الصَّلِيبِيَّةِ الأخِيْرَةِ بِقِيَادَةِ لويس التَّاسِـع، في عَهْدِ الصَّالِحِ نَجْمِ الدِّين أيُّوب، وَتَتَّفِقُ المَصَادِرُ الَّتي أرَّخَتْ لِحَيَاتِهِ أنَّهُ ظَلَّ عَزِبًا، وَذَكَرَ الشَّعْرَانيُّ أنَّهُ كَانَ صَاحِبَ كَرَامَاتٍ ظَاهِرَةٍ، وَمَقَامَاتٍ فَاخِرَةٍ، وَأحْوَالٍ خَارِقَةٍ، وَأنْفَاسٍ صَادِقَـةٍ، كَانَ يُجِيْـدُ عِدَّةَ لُغَـاتٍ؛ مِنْهَا السِّـرِيَانيَّةُ وَالعِبْرِيَّةُ. وَقَـدْ وَضَعَ العَدِيْدَ مِـنْ المُؤلَّفَـاتِ في الفِقْـهِ وَالتَّوحِيْدِ، وَلَـهُ كِتَابٌ ضَخْمٌ في التَّصـوُّف، بِعنوَانِ: الجَوْهَرَةِ المُضِيْئَةِ؛ وَبَعْضُهُ مَنْشُـورٌ بِاسْمِ: جَوْهَرَة الدِّسُوقِيِّ، تُوفِّيَ سَنَةَ 676هـ، وَهُوَ فِي الثَّالِثَةِ وَالأرْبَعِيْن، وَدُفِنَ في المَكَانِ الذي فيْهِ مُصَلاَّهُ.

(79) الإمَـامُ عبـد الوَهَّاب الشَّـعْرَانيُّ ـ الطَبَقَاتُ الكُبْـرَى ـ المَكتبَةُ التَّوفِيقيَّـةُ ـ د. ت. ص: 280، وَرَاجِـعْ كَذَلِـكَ: جَوْهَـرَةَ الدِّسُـوقيِّ ـ طَبْعَـة الحُسَين الإسْلامِيَّة، بِالأزْهَر ـ د.ت ـ ص ص: 105 ـ 106.

وَمِنْ ذَلكَ كَلاَمٌ يَفيْضُ بِالأعَاجِيْبِ الخَارِقَة؛ كَأَنْ يَقُولَ أنَّهُ وَقَفَ على كُلِّ خَارِقَةٍ، مُنْذُ خَلْقِ البَرِيَّةِ؛ فَأمْسَكَ مَنْ تَحْمِلُهُمْ الرِّيحُ، وَأمْسَكَ مَنْ يُمْسِكُ الرِّيحَ، وَفُتِحَ لَهُ قَدْرُ خرْم إبْرَةٍ؛ فَرَأى مَا بَيْنَ المَشْـرِقِ وَالمَغْرِب، وَهُوَ ابْنُ أرْبَع سِـنِيْنَ، كَمَـا أنَّـهُ ـ حِيْنَئِذٍ ـ قَدْ وَجَدَ تُفَّاحَةً جَمِيْلَةً، قَدْ سَـقَطَتْ فِـي حِجْرِهِ، فَنَتَرَهَا مِـنْ حِجْـرِهِ؛ فنودي أنَّ يَا إبْرَاهيـمُ ارْم مَابَقِـىَ مِنْهَا، فَإنَّهُ يَكفِيْـكَ مَا أكَلْتَهُ؛ فَرَمـى النِّصـفَ الآخَرَ، وَنُودِيَ أنَّ يَا إبْرَاهِيمُ انْظُـرْ مَا حَصَّلَ قَلْبُكَ؛ فَرَأى رُوْحَهُ قَـدْ جَالَـتْ في المُلْكِ وَالمَلَكُوتِ، ثُمَّ نَظَرَ إلى اللـوحِ المَحْفُوظِ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِيَ سِـنِينَ، وَجَعَلَ الدُّنيَا كُلَّهَا في يَدِهِ كَالكُرَةِ أوْ كَالخَاتَمِ في إصْبَعِهِ، يُقَلِّبُهَا حَيْثُ يَشَـاءُ، وَيُحَرِّكُ مَا هُوَ سَـاكِنٌ في الكَوْنِ، وَيَقْعُدُ على الثَّرَى، وَيَرَى مَا يَخُطُّهُ القَلَمُ في اللوحِ المَحْفُوظِ؛ كَرُؤيَةِ أحَدِنَا الإنَاءَ في يده..] رَاجِعْ: الطَّبَقَات

الكُبْرَى ــ سَـابق ــ ص: 308، جَوْهَرَة الدِّسُـوقِيِّ ــ سَـابق ــ ص ص: 105 ــ 106]، وَتَتَّسِـقُ هَـذِهِ التَّجليَّاتُ وَالفُيوضَـاتُ، مَعَ نظريَّةٍ مِنْ أسَاسِـيَّاتِ الفِكْرِ الصُّوفِيِّ؛ أرْسَى مَعَالِمَهَا، وَوَضَعَ حُدُودَهَا، وَصَاغَهَا: عبد الكَريم الجِيلِي (ــ 805هـ)، في كِتَابِه: الإنْسَـانِ الكَامِلِ فـي مَعْرفَةِ الأوَاخِرِ وَالأوَائِلِ، وَتَتَحَدَّثُ عَـنْ القُطْبِ الَّذي تَـدُورُ عليْه أفْلاكُ الوُجود مِنْ أوَّله إلى آخِـرِه، وَتَرَى أنَّهُ أَحَدٌ فَرْدٌ، مُنْذُ بِدَايَةِ الخَلْقِ حَتَّى الأبَدِ، وَأنَّهُ يَتَجَلَّى في كُلِّ زَمَانٍ؛ بِمَا يُنَاسِـُب هَذَا الزَّمَانَ، وَيَتَسَمَّى بِأسْمَاءَ مُتَنَوِّعَةٍ، وَأنَّهُ مُحمَّد (ص). رَاجِعْ في تَفْصِيْل ذَلكَ ــ: الإنْسَان الكَامِل في مَعْرفَةِ الأوَاخِرِ وَالأوَائِل - عبد الكريم إبْرَاهيم الجِيلِي ــ المَكْتبَة التَّوفِيقيَّة ــ د. ت ــ ص ص: 226 ــ 232].

(80) الطَّبقات الكُبرَى ــ سَابق ــ ص:285.

(81) السَّابق ــ ص: 283.

(82) السَّابق ــ ص: 187، : جَوْهَرَةُ الدِّسُوقِي ــ سابق ــ ص ص: 74 ــ 75.

(83) الطَّبقَات الكُبرَى ــ ص: 288.

(84) السَّابق ــ الصَّفحة نفسُهَا.

(85) السَّابق ــ ص: 285.

(86) وُلدَ ابنُ عطاءِ اللّهِ السَّـكندريِّ (658 ــ 709)، في الإسكندريَّة، في أسـرةٍ معروفةٍ بالعلوم الدِّينيَّة وتدريسِـها، كان جدُّه يُـدرِّسُ الفِقه، وقد نشـأ ابنُ عطاءِ اللّهِ في الإسـكندريَّة، وتتلمذ على يد أبي العبَّاس المُرسي، ثـمَّ انتقـلَ إلى القاهرة، وأقامَ بهـا، حتَّى وفاتِهِ.. وقد نـالَ كتابُه:» الحِكم« شـروحًا عديدةً، قديمًا وحديثًا. راجعْ في سـيرتِه: «ابـن عطاء اللّه وتصوُّفه» للدُّكتور أبي الوفا الغنيمي التَّفتازاني.

(87) الحِكـم، هنا، مختـارةٌ، من طبعة: الحِكم العطائيَّة، لابن عطاء اللّه السَّـكندريِّ، شـرح ابن عبَّاد النَّفزيِّ الرِّنديِّ، مركـز الأهرام للتَّرجمة والنَّشر، بالقاهرة، 1988.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

النَّثرُ الشِّعريُّ

بدايةُ التَّدفُّق الباطنيِّ الحُرِّ لمصْهورِ الشِّعر والنَّثر

«مَنْ مِنَّا لَمْ يَحْلُمْ يَوْمًا بِمُعْجِزَةِ النَّثرِ الشِّعريِّ
نَثْرٌ يَكُونُ مُوْسِيقيًّا بِلا وَزْنٍ وَلا قَافِيَةٍ
طَبْعًا غَيْر مُتَصَلِّبٍ
لِكي يَتَوافَقَ مَعَ الحَرَكَاتِ الغِنَائيَّةِ لِلرُّوحِ
وَمَعَ تَمَوُّجِ الأحْلامِ وَرَجَفَاتِ الوَعْي.»

بودلير

سَأَم بَارِيْس ـ ص: 12.

تَمْهِيدٌ

جَاءَتْ حَرَكَةُ النَّثْرِ الشِّعريِّ Poetic prose ثَوْرَةً على قُيودِ القَصيدَةِ العَربيَّةِ الكلاسيكيَّةِ، وَعلى قُيودِ النَّثرِ الفَنِّيِّ المَسْجُوع؛ المُثْقلِ بالزَّخَارفِ البَلاغيَّةِ، وَاقْتِرَاحًا لشَكلٍ نَثْريٍّ حُرٍّ، تَتَدَفَّقُ الشِّعريَّةُ في خِطَابِهِ، عَبْرَ التَّخييْلِ وَالتَّصويْرِ وَالأدَاءِ الغِنَائِيِّ المُجَنَّحِ وَالمُنَاجَيَاتِ وَالتِّكرَارَاتِ، في تَجاربَ وِجْدَانيَّةٍ رَهيْفةٍ وَسَيَّالَةٍ.

وَقَدْ سَاهَمَتْ عِدَّةُ عَوَامِلَ في الوصُول إلى مَلامِحِ هَذَا الشَّكلِ؛ منْهَا: الاطِّلاعُ على نَمَاذِجِ النَّثرِ الشِّعريِّ، في إبْدَاعَاتِ الرُّومَانسيَّةِ الفَرنْسيَّةِ؛ الَّتي شَرَعَتْ رِيَاحُهَا تَهبُّ على الأدَبِ العَرَبيِّ مُنذُ أوَاخِرِ القَرْنِ التَّاسِع عَشَر، وَمِنْهَا: اسْتِفَادَةُ كُتَّابِ الرَّابطَةِ القَلميَّةِ ــ الَّذين كَانُوا طَليْعَةَ المُؤسِّسيْنَ لِهَذَا الشَّكلِ، في مَشْهَدِ الأدَبِ العَربِيِّ ــ منْ شِعريَّةِ الأدَاءِ في تَرْجَمَةِ أسْفَارِ التَّورَاةِ وَالمَزَاميْرِ وَالأنَاشِيْد، وَمِنْ طَرَائقِ أدَبِ الطُّقوسِ الكَنَسيَّةِ المَسِيْحِيَّة[1]؛ حَيْثُ كَانَ أعْضَاءُ الرَّابطَةِ القَلَميَّةِ العَشَرَةِ؛ اللبنانيُّونَ المُهَاجِرُونَ إلى الشَّمَالِ الأمريكِيِّ، مَسِيْحيِيْنَ؛ بَعْضُهُمْ كَاثُوليْك، وَبَعْضُهُمْ أرْثُوذُكس، وَهُمْ: جُبران خَليل جُبران ــ مِيخَائِيل نُعَيمه ــ نسيب عُرَيْضَة ــ وليم كاتسفليس ــ إيليَّا أبو مَاضِي ــ عبد المَسِيح حَدَّاد ــ رَشِيد أيُّوب ــ ندْرَة حَدَّاد ــ وَديْع بَاحُوط ــ إليَاس عَطَا اللّه.

وَالأرْجَحُ أنَّ رَأسَ هَذِهِ الجَمَاعَةِ: جُبران خَليل جُبران، قَد اهْتَدَى إلى آليَّاتِ شِعريَّةِ الأدَاءِ في تَرْجَمَةِ الكِتَابِ المُقَدَّسِ؛ مُتأثِّرًا بِالمَفْهُومِ

النَّظريِّ للنَّثرِ الشِّعريِّ، أثنَاءَ وُجُودِهِ في فَرَنْسَا (1908 ـ 1911) لدِرَاسَةِ فنِّ التَّصويْرِ، أوْ في نيويورك؛ الَّتي انْتَقَلَ إليْهَا بعدَ فَرَنْسَا؛ حَيْثُ لَمَسَ تَأثُّرَ عَديديْنَ ـ مِنْهُمْ: وَالَتْ وَايتمَان، في شِعْرِهِ الحُرِّ ـ بِآليَّاتِ الأدَاءِ الفَنِّيِّ في الكِتَابِ المُقَدَّسِ.

وَالمُرَجَّحُ ـ أيْضًا ـ أنْ يَكونَ أمين الرِّيحَاني ـ الرَّائدُ المُشَارِكُ لِجُبرَان، مِنْ خَارجِ الرَّابطَةِ القَلمِيَّةِ، في رِيَادَةِ النَّثرِ الشِّعريِّ، وَالشِّعرِ المَنْثورِ، قَد اهْتَدَى إلى مَفْهُومِ النَّثر الشِّعريِّ نَظَريًّا وَإبْدَاعيًّا مِنْ اطِّلاعِهِ المُبَاشِرِ على النَّثرِ الشِّعريِّ الفرنسيِّ.

وَقَدْ اكْتَسَبَ النَّثرُ الشِّعريُّ دَفْعَةً كُبْرَى، بِمَا أنْجَزَهُ قُطْبَا النَّثرِ الشِّعريِّ، في المَشْهَدِ المِصْريِّ، مُصْطفى لُطْفي المَنْفَلُوطي، وَمُصْطَفى صَادق الرَّافعيُّ؛ حَيْثُ صَارَ كُلٌّ مِنْهُمَا عَلامَةً على تَيَّارٍ مَرْكَزيٍّ، يَسْتَثْمِرُ مَخْزُونَ الأدَاءِ التُّراثيِّ، اسْتِثمَارًا يَتَخَطَّى آليَّاتِ الصِّنَاعَةِ الفَنِّيَّةِ في النَّثرِ الفَنِّيِّ، وَلا يَخْلُو تَمَامًا مِنَ الزِّيَنِ اللفظِيَّةِ؛ لِلتَّعبيْرِ عَنْ تَجَاربَ رُومَانسيَّةٍ شَاعريَّةٍ جَديدَةٍ.

وَتَكمُنُ أهميَّةُ النَّثرِ الشِّعريِّ في كَوْنِهِ، بدَايَةً لِسلْسِلةٍ مِنَ الحَلَقَاتِ المُتَوَاشِجَةِ، المُتَعدِّدَةِ التَّجليَّاتِ وَالمَلامِحِ؛ حَيْثُ سَيَتَوَلَّدُ عَنْهُ الشِّعرُ المَنْثورُ؛ الَّذي سَتَتَعَدَّدُ تَجليَّاتُ حُضُورِهِ الشِّعريِّ في حَلْقَاتٍ تَاليَةٍ؛ بِالتَّحديْدِ في حَلْقَتيْنِ أسَاسِيَّتيْنِ هُمَا الشِّعر الحرّ، وَ قَصِيدَةَ النَّثر.

وَبِهَذَا كَانَ النَّثرُ الشِّعريُّ، بِحَقٍّ، أوَّلَ إعْلانٍ لِلفِكْرَةِ الخِصْبَةِ القَائلَةِ، بِأنَّ النَّثرَ قَابلٌ لِلشِّعرِ، وَبِهَذَا سَنَنْتَقِلُ مِنَ النَّثرِ الشِّعريِّ؛ الَّذي لا يَزَالُ نَثْرًا، إلى قَصِيدَةِ النَّثرِ؛ الَّتي هِيَ ـ قَبْلَ كُلِّ شَيءٍ ـ «قَصِيدَةٌ»، وَالنَّثرُ الشِّعريُّ هُوَ الَّذي هَيَّأ لِمَجِيءِ قَصِيدَةِ النَّثرِ؛ بِاعْتبَارِهِ أوَّلَ طَابعٍ

للتَّمَـرُّدِ علـى القَوَانيْن القَائِمَةِ وَالطُّغيَانِ الشَّـكليِّ، وَعَبْـرَ الخُصُومَاتِ الَّتي وُلِدَتْ بشَـأنِه، تعَزَّزَتْ فِكْرَةُ الفَصْلِ الضَّروريَّةِ بَيْنَ «الشِّـعرِ» وَفَنِّ نَظْمِ الشِّعرِ.»[2]

المَفْهُومُ النَّظريُّ لِلنَّثرِ الشِّعريِّ

«النَّثرُ الشِّعريُّ مُصْطَلَحٌ فَرَنْسِيٌّ، يُقْصَدُ بِهِ نَوْعٌ مِنَ النَّثرِ قَرِيْبِ الشَّبَهِ بِالشِّعرِ، وَلا سِيَّمَا الإصْحَاحَات الشِّعريَّةَ في الكِتَابِ المُقدَّس.»[3]

وهو شكلٌ إبداعيٌّ حرٌّ وانسيابيٌّ يجمع بين تدفُّق (النَّثر)، وَخَيَالاتِ (الشِّـعر)، وَحَالاتِـهِ المُحَلِّقَـةِ، وَتَصَاويـرِه، وَرُؤاهُ، وَإيحَاءَاتِـه، وَ«لَيْسَ لِلنَّثرِ الشِّـعريِّ شَـكْلٌ بِنَائيٌّ، وَسَـيْرٌ في خَطٍّ مُسْـتَقيْم، لَيْسَ لَهُ نِهَايَةٌ؛ لِذلكَ هُوَ رِوَائيٌّ أوْ وَصْفِيٌّ؛ يَتَّجِهُ غَالبًا إلى التَّأمُّلِ، أوْ المُنَاجَاةِ الغِنَائيَّةِ، أوْ السَّـردِ الانفِعَاليِّ؛ وَلِذلكَ يمتلِئُ بِالاسْتطِرَادَاتِ وَالتَّفاصِيْلِ، وَتَتَفَسَّحُ فيْهِ وَحَدَاتُ التَّنَاغُمِ وَالانْسِجَامِ.»[4]

آليَّاتُ شِعْريَّةِ النَّثرِ الشِّعريِّ

نَشَـأَ النَّثـرُ الشِّـعريُّ فـي مَشْـهَدِ الأدَبِ العَربِـيِّ، مَـعَ وِلادَةِ الوَعْـي الرُّومَانسِـيِّ، مَـعَ فَجْرِ القَرْنِ العِشْـريْنَ، وَتَأسَّسَـتْ شِـعْريَّتُهُ على عِدَّةِ مُرْتَكَـزَاتٍ؛ تَحَـدَّدَتْ بِهَـا مَلامِحُـهُ، وَأهَمُّهَـا: التَّدفُّقَـاتُ الوِجْدَانيَّـةُ المُجَنَّحَةُ، وَهَيْمَنَةُ الصَّوتِ البَاطِنيِّ المُضَمَّخِ بِأمْوَاجِ الرُّوحِ، وَالمُنَاجَيَاتُ الغِنَائيَّـةُ المُسْتَرْسِـلَةُ، وَالصِّورُ الكُلِّيَّةُ، وَشَـاعريَّةُ الـرُّؤى، وَالتَّرميْزُ، وَرَهَافَـةُ الحَالَـةِ الوِجْدَانيَّـةِ، وَالتِّكـرَارَاتُ، وَالشَّـكلُ المَقْطَعـيُّ، وَالتَّناظُـرُ بَيْنَ المَقَاطِـعِ، وَالتَّوازيَاتُ، وَالتَّكثيْـفُ، وَالنَّزعَةُ الصُّوفيَّةُ؛

الَّتـي تَمَثَّلـتْ في: تَوقُّـدَاتِ الـذَّاتِ الجَامِعَـةِ، وَالتَّجريْـدِ، وَالرَّوحَانيَّةُ، وَالاحْتِفَـاءُ بِتَجَـاربِ الوَحْشَـةِ، وَالحَيْـرَة، وَالاحْتِفَاءُ بِالطَّبيعَـةِ، وَالثَّورَةِ علـى النَّزعَةِ المَاديَّةِ، وَيَتبَدَّى الإيقَاعُ المَنْبُورُ المُتَدَفِّقُ، في كِيَانٍ نَثريٍّ تُضَمِّخُهُ الرُّؤى الشِّعريَّةُ.

الإيقَاعُ هُنَا شَـخْصِيٌّ تَمَامًا؛ لأَنَّهُ إيْقَاعُ الذَّاتِ المُبْدِعَةِ، وَهِيَ تَتَحَرَّكُ في أجْوَاءِ التَّجربَةِ، إيقَاعٌ يَتَنَامَى مَعَ حَرَكَةِ الشُّـعورِ، وَيَتَشَابَكُ، وَيَنْزَعُ إلـى الانْتِظَـام؛ وَبِالتَّالِـي يُبْرِزُ المُسْـتَوَى التَّخييليَّ لِلغَـةِ، وَيَعْتَمدُ الإيقَاعُ هُنَـا علـى مَجْمُوعَةٍ مِـنْ آليَّاتِـهِ: كَالنَّبرِ وَالتَّوزيْـنِ وَالتَّـوازي وَالتِّكرَارِ وَالتَّفقيْرِ، وَهُوَ يُؤسِّسُ أفقًا غِنَائيًّا مُنْضَبِطًا مَعَ حَرَكَةِ التَّجربَةِ.

يَتَأسَّسُ النَّثرُ الشِّـعريُّ، إذًا، على خَاصيتيْنِ أسَاسيتيْنِ مُتَوَاشِجَتيْنِ تُحَدِّدَانِ، بِتَفَاعُلِهمَا، هويَّتَهُ الإبْدَاعيَّةَ، وَهُمَا: خَاصيَّةٌ نَثْريَّةٌ: السَّـرديَّةُ، وَخَاصيَّةٌ شِعْريَّةٌ: الغِنَائيَّةُ، وَهُمَا تُشَكِّلانِ، مَعًا، نَسِيْجًا عَابرًا لِلْحدودِ الأجْنَاسِـيَّةِ؛ ثَمَّةَ تَدَفُّقٌ وَتَكْثِيفٌ مَعًا، اسْترْسَـالٌ وَإيْجَـازٌ مَعًا، وَيَتَجَاوَزُ السَّـردُ الحُـرُّ هُنَا مَفْهومَ السَّـردِ التَّقليديِّ؛ حَيْـثُ يَتَدَفَّقُ وِفْـقَ إيقاعَاتٍ دَاخليَّةٍ، وَلُغَةٍ مُكثَّفةٍ تَبَعًا لِحَرَكَةِ الإيقَاعِ، إنَّ التَّشكِيْلَ السَّرديَّ يَظَلُّ خَاضِعًا لِحَرَكَةِ الإيقَاعِ؛ الَّتي تُحَدِّدُ حَرَكَةَ اللغَةِ وَتَرَاكِيْبِهَا، وَتُكَثِّفُ عِبَارَاتِهَا وَتَشْحنُهَا.

وَإذَا كَانَ النَّثـرُ الفَنِّـيُّ قَـدْ اعْتَمَدَ علـى ضَوَابِطَ إيقاعِيَّةٍ؛ هَنْدَسِـيَّةٍ خَارجيَّةٍ (مِنْ: سَجْعٍ وَازْدِوَاجٍ)، فإنَّ النَّثْرَ الشِّعريَّ قدْ اعْتَمَدَ على مَوْجَاتِ الإيقَاعِ الحُرَّةِ، المُتَدفّقةِ مَعَ التَّجربَةِ الإنْسَانيَّةِ؛ وِفْقَ حَرَكتِهَا الدَّاخِليَّةِ.

وَاقْتَرَبَ النَّثرُ الشِّعريُّ بِهَذَا، مِنْ جُوَّانيَّاتِ الشِّعرِ وَبَاطِنيَّتِهِ وَحَمِيْمِيَّتِهِ؛ فَبَرَزَتْ ـ بِقُوَّةٍ ـ فَاعِليَّةُ التَّدفُّقِ الوجْدَانِيِّ، في حَالاتٍ شَاعريَّةٍ مُجَنَّحَةٍ،

وَفُيُوضَاتٍ مِنَ «التَّدَاعِيَاتِ، وَالمُنَاجَيَاتِ، وَالفَضَاءَاتِ الصُّورِيَّةِ، وَبَلاغَةِ العِبَارَةِ، وَالصِّيَاغَاتِ المُجَنَّحَةِ؛ المتميِّزةِ بِسَيْلٍ مِنَ الهَيَجَانَاتِ اللغَوِيَّةِ وَالعَاطِفيَّةِ وَالخَيَالِيَّةِ.»[5]

وَبِهَذَا تَجَسَّدَتْ شَخْصِيَّتُه الشِّعريَّةُ مِنَ الحُضُورِ الشِّعريِّ الدَّاخليِّ فِي بُنْيَانِهِ النَّثريِّ، وَيُلْفِتُ النّظرَ هُنَا أنَّ مَجْمُوعَةً مِن أبْرَزِ كُتَّابِ النَّثرِ الشِّعريِّ، قَدْ كَتَبَتْ القَصِيدَةَ الكِلاسِيكِيَّةَ، وَكَانَتْ مِنْ أعْلامِهَا، وَمِنْهَا: جُبْرَان خَليل جُبْرَان (1883 ـ 1931)، وَإيليا أبُو مَاضِي (1891 ـ 1957)، وَمُصْطفى صَادق الرَّافِعيّ (1880 ـ 1937)؛ وَفي هَذَا دَلالَةٌ وَاضِحَةٌ على أنَّ الشَّكلَ التَّقليديَّ المَوْرُوثَ لِلْقَصِيدَةِ العَرَبِيَّةِ، لَمْ يُسَاعِدْهُمْ على اسْتِيعَابِ هَذِهِ النَّوعيَّةِ مِنَ التَّجَارِبِ؛ بَلْ ضَاقتْ حُدُودُهُ عَنْ احْتِواءِ مِثْلِ هَذِه الحَالاتِ، وَلَمْ يَكُنْ بِالإمْكَانِ ضَغْطُهَا في حُدودِ هَذا الشَّكلِ؛ وَبالتَّالي عَكَسَ هَذَا الإنتَاجُ المُزْدَوَجُ لِهؤلاءِ المُبْدعيْنَ، حَاجَةً مُلِحَّةً إلى شَكْلٍ آخَر يَكُونُ أكْثَرَ مرُونَةً وَطَواعيَةً؛ لِيَسْتَوْعِبَ تَجَارِبَ جَدِيدَةً أكْثَرَ تَشَابُكًا وَتَدَفّقًا وَتَحَرُّرًا.

وَعَنْ النَّثرِ الشِّعريِّ انْبَجَسَ الشِّعرُ المَنْثورُ، وَاخْتَلَطَ بِهِ في مَفَاهِيْمِ مُبْدعيْهِ وَنَاقديْهِ، في أحْيَانٍ كَثيْرَةٍ؛ فَقَدْ كُتِبَ بَعْضُ النَّثرِ الشِّعريِّ على طَرِيْقَةِ الشِّعرِ المَنْثورِ في سُطُورٍ حُرَّةٍ مُتَفَاوِتَةِ الطُّولِ، كَمَا أنَّ بَعْضَ الشِّعرِ المَنْثورِ قَدْ كُتِبَ على طريقَةِ النَّثرِ الشِّعريِّ، في سُطُورٍ كَامِلةٍ، بَلْ إنَّ بَعْضَ النَّثرِ الشِّعريِّ قَدْ قُدِّمَ على أنَّهُ «قَصِيدَةٌ مَنْثورَة»[6]، وَهَذَا يُوضِّحُ لَنَا قِمَّةَ التِبَاسِ الشَّكلَيْنِ المُتَجَاوِريْنِ، وَالجَامعيْنِ خَصَائِصَ الشِّعرِ، وَخَصَائِصِ النَّثرِ، على البَعْضِ، مَعَ أنَّ الفَارقَ بَيْنَهُمَا قَائِمٌ؛ وَيَتَمَثَّلُ في تَقَدُّمِ الخَصِيْصَةِ النَّوعيَّةِ الأسَاسِيَّةِ لِلنَّصِّ؛ سَوَاء كَانَتْ

خَاصيَّةُ النَّثرِ، في حَالَةِ النَّثرِ المَنْعوتِ بِالشِّـعرِ؛ النَّثر الشِّـعريِّ، أوْ تَقَدُّم خَاصِيَّـةِ الشِّـعرِ، في حَالَةِ الشِّـعرِ المَنْثُورِ، وَقَدْ اتَّسَـمَتْ تَجَـاربُ النَّثرِ الشِّـعريِّ ـ بِشَـكْلٍ عَام ـ بِالنُّزوعِ الرُّومَانسِيِّ الغِنَائِيِّ، وَدَلَّتْ ـ بِتَعَدُّدِ مُبْدعِيْهَـا ـ علـى أنَّها لَمْ تَكُنْ نِتَاجًا لِنزُوعٍ فَرْدِيٍّ أوْ مِزَاجٍ شَـخْصِيٍّ؛ بَلْ كَانَتْ تَوَجُّهَ مَرْحَلةٍ؛ مُنشَـقَّةٍ عن الاسْـتِحكَام الكلاسِـيكِيِّ الآلِيِّ، وَمَدْفُوعَةٍ إلى تَخْلِيْقِ مناخَاتٍ شَاعريَّةٍ حُرَّةٍ وَمُجَنَّحَةٍ بِأداءٍ غِنَائِيٍّ مُتَدفِّقٍ.

وَعلـى الرَّغـم مِـنْ أنَّ الشَّـاعريَّةَ كَانَتْ طريقًـا إلى الشِّـعريَّةِ، فَإنَّ التَّعامُـلَ مَعَ اللغَـةِ، لَمْ يَكُنْ وَاحِدًا، في مَشْـهَدِ النَّثرِ الشِّـعريِّ؛ فَبَيْنَمَا نَـرَى الرِّيحَانِيَّ ذَا لُغَةٍ بِهَا شَـيءٍ مِـنَ الجَزَالَةِ وَالرَّصانَـةِ وَالرَّنيْنِ الفَخِيْم وَالتَّأنُّـقِ اللفظِـيِّ؛ وَهِـيَ لُغَـة ذاتَ صِلَـةٍ عَميْقَـةٍ بِالحُضُورِ الصَّوتِـيِّ لِلغَةِ القُـرَآنِ وَالنَّثـرِ الفَنِّيِّ، نَجِدُ أنَّ لُغَةَ السَّـردِ أوْ الإنشَـاءِ عِنْـدَ جُبْرَان ذَاتَ وَشَـائِجَ قَويَّـةٍ بِطَبيعَـةِ الأداءِ الإبداعِـيِّ في أسْـفَارِ الكِتَـابِ المُقدَّسِ، بِعَاطِفيَّتِهَـا وَتَدَفُّقاتِهَـا وَتِكْرَاراتِها؛ وَلذَا تَنْزَعُ إلى الشِّـفَاهيَّةِ وَالتَّدفّقِ، وَهَذَا مَا سَـاعَدَ جُبْـرَان على مُزَاوَلَةِ التَّصويْرِ ـ وَهُوَ الرُّكنُ الأسَاسِـيُّ الَّـذي يَعْتَمدُ عليْهِ ـ مَعَ التَّنغِيْم، وَعلى طَريقَـةِ جُبْرَان افْتتنَ الكَثِيرونَ مِـنَ المُبْدِعيْـنَ، وَمِنْهُـمْ زُمَلاؤهُ فـي الرَّابِطَـةِ القَلَمِيَّةِ، وَمِـنْ خَارجهَا، وَمِمْـنْ افْتَتَـنَ بِآليَّاتِ جُبـرَان العَامةِ ـ مِنْ خَارج الرَّابِطَـةِ القَلَميَّةِ ـ: مَيُّ زيَـادَة، غيْرَ أنَّهَـا عَبَّرَتْ بِلُغَةٍ رَصِيْنَةٍ مُنْتخَبةٍ بِعِنَايَةٍ شَـديدَة، وَهِيَ لُغَةٌ ـ فـي مُعْظَمِهَـا ـ ذَاتَ صِلَةٍ كَبيْرَةٍ بِالمَوْرُوثِ الأدَبيِّ العَتِيْقِ، دُونَ أنْ يُؤثِّرَ ذَلكَ على شَفَافيَّةِ الأسْلُوب؛ حَيْثُ تَصْطَبِغُ اللغَةُ بِأجْوَاءِ الذَّاتِ المُبْدعَةِ، وَهُوَ مَا نَجِدُهُ كَذَلكَ في النَّثرِ الشِّعريِّ لإيليَّا أبِي مَاضِي؛ حَيْثُ احْتَفَظَ بِشَـيءٍ مِنَ الرَّصانَـةِ وَالرَّنينِ وَجَزَالَةِ التَّعبيْرِ؛ نَظَرًا لِنَشْـأتِهِ بِمِصْرَ؛ الَّتي

كَانَـتْ تَشْـهَدُ حَرَكَةَ إحْيَاءٍ قَوِيَّةٍ حِينَئذٍ[7]، غَيْـرَ أنَّ جُمْلَتَهُ ـ بِصوَرِهَا وَتَرَاكِيبِهَـا وَرَنِيْنِهَا التَّاريخِيِّ ـ كَانَتْ مُطَوَّعَةً تَطْويعًا شِـعْريًّا وَاضِحًا «لِشَاعريَّتِه، وَلِمَيْلِهِ إلى أنْ يَسْتَخْرجَ بالأنْغَامِ مَا يَجُولُ في نَفْسِهِ مِنْ انْفِعَالٍ قـويٍّ[8]، أمَّا نُعَيْمَه فقَدْ تعَامَلَ مَعَ اللغَةِ بِالرَّهَافَةِ الجُبْرَانيَّةِ ذَاتِهَا، غَيْرَأنَّ تفلْسُفَهُ ـ أحْيَانًا عَديدَةً ـ كَانَ يَقِفُ عَثَرَةً، أمَامَ تَدَفُّقِ شَاعريَّةِ نَصِّه، وَيُخْرجُهُ مِنْ حَرَارتِهِ العَاطِفيَّةِ إلى دَوَائِرِ التَّأمُلِ، الأمْرُ ذَاتُهُ يُلاحَظُ على النَّثْـرِ الشِّـعريِّ لَدَى مُصْطفى صَـادق الرَّافِعيِّ؛ حَيْنَ يُحَاولُ التَّفلْسُـفَ، ويُقـدِّمُ الأدَاءَ اللغَويَّ على تيَّارِ الوِجْدَانِ، وَتَبْدُو المُفَارَقَةُ مِنْ جَزالَةِ اللغَةِ المَصْنُوعَةِ، حَتَّى في أشَـدِّ التَّجَاربِ وِجْدَانيَّةً وَرَهَافَةً، وَفي الوَقتِ الَّذي شَـدَّدَ فيْـهِ التَّيَّارُ الجُبْرَانِيُّ علـى التَّخَفُّفِ مِنَ الصَّنَاعَـةِ اللغَويَّةِ، وَتَقْديْم التَّدفُّـقِ الوجْدَانِيِّ الحُرِّ، في خِطَابٍ يتَوَاشَـجُ فيْهِ المَنْظُورُ الرُّومَانسِـيُّ وَالأدَاءُ الرُّومَانسِـيُّ، وَشَـاعريَّةُ الرُّؤى، وَالتَّهويْمَاتُ العَاطِفيَّةُ المُجَنَّحَةُ؛ تَمَثُّـلاً لِشِـعْريَّةِ تَرْجَمَاتِ الكِتَـابِ المُقدَّسِ، وَقَدْ بَـرَزَ الحُضُورُ اللغَويُّ التَّاريخِـيُّ جَديْدًا في المَشْـهَدِ المِصْـريِّ، عَبْرَ تجربتيْـنِ مَرْكَزيَّتيْنِ، بأداءيْـنِ مختلِفَيْـنِ؛ هُمَـا تجربَةُ مصطفـى لطفي المنفلوطـي، وتجربَةُ مصطفـى صـادق الرَّافعـي، وفـي الأُوْلَـى بَـرَزَتْ عَاطفيَّـةُ الأدَاءِ؛ عَبْـرَ تَشْـكيلاتٍ لُغَويَّـةٍ وَمُوسِـيقيَّةٍ وَتَصْويريَّةٍ، في خطاب ينـزع إلى التَّدفُّقِ الوِجْدَانـيِّ الرُّومَانسِـيِّ، وَالتَّوَازيَـاتِ الدَّلاليَّةِ وَالإيقاعيَّـة، بَيْنَمَا نَزَعَتْ تَجْربَـةُ مُصْطَفـى صَـادق الرَّافِعـي إلى التَّشْـديدِ على الحُضُـورِ اللغَويِّ التُّرَاثـيِّ؛ الَّـذي كَانَ يَعْلُـو علـى الحُضُـورِ الوجْدَانـيِّ أوْ يُغَلِّفُـهُ أحْيَانًا؛ فَقَـدْ أوْلَـى اللغَةَ عِنَايَةً كُبْـرَى بِاعْتِبَارهَا مَادةً مُقدَّسَـةً في حَـدِّ ذاتِهَا، وَتَعَامَل مَعَهَا بِوَعْيٍ كِلاسِـيْكيٍّ رَصِيْنٍ؛ فَجَاءَتْ لُغَتُهُ المُنْتَقَّاة، مُحَمَّلَةً

بِتَرَاكُمَاتِهَا التَّارِيخيَّةِ وَوَسَائِلِهَا البَلاغيَّةِ؛ الَّتي لَمْ تَتَجَاوزْ ـ في كَثيْرٍ ـ عَطَاءاتِهَا الدِّلاليَّةَ السَّابِقَةَ، وَالوَاقِعُ أنَّ أدَاءَهُ اللغَويَّ قَدْ وَقَفَ ـ في كثيْرٍ ـ حِجَابًا أمَامَ تَوقُّدِ الأجْوَاءِ الشُّعوريَّةِ، وتَدَفُّقَاتِهَا وَتَحَوُّلاتِهَا المَوَّارَةِ، وَعلى الرَّغْمِ مِنْ أنَّ شَكلَ النَّثرِ الشِّعريَّ كَان وَليْدَ الانْبِعَاثَةِ الرُّومَانسيَّةِ، في مَشْهَدِ الأدَبِ العَرَبِيِّ، وَفَاتِحَةً لِحَدَاثَةِ الخِطَابِ الأدَبيِّ، فَقَدْ حَاولَ الرَّافِعيُّ وَصْلَهُ بِمَاضِي الصِّنَاعَةِ الفَنِّيَّةِ في النَّثْرِ العَرَبيِّ.

وَالسِّمةُ الأسَاسِيَّةُ العَامةُ في مُنْجَزِ النَّثرِ الشِّعْريِّ هِيَ التَّشديْدُ على التَّدفُّقِ الوجْدَانِيِّ الرُّومَانسِيِّ، في نَقَاوةٍ لُغَويَّةٍ، وَإيْقَاعٍ بَاطِنيٍّ خَافِتٍ يَنْزَعُ إلى الانْتِظَامِ، وَأدَاءٍ لُغَويٍّ يَتَخَفَّفُ ـ في مُعْظَمِهِ ـ مِنْ هَيْمَنَةِ الصِّنَاعَةِ الأدبيَّةِ التُّراثيَّةِ، وَيَتَنَوَّعُ مَعَ التَّدفُّقِ الوجْدَانِيِّ، وَتَتَبَدَّى فيْهِ كَثَافةُ التَّعبيْرِ، وَجُنُوحٌ إلى أنْسَنَةِ الطَّبيعَةِ وَأسْطرتِهَا، وَرَمْزيَّةٌ شَفيْفَةٌ، وَهَوَ مَا تَكْشِفُ عَنْهُ تَجَليَّاتُ النَّثرِ الشِّعريِّ التَّاليَةِ:

مَلامِحُ مِنَ النَّثرِ الشِّعريِّ

تَتَجلَّى مَلامِحُ شِعريَّةُ النَّثرِ الشِّعريِّ ـ بِوُضُوحٍ ـ بِمُعَاينَةِ بَعْضِ تَجَارِبِهِ البَارزَةِ، في مَشْهَدِهِ الإبْدَاعِيِّ، وَمِنْهَا هذَا المَقْطَعُ، مِنْ مُنَاجَاةِ أمين الرِّيحَانِي[9] (1876 ـ 1940)، لأرْزِ لُبْنَان:

«رَفعْتُ حَجَرًا مِنْ حِجَارَةِ الطَّريقِ إلى فمي، فَقَبَّلْتُهُ وَرِعًا حامِدًا آملاً، قبلَ أنْ دَخَلتْ الظِّلالُ القُدسيَّةُ.

«وَاسْتَغْفَرْتُ الأرْزَ لامْتَهَانِي حُرْمَةَ عُزلتهِ، هَذِهِ العُزْلةِ الفَريْدَةِ في أعَالي الجبَالِ فَوْقَ وَكْرِ النُّسورِ، وَرَاءَ حُجُبِ الآفاقِ.

اسْتَغْفَرْتُ الأرْزَ لأنِّي جئْتُ أشُقُّ أستَارَ كعْبَتِهِ، جئْتُ

أسْتَكْشِفُ مَكنُونَ سِرِّهِ

«إيْه رَبَّةَ الأشْـجار، وَسَـيِّدةَ الجَبَلِ، أنْـتِ الرَّافعةُ أعْلامَكِ الخَضْـرَاءَ، بيْنَ هَذهِ الصُّخورِ الدَّكناءِ، بِنْتُ الجَديْدَيْنِ، وَأخْتُ القَمَرَيْنِ، حَدِّثيْنـي، حَدِّثيْنـي، وَعَلِّميْنـي وَارْفَعي بي إلـى عَليَاءِ إيْمَانكِ.

«قَدْ جِئتُكِ مُسْـتَعلِمًا، مُسْـترفِعًا، مُسْـتمِدًّا مِـنْ ينبوعكِ العَالـي القُوَّةَ وَالحِكْمَةَ.»[١٠]

وَمِنْهَا هَذَا النَّصُّ، لِجُبْرَان خَليْل جُبْرَان[11] (1883 _ 1931):

«هُناكَ في وَسَـطِ الحقـلِ على ضَفَّةِ جَدْولٍ بلّـوريٍّ، رَأيْتُ قفصًا حَبَكَتْ ضُلوعَهُ يدٌ مَاهرَةٌ، في إحْدى زَوايَا القَفَصِ عُصْفـورٌ مَيِّـتٌ، وَفي زَاويةٍ أخْـرَى جُرْنٌ جَفَّ مَـاؤُه وَجُرْنٌ نَفَدَتْ بُذُورُه. فَوَقَفْتُ وَقَدْ امْتلَكتْنـي السَّكيْنَةُ، وَأصْغَيْتُ صَاغِـرًا، كَأنَّ في الطَّائـرِ المَيِّتِ وَصَـوْتِ الجَدْولِ عِظَةٌ تَسْـتَنْطقُ الضَّميْـرَ وَتَسْتَفْسِـرُ القلـبَ، وَتَأمَّلـتُ، فَعَلْمتُ أنَّ ذلـكَ العُصْفـورَ الحَقيْـرَ قَـدْ صَـارَعَ المَـوْتَ عَطَشًـا، وَهُـوَ بجانبِ مَجَـاري المِياهِ، وَغَالَبَهُ جُوعٌ، وَهُوَ في وَسَـطِ الحُقـولِ، الَّتي هِيَ مَهْدُ الحَيَـاةِ كَغنيٍّ أقْفلَتْ عليْهِ أبْوَابُ خَزَائنِـهِ، فَمَـاتَ جُوعًـا بَيْـنَ الذَّهـبِ، وَبَعْدَ هُنَيْهَـةٍ رَأيتُ القَفَـصَ قَدْ انْقلَبَ فَجْأةً، وَصَارَ هَيْكلَ إنْسَـانٍ شَـفَّافًا، وَتَحَـوَّلَ الطَّائـرُ المَيِّتُ إلى قلْبٍ بَشَـريٍّ، فيْهِ جُـرْحٌ عَميْقٌ يقْطُـرُ دَمًا قُرْمزيًّـا، وَقَدْ حَاكَتْ جَوَانبُ الجُرْحِ، شَـفَتَيْ امْرَأةٍ حَزيْنَةٍ.»[١٢]

وَمِنْهَا هَذَا المَقْطعُ، مِنْ نَصٍّ: «مُسَاجَلَةِ الرِّمَالِ»، لِمَيِّ زِيَادَة[13] (1886 _ 1941):

« _ الظَّلامُ يُولِّي هَارِبًا، وَعَمُودُ الفَجْرِ يَكَادُ يَنْشَقُّ، عَمَّا قليلٍ تُشْرِقُ الشَّمسُ، فَلا يَلبَثُ قُرْصُهَا أنْ يَنْقلِبَ أتُونًا يُصْلِيْنَا نَارَ السَّعيْرِ.

« _ سِيَّانِ لدَيْنَا الليلُ وَالنَّهَارُ، كُلّ يوم نَنْتَظِرُ مِنَ الظَّلامِ عُذوبةً تَحْتَ أنْوارِ الكَواكِبِ الوَاهيَةِ، وَلَكِنَّ حَرَارَةَ الشَّمْسِ تَظلُّ مُسْتَوْدَعةً فِي كيانِنا فَنَلْبَثُ فِي اتّقادٍ وَاضطرَامٍ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَلَيْلةً بَعْدَ ليْلةٍ.

« _ إنَّمَا جعَلَتْنَا الأقْدَارُ مُتَحاذيَاتٍ مُتَلاصِقَاتٍ؛ لِنَفْرِشَ هَذِهِ الأرْضَ، وَتكوِّنَ مِنْهَا الصَّدأةَ المُحْتَرِقَةَ، يَتَّهِمُونَنَا بأنَّ لَمْسَنَا يَشْوي اليَدَ وَالقَدَمَ شَيَّا، وَلكِنْ ألَسْنَا نُعانِي فِي كيانِنَا المَقْدُورِ عَلَيْنَا مِنْ عَذابِ السَّعيْرِ؟، وَدِدْتُ لَوْ أنَّ لي دَمْعًا أذْرِفُهُ مِنْ فرْطِ السَّآمَةِ وَالحَنَقِ وَالألَمِ!.

« _ طَالَمَا شَهِدْنَا الخَلائقَ تَهْبطُ عليْنَا، وَقَدْ أضْنَاهَا التَّعبُ وَالوَصَبُ؛ فَنَفَقَ الحَيَوانُ علَى صَدْرِنَا، وَمَاتَ الإنْسَانُ بَيْنَ يَدينا، وَوَجَدَ كلٌّ مِنْهُمَا عِنْدَنا مَلْجأً طبيعيًّا يتلقَاهُمَا وَيَضُمُّهُمَا إليْهِ، وَنَحْنُ الجَائعَاتُ الظَّامِئَاتُ المُتْعَبَاتُ على الدَّوَامِ، لَيْسَ لنَا مَنْ يَرْثِي لحَالنَا وَيَسْمَعُنَا، نحنُ التَّائقاتُ إلى التَّفلُّتِ مِنْ حَالتِنَا الرَّاهِنَة، لَيْسَ لنَا أنْ نَمْضِي في علومِنَا وَنَهْبطُ في مُسْتَقرٍّ غَيْرِ هَذا، وَأتْعَبَنِي مِنْ هَذا الوجودِ القاحِلِ في دَيْمُومَةِ السُّكوتِ وَالجُمُودِ!.

«ـ كَـمْ مِنْ حَرَكةٍ مُفَاجِئَةٍ خَبـرْتُ، عنْدَمَا عَصفَتْ بيَ السَّـمُومُ فـي النَّهـارِ، أوْ الحَرَورُ فـي الليْلِ، زَعَـازِعُ وَأنْوَاءٌ انْتَزَعَتْنـي في عُنْفٍ من مَقرِّي، إلـى مَقرٍّ آخرٍ؛ فمَا كُنْتُ مُنْتَقلَـةً إلاَّ مِـنْ الرَّمضَـاءِ إلى حَيْثُ السَّـعيْرِ دَائـمٌ وَالأُوَارُ مُقِيمٌ.»(١٤)

وَمِنْهَـا هَـذَا المَقْطَعُ مِـنْ نَصٍّ: «في العَاصِفَـةِ»، لِمِيخائِيْـل نُعَيْمَه[15] (1889 _ 1988):

«يَا اللّهُ!

أمْسِ جَاءَنـي رَسُولُكَ نيْسَانُ وَعَلَى حِقْوَيْهِ مَنْطقةٌ مِنْ شَقائقِ النُّعمَـانِ وَالأُقْحُـوانِ، وَعَلـى رَأسْـهِ إكْليلٌ مِنَ النِّسـرِيْنِ وَالـوَزَالِ، وَقَدْ لَـفَّ ذرَاعيْهِ بالوَرْدِ وَاليَاسَـمِيْنِ وَالرَّيحَانِ، وَسَـاقيْهِ بِالأرْزِ وَالسِّروِ وَالسِّنديانِ. وَكَانَ جَبيْنُهُ سَمَاوَاتٌ صَافيَةٌ زُرْقًا، وَفي عيْنيْه شُمُوسٌ وَكَوَاكبُ وَأقْمَارٌ، وَفي فيْهِ بَلابلُ وَحَسَاسِـيْنُ وَشَـحَاريْرُ وَهَمْهَمَاتُ مِيَاهٍ كثيْرةٍ، وَعلَى صَدْرِهِ بُحَيْرَاتٌ وَمُرُوجٌ، وَفي رَاحَتيْهِ جَواهِرُ لا تَـزَالُ مُغَلَّفَـةً بالأسْـرَارِ، وَعَجَائـبُ مَـا بَرحَـتْ فـي الأكْمَـامِ، وَقدْ تَدَلَّـتْ مِنْ أطْرَافِ بَنَانِـهِ عُقُودٌ مِنَ الآمَالِ الخُضْرِ تُدَغْدغُهَا وَشْوَشَـاتُ نَسَمَاتٍ بليْلاتٍ. فمَا إنْ وطئَ عَتبَـةَ دَاري حَتَّى أعْشَـبَتْ عَرَصَاتُهَا وَاخْضَلَّـتْ، وَكَانَتْ قبْلُ جُرْدًا وَيابسَـةً. وَمَـا إنْ اجْتَازَ العَتَبَةَ إلـى الدَّاخلِ حَتَّى أشْرَقتْ دَارِي وَكَانَتْ عَابسَةً، وَرَقصَتْ حجَارَتُهَا وَكَانَتْ جَامِدةً، وَعبقَتْ بالطِّيبِ وَكَانَتْ مَعْفُونَةً. وَمَا إنْ صَافحْتُهُ

حَتَّى مَاعَ قلبي في دَاخِلي نِعْمَةً وَحُبُورًا.

«لَقَدْ وَدِدْتُ لَوْ يُقِيْمُ الرَّسُولُ عِنْدي إلى الأبَدِ، لكنَّه كَانَ على سَفَرٍ، فَمَا كَادَ يُسَلِّمُ حَتَّى رَاحَ يُودِّعُ. وَإذْ وَدَّعَني نَاوَلَني كَأسًا مِنَ المَاءِ الزُّلالِ وَقالَ: اشْرَبْهَا؛ ففي شُرْبِهَا الرِّيُّ كُلُّه.

وَانْصَرَفَ.

وَحيْنَمَا رَفَعْتُ الكَأسَ إلى شَفَتَيَّ ألْفَيْتُهَا مِلْحَةً كالدُّمُوعِ. فَوَضَعتُهَا جَانِبًا، وَسَألْتُكَ بِحُرْقَةِ العِطَاشِ وَحيْرَةِ التَّائهيْنَ: «دُمُوعُ مَنْ في الكَأسِ يَا اللّهُ؟»

«فَمَا أعْطَيْتَني جَوَابًا.»[١٦]

وَمِنْهَا هَذَا النَّصُّ، بِعُنوان: «لِمَاذَا تَذْهَبيْنَ إلى المَصِيْفِ»، لإيليَّا أبي مَاضِي[17] (1891 _ 1957):

«إذَا خَرَجْتِ مِنَ المَدينَةِ فانْفضِي غُبَارَهَا عَنْ حِذائكِ، وَأطلقِي رُوحَكِ مِنْ سَلاسِلِ التَّصَنُّعِ وَالرِّيَاءِ وَالتَّكَلُّفِ فيْهَا، سَلاسِلِ المُجْتَمَعِ المَغْلوبِ على أمْرِه، المَأخُوذِ بِسِحْرِهِ المُدمنِ الشُّرب؛ لئلَّا يَصْحوَ مِنْ سُكْرِه.. وَإذَا صِرْتِ في الخَلاءِ الحُرِّ تَحْتَ السَّمَاءِ الضَّاحِكَةِ، فاسْتَقبلِي الهَوَاءَ وَالنُّورَ بملْءِ صَدْرِكِ، وَبكُلِّ جَوارِحكِ، وَلا تَخَافي أنْ تَسْتَوْهِبي الطَّبيعَةَ الكثيْرَ مِنْهَا؛ فلَيْسَ أحَبُّ إلى الطَّبيعَةِ مِنَ العَطَاءِ.

«عَرِّضِي وَجْهَكِ لِلشَّمسِ تَسْكُبُ عليْهِ ذَوْبًا سِحْرِيًا.

«وَافْتَحي رِئَتيْكِ في الخَلاءِ الفَسِيْح تَمْتَلِئَا هَوَاءً نَقيًّا.

«وَامْشِ بَيْنَ الأعْشَابِ البَلِيْلَةِ وَالأَزْهَارِ الجَميْلَةِ؛ فتَفيْض على أثْوَابِكِ وَفي نَفْسِكِ عِطْرًا زَكيًّا.

«وَاصْغِي إلى هَمْسِ الجَدَاوِلِ وَخَريْرِ السَّواقي؛ تَسْمَعِي وَحْيًا عُلويًّا

«وَلا تُهمِلِي الإصْغَاءَ إلى شَدْوِ الطُّيورِ عِنْدَ الأصِيْلِ، وَزُزْقَةِ العَصَافيْرِ عِنْدَ الفَجْرِ، فإنَّ لِلطُّيورِ لُغَةً كُلّها شِعْرٌ وَكُلّها سِحْرٌ.»[١٨]

وَمِنْهَا هَذَا النَّصُّ ـ في وَصْفِ الصَّبَاحِ ـ لِنَسِيْب عُرَيْضَة[19] (1887 ـ 1946):

«سَبَحَتْ خَيَالاتُ الصَّبَاحِ في أوقيانُوسِ الجَوِّ، وَمَدَّتْ الشَّمْسُ يَدَيْهَا بِآلافٍ مِنَ الأشِعَّةِ لِعِنَاقِ جِسْمِ الأرْضِ، فتَمَوَّجَتْ لُجَجُ الأثيْرِ بَيْنَ مَدِّ الألوَانِ وَجَزْرِهَا، وَبَكَتْ الأرْضُ شَغَفًا وَسَعَادَةً لِلقَاءِ الشَّمْسِ، فتَلألأتْ دُمُوعُهَا نُقَطًا ألمَاسِيَّةً مِنْ النَّدَى المُسْتلقيَّةِ على أرَاجيْحِ الأوْرَاقِ وَالبَرَاعِمِ، وَبَسَطتْ الظِّلالُ طنَافسَهَا المخْمَليَّةَ تَحْتَ أرْوِقَةِ الأشْجَارِ، وَهَبَّ النَّسِيْمُ عَليْهَا مُتدفِّقًا آتيًا بِسُرْعةٍ مِنْ الغَرْبِ كسَاعي بريدٍ مُسْتَعْجلٍ؛ فأبْلغَ رَسَائلَهُ العِطرِيَّةَ المُرْسَلةَ مِنَ القمَمِ إلى السَّهلِ؛ فَطَيَّبَ بأرِيْجهَا الآفَاقَ. فلمَّا تَنَشَّقتْ البَلابلُ رَائِحتَهَا نَاغتْ وَسَبَّحتْ بأصْوَاتهَا؛ فهَزَّتْ أشْجَارَ الحُورِ رُءوسَهَا بعَظمَةٍ وَسَمَعَتُ في حَفيْفهَا أنَّاتِ

طَـرَبٍ وَحَنيْنٍ، كَأَنَّ في أُصُولهَـا تَحْتَ الثَّرى رُوحٌ طَرَوبٌ وَلوعٌ بالغِنَاءِ يَصْرُخُ مُسْـتَعيدًا النَّشيدَ، وَيَسْتَحلفُ الشَّادي ألاَّ يَكُفَّ.»[٢٠]

ومِنْهَـا هـذا النَّصُّ لمُحمَّـد تيمـور[21] (1892 _ 1921) بعنوان: «متى أنسَاهَا»:

« هـَي معـي فـي كلِّ مـكانٍ، فـي كلِّ جزءٍ مـن أجزاءِ فكـري المُلتهبِ، في كلِّ ذرَّةٍ مـن ذرَّاتِ قلبي المُمَزَّقِ، في كلِّ نهرٍ منْ أنهارِ دمعي المُرسَلِ، ما زلتُ أرَاها تعدو خلفِي وقد سَاقها القَدَرُ المَحتومُ، ما زلتُ أشعرُ بذراعيْهَا تطـوِّقُ عنقِـي، وبقُبَلها تُحْـرِقُ جِلْدِي، وبأنفاسِـهَا الحارَّةِ تُوقظُ في القلبِ شيطانَ الحبِّ الرَّجيم.

هـَي معـي فـي كلِّ مـكانٍ، أرَاهـا فـي الليلِ وقـد رانَ الكَرَى على جفونِي، فأقومُ من الفراشِ مذعورًا، وأراها فـي الفجرِ وقـد تفتَّحتْ عيـونُ الكائناتِ لقـدومِ الضِّياءِ فأرجـعُ لبيتِـي مقهـورًا، وأرَاها فـي الصِّباحِ تتبختـرُ بينَ أشـعَّةِ الشَّـمسِ الزَّاهرةِ فأُحسُّ بحرارةِ الوَجْدِ تتمشَّى في أنحائِي، وبشظايا الهَجْرِ تلتهبُ في أحشائِي.

هـَي معي في كلِّ مكانٍ، أشـمُّ أرجَها مع نسيمِ السَّحرِ، وأسـمعُ صوتَها مع أناشـيدِ الطُّيـورِ الصَّادحـةِ على أفنانِ الشَّـجرِ، وأرى وجهَهَـا في صفحـةِ الجدولِ العـذْبِ الذي ينقـعُ الظَّمآن منـه غُلَّتَه، وفي مرآةِ السَّـماءِ الصَّافيةِ التي ينبعثُ منها للشَّاعرِ وحيُ الشِّعرِ تُكَلِّلُ رأسَه زهورُ الأبديَّة.

هـيَ معـي في كلِّ مكانٍ، إنْ طِرْتُ فـي الجوِّ رأيتُها بين طيَّاتِ ضبابِهِ الأسـودِ، وإنْ غصتُ في جوْفِ الماءِ لاقيتُها فـي قاعِـهِ العميـقِ، وإنْ تبخَّـرتُ فـي الهواءِ استنشـقتْني لأسـمعَ دقَّـات قلبِهـا الخئـونِ، وإنْ سـكنتُ القبـورَ أتتْ لتضعَ أشواكَ اليأسِ على قممِ القبورِ.»[٢٢]

وَمِنْهَـا هَـذَا المُجْتَـزَءُ، لِمُصْطَفـى لُطْفِـي المَنْفلُوطِـي[23] (1872 ـ 1924)، مِنْ نَصٍّ بِعُنْوَانِ: «أرْبَعُون»:

«سَـلامٌ عليـكَ أيُّهَا المَاضِـي الجَميلِ، لقَدْ كُنْـتَ ميدانًا فسـيحًا للآمَـالِ وَالأحْـلامِ، وَكُنَّـا نَطيـرُ فـي أجْوائِـكَ البديعَةِ الطَّلقةِ غَادِيْنَ رَائحِيْنَ طيَرَانَ الحَمَائِمِ البَيْضَاءِ في آفَاقِ السَّـمَاءِ، لا نشـكُو وَلا نَتَأَلَّمُ وَلا نَضْجَرُ وَلا نَسْـأَمُ؛ بَـلْ نَعتقدُ أنَّ في العَالَمِ هُمُومًا وَآلامًا، وَكـانَ كُلُّ شَـيءٍ فـي نَظَرِنَا؛ جَميْلاً حَتَّى الحَاجَةَ وَالفَاقـةَ، وَاحْتِمَالَ أعْبَاءِ الحَيَـاةِ وَأَثْقالِهَا، كَانَ كُلُّ مَنْظَـرٍ مِنْ مَنَاظرِكَ قَدْ لَبِسَ ثوْبًا قشيبًا مِنْ نَسِيجِ الزَّهْرِ الأبْيَضِ؛ فَأَصْبَحَ فِتْنَةَ الأنْظارِ، وَشَرَكَ الألبَابِ!

وَكَانَ يُخيَّـلُ إلينَا أنَّ الـزَّورَقَ الجَميْلَ الَّذي يَنْحَدرُ بنَا في بُحيرتِـكَ الصَّافيَـةِ الرَّائقَـةِ سَيَسْـتَمرُّ في طَرِيْقِـهِ مُطَّرِدًا مُنْدفِعًـا لا يَعْتَرِضُـهُ مُعْتَـرِضٌ، وَلا يَلْـوِي بـهِ عَـنْ طَرِيْقِـهِ لاوٍ، إلى مَالا نِهَايَةَ لاطِّرَادِهِ وَتَدَفُّعِهِ.

وَكَانَ كُلُّ مَـا نُعَالِجُ فيْكَ مِنْ آلامٍ وَهُمُومٍ، أنْ يَكونَ لَنَا مَأرَبَانِ مِنْ مَآرِبِ الحَيَـاةِ؛ فَنَظْفَرُ بِأَحَدِهِمَا وَيَفُوتُنَا الآخَرُ

أَوْ غَرَضَانِ مِنْ أَغْرَاضِهِمَا؛ فَنَصِلُ إِلى القَرِيْبِ، وَنَبِيْتُ دُونَ البَعِيْدِ.

«سَلامٌ عَلَيكَ أَيُّهَا الشَّبَابُ الذَّاهِبُ، سَلامٌ على دَوْحَتِكَ الفَيْنَانَةِ الغَنَّاءِ؛ الَّتي كُنَّا نَمْرَحُ في ظِلالِهَا، مَرَحَ الظِّبَاءِ العُفْرِ في رَمْلَتِهَا الوَعْثَاءِ، نَنْظُرُ إِلى السَّمَاءِ فَيُخَيَّلُ إِلينَا أَنَّهَا مَفْدَى وَمَرَاحٌ لنَا، وَإِلى الآفَاقِ البَعِيْدَةِ فَيُخَيَّلُ إِلينَا أَنَّهَا مَجْرَى سَوَابِقِنَا وَمَجَرُّ رِمَاحِنَا، فَكَانَ العَالَمُ كُلُّهُ مَمْلَكَتَنَا الوَاسِعَةَ العَظِيْمَةَ الَّتي نُسَيْطِرُ عَلَيْهَا وَنَتَصَرَّفُ في أَيِّ أَقْطَارِهَا شِئْنَا.

«أَبْكِيْكَ لأَنِّي كُنْتُ أَرَى في سَمَائِكَ نَجْمَ الأَمَلِ لامِعًا مُتَلأْلِئًا يُؤْنِسُنِي مَنْظَرُهُ وَيُطْرِبُنِي لأْلاؤُهُ، وَيَنْفَذُ إِلى أَعْمَاقِ قلبي شُعَاعُه المُتَوَهِّجُ المُلْتَهِبُ، فَلَمَّا ذَهَبْتَ ذَهَبَ بِذَهَابِكَ؛ فَأَصْبَحَ مَنْظَرُ تلكَ السَّمَاءِ مَنْظَرَ فلاةٍ مُوْحِشَةٍ مُظْلِمَةٍ لا يُضِيئُهَا كَوْكَبٌ وَلا يَلْمَعُ فِيْهَا شُعَاعٌ.»(٢٤)

وَمِنْهَا هَذَا المُجْتَزَءُ، لِمُصْطَفى صَادِق الرَّافِعِيِّ (1880- 1937)، مِنْ نَصٍّ بعُنْوَان: «زُجَاجَة العِطْر»:

«يَا زُجَاجَةَ العِطْرِ اذْهَبِي إِلَيْهَا، وَتَعَطَّرِي بِمَسِّ يَدَيْهَا وَكُونِي رِسَالَةَ قلبي لَدَيْهَا وَهَا أَنَذَا أَنْثُرُ القُبُلاتِ على جَوانِبِكِ؛ فَمَتَى لَمَسَتْكِ فَضَعِي قُبْلَتي على بَنَانِهَا، وَأَلقِيْهَا خَفِيَّةً ظَاهِرَةً؛ في مِثْلِ حُنُوِّ نَظْرَتِهَا وَحَنَانِهَا، و أَلْمِسِيْهَا مِنْ تلكَ القُبلاتِ مَعَانيَ أَفْرَاحِهَا في قلبي وَمَعَانيَ أَشْجَانِهَا. وَهَأَنَذَا أُصَافِحُكِ؛ فَمَتَى أَخَذَتْكِ في يَدِهَا فَكُونِي لَمْسَةَ

الأشْـوَاقِ، وَهَـأنَذَا أضُمُّكِ إلى قلبي؛ فَمَتَى فتَحتْكِ فانْثُري عليْهَا في مَعَانـيَ العِطْرِ لَمَسَاتِ العِنَاقِ.

إنَّهـا الحَبيْبَـةُ يَـا زُجَاجَـة العِطْرِ؛ وَمَـا أنْتِ كَسِـوَاكِ مِنْ كُلِّ زُجَاجَـةٍ مُلِئَـتْ سَـائلاً، وَلا هِـيَ كَسِـوَاهَا مِنْ كُلِّ امْـرَأةٍ مُلِئَتْ حُسْـنًا؛ وَكَمَـا افْتَنَّتْ الصِّنَاعَةُ فـي إبْداعكِ وَاسْتِخْرَاجِكِ افْتَنَّتْ الحَيَاةُ في جَمَالِهَا وَفِتْنَتِهَا.

وَأنْتِ سَبيْكَـةُ عِطْرٍ، كُلُّ مَوْضِعٍ مِنْكِ يَأرَجُ وَيَتَوَهَّجُ؛ وَهِـيَ سَبيْكَـةُ جَمَالٍ، كُلُّ مَوْضِعٍ فيْهَا يَسْتَبي وَيَتَصَبَّى!.

وَمَـا ظَهَرَتْ مَعَانيْكِ إلاَّ أفْعَمَتْ الهَوَاءَ مِنْ حَوْلكِ بالشَّـذَا، وَلا ظَهَرَتْ مَعَانيْهَا إلاَّ أفْعَمَتْ القُلُوبَ مِنْ حَوْلِهَا بالحُبّ.

وَكِلتَاكُمَـا لا تَمَـسُّ أحَـدٌ مِنْهَا مَسَّـةً إلاَّ تلبَّـسَ بهَا؛ فلا يَسْتَطيْعُ أنْ يَخلُصَ مِنْهَا وَلا يَسْتَوي لَهُ أنْ يَخْلُصَ مِنْهَا.

قُولـي لَهـا يَا زُجَاجَةَ العِطْـرِ، إنَّكِ خَرَجْتِ مِـنْ أزْهَارٍ؛ كَأنَّهَا شُـعَلٌ نَباتيَّـةٌ، وَكَانَـتْ فـي الرِّيَاضِ علـى فُرُوعِهَـا؛ كَأنَّمَا تَجَسَّـمَتْ مِنْ أشِعَّةِ الشَّـمْسِ وَالقَمَرِ، فلَمَّا ابْتَعْتُكِ وَصِرْتِ في يَدِي، خَرَجَتِ مِنْ شُعَلغَرَاميَّةٍ، وَأصَبَحتِ كَأنَّمَا تَجَسَّمَتِ مِنْ أشْوَاقي وَتَحيَّاتي وَلَمَسَاتِ فكْري؛ وَلذَلكَ أهْدَيْتُكِ..»[٢٥]

وَمِنْهَا هَذَا النَّصُّ، لإبرَاهيم عبد القَادر المَازنيِّ[26] (1890 ـ 1949):

«رَقدْتُ على الرِّمَالِ وَجَعَلْتُ عينَيَّ قيْدَ هَذه السَّمَاءِ المَجْلوَّةِ الَّتي لا تَعْرفُ فَنَّ الإمْطَـارِ، وَكَانَ القَمَرُ طَالعًا، وَلكنَّهُ باهِـتٌ كَابي الضَّوْءِ، كَالذِّكْـرى، يُغْري بالوُجُوم، وَلا

يُشـيْعُ في النَّفـسِ حَرارَةً، وَهُنَا فوْقـي عُصَيْفيْرٌ حَطَّ على صَخْرَةٍ.. هُنَاكَ!

هُنـاكَ حَيْـثُ لَمْ أكُـنْ أجْلسُ وَحْـدِي!، وَانْطَلـقَ يُغَرِّدُ. آهٍ لَـوْ عَلِمْـتَ عُصَيْفيـرِي أنَّ صَوْتَـكَ كَانَ يَكُـونُ أصْفَى، وَتَغْرِيْدُكَ أحْلَى وَأشْـجَى.. وَلكِـنَّ عَيْنَهَا لَنْ تُفْتَح على هَذِهِ السَّماءِ، وَسَمْعَهَا لَنْ يَرُدَّهُ هَذَا الغِنَاءُ.»[٢٧]

إنَّ هَذِهِ النُّصوصَ تَكْشِـفُ، بِوُضُوحٍ، عَنْ تَدَاخُلاتِ آليَّاتِ الشِّـعرِ، فـي خِطَـابِ النَّثرِ الشِّـعريِّ، تَدَاخُـلاتٍ عَمِيْقـةً؛ تَتَمَثَّلُ في التَّوسُّـعِ في التَّسَـاؤُلِ الوجْدَانـيِّ، وَشَـاعريَّةِ الحَالَـةِ، وَالغِنَائيَّـاتِ الاسْـتبطانيَّةِ، وَشَـاعريَّةِ الحَالَـةِ، وَالجنوحِ إلى التَّصويْرِ، وتخييليَّةِ السَّـردِ الشِّـعريِّ، وَالبُنَـى المَجَازيَّةِ، وَتَكْثيْفِ اللغَةِ، كَما تَكْشِـفُ عَنْ حَالاتٍ شِـعريَّةٍ خَالصةٍ في خِطابٍ نَثْرٍ شِعْريٍّ، بِقَدْرِ مَا يَنْتَمي إلى جِهَةِ النَّثرِ فإنَّهُ يَتَّصِفُ بِشِـعْريَّةٍ عاليَـةٍ، تَتَوَاشَـجُ في خِطَابِـه الحُرِّ، وَتَسِـمُهُ بِطَبيْعَةٍ أجْنَاسِـيَّةٍ خَاصَّـةٍ، وَتَضَعُهُ في مُقدِّمَةِ الطَّريْقِ لِصَهْرِ مَا سُـمِّيَ بِالنَّثرِ مَعَ مَا سُـمِّيَ بِالشِّعرِ، في شَكْلٍ جَامعٍ وَجَديدٍ.

خَاتِمَةٌ

الَّـذي لا شَـكَّ فيْه أنَّ حَرَكَةَ النَّثْرِ الشِّـعريِّ لَمْ تَكُـنْ مَحْضَ تَمْهيدٍ لِحَرَكَـةِ الشِّـعرِ المَنْثُورِ ـ علـى الرَّغْم من كَوْنهَا في جَانِـبٍ مُهمٍّ منْهَا هَكَـذَا ـ ؛ فَقَـدْ عَاشَـتْ حَرَكَـةُ النَّثْـرِ الشِّـعريِّ، شَـكْلاً إبْدَاعيًّـا لَـهُ طَرَائقُـهُ الخَاصَّـةُ في اعْتِمَـادِ آليَّـاتِ وَطَاقَـاتِ الشِّـعريَّةِ بِعَنَاصِرِهَا المُصْطَفـاةِ، ثُمَّ عَاشَـتْ مُتَجَاوِرَةً مَعَ حَرَكَةِ الشِّـعرِ المَنْثُورِ؛ باعْتبَارِهَا شَـكْلاً مُسْـتقلاًّ؛ وَإنْ كَانَتْ تَنْهَضُ على اسْـتِخْدَام طَاقَاتٍ وَإجْرَاءَاتٍ هِيَ نَفْسُـهَا الَّتي يَسْـتَخْدِمُهَا الشِّـعرُ المَنْثُورُ، مَعَ مُلاحَظَةِ أنَّهُ في حَالَةِ النَّثْـرِ الشِّـعريِّ تَتَفـوَّقُ العَنَاصِـرُ النَّثريَّـةُ علـى العَنَاصِرِ الشِّـعريَّةِ، في تَشْكيْل بنَى النَّصِّ، أمَّا في حَالةِ الشِّعرِ المَنْثُورِ فَإنَّ عَمليَّةَ التَّفاعُلِ بَيْنَ العَنَاصِـرِ الشِّـعريَّةِ وَالعَنَاصِرِ النَّثريَّةِ ـ في حَيِّزِ النَّـصِّ ـ تَنْتَهِي لِصَالِحِ العَنَاصِرِ الشِّـعريَّةِ علـى مَا عَدَاهَا مِنْ عَنَاصِرَ بِنَائيَّةٍ مُتَآزِرَةٍ أوْ مُتَنَافِسَـةٍ في فَضَاءِ النَّصِّ.

وَبالتَّالـي فَلَيْسَ مِـنَ المَعْقُولِ اعْتِبَارِ النَّثْرِ الشِّـعريِّ وَالشِّـعر المَنْثُور وَجْهَيْـنِ لِعُمْلَـةٍ وَاحِـدَة؛ لأنَّهُمَـا ـ فـي الحَقيْقَـةِ ـ مَسْـعَيَانِ مُتَـآزِرَان؛ لاكْتشَـافِ الشِّـعرِ خَـارَجَ حُـدودِ النَّظْـمِ المُتَعَـارَفِ عليْهَـا، وَالجَديْـرُ بِالذِّكرِ هُنَا أنَّ طَائفَةً مِنْ مُؤَسِّسِـي النَّثْرِ الشِّـعريِّ المُبْدعيْنَ قَدْ أرْسَوا القَوَاعدَ الأوْلى لِمَشْرُوعِ الشِّعرِ المَنْثُورِ، وَمِنْهُمْ: أمين الرِّيحَانيُّ وَجُبْرَان خَليْـل جُبْـرَان وَمَيُّ زِيَادَة، وَإذَا كَانَ النَّثْرُ الشِّـعريُّ يَسْـتقلُّ عَنْ الشِّـعر المَنْثُـورِ؛ فَإنَّـهُ ـ مِـنْ قَبْـلُ ـ سَيَسْـتَقِلُّ عَـنْ النَّثْـرِ الفَنِّيِّ، أمَّـا قَصِيدَةُ

النَّثرِ فَهِيَ ذِرْوَةُ الطُّموحِ الَّذي تَفجَّرَ مَعَ مَشْـرُوعِ النَّثرِ الشِّـعريِّ، وَلكنَّ ذَلـكَ لَـمْ يَكُنْ لِيَتـمَّ إلاَّ بَعْدَ أنْ يَتَحوَّلَ النَّثرُ، إلى شِـعْرٍ، وَهَكَذا كَانَ الانْتِقَالُ مِنْ النَّثرِ الشِّـعريِّ، إلى الشِّعرِ المَنْثُورِ، فَالشِّعرِ الحُرِّ، وَأخِيْرًا إلى قَصيدَةِ النَّثرِ؛ الَّتي سَـيَتَحوَّلُ الشِّـعرُ فيْهَا إلى قَصِيدَةٍ، وَهُوَ مَا يَعْنِي التَّحـوُّلُ مِنْ التَّدفُّقِ المَحْلُـولِ وَالتَّداعيَاتِ الحُرَّةِ إلى التَّبنيُنِ وّالإحكَام؛ ففـي قَصِيدَة النَّثرِ، سَـيَصِلُ التَّكثيفُ الشِّـعريُّ إلى أقْصَـاهُ، في مَادةِ النَّثـرِ الخَـام؛ مُؤسِّسًـا خِطابًا مُتَمَاسِـكًا، مُقْتَصِـدًا وَصُلْبًـا، في بنَاءٍ مُكَثَّفٍ وَمُحْكَمٍ وَخَاصٍّ، يَشِـي بِهَيْمَنَةِ الوعيِ بِالبِنْيَةِ، وَبالانْفِتَاحِ على عَوَالمَ بنائيَّةٍ مِعْمَاريَّةٍ، تَتَخَطَّى دَائرَةَ الوجْدَانيَّاتِ المَحْلُولَةِ الحُرَّةِ.

وَهَكَذَا كَانَ النَّثرُ الشِّعريُّ، هُوَ المَجْلَى الأوَّلُ لِمَشْروعِ شِعْرِ النَّثرِ، وَهُـوَ المَجَالُ المُمَهِّدُ وَالمُسَـوِّغُ لِقَصيدَةِ النَّثرِ؛ فَـكَانَ بِحَقٍّ «أوَّلَ مَظْهَرٍ لِلتَّمـرُّدِ ضَدَّ القَوَاعِدِ القَائِمَةِ، وَالطُّغيَانِ الشَّـكليِّ؛ الَّـذي مَهَّدَ لِمَجيءِ قَصِيدَةِ النَّثرِ؛ وَبِذَلكَ سَنَنْتَقلُ مِنْ النَّثرِ الشِّعريِّ؛ الَّذي لا يَزَالُ نثرًا، إلى قَصِيدَةِ النَّثرِ؛ الَّتي هِـيَ قَبْلَ كُلِّ شَيءٍ قَصِيدَةٌ.»[28]

الإحَالاتُ وَالتَّعليقَاتُ

(1) منْهَا: «المُوَازَنَةُ، وَتكرَارَاتُ العبَارَاتِ وَالكَلمَاتِ، وَاسْتِخْدَامُ الشَّكلِ المَقْطَعِيِّ، وَاللوَازِمُ، وَأسَاليْبُ التَّعَجُبِ، وَالكَلمَاتُ المُتَتَابعَةُ؛ الَّتي تَبْدَأُ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ، وَالكَلمَاتُ المُتَشَابِهَةُ في حُرُوفِ العِلَّةِ الدَّاخِليَّةِ..»: س. مُوريه ـ الشِّعرُ العَرَبِيُّ الحَديْثِ: 1800 ـ 1970 ـ تَرْجَمَة: د. شَفيع السَّيد، ود. سعد مصلوح ـ دار الفِكْر العَرَبي ـ القاهرة ـ 1986 ـ ص ص: 425 ـ 426.

(2) سوزان برنار ـ مَدْخَل إلى قَصِيْدَة النَّثر: مِنَ النَّثرِ الشِّعريِّ إلى قَصِيدَةِ النَّثرِ ـ تَرْجَمَة: رَاويَة صَادق ـ مجلَّة: (فُصُول) ـ المُجَلَّد الخامِس عَشَر، العَدَدُ الثَّالث ـ خَريف 1996 ـ ص:185.

(3) الشِّعر العَرَبِيُّ الحَديْثُ: 1800 ـ 1970 ـ سابق ـ ص: 472.

(4) أدُونيس ـ في قَصِيدَةِ النَّثرِ ـ مجلَّة: (شِعْر) ـ العَدَد الرَّابع عَشَرَ ـ ربيع1960 ـ ص:75.

(5) حاتم الصَّكر ـ قَصِيدَةُ النَّثر ـ مجلَّة: (فُصُول) ـ خَريف 1996 ـ ص: 78.

(6) رَاجِعْ على سَبيْلِ المِثَالِ: (هَوَاجِس ـ قَصِيدَة مَنثُورَة) لِحُسَين فوزي ـ صَحيْفَة: (السُّفور) ـ العَدَد السَّادِس، مِنَ السَّنَةِ الخَامِسَةِ ـ 11 ديسمبر1919، (نَفْسِي ـ قَصِيدَة مَنثُورَة)، لِمَحمود تيمور ـ صَحيفة: (السُّفور) 27 يوليو 1919 ـ ص:3، وَلتيمور أيْضًا: (الزَّهْرَة العَاشِقَة): قِطْعَةٌ مِنَ الشِّعرِ المَنثُورِ، صَحِيْفَة: (السُّفور) ـ 6 نوفمبر 1919 ـ ص ص: 5 ـ 6، وَيَظْهَرُ الالتبَاسُ أيْضًا في إدْرَاجِ مُصْطَفى صَادق الرَّافعي، ضِمْنَ مُبْدِعي الشِّعر المَنْثُور؛ غَيْرَ أنَّ إسْهَامَ الرُّجُلِ يُدْرَجُ، ضِمْنَ مَفْهُوم النَّثر الشِّعريِّ، كَمَا أنَّهُ ـ هُوَ نَفْسُهُ ـ هَاجَمَ فِكْرَةَ الشِّعرِ المَنثُورِ، وَيَتَجَلَّى نَثْرُهُ الشِّعريَّ بِشَكْلٍ خَاصٍّ في: حَديْثِ القَمَر :1912 ـ المَسَاكيْنِ: 1917 ـ السَّحَابِ الأحْمَرِ: 1924 ـ

رَسَائِلِ الأَحْزَانِ: 1924 ـ أَوْرَاقِ الوَرْدِ :1930. وَمِمَّنْ تَأَثَّروا بِطريْقَتِه، في الجِيْلِ التَّالـي مِنْ كُتَّابِ مجلَّة: (الرِّسَـالَةِ) سَـعيد العِريَان، كامِـل محمود حَبيب، عليّ الطَّنطاويّ، محمَّد محمود شَاكر، عبد اللّهِ كنون الحُسِينيّ.

(7) عبـد الكَريم الأشْـتَر ـ النَّثرُ المَهْجَريُّ: كُتَّـابُ الرَّابطَةِ القَلَميَّةِ ـ الجُزْءُ الأَوَّلُ ـ معهد الدِّراسات العربيَّة العَاليَة ـ طبعة لجْنَة التَّأليف وَالتَّرجَمَة وَالنَّشر ـ 1960 ـ ص: 225.

(8) السَّابق ـ ص: 227.

(9) أميـن الرِّيحانـي (1876 ـ 1940)، وُلِدَ في قريَةِ «الفريْكَةِ»؛ مِنْ قَضَاءِ المَتْـنِ في لُبنـان، وَتعلَّم اللغـةَ العَربيَّةَ وَالفَرَنسـيَّةَ، ثُمَّ انْتَقلَ إلى نيويورك سـنة 1888؛ وَهُوَ في الثَّانيَة عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ، في صُحْبةِ عَمِّه، وَاشْتَغَلَ بالتِّجَارَةِ وَظَلَّ يُوَاصِـلُ تثقيْفَـهُ، وَجَنَـحَ إلى فَنِّ التَّمثِيلِ فَتْـرَةً قليْلَةً ثُمَّ هَجَرَهُ، وَعَـادَ إلى مَوْطِنهِ الفريْكَةِ « سَنَةَ 1898، وَفيْهَا بَدَأ تَرْجَمَةَ « لِزُوم مَا لا يَلزَم»لأبي العَلاءِ المَعرِّيِّ، ثمَّ نَشَـرَهُ فـي نيويورك، فَكَانَتْ بِدَايَة شُـهْرَتِه، وَعَادَ مِنَ الولايـاتِ المُتَّحِدَةِ ـ مَـرَّةً أخْـرَى ـ إلى لُبنان، وَظَلَّ يَكْتُبُ وَيَنْشُـرُ في الصُّحـفِ وَالمَجلاَّتِ العَربيَّةِ وَالإنجليزيَّةِ وَيَخْطُبُ في الأَنْديَةِ الأدبيَّةِ وَالمَدَارسِ وَالمَحَافِلِ العَربيَّة، وَمِنْ آثارِهِ: الرِّيحَانيَّاتُ ـ زَنْبَقَةُ الغَوْرِ ـ القَومِيَّاتُ ـ النَّكَبَاتُ ـ المَكَاري وَالكَاهِنُ.

(10) عَـنْ: (أميـن الرِّيحَانـي)، لِعيسـى ميخائيل سَـابا ـ دار المعارف، بمِصْرَ ـ الطَّبعة الثَّالثة ـ ص: 83، : قِصَّةُ الأَدَبِ المَهْجَري، لِلدُّكتور محمَّد عبد المُنعم خفاجي ـ دار الكتاب اللبنانِي ـ بيروت ـ 1986 ـ ص:164.

(11) جُبْرَان خَليْل جُبْرَان (1883 ـ 1931) أَصْلُهُ مِنْ دِمَشْق، نَزَحَ أَسْلافُهُ إلى بَعلبَك بِلُبنان، ثمَّ إلى قريَةِ بشْـعَلا، ثمَّ قريَةِ بُشْـرَى؛ الَّتي وُلِدَ فيْهَا جُبْرَان. تَعَلَّمَ في بيروت، ثمَّ أَقَامَ عِدَّةَ أَشْهُرٍ ببَاريسَ، ثمَّ ارْتَحَلَ إلى الولايَاتِ المُتَّحدةِ الأَمَرْيكيَّة سَـنَةَ 1895، وهُوَ في الثَّانيَة عَشَـرَة مِنْ عُمْرِهِ، مَعَ بَعْضِ أَقَاربِه، ثمَّ عَادَ إلى بيروت؛ حَيْثُ أَقَامَ فيْهَا أَرْبَعَ سَـنَوَاتٍ تَابَعَ فيْهَا تَعلُّمَ اللغَةَ العربيَّةَ،

ثمَّ سَــافَرَ إلى بَاريسَ 1908 ؛ فَمَكَثَ ثَلاثَ سَـنَواتٍ ، حَصَلَ بَعْدَهَا على إجَازَةِ الفُنُـونِ فـي التَّصويْـرِ ، ثـمَّ انْتَقَلَ إلـى أمريـكا ؛ فَمَكَثَ في نيويـورك حَتَّى وَفاته ، في سِـنِّ الثَّانيَةِ وَالأرْبَعيْنَ ، نُقِلَ جُثْمَانُهُ إلى مَسْقَطِ رَأسِه في لُبنان. لَهُ مَجْمُوعَـةٌ كبيْـرَةٌ مِنَ اللوحَاتِ وَالمُؤلَّفَات ، منها : دَمْعَةٌ وَابْتِسَـامَة ــ الأجْنَحَةُ المُتَكَسِّـرَةُ ــ العَوَاصِفُ ــ البَدَائِعُ وَالطَّرَائِفُ ــ النَّبيُّ ــ عَيْسَـى بن الإنْسَان ــ عَرَائِس المُرُوجِ ــ المَوَاكِبُ.

(12) المَجْمُوعَةُ الكَامِلَةُ لِمُؤلَّفَات جُبْرَان خَليْل جُبْرَان العَربيَّة ــ بيروت ــ 1964 ــ ص:259.

(13) مَـيُّ زِيَـادَة (1886 ــ 1941) ، ابْنَـةٌ وَحيْدَةٌ لأبٍّ مِنْ لُبنان وَأمٍّ سُـوريَّةِ الأصْـلِ فلسْـطينيَّةِ المَوْلِـد. وُلِدَتْ مَـيُّ في النَّاصِـرَةِ بفَلسْـطيْن ، وَفيْهَا تَلقَّتْ تَعْليْمَهَـا الابْتِدائـيَّ ، ثُـمَّ تلقَّـتْ تَعْليْمَهَـا الثَّانـويَّ فـي عينطُورةِ بلُبنــان ، وفي سـنةِ 1907 انْتَقَلَـتْ مَـعَ وَالديْهَـا إلـى مِصْـرَ ؛ حَيْثُ بَـدَأتْ حَيَاتَهَـا الأدبيَّةَ في سِـنِّ السَّادسَـة عَشْـرَة ، وَأصْدَرَتْ دِيْوَانَهَـا الأوَّلَ : أزْهَارَ الحُلْم ، بِالفَرنْسِـيَّةِ ، سَـنَةَ 1911 ، وَبَـدَأتْ الكِتَابَـةَ بِالعَربيَّـةِ مُنْـذُ سَـنَةَ 1915 ، وَعَمِلَـتْ بتَدْريسِ اللغَتَيْنِ :الفَرَنسِـيَّةِ وَالإنْجليزيَّـةِ ، كَمَـا كَانَتْ تُجيْـدُ الإيْطَاليَّـةَ وَالألمَانيَّةَ ، وَكَانَ لِنَدْوتِهَـا الأسْـبُوعيَّة :« نَـدْوَة الثُّلاثَـاء» تَأثيْـرٌ قَويٌّ ؛ حَيْـثُ كَان يَؤمُّهَا كِبَـارُ الكُتَّـابِ ، وَقَـدْ تَعَلَّقَ بَعْضُهُمْ بِهَـا ، غَيْرَ أنَّهَا كانتْ مَأخُـوذَةً بِجُبْرَان وَحْـدَهُ ؛ رَغْـمَ أنَّهُمَا لَمْ يَلْتَقيَا أبدًا ؛ إلاَّ في الرَّسَـائِلِ فيْمَا بَيْنَ1911 ــ 1931 . لَمْ تَتَزَوَّجْ ، وَبَعْدَ مَوْتِ أبيْهَا مَاتَتْ أمُّهَا ، فَسَحَقَتْهَا الوحْدَةُ وَالأحْزَانُ ؛ حَتَّى اخْتَلَطَ عَقلُهَا ، فَأُودِعَتْ في مَصَحَّةٍ نَفْسِـيَّةٍ بِلُبنان ، حَتَّى طَالَبَ الكثيْرُونَ ــ وَمِنْهُمْ : أميْـن الرِّيحَانِي ــ بِخُروجهَا ؛ فأُعِيْـدَتْ ، وَمَاتَتْ بالمَعَادِي ، وَدُفِنَتْ بالقَاهِـرَة ، تَاركةً مُؤلَّفَات عَديدَةً مِنْهَا : مَدٌّ وَ جَزْرٌ ــ ظُلُمَاتٌ وَأشِعَّةٌ ــ كَلِمَاتٌ وَإشَارَاتٌ ــ ابْتِسَامَاتٌ وَدُمُوعٌ ــ بَاحِثَةُ البَادِيَةِ.

(14) مَيُّ ــ مُسَاجَلَةُ الرِّمَال ــ مجلَّة : (الرِّسَالة) ــ 15 أبريل 1935 ــ ص : 563.

(15) مِيْخَائيل نُعَيمه (1889 ـ 1988)، وُلِدَ في بسْكنتَا، في لُبنان، وَدَرَسَ في النَّاصِرَةِ وَرُوسـيا، وَهَاجَرَ إلى الولايَاتِ المُتَّحدَةِ الأمْريكيَّةِ سَـنَةَ 1911، وَهُوَ مِنْ مُؤَسِّسي الرَّابِطَةِ القَلَميَّةِ مَعَ جُبْرَان، وَهُوَ المُقعِّدُ لاتِّجَاهِهَا الجَمَالِيِّ فـي كِتَابِـهِ: الغِرْبَـالِ، وَقَدْ عَـادَ إلى لُبنان سَـنَةَ 1932 ـ بَعْدَ وَفَـاةِ جُبْرَان ـ حَيْثُ أقَامَ بِمَسْـقَطِ رَأسِـهِ: بسْـكنتَا، وَعُرِفَ بِنَاسِكِ الشَّـحرُوب، وَمُؤلَّفَاتُه عَديـدَةٌ مِنْهَـا: الغِرْبَـالُ ـ البَيَادِرُ ـ هَمْـسُ الجُفُون ـ مُذَكِّـرَاتُ الأرْقَشِ ـ الآبَاءُ وَالبَنُونَ ـ سَبْعُونَ، وَلَهُ بِالإنْجليزيَّةِ: مِرْدَاد.

(16) مِيخائيل نُعَيمَه ـ البَيَادِر ـ دارُ المَعَارِف بِمِصْر ـ 1945 ـ ص ص: 7 ـ 8.

(17) إيليـا أبـو ماضـي (1891 ـ 1957)، وُلِدَ في المُحَيدثَـةِ بكفيَا في لُبنـان، وَارْتَحَـلَ إلـى مِصْرَ فـي سَـنَةِ 1903، وَقَضَى بِهَـا ثَمَانِيَ سَـنَوَاتٍ، ثمَّ هَاجَرَ إلى نيويورك سَـنَةَ 1911، وَعَمِلَ بِالتِّجَارَةِ، وَانْضَمَّ إلى الرَّابطَةِ القلميَّةِ سَـنَةَ 1920؛ حِيْـنَ تأسَّسَـتْ، وَأنْشَـأَ صَحيْفَةَ: السَّـميْرِ، بَيْنَ عامَـيْ:1929 ـ 1957، بَعْدَ: مِرآةِ الغَرْبِ؛ الَّتي كَانَ يُحرِّرُهَا فيْمَا بَيْنَ: 1917 ـ 1928، وَمِنْ آثارِهِ الشِّعريَّةِ: الجَداولُ ـ الخَمَائِلُ ـ تَذْكَارُ المَاضِي.

(18) عَنْ: النَّثرِ المَهْجَرِيِّ: كُتَّاب الرَّابطَةِ القَلَميَّةِ ـ الجُزْءُ الأوَّلُ ـ سَابق ـ ص ص:226 ـ 227.

(19) نَسِـيْب عُرَيْضَـة (1887 ـ 1946)، وُلِـدَ في حِمْـص، وَتَعَلَّمَ بِهَا، ثمَّ بِالمَدْرَسَـةِ الرُّوسِـيَّةِ بِالنَّاصِرَةِ، وَهَاجَـرَ إلى نيويورك في سَـنَةِ 1905، وَفيْهَا أسَّـسَ مَجلَّة: (الفنون) سَنَةَ 1913، ثُمَّ أغْلَقَهَا، ثُمَّ أعَادَهَا، وَأضَاعَ في سَبيْلِهَا مَـا يَمْلُـكُ، وَعَمِلَ في التِّجَـارَةِ، ثُمَّ تَولَّى تَحْريْـرَ صَحِيْفَةَ: (مِـرْآةَ الغَرْب)، ثُمَّ صَحِيْفَـةَ: (الهُـدَى)، وَتُوفِّـيَ في بُروكلين سَـنَةَ 1946، وَلَهُ ديـوَانُ: (الأرواح الحائـرة)، وَقِصَّةٌ بِعنْـوَان: (ديْكُ الجِنِّ الحِمْصِـيِّ)، وَقِصَّةٌ مُتَرْجَمَـةٌ بِعنْوَان: (أسْرَارُ البَلاطِ الرُّوسِيِّ).

(20) عَنْ: النَّثرِ المَهْجَرِيِّ: كُتَّابُ الرَّابطَةِ القَلَميَّةِ ـ الجُزْءُ الأوَّل ـ سَابق

ـ ص: 228.

(21) مُحمَّد تيمور (1892 ـ 1921)، ولد في القاهرة، في أسرةٍ تجمعُ بين الأرستقراطيَّة والعِلم والأدب؛ فوالدُه أحمد تيمور باشا الذي كرَّس حياتَه لخدمةِ اللغة والأدب، وعمَّته الأديبة عائشة التَّيمورية، وأخوه محمود تيمور. سافرَ إلى برلين لدراسة الطِّب، وسافر إلى باريس لدراسة القانون، ولم يكن يميل لدراسة الطب أو القانون، كان شغوفًا بالأدب، وفي فرنسا اطَّلع على الأدبِ الأوروبيِّ عمومًا والفرنسي خصوصًا، ثم رجع إلى مصرَ عَقِبَ اندلاع الحرب العالميَّة الأولى عام ١٩١٤، وعكفَ منذ ذلك على كتابة القصصِ والمسرحيَّات، وتُنسب إليه أوَّلُ قصَّةٍ فنيَّة بالمفهومِ الحديثِ في الأدبِ العربيِّ، هيَ قصَّة: «في القطار»، كما كان من روَّادِ الكتابة للمسرحِ، وكتب الشِّعر، وقد تُوفِّيَ في عام ١٩٢١، وهو لم يبلغْ بعد سنَّ الثَّلاثين.

(22) كتب محمَّد تيمور هذا النَّص بتاريخ:١٥ ديسمبر١٩١٦، والنَّصُّ موجودٌ في كتاب: «محمد تيمور: حياته وأعماله»؛ الذي جمع فيه شقيقُه محمود تيمور كتاباته، ونشرَه عقب وفاته، في طبعةٍ وقَّع على جميع نسخها، ويقع بين صفحتيْ: 149 ـ 150.

(23) مُصْطَفى لُطْفِي المَنْفَلُوطي (1872 ـ 1924)، وُلِدَ بِمَنْفلوط، في صَعيْدِ مِصْرَ، في أسْرَةٍ حُسَيْنيَّةِ الأصْلِ؛ كَانَ وَالدُهُ قَاضِيًا شَرْعيًّا وَنَقيبًا للأشْرَافِ في بَلْدَتِهِ، تَعَلَّمَ بالأزْهرِ الشَّريفِ، وَاتَّصَلَ بِمُحمَّد عبده وَسَعد زَغْلُول اتِّصَالاً كبيْرًا، وَبِسَبَبِ اقْترَابِهِ مِنْ محمد عبده، وَقَصِيدْةٍ قَالَهَا تَعْرِيْضًا بِالخِديوي عَبَّاس حلمي سُجِنَ ستَّةَ أشْهُرٍ، وَبَعْدَ فَجِيْعَتِهِ في وَفَاةِ الإمَامِ قَرَّرَ العَوْدَةَ إلى بَلْدَتِهِ، ثُمَّ عَادَ سَنَةَ 1907، وَشَرَعَ يَكْتُبُ مَقالاتٍ أسْبُوعِيَّةً في: (المُؤيَّدِ)، تَحْتَ عُنوانِ: النَّظَرَاتِ؛ حَقَّقَتْ لَهُ شُهْرَةً هَائِلَةً، عَمِلَ كَاتبًا في وَزَارَةِ المَعَارِفِ، ثُمَّ في وَزَارَةِ الحَقَّانيَّةِ، وَأخِيْرًا في أمَانَةِ سِرِّ مَجْلسِ النُّوَابِ. لَهُ: النَّظَرَاتُ (في ثَلاثَةِ أجْزَاء) ـ العَبَرَاتُ، وَمُخْتَارَاتُ

مِـنَ التُّرَاثِ العَرَبِـيِّ جَمَعَهَا تَحْتَ عُنوانِ: مُخْتَـارَات المَنْفَلُوطِي، وَلَهُ مَجْمُوعَةُ رِوايَاتٍ تُرْجِمَتْ لَهُ عَنْ الفَرَنْسِيَّةِ، وَقَامَ بِتَعْرِيْبِهَا بِأَسْلُوبِه؛ هِيَ: في سَبيْلِ التَّاجِ ـ تَحْتَ ظلالِ الزَّيزفون ـ مَاجدُولِيْنَ ـ الفَضِيْلَة ـ الشَّاعِر.

(24) مُصْطَفـى لُطْفـي المَنْفَلُوطِي ـ النَّظَرَاتُ ـ الجُزْءُ الثَّالِث ـ الطَّبعَةُ الثَّامِنَة ـ مَطْبعَة الاسْتِقَامَة ـ 1947 ـ ص ص:235 ـ 236.

(25) مُصْطَفى صَادِق الرَّافِعيّ ـ أَوْرَاقُ الوَرْدِ: رَسَـائِلُهَا وَرَسَائِلُهُ ـ الهيئَةُ المِصْرِيَّةُ العَامةُ لِلكتَابِ ـ 1999 ـ ص ص: 46 ـ 48.

(26) إبرَاهيم عبد القَادر المَازنِيُّ (1889 ـ 1949)، وُلِدَ بِالقَاهِرَةِ وَيَنْتَسِبُ إلى قريَةِ: كوم مَازن بِالمِنُوفيَّة، تُوفِّيَ أبُوهُ وَإبرَاهيم في سَنَوَاتِه الأُولى؛ فَتَعَهَّدَتْهُ أمُّهُ بِالرِّعَايةِ وَالتَّعليْم، التَحَقَ بِكُليَّةِ الطِّبِّ، وَلكِنَّهُ تَركَهَا بَسبب كرَاهِيَتِه مَنْظَر الدِّماءِ، ثُمَّ التَحَقَ بِمَدْرَسَـةِ المُعَلِّمِيْنَ العُلْيَا 1909، وَتَخَرَّجَ فيْهَا مُدَرِّسًـا لِلغَـةِ الإنْجِليزيَّةِ، ثُمَّ عَمِـلَ بِالصَّحَافَةِ، في صَحِيْفَةِ:الأَخْبَارِ وَالبَلاغِ، ثمَّ أَصْدَرَ مَجَلَّةَ: الأَسْـبُوعِ، شَـارَكَ عَبَّاسَ العَقَّادَ وَعبد الرَّحمن شُـكري، في تَأسِـيْسِ جَمَاعَـةِ: الدِّيـوانِ، وَصَدَرَ الجُزْءُ الأَوَّلُ مِنْ دِيوانِهِ سَـنَةَ1914، ثمَّ الجُزْءُ الثَّاني سَنَةَ 1917، ثمَّ تَحَوَّلَ إلى النَّثْرِ؛ فَكَتَبَ الرِّوَايةَ وَاللوحَةَ القلميَّةَ وَالمَقَالَ الأَدبيَّ وَالنَّقديَّ، وَمِنْ هَذِهِ الكِتَابَاتِ: حَصَادُ الهَشِيْمِ ـ إبرَاهيم الكَاتب ـ إبرَاهيم الثَّانـي ـ قَبْـضُ الرِّيح ـ صُنْدُوقُ الدُّنيَـا ـ في النَّافذةِ ـ ثَلاثَـةُ رِجَالٍ وَامْرَأةٌ. وَمَسْرَحيَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ: بَيْتُ الطَّاعَةِ، وَتَرْجَمَاتٌ عَديدَةٌ في الأَدَبِ الإنْجِليزيِّ.

(27) إبرَاهيم عبد القَادر المَازنيِّ ـ حَصَادُ الهَشِيْم ـ الهيئَةُ المِصْرِيَّةُ العَامةُ لِلْكتَابِ ـ 1999 ـ ص: 8 [وَكَانَتْ الطَّبعَةُ الأولى مِنَ الكتَاب سَنَةَ 1924].

(28) سـوزان برنـار ـ قَصِيدَةُ النَّثْرِ ـ تَرْجَمَـة: د. زُهَير مجيد مَغَامس ـ مُرَاجَعَة: د: علي جَوَاد الطَّاهر ـ الطَّبعة الثَّانية ـ الهيئَة العَامة لِقُصُور الثَّقافةِ ـ ديسمبر1996 ـ ص:185.

الخَـــاتِمَةُ

كَشَفَتْ الدِّراسَةُ لمَا عُرِفَ بالشِّعرِ ومَا عُرِفَ بالنَّثرِ، على سبيلِ المُمَارسَةِ عنْ تداخُلٍ دائم لهما، بشتَّى الآليَّاتِ الَّتي اعْتمدَهَا كلٌّ مُنهما فـي إنتاجِ إبداعيَّتِـهِ عَبْرَ العُصُورِ، ولمْ يعرِفْ المَشهَدُ الإبداعيُّ الفَصْلَ الحاسِمَ بيْنَ حدودِهِمَا، كمَا نجدُ هذا الفصْلَ على المِحورِ النَّظريِّ؛ الَّذي ظلَّ يُقارنُ بينهُمَا حينًا، ويُفاضِلُ بينهُمَا حينًا آخر، واضِعًا الحدودَ الأجناسيَّةَ الصَّارمةَ بينهُمَا.

والواقعُ أنَّ مَسيرَةَ الأدَاءِ الإبداعِيِّ، عَبْرَ العصورِ، تكشِفُ عنْ التَّواشُجِ المُستمرِّ، واعْتمَادِ الآليَّاتِ ذاتِهَا، على المِحْوَرَيْنِ؛ فكَمَا يبدو جنوحُ الشِّعرِ إلى السَّرديَّةِ وَالقَصِّ، يبدو جنوحُ النَّثرِ إلى إيقاعِ القَوَافِي؛ بالتزَامِه السَّجعَ، ويُلاحَظُ أنَّ القُطبيْنِ الأدَبيَّينِ قد اشترَكَا في اعْتِمَادِهِمَا على إبْدَاعيَّةِ التَّشكيْلِ اللغَويِّ وَالتَّخييْلِ، وَبَعْضُ الأدَبَاءِ أبْدَعُوا في النَّوعيْنِ الأسَاسِيَّينِ مَعًا؛ اسْتِنَادًا إلى أدَائيَّةٍ إبْدَاعيَّةٍ وَاحِدَةٍ، كَمَا نَجِدُ في إبْدَاعَاتِ مُبْدعِي القَرْنِ الرَّابِعِ الهِجْرِيِّ؛ كَبَديْعِ الزَّمَانِ الهَمَذَانِيِّ وَالخُوَارِزْمِيِّ، وَسِوَاهُمَا، نَظْمًا وَتَرَسُلاً.

وكمَا تمرَّدَ الشَّكلُ الشِّعريُّ على حدودِ القوافِي ـ الَّتي ارْتبطَتْ بِهِ طويلاً ـ تمرَّدَ النَّثرُ الفنيُّ على حدودِ السَّجعِ ـ الَّتي ارْتبطَتْ به طويلاً ـ ثمَّ تمرَّدَ الشِّعرُ على الوَزْنِ أيضًا، وَاعْتَمدُ السَّرديَّةَ، وَتَخَفَّفُ مِنْ المَجَازِ اللغَويِّ، كَذلكَ فقد تَوَسَّعَ النَّثرُ في قِيَمٍ شِعريَّةٍ خَالِصَةٍ؛ كَالتَّكثِيْفِ وَالإيْقاعيَّةِ، وَالتَّخييْلِ، فَلَمْ يَعُدْ الشِّعرُ هُوَ الشِّعرُ، وَلا ظَلَّ النَّثرُ هُوَ النَّثرُ، وَظَلَّ كِلاهُمَا يَتَوَاشَجَانِ، عَبْرَ المَسِيْرَةِ الإبْدَاعيَّةِ الطَّويلَةِ، وفي كلِّ مَرْحَلةٍ كانَتْ تُولَدُ أشْكالٌ جَديدَةٌ، جَامِعَةً الخَصَائِصَ الفَنِّيَّةَ لِكِليْهِمَا

مَعًـا، بِدَرَجَـاتٍ مُتَفَاوِتَـةٍ تُؤكِّـدُ ـ دَائِمًا ـ علـى وُجُود جَوْهَـرٍ إبْدَاعِيٍّ خَالصٍّ قَارٍّ، في أعْمَاقِ النَّصِّ، يَتَخَطَّى الحُدودَ الأجْنَاسِيَّةَ، وَالأشْكَالَ الشِّعريَّةَ أوْ النَّثريَّةَ القَائمَةَ، وَيُرَسِّخُ، في كُلِّ مَرَّةٍ لِشَكْلٍ عَابِرٍ لِلحُدودِ الأجْنَاسِـيَّةِ، وَجَامِـعٍ، بَيْنَ صِيغِهَا المُخْتَلِفَةِ، بدَا هـذا في: النَّثرِ الفنيِّ؛ أقدَمِ الأشْكَالِ النَّثرِشِعريَّةِ، وأطْولِهَا عُمْرًا، وأكثرِهَا تحوُّلاتٍ؛ حيثُ اسْـتمَرَّتْ مُنذُ العَصْـرِ الجَاهليِّ حتَّى بدايَاتِ القَرْنِ العِشْـريْن، كذلكَ بَدَا هذَا في شَكْلِ: النَّثرِ الصُّوفِيِّ الشِّعريِّ؛ بأدائِهِ شديدِ الخُصوصِيَّةِ، وإبداعيَّاتِهِ الطَّليعيَّةِ المُبكِّرَةِ، كمَا حَدَثَ في شـكلِ: النَّثرِ الشِّعريِّ؛ في فَجْرِ القَرْنِ المَاضِي، وقد كانَ هذَا الشَّـكلُ منْ الأهميَّةِ بحيثُ، مهَّدَ ـ بجانبِ إبداعيَّتِهِ الخاصَّةِ ـ لكتابَةِ الشِّـعرِ بالنَّثرِ تحتَ مُسـمَّى الشِّعرِ للمرَّةِ الأُولى في التَّاريخِ، تحتَ مُسمَّى: الشِّعرِ المَنْثُور، واسْتمَرَّتْ موجَةُ الشِّعرِ المَنْثُورِ نحْوَ نصْفِ قرْنٍ، وكانَتْ الفَضَاءَ الَّذي انْبثقَ منْهُ: الشِّعرُ الحُرُّ، ثمَّ قَصِيْدَةُ النَّثرِ، وتكشِفُ هذِهِ الأشكالُ معًا عنْ هيمنَةِ دائرتيْنِ إبداعيَّتيْنِ أسَاسِـيَّتيْنِ: دَائِرَةِ النَّثرِشِعْريِّ؛ وَتَشْمَلُ حَلْقَاتِ: النَّثرِ الفَنِّيِّ ـ النَّثرِ الصُّوفيِّ الشِّـعريِّ ـ النَّثرِ الشِّـعريِّ، وَدَائرَةِ الشِّعرِنَثْريِّ؛ وَتَشْـمَلُ حَلْقَاتِ: الشِّـعرِ المَنْثُورِ ـ الشِّـعرِ الحُرِّ ـ قَصِيْـدَةِ النَّثرِ. وَهُمَا دَائِرَتَانِ تَتَوَاشَجَانِ وَتُجَسِّدَانِ تَحَوُّلاتِ الشِّعريَّةِ الجَامِعَةِ عَبْرَ العُصُورِ.

وتكشِـفُ هَـذِهِ الأشْـكَالُ المُتَعـدِّدَةُ، جَمِيعًـا، على أنَّ الشِّـعرَ لَمْ يَنْفَصِلْ عَنْ النَّثرِ، وَلا خَلاَ النَّثرُ من الشِّـعرِ، ولم تغبْ هَذِهِ الحَقيْقَةُ عَنْ الوَعْـيِ النَّقديِّ العَرَبيِّ؛ فَهِيَ تَرِدُ فِيْمَا يَنْقلُهُ أبُو حَيَّان التَّوحيديِّ (310 ـ 414هـ) عَـنْ ابْنِ هِنْدو الكَاتـبِ؛ الَّذي أوْضَحَ «أنَّ المَنْظُـومَ فيْهِ نَثْرٌ منْ وَجْهٍ، وَالمَنْثُورُ فيْهِ نَظْمٌ مِنْ وَجْهٍ، وَلَوْلا أنَّهُمَا يَسْتَهِمَانِ هَذَا النَّعتَ، لَمَا

ائْتَلَفَا وَلا اخْتَلَفَا»، كَمَا كَانَتْ أبْحَاثُ النُّقَّادِ العَرَبِ القُدَامَى، تَضْرِبُ في آفَاقِ (الشِّعريَّةِ)، فِيْمَا تَتَنَاوَلُ (الشِّعرَ).

لقد ظلَّتْ الحُدودُ المَوْضُوعَةُ بَيْنَ الأنْوَاعِ الأدَبيَّةِ تُعْبَرُ بِاسْتِمْرَارٍ، تُخْلَطُ أوْ تُمْزَجُ، وَتُخْلَقُ أنْوَاعٌ جَديْدَةٌ أخْرَى، تُجَسِّدُ تَجَليَّاتٍ أخْرَى لِلنَّصِّ الجَامِعِ.

وقَدْ ظَلَّ حُلْمُ انْصِهَارِ الشِّعْرِ وَالنَّثرِ، فِي خِطَابَاتٍ إبْدَاعيَّةٍ جَديدَةٍ، كَامِنًا في مَشْروعِ النَّثرِ الفَنِّيِّ، وَالنَّثرِ الصُّوفيِّ الشِّعريِّ، وَالنَّثرِ الشِّعريِّ، وَالشِّعرِ المَنْثُورِ، وَالشِّعرِ الحُرِّ، وَقَصِيدَةِ النَّثرِ.

إنَّهَا حَلْقَاتٌ مُتَنَاميَةٌ ـ رَغْمَ مَا لِكُلِّ حَلْقَةٍ مِنْ انْغلاقٍ ذَاتيٍّ كَاملٍ على مَشْهَدِهَا ـ وَوِفْقًا لِهَذَا التَّنَامِي فَإنَّ حَلْقَةَ قصِيدَةِ النَّثرِ لَنْ تكونَ نِهَايَةَ المَطَافِ، في هَذِهِ المِسَاحَةِ الجيَّاشَةِ، دَائمًا.

وعَبْرَ تتبُّعِ الأشْكَالِ النَّثرِشِعْريَّةِ المتوَاليَةِ، في مَسَارِهَا التَّاريخِيِّ، تَوَصَّلَ البَحْثُ إلى النَّتائجِ الآتيَةِ:

(١)

أنَّ العِلاقَةَ بينَ (الشِّعرِ) و (النَّثرِ) قد ظلَّتْ في تفاعُلٍ دائمٍ، عَبْرَ العُصورِ، نتجَتْ عنْهُ عدَّةُ أشكالٍ أدبيَّةٍ جامعَةٍ؛ تركَّزَتْ في دائرتيْنِ إبداعيَّتيْنِ كبيرتيْنِ؛ قادَتْ الأولى إلى الثَّانية، الدَّائرَةُ الأولى، دائرَةُ الأشكالِ النَّثرشعريَّة: النَّثرِ الفنِّيِّ، بأشكالِهِ المُتعدِّدةِ، النَّثرِ الصُّوفيِّ الشِّعريِّ، النَّثرِ الشِّعريِّ، والدَّائرَةُ الثَّانية، دائرَةُ الأشكالِ الشِّعرنثريَّة: الشِّعرِ المَنْثورِ، الشِّعرِ الحُرِّ، قصيدَةِ النَّثرِ، وأنَّ هذِهِ العلاقةَ بينَ القُطبيْنِ في ديناميَّةٍ دائمَةٍ.

(٢)

أنَّ الأشـكالَ النَّثرشِعريَّةَ المَرْكزيَّةَ الأسَاسـيَّةَ: النَّثرَ الفنِّيَّ، النَّثرَ الصُّوفيَّ الشِّـعريَّ، النَّثرَ الشِّـعريَّ، قادَتْ إلى الأشـكالِ الشِّعرنثريَّةِ: الشِّـعرِ المَنْثُورِ، الشِّـعرِ الحُرِّ، قصيدَةِ النَّثرِ؛ فقَدْ التحَمَتْ آخرُ حلقاتِ الأشـكالِ النَّثرشـعريَّةِ: النَّثـرِ الشِّـعريِّ، بأُولـى حلقـاتِ الأشـكالِ الشِّـعرنثريَّةِ: الشِّـعرِ المَنْثُـورِ، واختلطَـتْ بهَـا فـي البدايَـةِ، كمَـا أنَّ نصـوصَ الشِّـعرِ المَنْثُورِ الأُولى، لـدَى نيقولا فيَّاض وأميـن الرِّيحاني، ستكشِـفُ عـنْ حضـورٍ واضِـحٍ لآليَّـاتِ النَّثـرِ الفنِّيِّ فـي بنـاءِ خِطابهَا الشِّـعريِّ، منْ التزام بالسَّـجعِ وألوانِ البديعِ.. وبهذا لا يُمْكِنُ القفزَ منْ دائرَةِ الأشـكالِ النَّثرشـعريَّةِ إلى دائرَةِ الأشـكالِ السَّـرديَّةِ الجديدَةِ، وفي طليعتِهَا الرِّوايَةُ والقِصَّةُ.

(٣)

أنَّ كلَّ نوْعٍ منْ الأنوَاعِ النَّثرشعريَّةِ والشِّعرنثريَّةِ لهُ شعريَّتُهُ الخاصَّةُ، وآليَـاتُ إنتاجِ هذِهِ الشِّـعريَّةِ، وأنَّهَا، على اختلافاتِهَا، قدْ مثَّلَتْ مَسْـعَى واحِدًا، للوصولِ إلى نصِّيَّة جامِعَةٍ، مُتعدِّدةِ التَّجلِّياتِ، في كلِّ مرْحَلةٍ.

(٤)

أنَّ التَّفاعُـلَ بينَ آليَّاتِ الشِّـعرِ وآليَّاتِ النَّثرِ لنْ يتوقَّـفَ؛ وبالتَّالي فلنْ يتوقَّفُ انبثاقُ الأشـكالِ الجامِعَةِ، ولنْ تكونَ الأشـكالُ المَذْكورَةُ، هيَ الأشكالُ الوحيدَةُ النَّاتجَةُ عنْ هذا التَّفاعُلِ.

أعمالُ الكاتب

أعمالٌ شِعريَّة

عُزلةُ الأنقاض، طبعة أولى: 1994.

لا تُطفِئ العتمةَ، طبعة أولى: 1996.

مجرَّةُ النِّهايَاتِ، طبعة أولى: 1999.

الجثَّةُ الأولى، طبعة أولى: 2001.

حيواتٌ مفقودةٌ، طبعة أولى: 2003، طبعة ثانية :2010.

أنتَ أيُّهَا السَّهو، أنتَ يا مهبَّ العائلةِ الأخِيرَةِ، طبعة أولى: 2013.

هَوَاءُ العَائِلَةِ، طبعة أولى: 2016، طبعة ثانية :2016.

أعمالٌ نقديَّة

شِعرُ النَّثر العربيِّ في القرنِ العشرين، طبعة أولى: 2010.

قصيدَةُ النَّثرِ في مشهدِ الشِّعرِ العربيِّ، طبعة أولى: 2010.

آفاقُ الشِّعريَّةِ العربيَّةِ الجديدَةِ في قصيدَةِ النَّثرِ، طبعة أولى: 2011، طبعة ثانية: 2015.

قصيدَةُ النَّثرِ المصْريَّةِ: شِعريَّاتُ المشهَدِ الجديدِ، طبعة أولى: 2016، طبعة ثانية: 2016.

الأشكالُ النَّثرشِعريَّةُ في الأدبِ العربيِّ، طبعة أولى: 2014.

شعريَّة الحياة اليوميَّة والخِطاب الشِّفاهي، في قصيدة النَّثر العربيَّة الجديدة.

شعريَّاتُ مَا بَعْدَ «شِعْر»: قصيدَةُ النَّثرِ العربيَّةِ في السَّبعينيَّاتِ والثَّمانينيَّات.

تحوُّلاتُ القصيدَةِ العربيَّةِ عَبْرَ العصورِ.